المغرب العربى من خلال خلافة

المُعّز لدين اللهً الفاطمي

(341-362 هـ / 952-971م)

الجزءالأول

تأليف

د. صالح عمّار الحاج

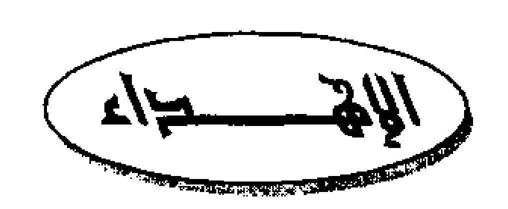
الناشر

المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

(طباعة . نشر . تصدير كتب)

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٦٤٦٧
الترقيم الدولي: ١-٩٤-١٤١-٥٨٤١-٩٧٧

الناشر
المكتب المصري لتوزيع المطبوعات
٥ ش مصطفى طموم - المنيل - القاهرة
تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧



إلي والديّ وعمي المغفور له الكوني وزوجتي وأولادي وإخواني ، وآلي جميعاً الذين رافقوني خلال رحلة هذا البحث الطويلة من المغرب إلى المشرق ، وغمروني بالتشجيع وتوفير الفرص للدراسة والبحث والكتابة .

المؤلف



يدين ظهور هذا الكتاب، الذي هو بالأصل رسالة جامعية لنيل درجة دكتوراه الدولة فى التاريخ الإسلامي الوسيط، إلى العناية المثلي التى لقيتها من سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم حركات الذي أشرف عليها وإلى سعادة الأستاذ الدكتور سهيل زكار الذي ساعد فى الإشراف عليها فى عامها الأخير، مما يفرض علىّ أن أتوجه بالشكر والإمتنان لهما لتوجيهاتهما السديدة لى كما يطيب لى أن أخص بالشكر والعرفان عمادة كلية الآداب ورئيس شعبة التاريخ والأساتذة فيها وإلى إدارة الدراسات العليا فى جامعة محمد الخامس الرباط وإلى جميع الأصدقاء والزملاء فى الجماهيرية العظمى والمملكة المغربية .

د. صالح عمّار الحاج

المحتويات

الموضـــوع صفحة

إستهـــــلال

يستحق هذا الكتاب الموسوم "المغرب العربي من خلال خلافه المعز لــدين الله الفاطمي، الذى تقدم به مؤلفة الدكتور صالح عَمــار الحــاج إلــى المتخصصــين والقرآء عموماً، الإطراء، بعيداً عن مبالغة القول بأنه يرتقى إلى مصاف، الصفوة فى مراجع المغرب العربى، مغرب الكيانات السياسية التى توحّدت بقوّة السلاح فى ظل الدولة الفاطمية.

وفى حقيقة الأمر، إن دراسة بلاد المغرب، الذى أطلق عليه المؤلف "المغــرب الكبير"، شاقة ومجهدة وبخاصة فى تلك الحقبة التى شاع فيها القلق والإضطراب السياسى؛ بيد إن المؤلف حاول ما وسعه الجهد، أن يؤطر موضــوعاً متوازنــاً، مستبعداً الازدواجية والتكرارية وذلك على الرغم من كثرة الأحداث وتداخلها، كما إنه نحا فيه ما هو أحرى بالتعميم والتعليل والإستنتاج، والابتعاد عن دراسة تاريخ المغرب من خلال النظرة الأسروية، حيث وعى خطورة هذا المنطلق فى مباحثــه وموضوعاته، وذلك لأنه أدرك مما يؤدى فى نهاية المطاف إلى شراك التفسيرات الأحادية والتوفيقية البعيدة عن التاريخ الرصين لهــذه الــبلاد بأرضــها وأمتهــا وأهدافها .

لقد أستوحى المؤلف إن دراسة عهد الخليفة الفاطمى المعــز لــدين الله فــى المغرب تقتضى، الإحاطة الدقيقة بتاريخ كل من المشــرق والمغــرب والأنــدلس وتقصّى أوضاعها، والإلمام بأحوال الإمبراطورية البيزنطية وهذا ما ســعى إليــه بكثير من التجرّد والموضوعية، وهو إحسان كثير ليس أقلّه نقصّــيه لتحلــيلات علمّية ونقدية للنصوص والآراء والإجتهادات والأطروحات وذلك مــا ينــدر فــى الدراسات التاريخية المعاصرة.

ولعلَ ما يسترعى، الانتباه من بين شـروحات الكتـاب، تشـخيص المرحلـة المغربية من تاريخ الخلافة الفاطمية فى أيام المعزّ لدين الله، بأنها مرحلة جبائية مالية عسكرية وإنها استندت إلى عقيدة (الإسماعيلية) التى لم تحض بالرواج بين المقاربة، حيث واجهت العناد والرفض بما لم يشعر معه الفاطميون بالاسـتقرار، فضلاً عن صراعهم مع حكام الأندلس الذى وصل ذروته مما ضاعف من اغترابهم فى هذه البلاد وابتعادهم من أن يصبحوا "مغاربة" لذلك ظلّوا يموّهـون الأوضـاع ويدارونها لصالحهم ويتطلعون نحو المشرق وبشكل خاص نحو مصر، فـانعكس ذلك على نشاطهم الإداري والسياسي والمالي والمذهبي، وهو تحليل فيه استعاب لواقع النقلة التاريخية التى تمثّلت بهجرة بشرية عظيمة لقبائل مغربية إلى مصـر وبلاد الشام، وذلك ما دعاه المؤلف بحدث فريد فى التاريخ، إذ يتحوّل المغرب كما المشرق فى عهود ما قبل الإسلام وبعده لتحركات وهجرات بشرية إلـى إفريقيـة وبلاد العدوة المغربية .

ولاغرو، فإن هذا الكتاب، إنما يأتى على موضوع التأسيس الثقافي والمـذهبي للأغالبة بتكريس المذهب المالكي واقتران فتح جزيرة صقلية بشخصـية الإمـام الفقية أسد بن الفرات، فهو يمّهد للعوامل التى حرمت الفاطميين من الاستقرار فى المغرب ومحاولة نشر الإسماعيلية، بعد أن حلّت خلافتهم فى الـديار التـى كـان يشغلها الأغالبة، والحق أن هذا التحليل الواقعي والمنطقي هو منالة هذا الكتـاب وحكمته التى يمكن أن تستمد منها استدلالات على نحو منظم لا يكتنفه الغمـوض والإبهام عن الأسباب الحقيقية لمعاودة الفاطميين وأنصارهم إلـى طـرق أبـواب مصر الموصدة أمامهم لمرتين، وفى الثالثة منها نزعوا أقفالها بشراسة وتـدفقوا إليها كالركبان الجموح.

ونخلص إلى القول، أن خطة البحث فى هذا الكتاب بفصوله السبع وملاحقة وخرائطه ومخططاته، قد ترسمت هذه الصورة ووضحتها بعرض شامل للموضوعات عن المغرب فى هذه الحقبة الحاسمة من تاريخه، تضمنتها بمنهجية تاريخية وأمانه علميه، لعلها حققت مقوله ابن خلدون، إن التاريخ "عزيز المذهب شريف الغاية"، ونحن نحرض جمهرة المتخصصين والمهتمين والقراء على اعتباره وقرائته والتماس أكبر قدر من الفائدة منه أو اجتناء الحقيقة عن تاريخ أمتنا العربية والإسلامية فى هذا الجزء من وطننا الكبير.

أعلن سعادتي حقاً بهذا الكتاب الذى يستحق مؤلفة التهنئة والتقدير والدعم للمزيد من الجهد والابتكار لخدمة تاريخنا.

والله الموفق وعليه قصد السبيل ،،،

الدكتور / سوادى عبد محمد
أستاذ الحضارة العربة / جامعة النقاط الخمس
الجماهيرية العظمى
2004 / 6 / 2

تقديم

يعالج هذا الكتاب "المغرب العربى من خلال خلافة المعز لـدين الله الفـاطمى" لمؤلفه الدكتور/ صالح عمار الحاج .

موضوعا هاما عن شخصية إسلامية غيرت مجرى تاريخ المغرب والمشـرق، تلك الشخصية التى يذكرها التاريخ كلما ورد اسم القاهرة التى بنيت فـى عهـده، وصارت حاضرة الدولة الإسلامية الجديدة، ومقر الحكم الدولة الفاطمية التى كانت أعظم دولة شعبية فى التاريخ الاسلامى، وقد بلغت ذروتها فى عهد المعز الـذى أعز الله به الإسلام والمسلمين .

ويعتبر المعز لدين الله الفاطمى رابع خلفاء الدولة وأولهم فى مصر وحكم لمدة أربع وعشرين عاما استخدم فيها السيف وصندوق الجباية، ولذا لم تشهد بلـدان المغرب خلال العصر الفاطمى بل وعصر المعـز نهضـة فكريـة أو عقانديـة أو عمرانية، وكان كل الذين نشطوا لنشر الدعوة الشعبية غرباء باسـتثناء القاضـى النعمان، وقد سعى الفاطميون إلى تطبيق عقيدتهم بالعنف والتنكيل، ولـيس بـلا قناع والموعظة الحسنة لأنهم افتقروا إلى قوة الإقناع وإذا كان المعز قـد حقـق وحده المغرب الكبير لكنها لم تعش طويلا إلا إنها كانت بادرة فريدة من نوعها لكل الدول صابرت بعد ذلك وخاصته دولتى المرابطين والموحدين وإذا أضفنا إلى ذلك أن فرض التعاون مع الأندلس قد صنعت منذ أوربا برا وبحرا، بل أن المعز ضيع العز منه التى لاحق له بعد معركة تامجاز للبقاء فى الجنوب الايطالى، وقد شـكل ضياع هذا الجزء من المسلمين مقدمة لضياع صقلية، ومع رحيل المعز إلى مصر كانت الأندلس تمر بعصر التحولات الكبرى وظهور دول الطوائـف ، واستشـراء حركة الاستغلاب الصليبية فى الأندلس، والتحضير الفكرى والعقائدى والسياسـى فى أوربا الغربية لبدء الحروب الصليبية الكبرى ضد بلاد الشام .

لقد كان المعز الفاطمى من أعظم الرجال فى تاريخ الفـاطمين فـى المغـرب والمشرق، لكن الشعور بالقداسة والعصمة والتربية الذهبية جعلته يعرف مؤهلاته بالاتجاه المعاكس، والأمر الغريب أن الدعوة الإسماعيلية التى اتسمت بالعالمية لم تنشط فى بلدان أفريقيا، وركزت جهودها فقط على دار الإسلام، وذلك على عكس دولة المرابطين التى وزعت نشاطها على المغرب والأنـدلس وعلـى السـودان الغربى لقد انتقل المغرب إلى المشرق فى عهد المعز، ولأول مرة فى التاريخ تـم حكم بلدان المغرب كلها من مصر والشام الجنوبى، ولذا صابر عهده بحثـا فـى التاريخ الاسلامى فى المغرب والمشرق والأنـدلس وحـوض البحـر المتوسـط، والعلاقات مع أوربا الغربية والشرقية.

لقد حاول مؤلف الكتاب من خلال فصوله السبع الإلمام بهذه الشخصـية مـن خلال الصورة العامة للمغرب الاسلامى والمشرق العربى، حيث درس فى الفصـل الأول الأوضاع السياسية فى المغرب الكبير قبل قيام للدولة الفاطمية وهو مـدخل هام يوضح أسباب ارتحال المعز لدين الله إلى مصر وترك شئون المغـرب لقـوة مغربية محلية، وحاول المؤلف فى الفصل الثانى دراسة الدعوة الإسماعيلية حتى وصول الفاطميين إلى السلطة، وفى الفصل الثالث ركز المؤلف على المعز لـدين الله الفاطمى ونشأته وتحليل شخصيته بشكل مبتكر حيث سلط الأضواء على ثقافته العامة، ومذهبيته العالقة، وإتقانه فنون العلم الباطنى والتأويل والاعتداد بالنفس، وإيمانه بأنه إمام حق صحيح الانتماء إلى نسب المصطفى صلى الله عليه وسـلم. كما أوضح المؤلف صورة المعز فى المصادر التى عاصرته، وانـه كـان رجـلا حازما عفيفا تقيا، ليست له قصص مع نساء القصر أو مع غلمانه، اى انه رسـم صورة واقعية حيادية عن هذا الحاكم دون تحيز لاى رأى.

وفى الفصل الرابع حاول المؤلف دراسة العلاقات مع القوى المحلفة فى بلدان المغرب على عهد المعز لدين الله .

وفى الفصل الخامس ناقش المؤلف العلاقات عبر البحر المتوسط، وركز على جزيرة صقلية التى كانت شبه مستقلة تحت أسرة آل الكلبى التى كانت على علاقة طيبة مع المعز لدين الله.

وفى الفصل السادس ناقش المؤلف عملية استيلاء الفاطميين على مصر، ثم استيلاء ابن فلاح على دمشق، ثم عرج المؤلف إلى الإحداث الشامية، وموقف أهل الشام من جيوش الفاطميين.

وصابر الفصل الأخير ليعطى صورة عن مؤسسات الدولة وابرز العاملين فيها حيث ابرز أن جميع السلطات فى الدولة الفاطمية فى أيدى المعز لان الدولة كانت ثيوقراطية كمحور كل ما فيها حول الإمام صاحب الشخصية المقدسة.

وفى الحقيقة بعد هذا العرض للمغرب العربى من خلال خلافة المعز نجح المؤلف فى عرض هذه الصورة التاريخية بعد جهد كبير، وبعد دراسة موضوعية متوازنة، ولم يغرق أفكاره وسط هذه القلاقل والاضطرابات، بل حاول البعد عن التكرار والتعميم، واستخدام المنهج التاريخى التحليلى والمقارن لكى يحلل الأحداث التاريخية فى أطار من الموضوعية والحيادية التى تقدر فى الدراسات التاريخية الحالية.

لقد نجح المؤلف فى تحليل أسباب اتجاه الفاطمين إلى مصر وأسباب فشل بقاء الفاطميين فى المغرب، تلك النقلة البشرية لقبائل مغربية إلى مصر وبلاد الشام . وهو من الإحداث الفريدة فى التاريخ حيث تحول المغرب إلى المشرق فى سابقة لم يحدث مثلها فى تاريخ المقطعين ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب بملاحقة وخرائطة ليقدم للمكتبة العربية موضوعا هاما ثار حوله نقاش وخلاف كبير لكن نجح المؤلف بحيادتية وموضوعية أن يعطى صورة تاريخية واقعية تحليلية لفترة هامة من تاريخ امتنا الإسلامية.

انه كتاب يقسم بالمنهجية التاريخية، والتحليل الموضوعى، والأسلوب الراجين، والأفكار السلسلة والعبارات البسيطة التى أوضحت ما يهدف إليه المؤلف معتمـــدا على مصادر أولية وأخرى ثانوية فضلا عن عدد كبير من المراجع العلمية التـــى أثرت الكتاب، وجعلته مرجعا لا غنى له لكل من يدرس تاريخ هذه المنطقة فى تلك الفترة الزمنية .

الشكر والتحية لهذا الباحث الذى قدم صورة واقعية وموضوعية فلما نجد لهـــا مثيلا فى الدراسات التاريخية المعاصرة.

والله الموفق وعلى الله القصد

أ.د عبد الله عبد الرازق إبراهيم
أستاذ التاريخ بمعهد البحوث
والدراسات الإفريقية ـ جامعة القاهرة

2004/8/31

تـقـديـــم

بسم الله الرحمن الرحيم

من المجمع عليه أن الخلافة الفاطمية كـانت أعظـم دولـة شـيعية فـي التاريخ، وقد بلغت هذه الدولة إلى ذروة قوتهـا واتسـاعها فـي أيـام المعـز لدين الله، ففي ظل هذه الخلافة، وعلى الرغم من طابعها العسـكري، وعـدم تنعمها بالاستقرار، حقق المغرب العربي الكبير وحدته واستقلاله التام عـن القوى السياسية في المشرق، ذلـك أن هـذه الخلافـة اعتمـدت فـي قيامهـا ووجودها فـي المغرب الكبير على قوى مغربية، هي بالأسـاس قـوى قبـائل كتامة، ولأول مرة منذ العصر الأموي توحدت بلدان المغرب في أيام المعـز لديـن اللـه، مـع أن هـذه الوحـدة اعتمـدت علـى السـلاح، لذلـك لـم تعـرف الديمومة، لكن على الرغم مـن هـذا كلـه ضربـت المثـل، وقدمـت السـابقة، يضاف إلى ذلك أن توالي الأعمال العسكرية في أيامهـا نتـج عنـه جيشـان عظيم وتحرك واسع الأطر للقبائل المغربية، كـان هـو الأول مـن نوعـه منـذ قيام حركة الفتوحات الإسلامية الأولى، وانعكس هذا على المغرب الأقصـى

وعلى قبائل الصحراء ويمكن أن نرى فيه مقدمات بعيدة لتحركات قبائل الصحراء وظهور حركة المرابطين، ولاشك أن جيشان قبائل المغرب الكبير كانت له آثاره على ما جاور المغرب من بلدان أفريقيا.

وفي أيام المعز لدين الله نقلت الخلافة الفاطمية المغرب إلى المشرق، فالاستيلاء على مصر ثم بلاد الشام كان أشبه بهجرة بشرية عظيمة لقبائل كتامة وسواها إلى مصر والشام، وهذا حدث فريد في التاريخ، ليس الإسلامي فقط، بل تاريخ ما قبل الإسلام، فقد كان المشرق هو منطلق التحركات البشرية والهجرات إلى الشمال الأفريقي براً وبحراً، والآن تحول المشرق إلى دار لاستقبال المغاربة، وهذه مسألة هامة تستحق الوقفة والتأمل.

وللمرة الأولى في التاريخ، أديرت بلدان المغرب، ومصر والشام أيام المعز لدين الله من أحواز القيروان، أي من بلاد قرطاج، ومع هذه البلدان صقلية، التي صارعت قرطاج روما من أجلها ومن أجل السيطرة على البحر المتوسط، ولذلك إن الحديث التأريخي عن أيام المعز لدين الله هو حديث مشرقي مغربي، وبحر متوسطي، وأندلسي، وأوربي شرقي وغربي.

فالخلافة الفاطمية كانت دولة متوسطية، حكمت صقلية، وعادت الدولة الأموية في الأندلس، واحتلت أجزاء واسعة من إيطاليا، وحاربت بيزنطة أحياناً، وهادنتها أحياناً أخرى، لأنها امتلكت في أيام المعز لدين الله أسطولاً كبيراً، برهن أحياناً أنه الأول والأقوى في حوض البحر المتوسط، وبه أراد المعز لدين الله إنقاذ كريت ومنع البيزنطيين من احتلالها.

لكن المشكلة أن المرحلة المغربية من تاريخ الخلافة الفاطمية، خاصة في أيام المعز لدين الله كانت مرحلة جبائية مالية عسكرية، وعلى

الرغم من أن الخلافة الفاطمية كانت دولة استندت إلى العقيدة الإسماعيلية، فإن هذه العقيدة لم ترج بين المغاربة، وكانت دوماً مرفوضة بعنف ما بعده عنف، ولذلك لم يشعر خلفاء هذه الدولة بالاستقرار في المغرب، ولم يتمكنوا أن يصبحوا مغاربة، ولذلك ظلوا يدارون أوضاعهم، ويتطلعون نحو المشرق، وبشكل خاص نحو مصر، وقد انعكس هذا على كل شأن من شؤون الدولة إدارياً وسياسياً ومالياً ومذهبياً.

وتصارعت الخلافة الفاطمية في أيام وصولها إلى الذروة في ظل المعز لدين الله مع الأندلس، التي عاشت ذروة ازدهارها وقوتها في ظل حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر من بعده، وسعت الأندلس إلى التهادن مع المعز لدين الله، أو إلى توحيد الجهود، وكانت فرصة تاريخية انتهت برحيل المعز لدين الله إلى مصر، وبأفول نجم الخلافة الأموية في الأندلس، وانقلاب الأوضاع كلياً في البحر المتوسط، وفي دار الإسلام كلها، متذكرين أن الخلافة الفاطمية كان تحت تصرفها جيشاً عرمرماً من الدعاة انتشر في دار الإسلام كلها.

لما تقدم إن البحث في عهد المعز لدين الله في المغرب يحتاج إلى إحاطة دقيقة بتاريخ كل من المشرق والمغرب والأندلس وأوضاعهم من جميع الجوانب، وكذلك إلى إلمام بأحوال الإمبراطورية البيزنطية في عصرها الذهبي وقوتها العملاقة أيام حكم الأسرة المقدونية، ومع بيزنطة معرفة بما كان يجري في إيطاليا وغيرها من بلدان أوربا الغربية.

ولم يكن التعامل مع هذا الموضوع من السهل مطلقاً، لما فيه من إشكاليات، ثم إنه يرغم الباحث أثناء المعالجة والكتابة على شيء من التكرار، وبسبب بعض التداخل، ومع هذا أقدمت على تناول موضوع المرحلة المغربية الفاطمية أيام المعز لدين الله، وأملي أن أكون قد وفقت، فقد بذلت الجهد المستطاع واجتهدت، ولابد للمجتهد من إجازة وحمد.

وجاءت هذه الرسالة في سبعة فصول، تقدم عليها مقدمة، ومدخل لدراسة أهم المصادر والمراجع، وبعدها خاتمة حوت خلاصة العمل وفلسفته، وزيادة بالفائدة والتوثيق ألحقت هذه الرسالة بملاحق حوت عدداً من النصوص الهامة جداً، جلها ينشر للمرة الأولى.

وبعد الفراغ من مدخل دراسة المصادر والمراجع، جاء دور الفصل الأول، الذي حمل عنوان «الأوضاع السياسية في المغرب الكبير قبل قيام الخلافة الفاطمية»، وفي الحقيقة جاء هذا الفصل من بعض الجوانب بمثابة مدخل أول، كان من غير الممكن بدونه فهم قيام الدولة الفاطمية، وصراعات هذه الدولة داخلياً مع قوى المغرب الكبير السياسية والقبلية، هذه الصراعات التي كادت أن تعصف بالخلافة الفاطمية وأن تجتثها من الوجود أكثر من مرة، وهي التي استهلكت عهد المعز لدين الله، وكانت من أهم الدوافع للارتحال إلى مصر، وإيداع شؤون المغرب لقوة مغربية محلية، وكانت أبرز قوى المغرب الكبير هي:

الخوارج:

وهي حركة تفجرت في الأيام الأخيرة لمعركة صفين، وكانت لها جذورها الأقدم، وما لبثت أن انتشرت في بلدان المشرق الإسلامي، ثم المغرب الكبير، حتى كادت تلفه كله، ومعروف أن الخوارج تفرقوا إلى عدد من الفرق، كان أهم من عرفته بلاد المغرب منها: الصفرية والأباضية، وفيما بينهما برغواطة، وقد أتيح للصفرية إنشاء دولة بني مدرار في سجلماسة، التي وقعت على سيف الصحراء، وشغلت دوراً اقتصادياً تجارياً وسياسياً في حياة بلدان المغرب، ومناطق الصحراء، مع العمق السوداني، وإلى سلجماسة قدم المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية وعاش فيها حتى حرره أبو عبد الله الداعي وثارت سلجماسة ضد الفاطميين أكثر من مرة،

وأعلنت الخلافة في أيام المعز لدين الله، وقد لاقى الفاطميون مصاعب جمة في سبيل الاستيلاء عليها، ومع هذا لم يستطع الفاطميون إلغاء دورها، الذي تابعته بعد ارتحال الفاطميين وعبر العصور التاريخية الطويلة.

ويبقى التعامل مع تاريخ سجلماسة من حيث التأسيس والأدوار، أسهل منه بكثير من البحث في تاريخ برغواطة، التي نشطت بين قبائل مصمودة التي عاشت على مقربة من سواحل الأطلسي المغربية، وقد تباينت آراء الباحثين حول عقائد البرغواطيين التي امتدت جذورها إلى ما قبل الإسلام، وامتزجت بعده بآراء الخوارج وسواهم، وحاول الفاطميون القضاء على برغواطة فأخفقوا، وظلت برغواطة حتى أيام عبدالله بن ياسين وقيام حركة المرابطين، وصحيح أن المرابطيين قاموا بحملات إبادة ضد البرغواطيين، لكن مفيد أن نتذكر أن دولة المرابطين زالت من الوجود على أيدي رجالات قبائل مصمودة بزعامة المهدي بن تومرت، الذي كان مصموديا وتزعم حركة دينية لها ملامح متطرفة.

وأبعد شهرة، وأكثر أهمية ما قامت به طائفة الإباضية من الخوارج، التي تمكنت بعد عجزها عن الاحتفاظ ببلدان المغرب الأدنى والأوسط، إثر تأسيس الدولة العباسية، من تأسيس الدولة الرستمية في تيهرت، وشغلت هذه الدولة دوراً هاماً في تاريخ المغرب سياسياً واقتصادياً، وفكرياً، وأنتجت تراثاً متعدد الأشكال، عليه الاعتماد في التأريخ للدولة الرستمية بخاصة، وحركات الخوارج بشكل عام، وفي أيام المعز لدين الله نزلت بتيهرت ضربات ماحقة أودت بها، وحولتها إلى خبر تاريخي.

وكان مع ترسخ الإسلام بين صفوف المغاربة، وانحسار الفكر الخارجي بعض الشيء، أن تهيأت الفرص أمام واحد من أفراد الأسرة الحسنية الطالبية لتأسيس نواة دولة في المغرب ارتبط تاريخها بتأسيس

مدينة فاس، وجامع القرويين فيها، وهو المولى أدريس الأول، وشغل الأدارسة دوراً هاماً مستمراً في تاريخ المغرب الأقصى وأفريقيا الإسلامية مع أن دولتهم في فاس لم تحافظ على وحدتها، وتأرجح الأدارسة في أيام المعز لدين الله فيما بين المطامح الخاصة، والخضوع للدولة الفاطمية، أو التحالف مع الحكم الأموي بالأندلس، وفي هذا المقام لا يمكن الحديث عن سياسة أدريسية واحدة، بل ارتبط الأمر بأفراد من الأدارسة كان لكل واحد منهم دوره الذي شغله، وعلى الرغم من تمزق الأدارسة، يجدر التنويه دوماً بدور مدينة فاس، في نشر الثقافة الإسلامية في المغرب الأقصى والصحراء وأفريقيا كلها.

هذا وارتبطت شخصية المغرب الأقصى بالأدارسة وفاس، ومثل هذا ارتبط تاريخ إقليم إفريقية وحاضرته القيروان بالأغالبة، وضد الأغالبة كانت جهود الثورة الفاطمية، وفي ديار الأغالبة استقرت الخلافة الفاطمية حتى انتقالها إلى مصر، وفي الحقيقة يعدّ دور الأغالبة هاماً جداً سياسياً، وأكثر منه ثقافياً ومذهبياً، ولمكانة الأغالبة اختتم هذا الفصل بالحديث عنهم، وعن انتشار المذهب المالكي في أيامهم، وعن مشروعهم الناجح لفتح صقلية، وارتبط فتح صقلية بشخصية الإمام أسد بن الفرات، الذي خلفه الإمام سحنون صاحب المدونة، وترسخ المذهب المالكي كان من أهم العوامل التي حرمت الفاطميين من الاستقرار في المغرب، وانتشار الإسماعيلية فيه، ومن ثم في إقامة حضارة إسماعيلية في المغرب الكبير.

وفرضت طبيعة البحث، كتابة مدخل آخر في فصل جديد حمل عنوان «مقدمات عن الإسماعيلية حتى وصول الفاطميين إلى السلطة»، لأنه من الصعب فهم التاريخ الفاطمي لاسيما أيام المعز لدين الله من دون تقديم عرض موجز لتاريخ الإسماعيلية ضمن الإطار العام للتشيع، وفي تاريخ التشيع الإسماعيلي وسواه شغلت الإمامة دوراً مركزياً، ومعها صحة

نسب الأئمة إلى الحسين بن علي سبط النبي ﷺ، وقد تطورت عقيدة الإمامة تطورا كبيراً، كان أهم وجوهها ظهور فكرة المهدي المنتظر، ومكانه هذا المهدي وأدواره، وقد طور الإسماعيلية في حركة إلتفافية على النبوة، وأن النبي محمد ﷺ كان خاتم الأنبياء، تأويلاً خطيراً، لفكرة القيامة، بأنها ليست نهاية الحياة بل نهاية الشرائع، يقود عصرها إمام يحمل لقب القائم، وهو بالنسبة إليهم نبي سابع، لأن الإسماعيلية كانت سبعية، ومع الأيام صارت القيامة عند الإسماعيلية على درجات، وصار الإمام القائم أعلى مرتبة من الإمام المهدي، وأدى هذا إلى إعادة النظر بشكل وثائقي بالعلاقة بين المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية وبين القائم ثاني خلفاء هذه الدولة، وتبين أن المهدي كان إمام استيداع للقائم الذي كان امام استقرار، وكان المهدي عم القائم ولم يكن أبيه، لذلك عرف بيت الخلافة الفاطمية صراعات داخلية بين آل المهدي وآل القائم، كانت كبيرة في أيام المعز لدين الله، وفي الحقيقة شكل هذا الفصل مفتاحاً متخصصاً لبحث حكم المعز لدين الله، ويمكن استخدامه لكل بحث يتعلق بتاريخ الخلافة الفاطمية.

وحمل الفصل الثالث عنواناً هو «المعز لدين الله الفاطمي: النشأة والشخصية واستلام السلطة ومباشرتها»، وقد عالج هذا الفصل شخصية المعز لدين الله بشكل تحليلي مبتكر، حيث استطعنا فهم شخصية هذا الخليفة المتميز، والأكثر شهرة وفعالية في التاريخ الفاطمي بمرحلتيه المغربية والمشرقية، فقد نشأ المعز لدين الله في ظل جده القائم وكان أثيراً لديه، كما كانت علاقته بأبيه المنصور إسماعيل فيها بعض الجفاء، وقد حظي المعز لدين الله بثقافة عامة ومذهبية عالية، وأتقن فنون العلم الباطني والتأويل، وكان معتداً بنفسه، يؤمن بأنه إمام حق صحيح الانتماء والنسب إلى النبي ﷺ، وانعكس هذا على سلوكه بشكل عام، وعلى

علاقته مع عبد الرحمن الناصر، خليفة الأندلس، ومع الحسن الأعصم زعيم القرامطة فيما بعد، وامتلك قدرة إدارية عالية وسرعة بديهة، وتظاهر دوماً بالزهد، وأحسن جمع الأموال لإنفاقها على مشروع الاستيلاء على مصر، ووجه حملات عدة دوخ بها بلدان المغرب، وراقب العمال بنفسه وكذلك الدعاة في كل مكان، كما أنه كان خطيباً مفوهاً، لديه قدرة على الجدل وعلى الإقناع.

وصورة المعز لدين الله في المصادر التي عاصرته صورة رجل حازم، عفيف، تقي، غير متهتك، ليست له قصص مع نساء القصر أو مع غلمانه، ولا توجد روايات عن مجالس شراب لديه مثلما حكي عن خلفاء آخرين من بني أمية وبني العباس، محباً لجمع الأموال، لم يغدق الأعطيات على أحد، ولم يكن متلافاً، بل كان رجل دولة ناجح.

وبعد الفراغ من الحديث عن شخصية المعز لدين الله وعن اعتلائه للعرش بعد أبيه المنصور إسماعيل جاء دور الفصل الرابع الذي تناول موضوع «العلاقات مع القوى المحلية في بلدان المغرب على عهد المعز لدين الله»، فبعدما تعرفنا إلى الكيانات السياسية التي كانت موجودة في بلدان المغرب الكبير، عالجنا في هذا الفصل علاقات الخلافة الفاطمية في أيام المعز لدين الله بهذه الكيانات، ذلك أن هذا الخليفة بذل جهوداً عظيمة لإخضاع جميع بلدان المغرب الكبير لسلطانه، واهتم كثيراً بمدينة فاس لارتباطها السياسي بالأدارسة، وأكثر لدورها الثقافي والديني بوجود مؤسسة القرويين فيها، التي هي الأقدم من نوعها في تاريخ الإسلام في المغرب الأقصى، وشغلت أدواراً هامة جداً في نشر الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا كلها، ومما ساعد على نجاحها أنها لم تكن مؤسسة سلطوية، وأراد المعز لدين الله السيطرة على فاس لتعطيل دور القرويين، ولجني الأموال، وللوقوف في وجه المطامع الأموية في المغرب، ولقمع الحركة

الاستقلالية لموسى بن أبي العافية حليف قرطبة وقائد قبائل مكناسة القوية، وكان ابن أبي العافية قد سيطر على فاس، فوجه المعز لدين الله جيشاً ضده هزمه وانتزع منه مدينة فاس، لكن ما لبثت فاس أن استقلت عن الفاطميين، وأعلن واليها أحمد بن أبي بكر بن سهل الجذامي الخطبة في فاس باسم الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، فما كان من المعز لدين إلاّ أن جهز جيشاً كبيراً بقيادة جوهر الصقلبي أرسله ضد فاس، واهتم المعز كثيراً بشأن فاس، حتى أنه رأى في منامة صورة قفص أمر بصنعه ليسجن فيه الجذامي، وكانت فاس مدينة قوية الأسوار، دافع أهلها عنها ببسالة، ومع ذلك سقطت بعد عناء للقائد جوهر، وعلى الرغم من ذلك لم يكتب لنصره هذا الديمومة.

واصطدم المعز لدين الله مراراً وتكراراً بقبائل زناتة، وصحيح أن هذه القبائل أتعبته كثيراً، لكنه ظل يرسل الجيوش ضدها، ويثير غيرها من القبائل - لاسيما صنهاجة - ضدها حتى كادت أن تضمحل وتزول من الوجود، ولاشك أن الحروب المدمرة بين كبريات القبائل، كانت له آثاره على بلدان المغرب الأقصى والصحراء وما جاور ذلك من البلدان الأفريقية، ونظراً لانتصار صنهاجة على زناتة قام المعز لدين الله قبيل مغادرة إفريقية إلى مصر بإيكال الحكم عنه في بلاد المغرب الكبير إلى يوسف بن زيرى زعيم صنهاجة، كما أن الاستيلاء على مصر ثم رحيله إليها كان قد أفرغ إفريقية إلى أبعد الحدود من قبائل كتامة.

ومثلما تمردت فاس ضد السلطة الفاطمية، فعلت الشيء نفسه سجلماسة الصفرية، وتيهرت الرستمية الأباضية، ففي تيهرت أعلن محمد ابن الفتح بن واسول عن نفسه خليفة بلقب «الشاكر لله» وشكل في إقدامه على ذلك أعظم التحديات للمعز لدين الله، الذي كلف عبده القائد جوهر بالتوجه إلى تيهرت والقضاء على الشاكر لله، ونجح جوهر، وحمل

الشاكر لله أسيراً إلى مولاه المعز لدين، ونلاحظ في هذا المقام أن حملات المعز لدين الله ضد تيهرت وسجلماسة وقبائل زناتة، وفاس، وموسى بن أبي العافية، استهدفت بالدرجة الأولى مصادرة أموال الناس واستلابها، فهي كانت حملات جباية قسرية، لخليفة عرف أن وجوده في المغرب لا يمكن الإقرار به، ففكر جدياً أكثر من ذي قبل بالرحيل إلى مصر.

هذا ويلاحظ أن نشاطات المعز لدين الله في بلدان المغرب، لاسيما الأقصى منه كانت من بعض الجوانب حرباً غير مباشرة ضد خلافة قرطبة بزعامة عبد الرحمن الثالث ثم من بعده ابنه الحكم المستنصر، وفي الحقيقة استدعت العلاقات ما بين الخلافة الأموية في الأندلس أيام الخليفة الناصر، وابنه المستنصر من بعده، وبين الخلافة الفاطمية أيام المعز لدين الله أكثر من وقفة ومناقشة، وجاء الاهتمام الرئيسي بها في الفصل الخامس الذي حمل عنوان «العلاقات عبر البحر المتوسط (صقلية ــ الأندلس ـ بيزنطة)».

فقد قامت الخلافة الفاطمية على أرض بلد متوسطي مرموق، وكانت المهدية، العاصمة الرسمية للخلافة الفاطمية مدينة قائمة على الساحل المتوسطي، يضاف إلى هذا أن الخلافة الفاطمية ورثت عن الأغالبة حكم جزيرة صقلية، وكانت صقلية هامة جداً للفاطميين، يضاف إلى هذا أن الخلافة الفاطمية في أيام المعز لدين الله قد امتلكت أسطولاً خاصاً، بها، كانت له أدواره العسكرية في الدفاع عن صقلية؛ وفي بعض المعارك ضد الأندلسيين وسواهم.

وفي أيام المعز لدين الله كانت أهم قوى البحر المتوسط هي: الأندلس، والإمبراطورية البيزنطية وإيطاليا الموزعة بين عدة قوى، واهتم هذا الفصل بجزيرة صقلية، وبين أنها في أيام المعز لدين قد حكمت من قبل أسرة آل الكلبي، وأنها كانت شبه مستقلة، وكانت علاقات أسرة آل

الكلبي بالمعز لدين الله تمر عبر جوذر، الخصي الصقلبي الذي أقام في المهدية نائباً عن المعز لدين الله، وكانت له أعماله التجارية مع صقلية.

أما العلاقات مع الأندلس، فقد كانت أكثر عدوانية من جانب المعز لدين الله، فقد حاول عبد الرحمن الناصر التهادن مع المعز أكثر من مرة فأخفق، واتسم الصراع الأموي الفاطمي أيام الناصر والمعز بالشراسة والحقد اللا محدود، وقد ضيع على المسلمين فرصاً نادرة، وأفسح المجال إلى انتكاسات هائلة، كان على رأسها سقوط كريت للبيزنطيين، وتجميع أوربا لقواها، فزادت بعد أمد وجيز من حرب الاستغلاب في الأندلس، ثم كانت أن ضاعت صقلية نفسها، وأقلعت أوربا بالحملات الصليبية على بلاد الشام.

وكان الصراع بين المهدية وقرطبة عقائدياً وإعلامياً لم يعرف الضوابط، حيث تدخل الأمويون في المغرب الأقصى، وحاولوا شراء العملاء هناك، وبالمقابل نشطت الدعوة الإسماعيلية في الأندلس، وكان أهم دعاتها هناك أبو الخير الداعي الذي تحرك بجرأة وتهور في أيام الحكم المستنصر، ودعا إلى إسقاط الحكم الأموي، لكن محاولته باءت بالإخفاق، ذلك أن المعز لدين الله لم يفكر جدياً قط بالاستيلاء على الأندلس، وكانت تطلعاته مصرية، وفي جميع الأحوال كانت صفحة العلاقات مع الأندلس أيام المعز لدين الله سوداء مخزية قادت إلى إذلال المؤمنين بدين الله الواحد الأحد، وقد استفادت بيزنطة من سوء العلاقات بين قرطبة والمهدية، فحالفت الأمويين حيناً ضد الفاطميين ثم ما لبثت أن هادنت الفاطميين، وتفرغت إلى احتلال الثغور الشامية والجزرية واقتحام مدينة حلب سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م، وكانت قبل ذلك بعام قد احتلت جزيرة كريت وأنهت الوجود الإسلامي فيها.

وكان للخلافة الفاطمية بعد تأسيسها في إفريقية بعض العلاقات مع

بلدان المشرق، تمثلت بوجود بعض الدعاة الإسماعيلية هناك، وحكت المصادر الإسماعيلية أخبار بعض المراسلات بين بعض الحكام الشيعة في المشرق، لاسيما من بني بويه، والدولة الفاطمية، وحوت بلدان المشرق أعداداً من الإسماعيلية، في خراسان واليمن، والأحساء والبحرين، لأن القرامطة هناك كانوا إسماعيلية مع أن علاقاتهم بالخلافة الفاطمية أخذت شكلاً عدوانياً، بعد استيلاء جيوش المعز لدين الله على مصر وسعيها للاستيلاء على بلاد الشام.

وفي الحقيقة وضع استيلاء الفاطميين على مصر أيام المعز لدين الله، السلطات الفاطمية وجهاً لوجه أمام قوى المشرق، التي وقفت جميعاً ضد الفاطميين بما في ذلك القرامطة أنفسهم، وكانت أبرز قوى المشرق السياسية قبيل استيلاء الأستاذ جوهر على مصر هي:

ـ الدولة الأخشيدية التي حكمت مصر مع جنوب الشام، وكانت تدفع مبالغ من المال سنوياً لقرامطة الأحساء والبحرين، ومن الحكم الأخشيدي انتزعت مصر، ثم جرت محاولة احتلال الشام كله مما أدى إلى صدام مع أهل دمشق بزعامة منظمة الأحداث، وحين انهزم الأحداث أمام الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح، استنجدوا بقرامطة الأحساء والبحرين وببعض القوى البدوية، وقدم القرامطة إلى دمشق بقيادة الحسن الأعصم، وقتلوا جعفر بن فلاح، وزحفوا ضد مصر، مما عجل بقدوم المعز لدين الله إليها، واستمر الصراع مع القرامطة طيلة أيام المعز لدين الله وشطراً من أيام ابنه العزيز.

ولهذا تناول هذا الفصل موضوع الاستيلاء الفاطمي على مصر، ثم استيلاء ابن فلاح على دمشق، وبعد هذا جرى تقديم تعريف موجز بمنظمة الأحداث الشامية، وبموقف أهل الشام من جيوش الفاطميين.

ولدى محاولة القوات الفاطمية بسط سيطرتها على بلاد الشام اصطدمت ببقايا الدولة الحمدانية في حلب، وبالدولة الحمدانية بالموصل التي تعاونت مع القرامطة ضد الفاطميين، وممن تعاون أيضاً مع القرامطة ضد الفاطميين حكام الدولة البويهية، التي تحكمت ببغداد وبالخلفاء فيها.

ولاشك أن تكتل القوى المشرقية ضد الفاطميين، مع سوء العلاقات بين جوهر الصلقبي وجعفر بن فلاح، وعدم كفاءة هذا الأخير، مع تدني المستوى القتالي لدى الجيوش الفاطمية في مقابل القرامطة وسواهم، وجه ضربة قاصمة للمشروع الفاطمي بالاستيلاء على المشرق كله، وإزالة الخلافة العباسية من الوجود، ومع ذلك كانت المرة الأولى في التاريخ، أن حكمت بلدان المغرب الكبير كله مع مصر وجنوب الشام وصقلية من قبل الخليفة المعز لدين الله الذي كان يقطن في أحواز القيروان، يضاف إلى هذا أن الاحتلال الفاطمي لمصر، أنهى مرحلة من التاريخ الإسلامي لهذه البلاد ارتبطت بالفسطاط، ليبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة القاهرة المدينة الجديدة التي أسسها جوهر، وأسس فيها فيما أسسه الجامع الأزهر، وفي القاهرة دخل التاريخ الفاطمي عقيدة وإدارة وسياسة مرحلة جديدة تختلف عن المرحلة الإفريقية.

وعالج الفصل السابع صورة «مؤسسات الدولة وأبرز العاملين فيها»، حيث تبين أن جميع السلطات في الدولة الفاطمية رست في يدي المعز لدين الله، حيث كانت الخلافة الفاطمية دولة ثيوقراطية، تمحور كل ما فيها حول الإمام، صاحب الشخصية المقدسة، وصحيح أن المعز لدين الله كان متميزاً بطاقاته ومؤهلاته، لكنه كان أكثر من سواه حبيس القداسة، مما جعله متفرد الرأي إلى حد التعنت، ولا شك أن هذا كان وراء الإخفاقات في المغرب من بعض الجوانب لأن حصر السلطات في شخص مقدس واحد تعارض مع النظام القبلي لبلدان المغرب، علماً بأن هذا

المقدس كان يحب المال حباً جماً، ويرى أن كل ما يمتلكه الناس هو ملك له، والناس عبيد له.

وباشر المعز الحكم بنفسه، وصحيح أنه استعان ببعض الرجال، لكن الخلافة الفاطمية في أيامه لم تعرف بشكل واضح أية مؤسسات إدارية، كما أن القضاء كان إسماعيلياً رسمياً ولم يكن إسلامياً شعبياً، والمعز لدين الله نفسه سير جيش الدعاة الإسماعيلية في المشرق والمغرب، وراقب الدعاة لا من أجل الغرض العقائدي، بل من أجل الغرض المالي، لأنه كان على الدعاة جبي خمس الدخل من أموال الإسماعيلية أينما كانوا، وإرسال هذه الأموال عيناً أو بضاعة إلى إمامهم المعز لدين الله، ويبدو أن كميات الأموال التي جبيت من الخمس كانت ضئيلة جداً، مقارنة بما جباه المعز لدين الله من بلدان المغرب، حيث أنه أفقر هذه البلدان وأضرّ بها مالياً وتجارياً، تجارياً لفرض الضرائب والمكوس الثقيلة، ولدوام الحروب، ولتعطيل كثير من النشاطات مع أفريقيا، ولأن الفاطميين مارسوا رأسمالية الدولة في العمل التجاري المتوسطي.

وبرز في عهد المعز لدين عدد ضئيل من الرجال الذين استعان بهم، وكان أبرز هؤلاء:

الأستاذ جوذر، وكان خصياً صقلبياً خدم الخلفاء الفاطميين منذ أيام المهدي، وعظم دوره في أيام المنصور إسماعيل، وازداد أهمية أيام المعز لدين الله، حيث أشرف على قصور الخلافة وساكنيها في المهدية، كما أشرف على صقلية، وكانت له مصالحه التجارية فيها وفي البحر المتوسط لأنه امتلك سفينة أو أكثر، وكانت لديه مخازن حوت تجاراته التي كان من بينها الخشب، وعمّر جوذر طويلاً، ورافق المعز لدين الله في رحلته إلى مصر، وتوفي قبل بلوغه لها.

والصقلبي الثاني الذي برز في أيام المعز لدين الله هو جوهر القائد، الذي تدرج في المناصب من العبودية إلى قيادة الجيوش، والاستيلاء على مصر وتأسيس مدينة القاهرة، لذلك ترددت أخباره في ثنايا صفحات الرسالة كلها.

ولا يقل أهمية عن جوذر وجوهر كان القاضي النعمان بن محمد، الذي كان من أصل قيرواني، برز كثيراً في أيام المعز لدين الله في ميادين القضاء والفقه الإسماعيلي، والفكر الإسماعيلي الظاهري والباطني، وكان أغزر الإسماعيلية إنتاجاً في جميع العصور، لم تقتصر كتاباته على الجوانب العقائدية والفقهية بل أرخ للدعوة الإسماعيلية وللتشيع، وقد رافق المعز لدين الله إلى مصر، وتوفي بعده، لكن دوره تضاءل في مصر، حيث برز هناك اليهودي يعقوب بن كلس، وكان هذا الرجل قد برز في مصر والشام أيام كافور الأخشيدي، وبعد وفاة كافور، التحق بالمعز لدين الله في المغرب، فكان له هناك دوراً حاسماً في التخطيط الناجح للاستيلاء على مصر، وبعد انتقال المعز لدين الله إلى مصر تولى يعقوب تنظيم الإدارة الفاطمية هناك تنظيماً دقيقاً، كما أعاد تنظيم الدعوة الإسماعيلية، وألف لعقيدة هذه الدعوة كتاباً ظل هو المعتمد لمدة قرنين، والمثير في حياة يعقوب بن كلس أن وثائق الجنيزا وبعض المصادر اليهودية الأخرى، تشير إلى أنه ظل طوال حياته يتظاهر الإسلام، ويبطن اليهودية.

وبعد هذا الفصل جاء دور الخاتمة التي حوت أهم محصلات البحث وفلسفته، و كما ذكرت من قبل إكمالاً للفائدة، وتوثيقاً لكثير من اشكاليات هذه الرسالة جرى إلحاقها بعدد الملاحق الهامة التي انتزعت من مخطوطات إسماعيلية ودرزية، وغير ذلك، وجلّ نصوص هذه الملاحق تنشر للمرة الأولى، ولاشك أنها سوف تساعد على التعمق أكثر في التاريخ

الإسماعيلي والفاطمي.

لقد جاءت هذه الرسالة نتيجة لعمل دراسي طويل وشائك، ولقد بذلت جهودي في سبيل تقديم عمل علمي مفيد، وكما أن هذه الرسالة جاءت برهاناً على وحدة الأمة العربية وتفاعل أحداثها مغرباً وشرقاً، وكان لحسن الطالع ولفائدتي، أن الإشراف عليها جاء مغربياً مشرقياً، ذلك أنني عملت أولاً تحت إشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم حركات، ثم حظيت بعد ذلك باشتراك الأستاذ الدكتور سهيل زكار ـ من جامعة دمشق ـ بالإشراف، ولقد أفدت من المشرفين كثيراً، وسرت على نهج توجيهاتهما، ومع اعترافي وامتناني لهما، أنا الذي أتحمل مسؤولية ما جاء في هذه الرسالة، التي برهنت على أن أمتي، الأمة العربية، أمة واحدة، وإن تعددت الكيانات السياسية فيها.

الشكر كل الشكر لأستاذي المشرفين، وللسادة الأساتذة الذين تفضلوا بالحكم على هذه الرسالة، وهنا أعترف بفضل جامعة محمد الخامس، وأتوجه بالشكر العميم إلى إدارتها، ولاسيما إلى كلية الآداب وإلى قسم التاريخ.

ويدين عملي في هذه الرسالة إلى عون عدد كبير من الأصدقاء في المغرب وليبيا والجزائر وتونس ومصر واليمن وسورية فلهم مني الشكر الدائم.

والله الموفق إلى السداد

مدخل دراسة تعريف ونقد
لأهم المصادر والمراجع

يحتاج كل بحث في تاريخ أية حقبة من حقب تاريخ الدولة الفاطمية، إلى التعرف أولاً إلى العقيدة الاسماعيلية فبدون ذلك يتعذر فهم كنه الأحداث ودوافعها، كما أنه بفهم العقيدة الاسماعيلية يبات من الممكن الافادة من المصادر الاخبارية الفاطمية، وشبه الإخبارية، ويستدعي التعامل مع العقيدة مع الاسماعيلية العودة للتعامل مع تاريخ التشيع وتطوره، هذا من جانب عام ومن جانب آخر خاص، يستلزم البحث في تاريخ عهد المعز لدين الله في المرحلة المغربية إلى:

أ ـ التعامل مع مصادر التاريخ المغربي في هذه المرحلة.

ب ـ التعامل مع مصادر تاريخ الأندلس في أيام كل من عبد الرحمن الناصر وابنه من بعده الحكم المستنصر.

جـ ـ التعامل مع مصادر تاريخ المشرق العربي في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد.

د ـ التعامل مع مصادر تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وإيطاليا وحوض البحر المتوسط.

وإذا أخذنا بعين التقدير أن البحث في مصادر تاريخ الاسماعيلية يستلزم إعطاء الاهتمام لمصادر تاريخ القرامطة لتقلب علاقات القرامطة بالإسماعيلية وبالفاطميين، لا شك أننا نجد في تنفيذ هذه المطالب جميعاً لا يمكن القيام به في مدخل تعريفي، بل هو يحتاج إلى دراسة منفردة في كتاب أو أكثر، ولعل التنبيه هنا إلى الأساسيات فيه كفاية:

لقد أكثر علماء الإسلام من التأليف في ميدان «الملل والنحل»، وأقدم الكتب التي وصلتنا في هذا الباب كتاب «المقالات والفرق» لسعد القمي، الذي كان إماميا من أصحاب الامام الحادي عشر، ومن بعده جاء النوبختي ـ الحسن بن موسى الذي كتب «كتاب فرق الشيعة»، وكان النوبختي شيعياً أيضاً، توفي بعد القمي بحوالي عقدين من الزمن، ذلك أن من الملاحظ أن الشيعة هم أقدم من أهل السنة في الكتابة عن الملل والنحل.

وكان ممن عاصر القمي والنوبختي الامام أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠هـ) الذي صنف كتاب «مقالات الإسلاميين»، ومع الكتّاب هؤلاء نذكر عبدان القرمطي، فقد نشر مؤخراً كتاب «شجرة اليقين».

ومع هذه الكتب النوعية المتخصصة لدينا بعض المصنفات التاريخية المبكرة مثل كتاب صفين لنصر بن مزاحم، والفتوح لابن الأعثم الكوفي، وكذلك كتاب الرسل والملوك للمؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبري (ت ٣١١هـ/ ٩٢٢م)، هذا وكان ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة

الصابئ الحراني الأصل، من أقدم الذين ذيلوا على تاريخ الطبري، وقد وصلتنا قطعة مختصرة من تاريخه، نشرها سهيل زكار في كتابة الجامع في أخبار القرامطة، وفي هذه القطعة بعض المواد الهامة حول تاريخ الإسماعيلية المبكر وكذلك عن القرامطة.

وكان ثابت بن سنان واحداً من أفراد آل الصابي ـ الذين عملوا بالطب، وكانوا مقربين من الخلفاء في بغداد، وقد توفي في سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٦م، ولثابت كتاب أرخ به لمصر والشام، وذلك بالاضافة لما ذيله على تاريخ الطبري، ومعلوماتنا عن هذا الكتاب يمكن استخلاصها من القطعة التي نشرها سهيل زكار، ومن كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، الذي اعتمد في بداياته على كتاب ثابت بن سنان عن تاريخ الشام ومصر.

هذا وكان لليمن دورها الهام في تاريخ الإسماعيلية والقرامطة، ومن أقدم المصادر المفيدة في هذا الباب كتاب «سيرة الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين»، الذي خرج في اليمن عام ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م، وقد نشر الهادي في اليمن ما يعرف باسم المذهب الزيدي، واستمرت سلالته تحكم اليمن بعضها أو كلها حتى قيام الحكم الجمهوري هناك مؤخراً، وكتب واحد من معاصري الهادي إلى الحق وأقربائه سيرته، وقد أودعها مادة هامة جداً، تكاد أن تكون الأقدم في بابها عن تاريخ الإسماعيلية والقرامطة هناك، ومعروف ـ كما سيمر معنا في الفصل الثاني من هذه الرسالة ـ أن المهدي الفاطمي أراد الهجرة إلى اليمن قبل أن يتوجه من مصر إلى سجلماسة، وما دمنا بصدد اليمن، نشرنا للمرة الأولى في ملاحق هذه الرسالة نص منشور صدر عن منصور اليمن، قبيل قيام الخلافة الفاطمية، هو والحق يقال من أخطر الوثائق الاسماعيلية التي نشرت حتى الآن.

هذا وعاش في بلاط المعز لدين الله الفاطمي رجل اسمه أحمد بن إبراهيم (أو ابن محمد) النيسابوري يبدو أنه احتل مكانة عالية فيه، مع أنه لم تصلنا ترجمة له، ومع هذا كان واسع الاطلاع على أخبار الدعوة الإسماعيلية، ولعله شارك في نشاطاتها، وقد خلف لنا رسالة هامة، أعاد نشرها سهيل زكار في كتابه الجامع في أخبار القرامطة.

هذا وعثر سهيل زكار على كتاب اسمه «التراتيب» صنفه واحد من رجالات الدعوة الإسماعيلية مبكراً قبل قيام الخلافة الفاطمية، ويساعد هذا الكتاب مع رسالة النيسابوري على فهم النزاعات التي ألمت ببيت الدعوة الإسماعيلية، وبمسألة إمامه الاستيداع والاستقرار، وبعقيدة القيامة، ويقودنا هذا إلى ما كتبه القاضي النعمان حول هذه العقيدة في كتابه الرسالة «المُذهبة في الحكمة والتأويل» الذي نشرنا بعضها في ملاحق هذه الرسالة للمرة الأولى.

وأتينا في الفصل السابع من هذه الرسالة على ذكر موجز للقاضي النعمان ولأدبياته التاريخية والعقائدية بالنسبة للعقيدة الإسماعيلية، فالذي كتبه أساسي، ولاسيما كتاب «رسالة افتتاح الدعوة» وكتاب «المجالس والمسايرات»، ولقد اعتمدنا على كثير من مواد هذا الكتاب لأنه أهم وثيقة تصلنا عن عصر المعز لدين الله، وجاء التعامل مع مواد هذه الوثيقة بشيء من التحليل والحذر، مع بداهة أنها تمثل وجهة النظر الرسمية للدولة، وعلى كتابات القاضي النعمان اعتمد غالبية الذين أرخو للاسماعيلية وللخلافة الفاطمية، خاصة الداعي المطلق ادريس القرشي في كتاب «عيون الأخبار»، هذا واعتمد الداعي ادريس أيضاً على كتاب سيرة الأستاذ جوذر، الذي كان من أهم شخصيات الدولة الفاطمية في أيام المعز لدين الله، ومن تقدمه من الخلفاء، وقد وقفنا عند حياة جوذر وسيرته في الفصل السابع من هذه الرسالة ولا حاجة هنا للتكرار.

ومع أن الكتب المتقدمة الذكر لم تكن كلها معادية للاسماعيليين، يلاحظ أن ما كتبه علماء أهل السنة في كتب الملل والنحل، كله غير صديق للاسماعيليين، وتحتوي هذه الكتب على أخبار عامة عن التشيع وعن الإسماعيلية، وغالباً ما نقلت عن مصدر واحد أو عن بعضها بعضاً، وكنا قد أشرنا إلى أبي الحسن الأشعري وكتابه «مقالات الإسلاميين» وبعد الأشعري جاء الملطي ـ محمد بن أحمد (ت ٣٧٧هـ / ٩٨٧م) فكتب كتاب «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع»، وواضح من عنوان هذا الكتاب أنه اهتم بالنقد والتفنيد أكثر منه بالشرح والتوضيح، ومع ذلك لديه بعض التفاصيل الهامة، وأكثر اسهاباً منه، أبو منصور عبد القادر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) وكان من متكلمي الأشاعرة، ترك لنا كتاباً مفيداً هو «الفرق بين الفرق».

وكان القاضي عبد الجبار الهمذاني من أعظم علماء المعتزلة المتأخرين، (ت ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) وقد أودع في كتابه «تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد» ﷺ تفاصيل ممتازة عن الدعوة الإسماعيلية وعن المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية، وكذلك عن أبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الأتان، الذي هدد بثورته وجود الخلافة الفاطمية كله في أيام القائم والمنصور اسماعيل من بعده.

هذا ويعد ابن حزم الأندلسي ـ محمد بن علي (ت ٤٥٩هـ/ ١٠٦٤م) صاحب أول تاريخ إسلامي عظيم للأديان، وهو كتاب «الفصل في الملل والنحل»، وكان الإمام أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) أيضاً تولى الرد على الإسماعيلية في كتابة «فضائح الباطنية» وفي مختصره «قواصم الباطنية»، ومزية الإمام الغزالي أنه استوعب الفكر الإسماعيلي فعرضه ثم عرض نقده وبيّن ثغراته.

ومن الممكن أن نضيف إلى أسماء الكتب المتقدمة عدداً كبيراً آخر من كتب الإسماعيلية والشيعة الإمامية وأهل السنة، والقيام بذلك يخرج بنا عن إطار الموضوع، ولذلك سنكتفي بوضع أهم الأسماء في جريدة المصادر والمراجع، ونختتم حديثنا هنا بتبيان أن تاريخ الإسماعيلية قد شد انتباه عدد من الباحثين المعاصرين منهم الروسي ايفانوف، الذي عمل لصالح مراكز البحث الإسماعيلية التي مولتها الآغاخانية، والمستشرق برنارد لويس، الذي كتب اطروحته للدكتوراه عن الإسماعيلية بعنوان «أصول الإسماعيلية» ثم كتب بعد ذلك كتاب «الحشيشية» أو «الدعوة الإسماعيلية الجديدة»، وفي سورية اهتم سهيل زكار بالإسماعيلية والقرامطة، وكان آخر ما نشره كتاب «الجامع في أخبار القرامطة»، وفي سورية أيضاً كان الإسماعيلي مصطفى غالب بين أبرز من نشر بعض النصوص الإسماعيلية وبعض الدراسات، وكذلك فعل الإسماعيلي عارف تامر.

وندع الآن موضوع العقيدة الإسماعيلية الشائك، لننتقل للحديث عن بعض أهم مصادر المغرب والأندلس في القرن الرابع للهجرة، لا بل في الحقيقة بالنسبة للمغرب الكبير قبل ذلك بكثير.

والمكتبة الأندلسية غنية بالكتب التاريخية، أهم ما وصلنا منها ويتعلق بعصر عبد الرحمن الناصر الجزء الخامس من كتاب المقتبس لابن حيان - أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، الذي يعد بين أعظم مؤرخي الإسلام، وأعظم مؤرخي الأندلس قاطبة، كان من أهل قرطبة، وعدّت أسرته من موالي الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فعلى هذا ارتبطت أسرته منذ القدم بالأسرة الأموية الحاكمة للأندلس، ويعتقد بأن أباه كان كاتم أسرار المنصور بن أبي عامر، ثم عمل في حجابة ابنه عبد الملك المظفر، وهذا أتاح الفرصة لابنه للتعلم على أيدي كبار علماء الأندلس، في أواخر القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد وجل سنوات القرن الخامس

للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، حيث من المعتقد أن ابن حيان قد ولد في سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، ذلك أنه مات سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦، وعلى هذا عاصر حقبة الاستبداد العامري في الأندلس ثم عصر دول الطوائف، وقد لازم السكنى في قرطبة، وأولى التأريخ جل اهتماماته، فكتب عدة كتب كبيرة أهمها: المقتبس، والمتين، وأخبار الدولة العامرية، والبطشة الكبرى، والذي يهمنا من هذه الكتب هو كتاب المقتبس الذي وصلتنا بعض أجزائه، لاسيما الجزء الخامس المتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر، وموضوع هذا الكتاب بشكل عام هو تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي في سنة ٩١هـ/ ٧١١م حتى نهاية خلافة الحكم المستنصر وبهذا الكتاب افتخر ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس حيث قال: «ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس، تأليف أبي مروان بن حيان، نحو عشرة أسفار من أجلّ كتاب ألف في هذا المعنى، وهو في الحياة بعد، لم يتجاوز الاكتهال»، وقد أفدنا كثيراً من مواد هذا الكتاب العظيمة التفاصيل في علاقات الأندلس بقبائل المغرب الأقصى وبقواه السياسية وبالتالي بالصراع مع الخلافة الفاطمية، ومواد ابن حيان متوازنة، ليست ملونة بألوان القداسة تجاه الخليفة، على قاعدة القاضي النعمان، مع أنها تماشي وجهة النظر الأندلسية، وهذا أمر طبيعي[1].

هذا وشهدت بلدان المغرب الكبير حركة تأريخ كبيرة، شملت ميادين التواريخ الحولية العامة، وتواريخ الدول والمدن، وكتب التراجم، ومن أقدم كتب التواريخ العامة، الكتاب الذي كتبه ابراهيم بن الرقيق القيرواني (ت ٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م)، وحمل كتابه عنوان «تاريخ إفريقية» وجاء في عدة مجلدات، وصلتنا قطعة منه نشرت أكثر من مرة، وكان قد عمل رئيساً لديوان الانشاء في البلاط الصنهاجي لمدة تزيد على العشرين سنة، وقدم

(١) المقتبس لابن حيان، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ط. بيروت ١٩٧٣ ص ٧ ـ ١٢٣.

مصر سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م، في هدية من والي إفريقية إلى الحاكم بأمر الله[1]، ولسوء الحظ أن القطعة التي وصلتنا فيها مادة مفيدة عما حدث قبل قيام الخلافة الفاطمية، وبالتحديد بداية العصر الأغلبي[2] وتبين من خلال النقول عنه أن مواد الرقيق غير معادية للفاطميين وهي متوازنة، وعليها اعتمد عدد من المؤرخين الذين جاءوا من بعده، من أمثال: ابن عذاري، والنويري، وابن خلدون.

وكان أيضاً ممن نقل عن الرقيق أبو عبيد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي (٥٤٨ ـ ٦٢٨هـ/ ١١٥٠ ـ ١٢٣٠م) الذي كتب في ظل أجواء متعصبة جداً ضد الفاطميين كتاباً حمل عنوان «أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم»، فهو عدَّ الفاطميين ملوكاً، من أبناء عبيد الله المهدي، وليس عبد الله، وهو نظر إلى الإسماعيلية وإلى الفاطميين نظرة تكفير، وأراد في الحقيقة التشهير بالفاطميين لا التأريخ لهم بشكل حيادي، ومع ذلك بالنظر لنهله أخباره عن مصادر متقدمة عليه زمناً، حصلنا على بعض ما هو مفيد، وتعاملنا في الغالب معه بشيء كبير من الحذر[3].

هذا ويعد كتاب «البيان المغرب» لابن عذاري ـ أبو عبد الله المراكشي [ت أواخر القرن السابع الهجري]، من أهم المصادر الجامعة، حيث أرخ فيه سياسياً للدول التي حكمت في كل من المغرب الكبير والأندلس، وقد اكتمل الآن العثور على نصه كاملاً، وجرى نشره فيما بين المغرب وبيروت، وأفدنا من روايات ابن عذاري، على الرغم من وجود بعض التباين فيها، لاعتماده على مصادر مختلفة، وكتاب ابن عذاري هو الأبكر

---

(١) المقفى للمقريزي ج١ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٢) نشرها للمرة الأولى عام ١٩٦٥، الأستاذ المنجي الكعبي في تونس، ثم د. عبد الله العلي الزيدان، ود. عز الدين عمر موسى، في دار الغرب الاسلامي بيروت ١٩٩٠.

(٣) نشر بشكل غير علمي للمرة الثانية في الجزائر ١٩٨٤ من قبل جلول أحمد البدروي.

مما لدينا الذي تعامل مع تاريخ الغرب الاسلامي ككل، والنظرة الشمولية المتوازنة هامة بحد ذاتها، ثم إننا لانلاحظ لدى ابن عذاري تعصباً ممقوتاً، ولذلك حظي البيان المغرب بمكانة علية لدى المؤرخين والباحثين.

ونحتاج هنا إلى وقفة مطولة مع ابن خلدون - عبد الرحمن بن محمد [ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م] لكن مع ذلك قد لا نأتي بشيء جديد حوله، لأن الأبحاث حوله وحول مقدمته وتاريخه كثيرة جداً وبمختلف اللغات، وقد عدت إلى تاريخ ابن خلدون مراراً، فاستفدت من رواياته الغنية، فهذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ الغرب الاسلامي، وهو حجة بالنسبة لتاريخ قبائل المغرب الكبير، فضلاً عن هذا، حمل ابن خلدون وجهة نظر خاصة نحو التاريخ، فضلاً عن فكرة النقدي الذي هو موجود في المقدمة، فهو حين منح كتابه عنوان: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم في ذوي السلطان الأكبر»، لم يفعل ذلك لضرورات السجع، بل بين أن غايته من كتابة التاريخ هي ذرائعية، أي الحصول على العبرة والدرس، فضلاً عن هذا قدم في بقية العنوان تحقيباً للتاريخ الاسلامي، والنظرة إلى التاريخ أو الرؤية مع التحقيب هو ما يفتقر إليه المتصدي للتأريخ للعرب والمسلمين، ولا شك أن في تقديم ابن خلدون للرؤية والتحقيب ريادة تضاف إلى رياداته في المقدمة.

وشهرت المكتبة التأريخية الشمال أفريقية بغناها بكتب تواريخ المدن وكتب التراجم، ومن هذه الكتب «طبقات علماء إفريقية» لأبي العرب - محمد بن أحمد بن تميم التميمي [ت ٣٤٥هـ/ ٩٥٤م]، حيث أمدنا بمعلومات وافرة عن علماء أهل السنة من المالكية والأحناف، ممن دافع بحرارة عن عقيدة أهل السنة ضد الإسماعيلية، وهناك بعض الاشارات إلى علماء ضعفوا أمام غطرسة السلطان فداروا بعض المداراة.

ومن مشاهير كتّاب الطبقات الخشني ـ محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني (ت ٣٦١هـ/ ٩٧١م)، الذي صنف كتاب «قضاة قرطبة وعلماء إفريقية»، فمن خلال هذا الكتاب نتلمس استعار حركة المقاومة للإسماعيلية، حيث وقف المالكية بشجاعة وحزم ضد السلطة الفاطمية ودعاتها، هذه السلطة التي لجأت إلى استخدام المال والعنف والإرهاب، وبذلك عاش المالكية عصر محنتهم الذي قدموا فيه الشهداء، فضلاً عن ذلك نجح بعض العلماء في مجالس المناظرة بقهر الدعاة الإسماعيليين، وبجذب كثير من الشيعة إلى صف أهل السنة والجماعة.

ويعد كتاب رياض النفوس لأبي بكر المالكي (من أهل القرن الخامس هجري) من أغنى كتب التراجم الإفريقية، ومثله إلى حد ما كتاب «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» للدباغ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري، ومن هذين المصدرين نعرف كيف بدأت محنة المالكية أيام المهدي ثم كيف شرعت بالزوال بعد رحيل المعز لدين الله إلى مصر.

ويعدّ القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي المالكي (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) من أفضل الذين أرخوا لعلماء المالكية في كتابه الموسوعي «المدارك»، وقد طبع هذا الكتاب في بيروت ثم في المغرب محققاً بشكل علمي، وكان المؤرخ التونسي محمد الطالبي قد استخرج منه جملة من التراجم أخرجها في مجلد واحد بعنوان «تراجم أغلبية»، وبين هذه التراجم من عاش حتى عصر المعز لدين الله، لذلك هي مفيدة، ومفيد أن ننبه هنا إلى أن فن كتب التراجم فن عربي فريد وأصيل، أرخ فيه العلماء لرجالات الأمة الذين بنوا الحضارة ونشروا الإسلام بعيداً عن رجال السلطة أو في مواجهة لهم، والمواجهة بين العلماء والسلطان قديمة، تحتاج إلى وقفات دراسية خاصة.

ويلاحظ أن الموسوعات التي صنفت في مصر في العصر المملوكي اهتمت كثيراً بتاريخ الخلافة الفاطمية، ويتصدر هذه الموسوعات «كتاب نهاية الأرب للنويري»، الذي يحتوي على أكثر من مجلدة في تاريخ الفاطميين وفي أخبار القرامطة.

والنويري هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد القرشي التلجي البكري، عرف بلقب شهاب الدين، وشهر بالنويري، نسبة إلى قرية نويرة التي كانت من قرى بني سويف في مصر، وقد ولد سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م، أو سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م، ذلك أنه توفي سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٥١م، وهو من أبناء الخمسين، ونال النويري ثقافة عالية، وعمل بالوراقة، وفي الأعمال الادارية، وكان صاحب خط جيد، وهو المقدم بين الموسوعيين العرب، ونال مكانته من كتابة «نهاية الأرب في علم الأدب»، وفي هذه الموسوعة مواد تاريخية فاطمية اعتمدت على بعض الأصول المفقودة[1].

ومن الجانب التأريخي يعد المقريزي أوسع شهرة من النويري، وأعلى مكانة، ذلك أنه مؤرخ مصر الإسلامية، والمقريزي هو تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م، وقد انحدر من أسرة جاءت بالأصل من بلدة بعلبك الشامية، قيل إنها كانت تقطن في حي من أحياء بعلبك عرف باسم حي المقارزة، زالت الآن معالمه ومعها اسمه، وقد نشأ المقريزي في كنف جده لأمه، وحصل على ثقافة عالية، والتحق بعدد من الوظائف الحكومية العالية، وزار الشام والحجاز حيث أقام في كل منهما مدة طويلة غير أن حياته انتهت في القاهرة سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م.

وكان المقريزي غزير الانتاج، ولاسيما في ميادين التاريخ، وهو قد عاصر في مصر ابن خلدون وتأثر به كثيراً، ومن الممكن تصنيف نتاج

---

(١) الجامع في أخبار القرامطة ج١ ص ١٧٦.

المقريزي إلى نوعين: المصنفات الكبيرة، والرسائل الصغيرة، وقد أوقف مصنفاته الكبيرة على واحد من مواضيع التاريخ الإسلامي العام، أو تاريخ مصر الإسلامية، السياسي والعمراني، عبر عدة مراحل: أولها منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الخلافة الفاطمية، وثانيها تاريخ الخلافة الفاطمية ثم تاريخ خطط القاهرة، والكتاب الثالث هو الذي أرخ فيه لما بعد الفاطميين حتى أيامه.

ورسائل المقريزي هامة فيها تجلت عبقريته وأصالته، والذي يهمنا في بحثنا هو كتابة «اتعاظ الحنفا» ففي هذا الكتاب أرخ المقريزي للخلافة الفاطمية، ويعد هذا الكتاب أفضل مصدر للتاريخ الفاطمي، وقد أثار موقفه من الفاطميين جدلاً حول ميوله المذهبية، ويرفد هذا الكتاب كتابه «المواعظ والاعتبار بالخطط والآثار»، الذي يحتوي على مواد هامة تتعلق بسكنى المغاربة في عاصمة مصر الجديدة وأدوارهم فيها.

وتجمع لدى المقريزي مواد تاريخية عملاقة، أراد في أواخر حياته تصنيفها في كتاب كبير يؤرخ به لمصر والوافدين عليها، على غرار كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، وقد لحق المقريزي بربه قبل أن يكمل مشروعه، الذي بوب مواده حسب حروف المعجم، والذي وصلنا من هذا الكتاب نشر تحت عنوان «المقفى الكبير»، وفي المقفى هذا بعض التراجم الفاطمية الهامة جداً[1].

ومن المؤرخين المشارقة الذين تناولوا أخبار الدولة الفاطمية، قبل النويري والمقريزي، ولكن بدرجة أدنى تفصيلاً وأهمية، ابن الأثيرالجزري في كتابة «الكامل في التاريخ»، وكذلك ابن الجوزي في كتابه «المنتظم»، وفعل أحسن منهما من حيث التفاصيل والتسامح علي بن ظافر الأزدي

---

(١) الجامع في أخبار القرامطة ج١ ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

صاحب كتاب «أخبار الدول المنقطعة»، وقد ولد الأزدي في القاهرة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م، لأب كان من كبار الفقهاء، ولذلك حظي بالتعليم، ونال ثقافة عالية مكنته من تسلم عدد من المناصب العالية في الدولة الأيوبية في القاهرة، وقد أفرد الأزدي شطراً خاصاً من كتابه لتاريخ الخلافة الفاطمية، فيه معلومات[1] مفيدة.

وكانت بلاد الشام قد أنجبت عدداً من المؤرخين المشهورين، منهم ابن عساكر، وابن العديم، وكتب ابن عساكر فيما كتب تاريخ دمشق، أما أهم كتب ابن العديم التاريخية فهما: «بغية الطلب في تاريخ حلب» و«زبدة الحلب من تاريخ حلب»، وفي هذين الكتابين مواد هامة عن الفاطميين[2] والقرامطة، ومفيد أن نشير هنا مجدداً إلى بعض المؤرخين اليمانيين، مثل محمد بن مالك الحمادي، صاحب كتاب «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة»، وعلي بن الحسن الخزرجي [٧٣٢ ـ ٨١٢هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٩م] صاحب كتاب «العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك»[3].

وكما سلف بي القول من غير الممكن في هذا المدخل ذكر جميع المصادر التي عدت إليها قراءة وتوثيقاً، ومع ذلك لا يجوز اهمال بعض كتب المكتبة الجغرافية العربية، وأبدأ أولاً مع البكري ـ عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عمر، الذي كان من أمراء الأندلس، ومن فحول علمائها في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، فهو قد عاصر: العذري، وابن حزم، وابن حيان، وابن بسام، ومن المرجح أن البكري قد ولد سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٤١م، وقد توفي بعدما نيف على الثمانين سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤، وكتب البكري كتباً كثيرة، يهمنا منها ما جاء في فن الجغرافية، حيث

---

(١) الجامع في أخبار القرامطة ج١ ص ١٧٠.

(٢) الجامع في أخبار القرامطة ج١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٣) الجامع في أخبار القرامطة ج١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠.

قيل: بدأ علم الجغرافية عند المسلمين بملك، وانتهى بملك، والملك الأول هو البكري، والثاني أبو الفداء صاحب حماه، وكتب البكري في الجغرافية «معجم ما استعجم» وهو الكتاب الذي بنى عليه ياقوت الحموي معجم بلداته، والثاني هو «المسالك والممالك»، الذي لم يصلنا بأكمله، والذي أفادنا منه ما تعلق بجغرافية المغرب، حيث حوى هذا القسم على ما لايستغني عنه أي باحث في تاريخ المغرب وقبائله وأوضاعه قبل القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، ويرجح أن البكري لم يزر أياً من بلدان المغرب، بل سجل في كتابه ما حصل عليه من معارف وروايات وصلت إلى الأندلس عن طريق التجار والمسافرين والسفراء وسواهم[1].

وتقدم على البكري قرنا، الجغرافي المشرقي ابن حوقل ـ أبو القاسم محمد بن علي النصيبي [نصيبين بلدة الآن على الحدود السورية التركية مقابل القامشلي]، الذي استهوته الأسفار وأخبار الرحالة منذ نعومة أظفاره، فعمل بالتجارة أو بالحري تظاهر بالعمل بالتحارة، وانطلق من بغداد سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م وأمضى مرتحلا يجوب أرجاء العالم الاسلامي زهاء الثلاثين عاماً، فقد جاب من نهر السند حتى شواطئ المحيط الأطلسي، ودخل إلى الأندلس، ووصل إلى أطراف الصحراء الكبرى، ووصل إلى أواسط نهر الفولغا، وكان كما هو مرجح إسماعيليا،عمل مخبراً وجامعاً للمعلومات لحساب الفاطميين، ونظراً لما حصل عليه ورآه عدّ الجغرافي الخبير بأحوال المغرب والأندلس في عصر المعز لدين الله، ولقد أفادنا بمعلوماته كثيراً في النواحي الضريبية والقبلية وسوى ذلك، وكان هو العمدة في كثير من القضايا[2].

واسترعى موضوع تاريخ صقلية الإسلامية في العصر الحديث وفي

---

(١) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ـ ط. القاهرة ١٩٨٦ ص ١٠٨ ـ ١٤٨.
(٢) أعلام الجغرافيين العرب لعبد الرحمن حميدة ـ ط. دمشق ١٩٨٠ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

أيامنا انتباه عدد الباحثين والمؤرخين، وبين هؤلاء يعد ميخائيل أماري، أفضل الذين كتبوا بتاريخ صقلية، فكتابه «المكتبة الصقلية العربية» ما برح معيناً من المعلومات يلجأ إليه كل باحث ومهتم، لما حواه من نصوص تاريخية وجغرافية[1]، ومن الأبحاث الحديثة المؤلفة بالعربية والمترجمة إليها:

١ ـ المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا لأحمد توفيق المدني.

٢ ـ تاريخ صقلية الإسلامية للدكتور عزيز أحمد، ترجمة إلى العربية الدكتور أمين توفيق الطيبي.

٣ ـ العرب في صقلية للدكتور احسان عباس، وهو دراسة في الأدب والتاريخ.

٤ ـ دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية، للدكتور أمين توفيق الطيبي.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الكتب مجموعة من الكتب الأخرى التي بحثت في تاريخ النشاط العربي في البحر المتوسط ومن ثم العلاقات العربية البيزنطية، ومن هذا الكتب.

١ ـ العرب والروم للمستشرق الروسي فازلييف، وقد نقله إلى العربية: الدكتور محمد عبد الهادي شعيره، والدكتور فؤاد حسنين علي.

٢ ـ تاريخ المسلمين في البحر المتوسط للدكتور حسين مؤنس.

٣ ـ بيزنطة ومسلمو جنوب ايطاليا وصقلية للدكتور وديع فتحي عبد الله.

٤ ـ تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام للدكتور أحمد مختار العبادي، والدكتور السيد عبد العزيز سالم.

---

(١) طبع بالعربية في ليبسك عام ١٨٥٧م في مجلد كبير جداً.

٥ ـ تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، للدكتورين المتقدمى الذكر أعلاه.

٦ ـ القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط لأرشيبالد لويس، ترجمة إلى العربية أحمد محمد عيسى، وراجعه وقدم له محمد شفيق غربال.

٧ ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط للأمير شكيب أرسلان، الذي اعتمد كثيراً على كتاب «الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا» لجوزيف رينو، وهذا الكتاب ترجمة إلى العربية د. اسماعيل العربي.

٨ ـ الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، للدكتورة اسمت غنيم.

وكانت الفائدة المحصلة من قراءة هذه الكتب كبيرة جداً، في التوجيه والإرشاد، وتملك الصورة التاريخية، وتحصيل المعلومات، فالباحث في موضوع الحقبة الإفريقية من عهد المعز لدين الله يحتاج إلى قراءات واسعة جداً لأخبار أحداث القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد في دار الإسلام كلها، وفي أوربا بأجمعها، وإتماما للفائدة تمت العودة إلى المهم من الكتابات حول تاريخ الامبراطورية البيزنطية مثل:

١ ـ The Combridge medival Histor, vol 4, new edition.

٢ ـ History of the Byzantine state, by G.Ostrogorsky, trans lated into English by Soan Hassey.

وكان من بين الدراسات بالعربية القريبة الصلة من موضوعنا:

١ـ «مغربيات» للدكتور محمود اسماعيل.

٢ ـ السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي للدكتور مرمول محمد الصالح.

٣ ـ دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، للدكتور موسى لقبال.

٤ ـ الخلافة الفاطمية بالمغرب، للدكتور فرحات الدشراوي.

٥ ـ دورزناته في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي للدكتور محمد بن عميرة.

وتبقى كما قلت جريدة الأسماء والعناوين التي تستحق الدراسة لكن بما أنه من غير الممكن ذكرها كلها، من الممكن العودة إليها في ثبت المصادر والمراجع في آخر هذه الرسالة.

الفصل الأول

الأوضاع السياسية العامة في المغرب الكبير قبل قيام الخلافة الفاطمية

أ- الخوارج.

ب- الدولة الرستمية.

ج- دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وتأسيس مدينة فاس .

د- دولة الأغالبة في أفريقية.

العربي الإسلامي، وأبرز ما حدث في المغرب الكبير الحركة الإسماعيلية، التي جلبت الفاطميين إلى مصر وأرض الشام، لا بل أوصلتهم حتى العراق مع فتنة البساسيري في القرن الخامس هـ/الحادي عشر ميلادي، وجاء الفاطميون إلى مصر والشام على رأس جيوش تكونت بشكل رئيسي من القبائل المغربية مثل كتامة ومصمودة وسواهما، ونظراً للطبيعة الدينية للحركة الإسماعيلية، يمكن تشبيه التحرك الفاطمي بالتحرك العباسي من بعض الأوجه، ولم تفلح الحركات الدينية الارتدادية في تعطيل مسيرة الإسلام الأساسية، وكل ما خلفته بعض البؤر هنا وهناك.

ومعروف أن الحركة الإسماعيلية في المغرب لم تكن الحركة الدينية الوحيدة التي شهدتها ديار المغرب، بل كانت هناك حركات أخرى، اقتصرت أهدافها السياسية على بلدان المغرب، وكانت توجهاتها الدينية سياسية المنطلقات ولم تستهدف جوهر الاسلام، ونعني هنا حركات الخوارج بشكل رئيسي، ونشاطات المعتزلة، وهناك استثناء ضيق يتعلق ببرغواطة، وللبحث في تاريخ الحركة الإسماعيلية حتى انتقالها إلى مصر، يحتاج الباحث إلى الخوض بشكل غير موسع في تاريخ مجمل الحركات الدينية والسياسية التي عرفتها البلدان المغربية قبل تأسيس الخلافة الفاطمية، وانعكاسات هذه الحركات الاجتماعية والاقتصادية متذكرين أن علاقة الخلافة الفاطمية بعد تأسيسها بالقوى الدينية والسياسية والقبلية، يأتي في سياق أحداث تاريخ هذه الخلافة وأبرز ما سنتناوله بالبحث:

أ - الخوارج:

الخوارج حركة جاءت إلى الوجود في الأيام الأخيرة لمعركة صفين، وقد ازدهرت في العراق والجزيرة بين القبائل العربية، لاسيما بين عناصر قبائل تميم، ووجدت جذورها بين الفئات التي تعصبت كثيراً للإسلام

ولمثالية تطبيقه، وتصدر هذه الفئات المجموعة التي عرفت باسم القراء، أو أصحاب البرانس، ولاشك أنه كان لأسباب أحداث الفتنة الكبرى الاقتصادية والاجتماعية، أعظم الأثار على قيام حركة الخوارج[1]، ولجأت هذه الحركة دوماً إلى استخدام السلاح ضد خصومها، وتطرفت بعض عناصرها في ذلك تطرفاً كبيراً.

والمتتبع لتاريخ العراق بعد معركة القادسية، يجد أن العرب أسسوا في هذه البلاد حاضرتين هما: الكوفة والبصرة، وبعد أحداث الفتنة الكبرى التي أسهم فيها الكوفيون اسهاماً عظيماً شهدت البصرة أول حركة تمرد على الخلافة الشرعية، فكانت نتيجة ذلك معركة الجمل، ووضح أثناء هذه المعركة أن قبائل تميم كانت بين أكبر قبائل البصرة، وكان الزعيم الأكبر لهذه القبائل هو الأحنف بن قيس، ووقف الأحنف على الحياد اثناء القتال في الجمل، فحين دعته عائشة أم المؤمنين للوقوف إلى جانبها رفض بشكل واضح، ثم دعاه بعد ذلك الامام علي فاعتذر بأن قومه ليسوا مع القتال، وقال: «يا أمير المؤمنين اختر مني واحدة من اثنتين: أن أكون معك مع مائتي رجل من قومي، وإما أن أرد عنك أربعة آلاف سيف؟ فقال علي رضي الله عنه: لا بل ردهم عني»[2].

ولدى استعراض أخبار معركة صفين، كان أول من «حكّم» من قبيلة تميم، ومن ثم كان أكبر زعماء الخوارج من تميم، وهؤلاء جعلوا مركز الزعامة المؤثرة للخوارج في البصرة، ولهذا شعر عدد كبير ممن حكم

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩. الاصابة لابن حجر ج١ ص ٣١٩. الخوارج في العصر الأموي لنايف معروف ص ٢٩ ـ ٥٩.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ج١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٧. الأخبار الطوال للدينوري ص ١٤٤ ـ ١٥٤. تاريخ الطبري ج٤ ص ٤٩٢ ـ ٥٣٥. الفتوح لابن الأعثم الكوفي ص ٩٠٦ ـ ٩٢٩. خطط البصرة وبغداد لماسنيون ص ١٨ ـ ٢٥. التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري لصالح العلي ص ٣٥ ـ ٤٤.

البصرة بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان، أن مشكلة الخوارج مشكلة تميمية[1].

هذا ونذكّر بالوقت نفسه أن عبد الله بن عباس، كان أبرز من حكم البصرة للامام علي رضي الله عنه، وابن عباس هو ابن عم الامام علي، وجد الأسرة العباسية الأعلى، وكانت الدعاية العباسية قد جعلت منه «حبر هذه الأمة»، وحاولت طمس بعض أخباره التي لم تتوافق مع توجهات السياسة الدينية للعباسيين، ومع ذلك ما تزال بعض المصادر تحوي بعض الاشارات المتناثرة، لاسيما ما دون من المصادر بعيداً عن مركز الخلافة العباسية، ومن هذه المصادر نحصل على صورة جديدة لابن عباس غير التي روجتها السياسية العباسية، والذي يهمنا هنا العلاقة مع الخوارج، وانتقال حركتهم إلى بلاد المغرب العربي الكبير.

والبحث في هذه المسألة مثير ومحفوف بالمخاطر، لكن لابدّ من اقتحام المخاطر إنما دون تهور ولا شطط.

فقد رافق ابن عباس الامام علي رضي الله عنه بالتوجه إلى العراق، وحضر الجمل، وشارك في صفين، وكان له موقفه من التحكيم، وطالب أن يكون هو ممثل العراق في التحكيم بدلا من أبي موسى، وتولى بعد صفين البصرة للإمام علي رضي الله عنه، وعندما اجتمع الحرورية في النهروان، فبعثه الإمام علي لمناقشتهم ومحاولة اقناعهم بالعودة إلى صفه، وتجمع الروايات على أن اللقاءات بينه وبين الحرورية كانت ودّية ولم تكن متشنجة حادة، وأن عواطف الخوارج لم تكن عدوانية نحو ابن عباس مثلما كانت ضد الإمام علي رضي الله عنه[2].

---

(١) الكامل للمبرد ج٣ ص ٩٩٦ ـ ١٠٠١. الطبري ج٥ ص ٤٧١. طبقات المشايخ للدرجيني ج٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٢) أخبار العباس وولده لمجهول ص ٣٦ ـ ٤١. أنساب الأشراف للبلاذري ج٣ ص ٢٧ ـ ٤١، الكامل للمبرد ج٣ ص٩١٠ ـ ٩١١. الطبري ج٥ ص ٧٦ ـ ٧٧.

وأثناء ولاية ابن عباس للبصرة كان «يفطر الناس في شهر رمضان.. وكان الناس لاينقلبون كل ليلة دون أن يسمعوا فائدة في دين أو دنيا»[1]، هذا ويلاحظ أن عدد البصريين الذين شاركوا في معركة النهروان، كان بفضل جهود ابن عباس، قليلاً، وبعد النهروان بأمد قصير نشب خلاف بين ابن عباس والإمام رضي الله عنه، فأقدم ابن عباس على حمل ما كان من مال في بيت مال البصرة، وتوجه الى الحجاز، وإثر ذلك جرت مراسلات بينه وبين الامام علي، وتبادلا التهم القاسية، فقد اتهمه الامام علي فيما اتهمه بالاستيلاء على أموال الأمة، فكتب له ابن عباس. «لأن ألقى الله بكل ما على ظهر الأرض وبما في بطنها أحب إليّ من أن ألقاه بدم مسلم»[2]، والذي قصده ابن عباس هنا هو دماء أهل النهروان.

وروى الشماخي في سيره أن ابن عباس قال للحسين بن علي رضي الله عنه: «إنكم لأحق بيت في العرب أن تتيهوا كما تاهت بنو إسرائيل، قمتم بكتاب الله وبسنة نبيه عليه السلام، فجاهدتم بها، ثم جعلتم حكماً على كتاب ربكم، ثم قتلتم خيار المسلمين وفقهاءهم، وقد أفنوا المخ واللحم، وأجهدوا الجلد والعظم من العبادة، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله»[3].

وأبدى الخوارج احتراما كبيراً نحو ابن عباس، وصمتوا على ما قام به من حمله لبيت مال البصرة، لا بل أكثر من ذلك تتلمذ قادتهم على يديه، إلى حد أنه ليس من المخاطرة القول: إن ابن عباس كان المصدر العقائدي الأساسي، وينبوع الفكر لخوارج البصرة ومن بعدهم لخوارج المغرب.

---

(١) أخبار العباس ص ٢٩. ترجمة ابن عباس في المقفى للمقريزي وترجمته في تهذيب الكمال للمزي.

(٢) المقفى للمقريزي - مخطوط باريس ورقة ٢٠٠ (ترجمة عبد الله بن عباس).

(٣) السير للشماخي ص ٥٤.

والحديث عن ظهور الحركات الخارجية في المغرب، يستلزم إلقاء نظرة سريعة متفحصة بالوقت نفسه على أوضاع المغرب العربي الكبير، وبخاصة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، فقد كانت هذه الأوضاع مشابهة بأحوالها من جميع الجوانب لأوضاع بلدان المشرق العربي، ولاسيما بلدان حوض البحر المتوسط، فقد عرفت المناطق الساحلية نمط الاستقرار المدني، وكان الذين سكنوا مدن سواحل الشام هم الذين أسسوا مدن سواحل المغرب الكبير، وأسهمت مدن المشرق ومدن المغرب في صنع التاريخ العربي القديم، ولاسيما أثناء الصراع ضد روما، ثم ضد الوندال وضد بيزنطة.

ومثلما الحال في بلاد الشام تكونت مناطق داخل المغرب الكبير من عدة ديارات عاش في كل دار منها قبيلة من القبائل، وتعامل النسابة العرب مع أنساب قبائل المغرب مثل تعاملهم مع قبائل المشرق، ففي المشرق عدّوا قبائله قد انحدرت من جدين هما عدنان وقحطان، كذلك عدّوا وقالوا بأن قبائل المغرب قد انحدروا من فريقين هما: البتر، والبرانس، وفي العصر الأموي عاشت قبائل المشرق والمغرب في ظل ما عرف باسم «العصبية القبلية».

ولم تختلف أنماط المعيشة والحياة الاقتصادية لدى قبائل المغرب عن أنماط الحياة عند قبائل المشرق، لأن هذه القبائل من أصل واحد[1]، ومثلما تعرضت قبائل المشرق لتقلبات السياسة الأموية في جميع المناحي، لاسيما تفاوت مواقف الخلفاء والولاة تجاه التكتلات القبلية، مع ما نجم عن ذلك من نتائج اقتصادية وسياسية، حيث تكاثرت نزعات التمرد والاستقلال، وهي نزعات أصيلة عند البداة، وفي المشرق تمركزت

---

(١) جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية ج٢ ص ١٣ ـ ٢٣. ماضي شمال أفريقيا لغوتييه ص ٨٨ ـ ١٠٦.

دعوات الخوارج بين بعض القبائل دون سواها، كذلك كان الحال في المغرب، وتقدم بنا القول بأن النشاط الخارجي في المشرق ارتبط بشكل رئيسي بالبصرة وبقبائل تميم، ولنعمل الآن على التعرف على القبائل التي انتشر المذهب الخارجي بين صفوفها في المغرب.

بداية عدت المصادر العربية أهم فرق الخوارج أنها كانت أربعاً، ارتبط كل منها باسم زعيم أساسي، وهي الأزارقة نسبة إلى نافع بن الأزرق، والأباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض، والصفرية نسبة إلى عبد الله بن الأصفر، والنجدات نسبة إلى نجدة بن عامر الحنفي.

وكان نافع بن الأزرق هو الأعظم تطرفاً بين هؤلاء، وبالأزارقة ارتبط النشاط الدموي للخوارج في المشرق، أما نجدة فقد نشط في الجزيرة العربية في ديار حنيفة، ولم يتابع ابن اباض وابن الأصفر نافعاً في أفكاره في استعراض كل من لم يتابعه على رأيه، واستمرا في القعود في البصرة، وعملا بالنشاط الدعوي السري فكرياً وثقافياً، وتطلعا إلى مناطق موائمة ليبثا فيها أفكارهما، فوجدا أمامهما بلدان المغرب الكبير بشكل رئيسي، وفي المغرب حققت الدعوتان الأباضية والصفرية نجاحات عظيمة وبالغة التأثير.

ولكن والحق يقال لايعود الفضل في تحقيق هذه النجاحات لابن أباض وابن الأصفر، وإنما لأبي الشعثاء، جابر بن زيد، وعكرمة مولى ابن عباس، ويتوجب علينا هنا التوقف للتعرف على هاتين الشخصيتين، لكن ليس بشكل مستفيض.

ونبدأ بجابر بن زيد، الذي كان يكنى بأبي الشعثاء، فقد كان من كبار التابعين وأعظمهم فقهاً وحديثاً وعلماً، وكان أصله من أزد عُمان، وقد صحب عبد الله بن عباس، وأخذ منه وتأثر به إلى أبعد الحدود، وقد

ولد ما بين ١٨ـ٢٢هـ/٦٣٩ـ٦٤٣م، لصحابي بالمعاصرة، ربما كان قد رأى النبي ﷺ ، وقد روى جابر عن أبيه، ونشأ في عُمان وهاجر في شبابه إلى البصرة، أيام أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وفي البصرة أمضى حياته حيث فيها توفي سنة ٩٣هـ/٧١٢ م كما هو مرجح.

والامام جابر عند الأباضية هو المؤسس الفعلي لمذهبها وفقهها، وصفه الدرجيني بقوله: «بحر العلوم العجاج، وسراج التقوى، ناهيك به من سراج، أصل المذهب وأسسه الذي قام عليه نظامه، ومنار الدين ومن انتصبت به أعلامه، صاحب ابن عباس رضي الله عنه، وكان أمهر من صحبه وقرأ عليه»(١).

أما عكرمة، فهو أبو عبد الله مولى ابن عباس، أصله من قبائل المغرب، لازم ابن عباس وأخذ عنه لا سيما التفسير، وكانت علاقته بجابر علاقة الزميل في حلقة إمام واحد، وقام عكرمة بالعودة إلى المغرب، حيث أقام بالقيروان، وبث العلم فيها(٢).

وعلاقة جابر وعكرمة هكذا واضحة بابن عباس، مثل علاقة زعماء الخوارج الأربعة المتقدمين عليهم، حيث تتلمذوا على ابن عباس في مكة، وبشكل خاص أيام الفتنة الزبيرية، ولنا أن نفترض أن الفوارق في البدايات بين الأباضية والصفرية كانت ضئيلة على أساس المشيخة الواحدة.

ولعل عكرمة حين استقر بالقيروان أخذ يدرّس في مسجدها، وتخصص هناك بحلقة، واتصل ببعض زعماء قبائل المغرب، ولاسيما

---

(١) طبقات خليفة بن خياط ج١ ص ٥٠٢. طبقات ابن سعد ج٧ ص ١٧٩. حلية الأولياء لأبي نعيم ج٣ ص ٨٥ ـ ٩١. سير أعلام النبلاء للذهبي ج٤ ص ٤٨١ ـ ٤٨٣. الدرجيني ج١ ص ٢٥٣، ج٢ ص٢٠٥، السير للشماخي ج١ ص٧٠ ـ ٧٧. بكوش، فقه الامام جابر بن زيد ص ١١ ـ ١٢.

(٢) رياض النفوس للمالكي ج١ ص١٤٥ ـ ١٤٦. طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب ص ٨٢ ـ ٨٣. سير أعلام النبلاء للذهبي ج٥ ص ١٢ ـ ٢٢.

الأقصى منه، وكان أبرز هؤلاء ميسرة المطفري.

ولانعرف بالتأكيد تاريخ استقرار عكرمة في القيروان، ولامتى قدم إليها عائداً من المشرق، ولعل ذلك كان في أيام عمربن عبد العزيز، حيث يرجح أنه في الوقت الذي انطلق فيه دعاة الدعوة العباسية إلى المشرق، اختار دعاة الخوارج بلدان المغرب وإليها مضوا.

ويحكى بأن عكرمة كان كثير الأسفار، واسع الجولات، ولذلك لاقى المذهب الصفري قبولاً واسعاً في مناطق المغرب الأقصى، وبعض ما قرب منها من المغرب الأوسط، لاسيما بين قبائل برغواطة ومكناسة، وزناته، ومطفرة[1].

ومن المعروف أن تجربة الدعوة والدعاة تجربة اسلامية قديمة، نشطت كثيراً أيام عمر بن عبد العزيز، لصالح نشر الاسلام، ولصالح قوى المعارضة للدولة الأموية، وقد يدفع هذا إلى الافتراض بأن بعض زعماء القبائل جاؤوا إلى القيروان للقاء عكرمة، أو لقوه وهم ذاهبين أو آيبين من الحج.

ويعيدنا هذا إلى شخصية ميسرة، فبعض المصادر تسميه أحيانا ميسرة الحقير، أو ميسرة الخفير، ويقال بأنه عمل سقاء في القيروان، ويعني هذا أن هذا الزعيم القبلي اضطر أثناء وجوده في القيروان إلى الأخذ بقاعدة التستر والتمويه.

والذي يعنينا هو أن ميسرة تلقى على عكرمة أصول المذهب الصفري، ثم عاد إلى ديار قومه حيث نشر أفكاره، وقام بالثورة، ولايعنينا هنا البحث في ثورات الصفرية ووقائعها في المغرب، والذي

---

(١) أبو العرب ـ الطبقات ص ٨٢ ـ ٨٣. جوليان ج٢ ص ١٣ ـ ٥٣. غوتييه ص ١٤٧ ـ ٢٢٤. الخوارج في المغرب لمحمود اسماعيل ص ٣٥ ـ ٨٠. دورزناته في الحركة المذهبية في المغرب لمحمد بن عميرة ص ١٥ ـ ٩٥. الدولة الرستمية لبحاز لبراهيم ص ٥٩ ـ ٧٥. المغرب الاسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج لموسى لقبال ص ١٤٥ ـ ١٦٨.

نقصده هو الاشارة إلى ظهور حزبهم هناك لأن هذا الحزب امتلك دولة بني مدرار في سجلماسة، وكان لهذه الدولة علاقة بالفاطميين قبل تأسيس دولتهم وبعد ذلك، ومع ذلك يبدو أن افكار هذا الحزب أخذت بمبدأ التطرف، مما قاد إلى التمزقات وتغير الزعامات، ولسوء الحظ لم يخلف الصفرية أدباً مدوناً عقائدياً كان أم تاريخياً إخبارياً، حتى يمكن من خلاله التعرف عليهم بشكل أوضح[1].

ولابأس قبل الانتقال للحديث عن الأباضية من التعرف على دولة بني مدرار وعلى برغواطة:

ويرتبط تاريخ دولة بني مدرار بمدينة سجلماسة، التي وقعت على سيف الصحراء، وبعدت عن مدينة فاس، باتجاه الجنوب الشرقي مسافة ٣١٥ كم، وكانت تعد فيما مضى آخر محطة على الطريق الصحراوي نحو «بلاد السودان»، وشكلت منطقة سجلماسة فيما مضى واحة على وادي زيز، وكان أقدم من تحدث عنها ابن واضح اليعقوبي الذي قال واصفاً إياها: «وسجلماسة مدينة على نهر يقال له زيز، وليس بها عين ولابئر، وبينها وبين البحر عدة مراحل، وأهل سجلماسة أخلاط... أكثرهم من صنهاجة، وزرعهم الدخن والذرة، وزرعهم على الأمطار لقلة المياه عندهم، فإن لم يمطروا لم يكن لهم زرع... وحولها معادن ذهب وفضة»[2].

وبعد هذا تحدث عنها البكري فقال: «ومدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة... ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة حولها أرباض كثيرة، وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة، وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسع أبو منصور بن أبي

---

(١) بحاز ص ٦٤-٦٥. ابن عميرة ص٦٧-٧٦ ـ محمود اسماعيل ص ٣٥ ـ ٦١. جوليان ج٢ ص ٣٤ ـ ٤٠. غوتييه ص ١٩٩ ـ ٢١١.

(٢) البلدان لليعقوبي ص ٣٢٩ (ط. ليدن ١٨٩١).

القاسم... سنة تسع وتسعين ومائة، وارتحل إليها سنة مائتين، وقسمها على القبائل على ماهي عليه اليوم، وهم يلتزمون النقاب.. وهي على نهرين... وماؤها زعاف... وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه... وملك بنومدرار سجلماسة مائة وستين سنة، وكان فيها أبو القاسم سمجوا ابن واسول المكناسي، أبو اليسع المذكور، وجدّ مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس، وسمع منه وكان صاحب ماشية، وكثيراً ما ينتجع موضع سجلماسة، فاجتمع إليه قوم من الصفرية، فلما بلغوا أربعين رجلاً قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود، وولوه أمرهم، فشرعوا في بنيان سجلماسة، وذلك سنة أربع ومائة».

وذكر آخرون أن مدراراً كان حداداً، من ربضية الأندلس، فخرج عند وقعة الربض، فنزل منزلاً بقرب سجلماسة، وموضع سجلماسة إذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتاً ما من السنة يتسوقون بالقرب، فكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها، وسكن البربر حوله، فكان ذلك أصل عمارتها، ثم تمدنت، والأول أصح في عمارتها، وأما مدرار فلاشك فيه أنه كان حداداً لأن ولده القائمين بأمر سجلماسة قد هجوا بذلك»[1].

ورواية البكري الطويلة فيها تناقضات كثيرة، وقد حللها ماك كوك[2]، وحاول الوصول إلى رأي حول تاريخ تأسيس هذه المدينة الهامة، وبين أن المدينة قد أعيد تأسيسها على أنقاض مدينة بنيت في العصر الروماني، وذلك استناداً إلى ما رواه ليون الأفريقي ـ الحسن الوزان[3].

---

(١) أبو عبيد البكري ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ ط. الجزائر ١٨٥٧ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانه. ط. الدار البيضاء ـ دار الثقافة.

(٣) وصف أفريقيا للحسن الوزان، ط. الرياض ١٣٩٩ هـ، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩. ماك كوك ص ٣٦ ـ ٤٥.

وصف أفريقيا للحسن الوزان، ط. الرياض ١٣٩٩ هـ، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩. ماك كوك ص ٣٦ ـ ٤٥.

وعدّ الحبيب الجنحاني هذه الرواية ورواية أخرى أنها بنيت من قبل الاسكندر المقدوني من باب الأساطير، وذهب إلى أن المؤسس لسجلماسة: «هو أحد شيوخ قبيلة مكناسة، أبو القاسم سمكو بن واسول المكناسي الصفري، وقد كان المكناسيون من المياسرة، أي من أنصار ميسرة السقاء زعيم أول انتفاضة مسلحة يقوم بها الخوارج سنة ١٢٢هـ، ضد سياسة الخلافة الأموية في المغرب.

ويبدو أنه اتجه مع جماعة من قبيلة مكناسة نحو الجنوب إلى إحدى واحات الصحراء عازماً على تأسيس إمامة خارجية صفرية بعد أن أخفقت محاولة ميسرة وسلفه خالد بن حميد الزناتي في تأسيسها في منطقة قبيلة مدغرة (أو مطغرة) قرب طنجة، مستغلاً الأوضاع السياسية التي كانت بافريقية سنة١٤٠هـ... ولامناص من التساؤل في هذا الصدد: هل أسست سجلماسة على أنقاض مدينة قديمة؟

إن جميع النصوص التاريخية والجغرافية التي وصلتنا تجمع على أنها مدينة محدثة، ولاتشير إلى آثار قديمة استغلت حجارتها في بناء المدينة الجديدة، كما هو الشأن في تأسيس مدن أخرى، فقد رأينا أن موضع المدينة كان براحاً يجتمع فيه البربر في موسم معين من السنة للتسوق، وينتجع إليه أهل المواشي، وهناك عاملان ساعدا هذا البراح أن يتحول أول الأمر إلى قرية صحراوية ثم إلى مدينة:

أولاً: ما يوفره وادي زيز من مياه كافية طوال السنة..

ثانياً: وجوده على طريق قديم تسلكه القوافل، ويربط بلاد السودان ومنطقة تافللت بمدن الشمال، ويعرف بطريق السلطان»[1].

---

(١) المغرب الاسلامي ص ١٤٨، ١٥١ ـ ١٥٢.

ونواجه هنا مشكلة تتعلق بما رواه البكري قوله: «فأول من وليها عيسى بن مزيد، ثم أنكر أصحابه الصفرية عليه أشياء، فقال أبو الخطاب يوماً لأصحابه في مجلس عيسى: السودان كلهم سرّاق، حتى هذا، وأشار إلى عيسى، فأخذوه وشدوه وثاقاً إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض، فسمي ذلك الجبل جبل عيسى إلى اليوم، ووليهم خمسة عشر عاماً، ثم ولوا أبا القاسم سمجوا بن مزلان بن نزول المكناسي، فلم يزل والياً عليهم إلى أن مات فجأة في آخر سجدة من صلاة للعشاء سنة ثمان وستين، فكانت ولايته ثلاث عشرة سنة»[1].

وإذا ما أخذنا تاريخ سنة ١٦٨هـ وأنزلنا منه مدة حكم كل من عيسى بن مزيد، وأبي القاسم سمجو بن مزلان، نجد أنفسنا مع سنة ١٤٠هـ، ولقد اتفقت روايات المؤرخين والجغرافيين على أن هذه كانت سنة تأسيس سجلماسة[2]، لكن سمجو المكناسي كان ثاني حكامها، والمؤسس للحكم الوراثي للصفرية فيها، أو بكلمة أخرى هو الذي حكم أسرة بني مدرار.

وهامة جدا الاشارات التي وردت في مصادرنا إلى وجود عناصر تجمعت من مختلف القبائل، وانتجعت إلى منطقة سجلماسة المتميزة الموقع والامكانات الزراعية والتجارية، والقريبة من مناجم الفضة والذهب، ففي تنوع القبائل، والاشارة إلى سقاء وحداد ما يعلل التطرف الذي امتازت به حركة الصفرية، لكن لنا أن نسأل هل يا ترى لم يعمر هذا التطرف أكثر من خمس عشرة سنة، هي مدة حكم عيسى بن مزيد، ثم تحولت الزعامة الصفرية إلى زعامة وراثية، مثلما سنجد الأمر لدى الحديث عن دولة الإباضية في تيهرت، ولعل مرد ذلك إلى الاستقرار وتحول

---

(١) البكري: ص ١٤٩ ـ ١٥٠. وانظر أيضاً مادة «المدراريون» في الموسوعة الإسلامية التركية من اعداد إبراهيم حركات.

(٢) الجنحاني ص ١٤٦.

سلجماسة إلى مدينة تجارية هامة، ولايمكن للتطرف التعايش مـع التجـارة، فالمجتمع التجاري مجتمع منفتح لايعرف التعصب.

وقال البكري:«وملك بنو مدرار سجلماسـة مائـة وستين سنة» وقـد نسبت أسرة بني مدرار إلى حفيد سمجو بن واسول المكناسي[1]، ويستدل من البكري، أن ابا الوزير اليـاس بـن ابـي القاسـم سـمجو، قـد ورث أبـاه، وحكم سجلماسـة حتـى خلعه أخـوه أبـو المنتصر اليسع سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م، ويرجح أن عهد ابي المنتصر هذا كان فيصلاً في تاريخ سجلماسة، وتثبيت أركان حكم الأسـرة المدراريـة فيهـا، قـال البكـري: «وكـان جبـاراً عنيداً، فظاً غليظاً، فظفر بمن عانده من البربر وذللهم وأخذ خمس معـادن درعة، واظهر الصفرية، وبنى سور سلجماسة على ما تقدم، وتوفـي سـنة ثمان ومائتين، وولى ابنه مدرار المنتصر بن اليسع، ومدرار لقب»[2].

وعلى هذا لم يقتصر التطور الآن على تحويـل سجلماسـة إلـى مدينـة مسورة،وتأثيل حكمها الوراثي، بل شرع حكامهـا يتخـذون لأنفسـم ألقابـاً على قاعدة المشارقة والأندلسيين آنذاك.

ويثير الاهتمام في نص البكري هذا قولـه: «فظفـر بمـن عـانده مـن البربر» ثم قوله: «وأظهر الصفرية»، فهل يا ترى عارضت قبـائل المنطقـة سلطة مكناسة، أم أنها عارضت مبدأ التوريث، وهـل كـانت الصفريـة غـير معلنة؟.

والمشـكلة الأساسـية بالتـأريخ للصفريـة، أننـا لانمتلـك أدبـاً أنتجـه هؤلاء مثلما فعل الأباضية، لذلك تظل بعض الأمور غامضة، حتـى ليخيـل للمرء أحيانا أن الحكام المدراريين، لم يتمسكوا دوماً بتطبيق مذهبهم، أو

---

(١) البكري ص ١٤٩.

(٢) البكري ص ١٥٠.

لنقل التشدد الصفري، لا بل إن بعضهم انتسب إلى الدعوة الأباضية، فقد ذكر البكري في حديثه عن مدرار أنه لم «يزل والياً إلى أن اختلف الأمر بين ولديه: ميمون المعروف بابن أروى بنت عبد الرحمن بن رستم، وابنه ميمون أيضا المعروف بابن ثقيّة، فتنازعا الأمر بينهما، وتقاتلا ثلاثة أعوام، ومال مدرار مع ابنه ميمون ابن الرستمية، فأخرج ميمون بن ثقية من سجلماسة، وولى ابن الرستمية وخلع أباه، ثم قام عليه أهل سجلماسة فخلعوه، وأرادوا تقديم ميمون بن ثقية، فأبى أن يتآمر على أبيه، فأعادوا أباه مدرارا، ثم أنس أهل سجلماسة أنه قد استدعى ابنه ابن الرستمية فيمن أطاعه من درعه ليوليه، فحاصروا مدراراً وخلعوه، وقدموا ابنه ابن ثقية وهو المعروف بالأمير فلم يزل عليهم والياً إلى أن مات سنة ثلاث وستين ومائتين، وفي امرته مات مدرار أبوه مخلوعاً[1].

فهل يا ترى توفرت لدى مدرار بعض الميول الأباضية، وهل الصراع بين ولديه كان صراعاً أباضياً صفرياً؟ وقد ذكر ابن خلدون هذه الأحداث وزاد أنه بعد وفاة ميمون ولي «ابنه محمد، وكان أباضياً، وتوفي سنة سبعين»[2] وأكثر من هذا حين تحدث ابن خلدون عن أول حكام بني مدرار قال عنه: «وكان أباضياً صفرياً، وخطب في عمله للمنصور والمهدي من بني العباسي»[3].

ولعل هذه المقولة سببها أن أبا القاسم سمجو بن واسول المكناسي كان قد أخذ العقيدة الخارجية عن عكرمة مولى ابن عباس[4]، ووقتها لم يكن هناك تمييز واضح بين الأباضية والصفرية، فقد ذكر الدرجيني في

---

(١) البكري ص ١٥٠.
(٢) ابن خلدون - ط.بيروت ١٩٥٩ - ج٦ ص ٢٦٨ - ٢٦٩.
(٣) ابن خلدون - ج٦ ص ٢٦٨.
(٤) البكري ص ١٤٩. ابن خلدون ج٦ ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

كتابه «طبقات المشايخ بالمغرب»: «حدث غير واحد من أصحابنا عن الإمام أفلح، عن ابنه عبد الوهاب عن جده عبد الرحمن بن رستم أنه قال: أول من جاء يطلب مذهب الأباضية ونحن بقيروان إفريقية سلامة بن سعيد، قال: قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس متعقبين على بعير، فسلامة يدعو إلى مذهب الأباضية، وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية»[1].

هذا وسيرتبط الحديث عن دولة بني مدرار بعد محمد بن ميمون، بأحداث تأسيس الخلافة الفاطمية، ثم بتوسع هذه الدولة ونشر سيطرتها على جميع أرجاء المغرب كله، وتجنباً للتداخل وللتكرار، ندع ذلك إلى مكانه في سياق الأحداث، وننتقل الآن للحديث عن برغواطه.

وليس من السهل التعامل مع **تاريخ برغواطه** والبحث فيه، لأنه ليس لدى البرغواطيين ـ فيما نعلم ـ أدباً مكتوباً[2]، في أي ميدان من الميادين، والذي نمتلكه بعض الاشارات المشوشة إليهم، مع رواية أوردها البكري، وذكر أنه استقاها من مصدر برغواطي.

وأقدم إشارة غير مباشرة إلى برغواطة وغيرها من حركات الخوارج التي شهدتها بلدان المغرب العربي، وردت في كتاب «الفتن» أو «الملاحم والفتن» لنعيم بن حماد المروزي الخزاعي المتوفي سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م، وكان نعيم من أئمة رواة الحديث وكتابه من أقدم كتب الآثار في بابه، وهو يحتوي على صيغة ملحمية لأحداث تاريخ الاسلام، جرى تأطيرها على شكل أحاديث وآثار، وصيغت على شكل نبوءات قدرية مقررة، من قبل، حدث منها ما حدث، وهناك ما سوف يحدث في المستقبل، والذي سوف

---

(١) الدرجيني ـ ط. قسنطينة ١٩٧٤، ج١ ص ١١.

(٢) أورد ابن عذاري في البيان المغرب ج١ ص ٢٢٦ سبعة أبيات من الشعر لسعيد بن هشام المصمودي، وهذه الأبيات تشكل استثناء إذا ثبت أن صاحبها كان من برغواطة.

يحدث يتضمن التطلعات مع أهم ما شغل تفكير الناس وأقلقهم، وحوى كتاب الفتن ثلاثة عناوين لها علاقة بالمغرب أولها: «أول علامة تكون من علامة البربر وأهل المغرب في خروجهم»، والثاني «ما تقدم إلى الناس في خروج البربر وأهل المغرب»، والثالث: «ما يكون من فساد البربر وقتالهم في أرض الشام ومصر ومن يقاتلهم ومنتهى خروجهم، وما يجري على أيديهم من سوء سيرتهم».

وكل أثر ورد تحت هذه العناوين جدير بالقراءة والتحليل وله دلالاته، من ذلك: «إذا أتاكم كتاب من قبل المشرق يقرأ عليكم: من عبدالله أمير المؤمنين، فانتظروا كتاباً آخر يأتيكم من المغرب يقرأ عليكم: من عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين»، ومعلوم أن كلاً من المنصور والسفاح كان اسمه عبدالله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فهل من شك أن الإشارة المغربية إلى عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولة تيهرت الأباضية التي سنتحدث عنها.

وجاء في أثر آخر: «لابد لأهل المغرب من دولة، دولة كفر»[1]، فهل في هذا الأثر يا ترى إشارة إلى برغواطة؟

وكان الرحالة والجغرافي ابن حوقل أقدم من أشار إلى برغواطة: الرباط والدولة والعقيدة والأوضاع العامة في حوالي سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م، فبين أن مؤسس الدولة كان اسمه صالح بن عبد الله، دخل العراق، ودرس شيئاً من النجوم، وصلحت منزلته في علمها... وكان له خط حسن، وفهم بأطراف من العلم، وعاد فنزل بينهم، وكان بربري الأصل مغربي المولد، مضطلعاً بلغة البربر، يفهم غير لسان من ألسنتهم فدعاهم إلى الإيمان به، وذكر أنه نبي ورسول مبعوث إليهم بلغتهم.... وهلك فخلفه وصي كان له أقامه،

(١) الفتن ص ١٥٣ ـ ١٦٤.

يكنى أبا العفير، فزاد فيما رسمه أشياء... فدعاهم إلى النسك وترك الدنيا والاقبال على التقلل والزهد... وفيهم الآن من يقرأ القرآن بغاية الاحترام، ويحفظ منه السور، ويتأول آياته على موافقته لكتابهم وقرآنهم...

وقد يصل إليهم أهل أغمات والسوس أيضاً بالتجارة، وكذلك قوم من أهل سجلماسة وبلدهم بلد مستقل بنفسه عن الحاجة إلى ما في غيره، وفيهم جمال بارع، وشدة وبأس، وصبر على القلاء والمراس[1]».

ولندع مسألة النبوة جانباً ولنقف عند اعتماد برغواطة على البربرية، وأنه كان لدى البرغواطيين القرآن العربي وآخر فيه تفسير أو ترجمة إلى البربرية، وهذا ما أكده البكري، الذي يعد أهم من لديه معلومات عن برغواطه استقاها من رسول برغواطي قدم إلى الأندلس، قال البكري: «أخبر أبو صالح زمّور بن موسى بن هشام بن وارد يزن البرغواطي، وكان صاحب صلاتهم، حين قدم على الحكم المستنصر رسولاً من قبل صاحب برغواطة ابي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير يحمد ابن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف، وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه.... أخبر زمور أن طريفاً أبا ملوكهم.... كان من أصحاب ميسرة المطغري المعروف بالحقير، ومغرور بن طالوت، وإلى طريف نسبت جزيرة طريف، فلما قتل ميسرة، وافترق أصحابه احتل طريف ببلد تامسنا.... وكان على ديانة الاسلام إلى أن هلك هنالك، وتخلف من الولد أربعة، فقدم البربر ابنه صالحاً منهم....

قال زمور: وكان موت صالح بعد موت النبي ﷺ بمائة عام سواء. قال: وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير قال: وكان من أهل

---

(١) صورة الأرض ص ٨٢ ـ ٨٣.

العلم والخير، فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم، وادعى أنه نزل عليه قرآنهم الذي يقرأونه إلى اليوم. قال زمور: وهو صالح المؤمنين، الذي ذكره الله عز وجل في قرآن محمد عليه السلام[1]».

ومن الواضح أن رواية البكري متعاصرة مع رواية ابن حوقل، وهناك توافق بين الروايتين في عدد من النقاط، يتصدرها الاعتماد على نص مقدس كتب بالبربرية، لكن دون أن نعرف هذه البربرية وأبجدية الكتابة فيها، التي من المرجح أنها العربية، هذا ولم ينكر صالح بن طريف نبوة النبي ﷺ، فهل يا ترى لقب «صالح المؤمنين» جاء جرياً على قاعدة ألقاب عصره مع عقيدة المهدي المنتظر، ويلفت الانتباه أن قائمة أسماء الذين تداولوا الحكم في برغواطة أسماء اسلامية، ثم لابد من سؤال: كيف تحولت زعامة الصفرية إلى زعامة أسرة متوارثة؟ وهناك مسألة الزهد تحتاج إلى تعليل، ولعلها كانت من مواريث مثالية الخوارج.

ونجد جواب السؤال المتقدم عند ابن خلدون في قوله: «وأما المصامدة.... فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم، من بطونهم برغواطة وغمارة، وأهل جبل درن، ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة، وكان المتقدم فيهم قبيل الاسلام وصدره برغواطة، ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد، وكان لبرغواطة في عصرهم دولة، ولأهل درن منهم دولة أخرى أو دول»[2].

وأورد ابن خلدون بعد هذا رواية البكري بأكملها، ونستنتج من رواية ابن خلدون هذه ومن قوله عن برغواطة: «كان لهم في صدر الاسلام التقدم والكثرة، وكانوا شعوباً كثيرة مفترقين، وكانت مواطنهم خصوصاً

(١) البكري ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) ابن خلدون ج٦ ص ٤٢٧ ـ ٤٣٠.

من بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأنفي (الدار البيضاء) وآسفي، وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح»، نستنتج أن برغواطة كانت منتشرة على سواحل الأطلسي شروعاً من عند الاتصال بالبحر المتوسط، ولاشك أن الزعامة في برغواطة كانت متوارثة، وبهذا الحكم شارك طريف في فتح الأندلس، فهو الذي قاد سرية استطلاع إلى أرض الأندلس قبل عملية الفتح، ونقرأ في مخطوط مجهول المؤلف عنوانه «ذكر بلاد الأندلس»: «وترك ـ موسى بن نصير ـ والياً على طنجة مولاه طارق بن زياد.... وكان طارق من البربر من قبيل جنزة، وكان محباً في الجهاد، فعزم على غزو الأندلس، فدعا برجل اسمه طريف، ويكنى أبا زرعة، فعقد له على اربعمائة رجل ومائة فارس، وجوزهم إلى الأندلس في أربع سفن برسم الجهاد والتطلع على أحوال الأندلس ومن بها، فجاز أبو زرعة، ونزل بطريف، وبه عرفت طريف إلى اليوم، فلما نزل بطريف أغار على الخضراء، فغنم وسبى وقتل ورجع إلى طنجة، فأخبر طارقاً بسعة البلاد وكثرة نعمها وخيراتها، فأخذ طارق في انشاء السفن والاستعداد إلى الجواز إليها»[1].

وعلى هذا كان طريف بن مالك أكبر زعيم قبلي على مقربة من طنجة، لذلك بعثه طارق بسرية الاستطلاع الناجحة، وشارك طريف وقبائل مصمودة في فتح الأندلس، ففي سنة ٩٢هـ/٧١١م أرسله موسى بن نصير على رأس قوة تكونت من خمسة آلاف مقاتل، لدعم طارق في نجاحاته بعد النزول في لحف جبل طارق، ومن ثم شارك في معركة وادي لكة الحاسمة[2].

ولسنا بحاجة للخوض في تاريخ نشاط الخوارج المبكر في المغرب،

---

(١) ذكر بلاد الأندلس: ٤٤ ـ و.ظ.

(٢) ابن القوطية: ص ٧ ـ ٩. أخبار مجموعة ص ١٧. ابن عذاري ج١ ص ٤٣.

لكن تهمنا الإشارة إلى مشاركة طريف بن مالك في هذا النشاط، بحكم زعامته لبرغواطة، ولقد حافظ على هذه الزعامة بعد القضاء على ميسرة والذين خلفوه مباشرة، لكن ذلك لم يؤثر على زعامة طريف، بل لونها باللون الخارجي الصفري، وتطور الحال إلى نشوء دولة متميزة عقائدياً[1]، استوردت من المشرق ما كان فيه من أفكار وتيارات، ونظراً لأن الزعامة البرغواطية كانت موجودة منذ ما قبل الاسلام، فالآن استمرت بعد قيام الدولة البرغواطية وتلونت باللون الملكي، مذكرين بالوقت نفسه أن الحركات الخارجية في المغرب التي شكلت دولاً، أخذت بمبدأ التوريث الملكي.

وكانت بلدان المشرق قد شهدت في القرن الثاني للهجرة ظهور تيارات فكرية هامة، منها الارجاء، وأهل العدل، والجبرية، كما راجت فكرة المهدي المنتظر وأغنيت بشكل عظيم جداً، ويرجح أن صالح بن طريف حين زار المشرق لقي في دمشق غيلان الدمشقي وتأثر به[2]، ثم سافر إلى العراق، ولابد أنه تعمق هناك بافكار الخوارج في البصرة، وبأفكار الشيعة وسواهم في الكوفة، ثم عاد بعد هذا إلى المغرب، محدثاً في دولة برغواطة نقلة عقائدية نوعية، حيث قال عن نفسه بأنه «المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدّجال، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً»[3].

وإذا أخذنا برواية البكري بأن صالحاً قد توفي سنة ١١١هـ/٧٢٩م، تكون دولة برغواطة أول دولة متمردة استقلت في المغرب، هذا وادعاء المهدية، يعني القبول بفكرة العصمة، والعلم الخاص والقداسة، أي مشابهة

---

(١) دولة بني صالح في تامسنا ص ٤٢ ـ ٤٥.

(٢) البكري ص ١٣٨. الحزبية السياسية منذ قيام الاسلام حتى سقوط الدولة الأموية ص ٢٢٥ ـ ٢٣٠.

(٣) البكري ص ١٣٥.

النبوة، وعلى هذا الأساس نفهم ما رواه البكري من أن البرغواطيين كانوا: «يقدمون مع الاقرار بالنبيين الاقرار بنبوة صالح بن طريف، ونبوة من تولى الأمر بعده من ولده، وأن الكلام الذي ألف لهم وحي من الله تعالى لايشكون فيه، تعالى الله عن ذلك، وصوم رجب، وأكل شهر رمضان، وخمس صلوات في اليوم، وخمس صلوات في الليلة، والتضحية في اليوم الحادي عشر من المحرم، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين، ثم الاستنجاء، ثم المضمضة، وغسل الوجه ومسح العنق والقفاء، وغسل الذراعين من المنكبين، ومسح الراس ثلاث مرات، ومسح الأذنين كذلك، ثم غسل الرجلين من الركبتين، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود...»[1].

وعلى أهمية المادة هذه التي أوردها البكري، الذي يهمنا هنا الإشارة إلى التعددية المذهبية في المغرب في القرن الثاني للهجرة وما تلاه، وأن بلدان المغرب قد راجت فيها فكرة المهدي المنتظر، وتميزه وسموه، ولاشك أن هذا سهل قبول الأدارسة ونجاحهم ثم قبول الدعوة الإسماعيلية ونجاحها في تأسيس الخلافة الفاطمية، لكن هذه النجاحات تبرهن أنها كانت مجرد أمواج شاردة، حيث انتصرت المالكية السنية انتصاراً ساحقاً، لكن ذلك احتاج إلى وقت طويل وجهود متواصلة.

وتعرضت برغواطة لتهديدات عسكرية ولحملات شديدة، لكنها لاقت مصيرها ونهاينها المدمرة على أيدي المرابطين[2]

وقبل الانتقال من الحديث عن برغواطة إلى البحث في تاريخ الرستمية لابد من سؤال: هل ورث المهدي ابن تومرت المصمودي مواريث برغواطة، فجاءنا بالفكر الموحدي، أو لنقل بالعقيدة الموحدية؟ ومعلوم

(١) البكري ص ١٣٨ ـ ١٣٩. انظر مادة برغواطة لحركات في معلمة المغرب.

(٢) ليون الافريقي ص ١٩٩ ـ ٢٠١. ابن عذاري ج١ ص ٩٧. الاستقصا ج١ ص ١١٤ ـ ١٦٦. دولة بني صالح في تامسنا ص ١٠١ ـ ١٠٥.

أيضاً أنه عندما انتصرت قوات الموحدين على المرابطين، ودخلت إلى مدينة مراكش، أبادت كل ما هو مرابطي، فهل يا ترى حمل رجال مصمودة درن أحقاد انتقام قديمة ضد المرابطين؟ وكأني بابن خلدون صاحب نظرية العصبيات يومىء بشكل خفي إلى هذا في كلامه الذي اقتبسناه أعلاه[1].

الدولة الرستمية:

اختلف الأباضية عن غيرهم من الخوارج بأنهم تركوا تراثاً أدبياً ودينياً وتاريخياً عظيماً، ويعود الفضل بذلك إلى صلابة قاعدتهم بالبصرة، ولعدم انقطاع التواصل بين هذه القاعدة وقوى الأباضية، ولاسيما في المغرب وفي عُمان، وفي المغرب قام للأباضية دولة ازدهرت كثيراً واهتمت بالثقافة وأنتجت تراثاً غنياً متنوعاً، وسلف بنا القول أن الفضل يعود إلى الإمام جابر بن زيد في تنظيم الدعوة الأباضية عقائدياً، ويرجح أن الامام جابر قد توفي سنة ٩٣هـ/٧١٢م، وقبل موته كانت الدعوة الأباضية قد لاقت النجاحات الواسعة لاسيما في جنوب شبه جزيرة العرب، وفي المغربين الأدنى والأوسط.

وكان أبرز تلاميذ جابر بن زيد، أبو عبيدة مسلم بن كريمة، فقد لازم الامام جابر حقبة طويلة، بلغت أربعين سنة، وتفرغ بعد وفاة شيخه الإمام جابر للعلم ولتدوين ما تلقاه ونقله، وترك لنا أقدم مصنف في الحديث النبوي هو الجامع الصحيح، وقراءة هذا الكتاب مفيدة وتشكل نقطة انطلاق للتعامل مع بقية المدونات الأباضية.

وقام أبو عبيدة بتكوين تنظيم أباضي سري في البصرة، ولايستبعد

(١) ليون الافريقي ص ١٩٩ ـ ٢٠١. ابن عذاري ج١ ص ٥٧. الاستقصا ج١ ص ١١٤ ـ ١١٦. دولة بني صالح في تامسنا ص ١٠١ ـ ١٠٥.

هنا أنه استعار الخبرة والتجربة من التنظيمات السرية التي عرفتها الحركات الاسلامية، لاسيما في العراق، فالحقبة الزمانية هي حقبة ولادة تنظيم الدعوة العباسية وغيرها من التنظيمات.

ويستحق أبو عبيدة لما بذله من جهود تنظيمية لقب المؤسس الفعلي للمؤسسة الإباضية، فهو قد أوجد مدرسة سرية، أو دار دعوة في داخل مدينة البصرة، وكان المنتمون لهذه الدعوة يجتمعون في سراديب تحت الأرض، وتولت دار الدعوة هذه تخريج الدعاة الذين انتشروا في الأمصار، وحققوا أكبر النجاحات في الشمال الأفريقي، وقد حملت هذه النجاحات أبا عبيدة نفسه إلى قصد المغرب والعمل من هناك، لكن هذا لم يفقد البصرة مركزيتها العقائدية[1].

ونشط الأباضية عسكرياً في أواخر العصر الأموي ومطلع العصر العباسي، لكن على الرغم من النجاحات الواسعة التي حققوها، لم يتحقق لهم السيطرة الدائمة على أهم حواضر المغربين الأدنى والأوسط، لاسيما طرابلس والقيروان، وكما اضطرت فلول الصفرية في المغرب إلى الالتجاء إلى بعض المناطق النائية والحصينة، فعلت فلول الأباضية، وكانت هذه الفلول تحت زعامة عبد الرحمن بن رستم.

وأقدم المصادر الأباضية التي ترجمت لعبد الرحمن بن رستم هو كتاب «سير الأئمة وأخبارهم» لأبي زكريا يحيى بن ابي بكر، وقد ورد اسم ابن رستم فيه: «عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى، الملك الفارسي»، ويبدو أن هذا ادعاء تمّ تبنيه بعد تأسيس الدولة الرستمية، ويناقضه قول المؤلف نفسه: «كان أصله من العراق»، وقد توفي أبوه

---

(١) عوض خليفات «النظم الاجتماعية والتربوية عند الأباضية في شمال افريقيا في مرحلة الكتمان» ص ١٥ ـ ١٩. وله أيضاً «التنظيمات السياسية والادارية عند الأباضية في مرحلة الكتمان» ص ٥ ـ ٩. الأصول التاريخية للفرقة الأباضية ص ٣٦ ـ ٤٣. بحاز ص ٧٣ ـ ٨٠.

في مكة المكرمة، فتزوجت أمه هناك من رجل من أهل القيروان، حملها وابنها إلى هذه المدينة، وفي القيروان نشأ عبد الرحمن، وتأثر كما يبدو بالفكر الأباضي، ونصحه أحد الأباضية بالسفر إلى البصرة والأخذ عن ابي عبيدة مسلم بن كريمة، ومكث عنده سنين عدة، وكان أبو عبيدة «مستخفياً متخوفاً من بعض أمراء البصرة»، لذلك أدخل تلامذته «سرباً، وجعل فيه سلسلة، فصار يعمل القفاف بباب السرب، فمتى رأى شخصاً حرك السلسلة فيسكتون، فإذا انصرف حركها»[1].

واستعرض ابن خلدون أخبار الأباضية، وأتى على ذكر ابن رستم عرضاً فقال: «وهو من ابناء رستم، أمير فارس بالقادسية، وكان من موالي العرب، ومن رؤوس هذه البدعة... وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تيهرت بالمغرب الأوسط، واجتمعت إليه طوائف البربر الأباضية من لماية ولواته ورجالة من نفزاوة، فنزل بها واختط مدينتها سنة اربع وأربعين»[2].

وحديث ابن خلدون يدعم رفضنا للنسب الملكي لابن رستم، مع الاقرار بأنه كان فارسي الأصل مولى للعرب، «ونحن لايهمنا صحة هذا النسب، بقدر ما يهمنا أن عبد الرحمن هذا اعتقد، أو اعتقد الناس على عهده أنه فارسي، فكان من جراء ذلك أن قصدته جماعات الفرس من الشرق، وأنه اعتمد عليهم، ثم بنوه في تدبير شؤون الدولة»[3].

ورسمت المصادر الأباضية سيرة عبد الرحمن بن رستم بشكل عقائدي، وجعلته إماماً مثالياً، وحكت خبر خروجه إلى المغرب الأوسط على شكل ملحمة واجه فيها هذا الامام محنة شديدة هو وابنه عبد الوهاب

---

(١) سير الأئمة وأخبارهم - ط. العربي ص ٣٥ - ٣٦.

(٢) ابن خلدون ج٦ ص ٢٢٥. انظر ايضاً مادة تاهرت في معجم البلدان.

(٣) دولة الرستميين لمحمد بن تاويت التطواني ص ١٠٦.

الذي سوف يخلفه، فقد «خرج عبد الرحمن هو وابنه عبد الوهاب وعبد لهما خائفين مستخفين، متوجهين إلى أرض المغرب، وليس معه حمولة ولا مركوب غير فرس واحد، فمات الفرس في بعض الطريق فدفنوه مخافة أن يُقص أثرهم، فيطمع فيهم، وذلك في خارج قسطيلة، فسمي ذلك الموضع «قبر الفرس»، فلما عدموا الفرس، وقد ضعفت قوى عبد الرحمن، تعاون عليه ابنه يحمله تارة، ويحمله العبد أخرى، فإذا حمله العبد قال عبد الوهاب: إن أدركنا العدو فلاتحطط أبي عن ظهرك لما دون خمسمائة ونحوها، وإذا عيي العبد وحمله عبد الوهاب قال له العبد كقوله له، فلما وصلوا حول وادي سوفجج، وهو جبل منيع قصده عبد الرحمن وتحصن به»[1].

ولحق بعبد الرحمن بعد ذلك عدد من الأباضية، فشكل كما يبدو قاعدة جديدة علم بها ابن الأشعث، وكان هو الوالي العباسي على إفريقية، فقدم فحاصرهم، وطال الحصار وأصيب جنده بالجدري، فاضطر إلى العودة إلى القيروان[2].

وحاول الأباضية من جديد استرداد مواقعهم في إفريقية، فأخفقوا، وهنا قرر أهل الدعوة: «أن ينتخبوا موضعاً يبنون فيه مدينة تكون حصنا لهم، فأرسلوا رجالاً من ذوي المعرفة، وفرقوهم في الجهات يتخيرون مكاناً يصلح لما حاولوه»، ووقع اختيارهم على تيهرت، فاتفقوا مع أهلها، وكان ذلك كما هو مرجح سنة ١٦٢هـ/٧٧٩/ ووقع اتفاقهم على مكان قريب من تيهرت القديمة توفرت له الحصانة والماء، فنظفوه من الأشجار وسواها واتخذوه مدينة[3].

---

(١) الدرجيني: ج١ ص ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) الدرجيني: ج١ ص ٣٦.
(٣) الدرجيني: ج١ ص ٤٠ ـ ٤١.

أما وقد امتلك الأباضية نواةَ مدينـة: «رأوا أن لهـم قـوة تجـب معهـا عليهم تولية إمام، فتشاوروا فيمن يرون لذلك أهلاً من القبائل، فوجدوا من كل قبيلـة رأسـاً أو رأسـين فكـل منهـم أهـل لذلـك، فقـال فضلاؤهـم: إن عبدالرحمن بن رستم ممن لاتجهلون فضله، وهو أحد حملـة العلـم... فهـو أهل للإمامة لدينه وعلمه وسابقته، ومكانه، وغير ذلك من حميد أوصافـه، لاسيما وليست له قبيلة تمنعه إن بدل أو غير[1]».

وهكذا بايع الأبايضة عبد الرحمن بـن رسـتم بالامامـه، شـرط العمـل بكتاب اللـه، وبسـنة نبيـه ﷺ والخلفـاء الراشـدين «فأحسـن السـيرة فـي إمامته ولم ينقم عليه أحـد فـي حكومتـه، ولـم يكـن فـي أيامـه اختـلاف، والأباضية كلها يومئذ مجتمعة متآلفة لم يثر فيها ثائر»[2].

وجاء موقـع تيهـرت الأباضيـة علـى بعـد خمسـة أميـال تقريبـا، مـن تيهرت القديمة، وتحدث ياقوت فـي معجـم البلـدان عـن تيهـرت، بأنـه كـان بينها «وبين المسيلة ست مراحل، وهـي بيـن تلمسـان وقلعـة بنـي حمـاد، وهي كثيرة الأنواء والضباب والأمطار، حتى إن الشمس بها قل أن تـرى... وهـي مدينـة جليلـة، وكـانت قديمـاً تسـمى عـراق المغـرب... وهـي مدينـة مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا، وباب المنازل، وباب الأندلـس، وبـاب المطاحن، وهي في سفح جبل يقال لـه جـزول، ولهـا قصبـة مشـرفة علـى السوق تسـمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة، وهو فـي قبلتها، ونهر آخر يجـري مـن عيـون تجتمـع تسـمى تـاتش، ومنـه شرب أهلها وأرضها، وهو فـي شرقيها، وفيها جميـع الثمار»[3].

وأسس الفرنسيون في موقع تيهرت مدينة دعيت باسم تيارت، وكان

---

(1) الدرجيني: ج1 ص 42.

(2) الدرجيني: ج1 ص 42.

(3) معجم البلدان. مادة تاهرت.

الأمير عبد القادر الجزائري قد «نزل بين سنتي ١٨٣٥ و١٨٤١ بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالاً بعد رحيله»[1].

وكان اثنان من الفرنسيين قاما بحفريات في تيهرت، وقد كشفا «عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء، وبقايا من الفخار، كما أنهما ضبطا موقع القصبة مقر أمراء بني رستم، وانتهيا بعد البحث إلى أن تيهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة مهيأة للصمود عند الحصار الطويل، وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن، ومن جهة أخرى، فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الخزف بتهيرت كان بدائياً بسيطاً»[2].

ويتفق هذا مع ما جاء عند ياقوت، ومع ما رواه ابن الصغير عن تطور الحركة العمرانية في المدينة الأباضية الجديدة، وكذلك الحال السياسي والاداري قال ابن الصغير: «لما ولي عبد الرحمن بن رستم ما ولي من أمور الناس شمر مئزره، وأحسن سيرته، وجلس في مسجده للأرملة والضعيف، ولايخاف في الله لومة لائم فطار ذلك في أطراف الأرض مشارقها ومغاربها حتى اتصل ذلك بإخوانهم من أهل البصرة وغيرها من البلدان، فلما علموا ذلك من أمره جمعوا أموالاً عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم... فمضى القوم حتى أتوا المدينة... (وأخذوا) يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الإمام عبد الرحمن، حتى وقفوا عليها، وأصابوا عند بابها غلاماً يعجن طيناً ورجلاً على سطح يصلح شقاقاً فيه، والغلام يناوله ما يصلح له، فسلموا على الغلام، فرد السلام، ثم قالوا: هذه دار الإمام؟ فقال: نعم، فقالوا له: استأذن لنا منه، وأعلمه أنا رسل أخوانه إليه من البصرة، فرفع الغلام رأسه إلى سيده، وقد علم أنه

---

(١) شارل أندريه جوليان ج٢ ص ٤٣.

(٢) جوليان ج٢ ص ٤٣ - ٤٤.

سمع كلامهم، فقال: قل للقوم يصبروا قليلاً، ثم أقبل على ما كان عليه من إصلاح عمله، حتى انقضى والقوم ينظرون إليه، وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا، حتى نزل عن سطحه إلى داره، فغسل ما كان بيده من أثر الطين، ثم توضأ وضوء الصلاة، فأذن للقوم، فدخلوا عليه، فوجدوا رجلاً جالساً على حصير فوقه جلد وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه، وفرس مربوط في ناحية من داره، فسلموا عليه وأعلموه أنهم رسل أخوانه إليه، فأمر غلامه بإحضار طعامه، فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت، وسمن، وشيء من ملح، فأمر بتلك القرص، فهشمت وأمر بالسمن فلثت به، ثم قال: على اسم الله، أدنوا وكلوا ثم أكل معهم»[1].

ولم تعمر هذه الصورة المثالية طويلاً، حيث نشطت حركة الهجرة إلى تيهرت، وكان بين المهاجرين بعض التجار، وراجت الحركة الاقتصادية والتجارية، فأدى ذلك إلى تحولات في العمران والمسلك السلطوي، والقاعدة أثناء التحولات من الحالة الساذجة المثالية نحو حالة الدولة الملكية، تكون هناك ردات فعل عنيفة وانشقاقات، وهذا ما سوف تعاني منه الحركة الأباضية، بقيام الحركة النكارية، التي سنقف عندها بعض الوقت.

وكان ممن هاجر إلى تيهرت مجموعات من الواصلية المعتزلة، وهكذا نشطت حركة العمران في المدينة الجديدة، فصارت تعرف باسم «عراق المغرب» و«بلخ المغرب» فقد هاجرت أعداد من الأعاجم إلى تيهرت، وعملت في إدارة الدولة، واتخذ بعضها المتاجر، ومع الأيام تحول رجال الدين لدى الأباضية مع الأعيان إلى أرستقراطية، وجاء هذا مع أواخر أيام عبد الرحمن بن رستم، فبعد ثلاث سنوات من قدوم المعونة البصرية

---

(١) أخبار الأئمة الرستميين، ص ٢٨ ـ ٢٩.

الأولى إلى تيهرت أرسلت معونة جديدة من المشرق وعندما وصل حملتها إلى تيهرت وجدوا «الأمور قد تبدلت، وأحوال المدينة والأشياء قد حالت، وذلك أنهم نظروا إلى قصور قد بنيت، وإلى بساتين قد غرست، وإلى أرحاء قد نصبت، وإلى خيول قد ركبت، وإلى حفدة قد اتخذت الستور، والعبيد والخدام قد كثرت»[1].

وتبعاً للمصادر الأباضية واجه عبد الرحمن بن رستم في أواخر أيامه مسألة مصير السلطة من بعده، فاقتدى هنا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب بأن «جعل الإمامة شورى في سته» كان بينهم ابنه عبد الوهاب، وطبعاً عندما فعل هذا خالف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الذي لم يرشح ابنه لينتخب بين رجال الشورى، بل ليرجح بين الأصوات إن قضت الحاجة، ومثلما حدث بين شورى الستة بعد وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كان ما حدث هنا إلى بعض الحدود، فهناك حصرت المنافسة بين اثنين من الصحابة الكرام هما: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهنا ايضا لما مات الامام عبد الرحمن «اجتمع أهل الشورى يتفاوضون فيمن يولونه أمور المسلمين، فتدافعها بعضهم إلى بعض، إلا أن عامة المسلمين مالت نفوسهم إلى اثنين من النفر المسلمين: أحدهما مسعود [الأندلسي] والآخر عبد الوهاب، فبعضهم أراد تولية هذا، وبعضهم أراد تولية هذا، فمكثوا نحو شهرين يرون الرأي، ثم إن الجمهور رجحوا مسعوداً، أو مالت نفوسهم إلى توليته، فتبادروا ليبايعوه، فهرب واختفى، فابتدروا عبد الوهاب ليبايعوه، فلما سمع مسعود بتركهم إياه وطلبهم عبد الوهاب، خرج مبادراً ليكون أول من يبايعه»[2].

ومثلما حدث من قبل في العصر الراشدي، حيث شكلت خلافة

---

(١) ابن الصغير ص ٣٣. الدرجيني ج١ ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) الدرجيني ج١ ص ٤٦ ـ ٧٤. السير لأبي زكريا ص ٥٦. السير للشماخي، ج١ ص ١٤٤ ـ ١٥١.

عثمان ابن عفان رضي الله عنه، المقدمة لاستيلاء بني أمية على سلطات الخلافة، شكلت إمامة عبد الوهاب بن رستم، المدخل لقيام حكم وراثي في تيهرت، وكما الحال من قبل أسهم هذا كله في نشوء الانشقاق الإسلامي العظيم، ونشوب الحروب الأهلية، أسهم وصول عبد الوهاب بن رستم إلى السلطة في انشقاق صفوف الأباضية إلى وهبية ونكارية، هذا وسنعرج بعض التعريج على ثورة صاحب الأتان مخلد بن كيداد النكاري ضد الخلافة الفاطمية[1].

وكان تاريخ وصول عبد الوهاب إلى الملك سنة ١٦٨هـ/٧٨٤م، وكان للتحول إلى الملك ردات فعل شديدة بين بعض فئات الأباضية، وبين جماعة عقائدية أخرى كانت تساكنهم عرفت باسم الواصلية، والتفّ المعارضون حول زعيم اسمه يزيد بن فندين، وكان واحداً من شورى الستة، وحملوا السلاح، وجرت معارك بين الطرفين، قتل فيها ابن لعبد الوهاب، وحاول المنشقون اغتيال عبد الوهاب فأخفقوا، وانتصر الدهاء السياسي المدعوم بالقوة على مثالية المنشقين، وتعقدت الأمور كثيراً نظراً للوضع القبلي، ومثلمافعل معاوية بن أبي سفيان في القديم بعقد مصاهرات مع بعض القبائل وتحالفات، فعل عبد الوهاب الشيء نفسه، وحقق النجاحات، ذلك أنه كان قد «انتقل من حال الامامة إلى حال الملك»[2].

وخاض عبد الوهاب المعارك القاسية ضد خصومه من القبائل، وحقق النصر، وفي معركة حاسمة له ضد بني أوس هوارة كان «قتال شديد له غبار سد ما بين الخافقين، قال وعبد الوهاب ينظر يميناً وشمالاً

---

(١) عالج د. محمد بن عميرة تاريخ الحركة النكارية وملابسات ظهورها في مجلة التاريخ الصادرة عن المركز الوطني للدراسات التاريخية ـ الجزائر، العدد ٢٠ (١٩٨٥) ص ٣٣ ـ ٤٩.

(٢) ابن الصغير ص ٣٩ ـ ٤٤. الدرجيني ج١ ص ٥٢ ـ ٥٦.

أو قلباً، فإذا صرف نظره ذات اليمين رأى فارساً، فيقول: من الفارس هذا قد أجفل الناس؟ فيقال له ابنك افلح، قال: وإذا صرف بصره ذات اليسار رأى مثل ذلك، فيقول: من الفارس؟ فيقال له: ابنك أفلح، قالوا: وإذا صرف بصره في القلب رأى مثل ذلك، فيقول: من الفارس؟ فيقال له: ابنك أفلح، قال: لقد استحق أفلح الإمامة»[1].

هذا واتسعت رقعة دولة الرستميين، وباتت تشغل دوراً في سياسات المغرب والأندلس، ولم يبرهن عبد الوهاب على الكفاءة السياسية فقط، بل كان عالماً متمكناً، ويقال بأنه ألف كتاباً عرف باسم «مسائل نفوسة الجبل، لأنه نفوسة كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها فأجابها عن كل مسألة مما سألت عنه، وكان هذا الكتاب في أيدي الأباضية مشهوراً عندهم معلوماً يتداولونه قرناً بعد قرن»[2].

واهتم الرستميون بالثقافة والعلوم وبحرية الفكر «وكان بيت الرستميين بيت العلوم وجامعاً لفنونها، من علم التفسير والحديث، والفرائض والأصول والفروع، وعلم اللسان، وعلم النجوم... وبلغنا أن عبد الوهاب بعث ألف دينار إلى أخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتباً، فاقتضى نظرهم أن يشتروها ورقاً وتطوعوا بالمداد وأجرة النساخ والمفسرين، حتى أكملوا ديواناً عظيماً، فبعثوا به إليه، فشق جميع الديوان، فقال: الحمد لله، إذ ليست فيه مسألة غريبت عني إلا مسألتان، ولو سئلت عنهما لأجبت قياساً على نظائرهما ووافقت الصواب»[3].

وتوفي عبد الوهاب سنة ١٦٨هـ/٧٨٥ وخلفه ابنه أفلح فأخذ

---

(١) ابن الصغير ص ٤٤ - ٤٧. الدرجيني ج١ ص ٦٦ - ٧٢.

(٢) ابن الصغير ص ٣٩.

(٣) الدرجيني ج١ ص ٥٦ - ٥٧. سير الأئمة لأبي زكريا ص ٦٤ - ٦٥. دولة الرستميين لابن تاويت ص ١١٤ - ١١٨.

«بالعزم والحزم، ونشأ له من البنين ما لم يكن لغيره ممن قبله، وطار له الصيت»[1]، وعدّ أفلح بين أهم أئمة تيهرت مقدرة ودهاء، استطاع أن يتعايش مع أجواء الصراعات في المغرب والأندلس، فقد تعددت القوى المغربية الأندلسية، آخذين بعين التقدير وضع دولة الأغالبة، وأوضاع الأدارسة وسواهم، والسياسة الأموية تجاه بلدان المغرب الأقصى[2].

ووصف أفلح بالعلم وسمو الثقافة، وقد نجح في إرساء حكمه علىتوازنات دقيقة، وساعده على ذلك طول المدة التي حكمها: «وكان أفلح قد عمر في إمارته ما لم يعمره أحد ممن كان قبله، فأقام خمسين عاماً أميراً حتى نشأ له البنون وبنو البنين، وشمخ في ملكه وابتنى القصور... وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة وأجروا الأنهر... وانتشرت القبائل وعمرت العمائر، وكثرت الأموال بأيديهم، وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنت المدينة العامرة اليوم، وأمنت الساحات، وكثرت الأموال... وكان للعجم مقدم يقال له ابن وردة قد ابتنى سوقاً يعرف به... وكانت نفوسة تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال وانكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق، وكانت الأجناد بطانة السلطان وأولاده وحشمه... وكانت القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت لما اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول قد نالها من الكبر ما نال أهل المدينة، حتى خاف أفلح أن تجتمع الأيدي عليه فتزيل ملكه، فلما رأى ذلك ارشى ما بين كل قبيلة ومجاورها... حتى تنافرت النفوس، ووقعت الحروب،

---

(١) ابن الصغير ص ٤٩.

(٢) ابن تاويت ص ١١٨ ـ ١٢٢.

وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفاً من أن يعين صاحبها عليها»[1].

وتوفي أفلح سنة ٢٥٨هـ/٨٧٢م، وكان ابنه محمد أبو اليقظان، وهو ابرز أولاده غائباً مسجوناً في بغداد، حيث اعتقل أثناء حجه، لذلك قام بأمر الامامة بعد أفلح ابنه ابو بكر، وكان يؤثر الراحة، وبعد أمد وجيز عاد أخوه أبو اليقظان من المشرق، فتولى تسيير أمور الدولة، وعاونه في عمله صهر أبي بكر محمد بن عرفة، وحدثت صراعات على السلطة، اغتيل خلالها محمد بن عرفة، وتلا ذلك حرب أهلية في تيهرت كادت أن تودي بالدولة الرستمية، وتدمر الازدهار الذي عرفته[2]، لكن أبا اليقظان تمكن بعد سبع سنوات من استرداد تيهرت، وقد أعاد الأمور في تيهرت إلى سالف عهدها، «وعاش من السنين مائة ونحوها، وكان عمره في امارته نحو أربعين عاماً... وكان مربع القامة ابيض الرأس واللحية... وكان زاهداً ورعاً ناسكاً سكيناً»[3] «وكانت نفوسة الجبل مفتونة بأبي اليقظان حتى أنها أقامته في دينها وتحليلها وتحريمها مثلما أقامت النصارى عيسى بن مريم، وكان أكثرهم لا يحج إلا باستئذانه، وكانت المرأة تبعث بابنها أو ابنتها يأخذ لها الأذن منه، وكان إذا ضرب سرادقه وأتته وفودهم لاينامون الليل حول فسطاطه شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى إلى الفجر، فإذا صلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم إلى الأرض فناموا»[4].

ومات أبو اليقظان سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وبويع من بعده ابنه أبو حاتم يوسف، ولم يعمر حكمه طويلاً في تيهرت، بل أُخرج منها، ثم عاد إليها وظلت أوضاعه غير مستقرة حتى قتل سنة ٢٩٤هـ/٩٠٧م، وتسلم السلطة

(١) ابن الصغير ص ٥٢ ـ ٥٥.
(٢) ابن الصغير ص ٦١ ـ ٧٤. الدرجيني ج١ ص ٨٣.
(٣) ابن الصغير ص ٨٠ ـ ٨١.
(٤) ابن الصغير ص ٨٥. الدرجيني ج١ ص ٨٣ ـ ٨٤.

بعده وسط أجواء قاسية أخوه اليقظان بن أبي اليقظان، ولم تطل مدة حكمه أكثر من عامين، فقد سقط ودولته سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩ لقوى الدعوة الإسماعيلية الصاعدة[1] وبذلك زالت دولة بني رستم بعدما عاشت ما يزيد على مائة وثلاثين سنة.

ونعود مجدداً لنتساءل عن الجانب العقائدي لدى أباضية تيهرت، ولحسن الحظ نمتلك مصدراً أساسياً يمكننا من معالجة هذه القضية معالجة وثائقية، وهذا المصدر هو كتاب «بدء الإسلام وشرائع الدين» لابن سلام الأباضي، الذي كان حياً سنة ٢٧٣هـ/٨٨٧م، وفي هذا المصدر الغني بمادته نقرأ قول صاحبه: «ديننا دين الله الذي شرع لنبيه محمد عليه السلام»[2]، و«شرائع الاسلام: شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»[3].

وتحدث المؤلف عن فضائل عدد من الصحابة عليهم السلام هم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود[4]، وقال بعد هذا: « وديننا دين الجماعة من أصحاب النبي عليه السلام من المهاجرين والأنصار، ودين ما اجتمعوا عليه، وتألفوا عليه قبل افتراق الأمة واختلافها»[5]، ثم قال: «وشرائع الإسلام: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وما جاء به حق، والإيمان بما أنزل الله والأمر

---

(١) ابن الصغير ص ٨٩ ـ ١٠١. سير أبي زكريا ص ٩٩. الدرجيني ج١ ص ٨٤ ـ ٩١. الشماخي ج١ ص ٢٨٧ ـ ٢٩٣. محمود إسماعيل ص ١٧١ ـ ١٧٦ بحاز من ١٢٦ ـ ١٣١. سعد زغلول ص ٤٣٩ ـ ٣٩٥.

(٢) بدء الاسلام وشرائع الدين ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٧٠ ـ ٧٨.

(٥) المصدر نفسه ص ٧٩.

بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وصيام رمضان وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى له ثلاثة حقوق: حق القرابة، وحق الجوار، وحق الاسلام، والجار الجنب له حقان: حق الجوار، وحق الاسلام، والجار الذي له حق واحد هو الذمي اليهودي أو النصراني، له حق الجوار، ومن حق الجوار أن تبذل له معروفك، وتكف عنه أذاك»[1].

وأورد المؤلف نص رسالة شرعية كتبها الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن، تضمنت الأسس المتقدمة أعلاه[2]، والملاحظ أن مصنف هذا الكتاب لم يلجأ لا إلى المعالجة الكلامية أو الفلسفية لبعض مواده، وكذلك لم يتوفر لديه لا التأويل أو التفسير الباطني، الذي وجد عند الشيعة، ورأينا بعض ملامحه لدى برغواطة ولقد راجت العربية في دولة تيهرت، وفيها اعتمدت من جميع النواحي، فهذا ما يمكن استخلاصه من هذا الكتاب، ومما تقدم من أخبار.

دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، وتأسيس مدينة فاس:

كثيراً ما تتضافر عوامل الجغرافية والتطورات الدينية، فتهيء الفرصة لقيام حدث تاريخي كبير، وقد ينطبق هذا على قيام دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، المستعرض لتاريخ الدولة العباسية، يشهد وقوع صدام حاد بين الأسرة العباسية وأبناء عمهم من آل علي بن أبي طالب، وإذا كان أبناء الحسين قد قادوا لواء المعارضة للأمويين، فأبناء الحسن هم الذين قادوا لواء المعارضة للعباسيين، وبطش العباسيون بالعلويين بشدة تفوقت دموياً على بطش بني أمية.

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٣.

وكان أول من أقض مضجع العباسيين في بداية تأسيس دولتهم محمد النفس الزكية، الذي استدرج للثورة في الحجاز أيام أبي جعفر المنصور، وقد ثار بعده أخوه ابراهيم في البصرة، وقضى المنصور على الأخوين، وكان ذلك سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م[1].

وكان النفس الزكية مع أخيه ابراهيم اثنين بين عدة أخوة لعبد الله المثنى، ولعل أشهر هؤلاء الأخوة وأبعدهم صيتاً في التاريخ هو المولى ادريس، وفي المغرب الأقصى وأفريقيا يلاحظ الإنسان أن الملايين من الناس ينسبون أنفسهم إليه، ولا شك أن كيان شخصية المغرب الأقصى قد ارتبط به.

ولم ينه القضاء على ثورة النفس الزكية وأخيه ابراهيم تحركات الشيعة بزعامة البيت الحسني، ففي زمن الخليفة الهادي حفيد المنصور، ثار زعيم جديد اسمه الحسين بن علي على السلطة العباسية، ولما تناهت أخبار ثورته إلى الخليفة، بعث جيشاً، التقى بالثوار عند مكان يقال له فخ، بين مكة والمدينة، حيث جرى قتال عنيف، وحيث جدد العباسيون ذكريات سفك الدماء في كربلاء[2].

وكان ادريس الابن الرابع لعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ممن شارك في معركة فخ، وكتبت له الحياة، ففر أولاً مع أخيه

---

(١) تاريخ خليفة جـ٢ ص ٦٥٠. تاريخ اليعقوبي جـ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٩. تاريخ الطبري جـ ٧ ص ٥١٧ ـ ٦٤٩. تاريخ الموصل للأزدي ص ١٨٠ ـ ١٩٥. العيون والحدائق لمجهول جـ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٥٧. مقاتل الطالبيين ص ٢٣٢ ـ ٢٩٩، ٣١٥ ـ ٣٨٦. مروج الذهب ج٣ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨. العباسيون الأوائل جـ ١ ص ١٦٣ ـ ٢١٨. دولة بني العباس ص ٢١٤ ـ ٢٦٦.

(٢) من أقدم المصادر حول فخ كتاب «أخبار فخ» لأحمد سهل الرازي ـ بيروت ١٩٩٥. وانظر أيضاً: تاريخ خليفة ج٢ ص ٧٠٤. تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥. تاريخ الطبري جـ ٨ ص ١٩٣ ـ ٢٠٣. مقاتل الطالبيين من ٤٣١ ـ ٤٦٠. العيون والحدائق جـ ٣ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥. مروج الذهب جـ٣ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

الأسن منه يحيى إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة في الموسم، وشرع يحيى بن عبد الله بإعادة التنظيم الحسني، فاجتمع مع سبعين «رجلاً من خيار أهل الأرض» في شعب الحضارمة بمنى «وشاورهم فأشاروا عليه، واتفق رأيهم على أن يوجهه في أمصار المسلمين... فوجه إلى أهل العراق ثلاثة، وإلى أهل المغرب ثلاثة ومعهم أخوه ادريس»[1].

واتصل خبر توجه ادريس بالخليفة هارون الرشيد «فبث في طلبه العيون والجواسيس، ووضع المراصد»، ولاقي ادريس صعوبات جمة في مصر وحاول الرشيد إلقاء القبض عليه فأخفق، وكذلك حاول اغتياله، فلم يوفق، وتمكن ادريس من الوصول أولاً إلى منطقة طرابلس، حيث التجأ إلى جبال نفوسه «وهي قبيلة من قبائل البربر خوارج، فمنعوه من أن يصل إليه أصحاب» والي إفريقية العباس ولعل المولى ادريس حاول أن يستغل الخلافات بين الخوارج إثر وصول عبد الوهاب ابن رستم إلى السلطة في تيهرت، وهنا بادر الوالي العباسي روح بن حاتم إلى مراسلة عبد الوهاب بن رستم قائلاً: «هذا ادريس بن عبد الله، وأنت عارف بعداوته لك ولمن مضى من سلفك، ولو ظفر بك لتقرب بدمك إلى الله»، وراسل ابن رستم نفوسه حول إدريس فنشب الخلاف بين صفوف القبيلة، فاضطر ادريس إلى قصد المغرب الأقصى[2].

ويبدو أن ادريس امتلك بركابه جهاز دعوة، فقد ذكر الرازي قيامه بمراسلة «قبائل البربر أهل شلف، وتاهرت، وزناته، وزواغه، وطنجة، وصنهاجة ولواته، فاستجابوا له ووعدوه النصر»[3].

ولم تكن دعوة ادريس دعوة شيعية متميزة بأي حال من الأحوال،

---

(١) الرازي أخبار فخ ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) الرازي ص ١٧٠ ـ ١٧٥.

(٣) الرازي ص ١٧٥.

بل كان توجهه توجه أهل السنة، فقد قال في رسالته إلى القبائل: «أما بعد: فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه، وإلى العدل في الرعية، والقسم بالسوية ودفع المظالم والأخذ بيد المظلوم، وإحياء السنة وإماتة البدعة، وانفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد»[1].

ومن الصعب قبول ما ذهب إليه بعضهم من أن الأدارسة كانوا يأخذون بالمذهب الزيدي وكل ما في الأمر أن التسنن انتشر في المغرب، وكان للأندلس وللقيروان دورهما في ذلك، يضاف إلى هذا اضطراب سلطة الولاة العباسيين في القيروان، وما شهدته ساحات خوارج تيهرت من صراعات، وقيام الحركة النكارية، ووجود دولة سجلماسة الصفرية، وبرغواطة، ومع توفر المطامع لدى بعض الزعامات القبلية، فهذا كله أوجد من الأجواء ما ساعد ادريس أخيراً على النجاح.

ولا يعنينا تفصيل ما حدث مع المولى ادريس، ويهمنا أن نبين هنا أن ما ذكره الرازي أقرب زمنيا مما جاء لدى المؤرخين المغاربة، خاصة لدى ابن أبي زرع، والحلبي صاحب الدر النفيس، يضاف إلى هذا إجماع الرواة على أن هارون الرشيد كان يتتبع أخبار المولى ادريس، ويضع الخطط للتخلص منه.

ومن المرجح وصول المولى ادريس إلى مدينة طنجة في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م، وكان أبرز من معه مولى له اسمه راشد، وقصد في سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م إلى داخل المغرب الأقصى، فنزل مدينة وليلي، في منطقة جبل زرهون الحصينة، والكثيرة الماء والثراء الزراعي، ومدينة وليلي أسست في أيام الحكم الروماني للمغرب، وفيها آثار هامة، وتبعد خرائبها الآن عن مدينة مكناس حوالي العشرة أميال.

---

(١) الرازي ص ١٧٦.

وكانت وليلي تحت سيطرة قبائل أوربة، وقد اتصل المولى ادريس بزعيم أوربة، وكانت هذه القبائل على درجة كبيرة من القوة والمنعة وكثرة الرجال، ولعلها كانت متأثرة بحب آل البيت الذي هو طبائع أهل السنة، ولاقى المولى ادريس القبول، وتمكن بسرعة كبيرة من أن يجمع حوله جيشاً من رجالات القبائل، ويفيد هذا أنه امتلك طاقات دعوية وتنظيمية كبيرة، ونال المولى ادريس البيعة بالامامة، وشرع في تأسيس مملكة تحكم مناطق المغرب الأقصى مع مناطق من المتوسط، وكان جميع من في المغرب الكبير قد اعتادوا على حكم الأسر الوراثية، فكيف نحن بأسرة إمامه ؟!.

وتوفرت النجاحات للمولى ادريس بسرعة مدهشة، حيث لم يكن في المنطقة التي تمركز بها سلطة للعباسيين أو سواهم، كما أن الإمارة الأموية في الأندلس كانت مشغولة بقضاياها الداخلية، خاصة بحركة المولدين وثورتهم الكبرى بزعامة ابن حفصون.

وطارت شهرة المولى ادريس في الشمال الأفريقي، فقصده عدد من أهل القيروان وسواهم، وربما من أهل الأندلس، وتمكن أن يستفيد من جهود هؤلاء في تكوين نواة ادارية لدولته الناشئة، وأخاف نجاح ادريس سلطات القيروان وكانت قد أخفقت من قبل في اعتقاله، ولم يكن بمقدورها الآن القيام بعمل عسكري ضده، وهذا ما أعلمت بغداد به، وخليفتها هرون الرشيد.

وكان الرشيد أسير مشاغله المشرقية، التي تبدت في ثورات خراسان، والنشاط العسكري للامبراطورية البيزنطية في مناطق الثغور، ولهذا لم يكن بمقدور الرشيد ارسال جيش كبير إلى المغرب، ثم إن حكام القيروان، بميولهم الاستقلالية الواضحة، ما كانوا يحبذون قدوم هذا الجيش.

لذلك قرر الرشيد أن يبعث أحد رجالاته المغرب الأقصى ليتصل بادريس، وينتهز الفرصة لاغتياله، والرجل الذي وقع الاختيار عليه كان اسمه سليمان ابن جرير، وقدم سليمان إلى وليلي، واستطاع دون صعوبة الالتحاق بخدمة المولى ادريس، وأن ينال ثقته، وبعد طويل انتظار وجد فرصته فدس السم له وقتله، وفر سليمان بعدما قضى فعلته هذه، واستطاع أن يصل حياً إلى العراق، حيث أخبر الخليفة بنجاحه، وكان مقتل ادريس سنة سبع وسبعين ومائة، أي بعد خمس سنوات من وصوله إلى وليلي، ويعتقد المؤرخون المغاربة أنه لم يدفن في وليلي، بل إن ذلك كان على مقربة منها، وفي المغرب الآن على مسافة ميلين تقريباً من وليلي، تقوم قرية صغيرة، جبلية مرتفعة، تعرف باسم مولاي ادريس، وهي تحوي ضريحاً فخماً جداً، بني حوله مسجد، ومن المعتقد أن هذا الضريح يضم رفات المولى ادريس، وهو محج لأهل المغرب، كما أنه مقر لنشاطات دينية موسمية كبيرة.

وإلى المولى ادريس ينسب التفكير، أو الشروع في تأسيس مدينة فاس، التي قامت في عهد ادريس الثاني إذ يقال بأن جارية قبلية اسمها كنزة من جواري المولى ادريس، أنجبت بعد وفاته غلاماً ذكراً، حمل اسم أبيه[1].

وهناك من الرواة من يقول بأن وفاة ادريس كانت سنة ١٧٥هـ/٧٩١م، وهناك من يقول بأنها تأخرت عن سنة ١٧٧هـ/٧٩٢م، وبوفاته شغرت الامامة، فاستطاع راشد أن يتدبر الأمور، بأن اتفق مع

---

(١) اليعقوبي جـ٢ ص ٤٠٥. مقاتل الطالبيين ص ٤٨٧ ــ ٤٩١. الرازي ص ١٨٩، ٣٢٥ ــ ٣٢٨. الأنيس المطرب لابن أبي زرع ص ٢٠ ـ ٢٥. أعمال الأعلام لابن الخطيب ـ نشر باسم تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ـ ص ١٨٨ ـ ١٩٦. تاريخ دولة الأدارسة لأبي عبد الله التنبسي ص ٣٤ ــ ٣٧. الدر النفيس للحلبي الباب الثاني بفصوله كلها. البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٠. ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٣ ـ ٥٧. الاستقصا جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٧.

زعماء القبائل على ادارة الأمور حتى ولادة جاريته كنزة، وقد ولدت بعد شهرين من وفاته ادريس الثاني، الذي تولى راشد تربيته والإشراف عليه، حتى صار يافعاً، ففي الحادية عشرة من عمره بويع بالإمامة وكان ذلك سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م[1].

ومن المرجح أن مبايعة إدريس الثاني بالامامة المبكرة، حدثت بسبب وفاة الوصي عليه راشد، مع أن ابن أبي زرع يروي بأن وفاة راشد حدثت بعد البيعة، والمهم أن عمَّ لبيعته أصداء واسعة في المغرب والأندلس ويقول ابن أبي زرع: «وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على ادريس رضي الله عنه وفود العرب من بلاد إفريقية، وبلاد الأندلس في نحو الخمسمائة فارس، ...فجعلهم بطانته دون البربر، فاعتز بهم... ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق، فكثر الناس، وضاقت بهم مدينة وليلي»[2].

وارتاد ادريس مكانا يبني عليه مدينة يتخذها قاعدة لملكه، ويقال إن اختياره وقع أولاً على منطقة حمة جولان ـ سيدي حرازم ـ على أميال من فاس الحالية، لكنه ما لبث أن غيّر رأيه وتوجه إلى موقع مدينة فاس الحالية، وكان ذلك سنة ١٩١هـ/٨٠٦م، وتقرر بناء مدينة هناك.

ويبدو أن الموقع لم يكن شاغراً، بل سكنته بعض القبائل، ويرجح أيضاً أن بعض الأندلسيين، ممن هرب من هذه البلاد أيام الحكم الربضي، قد قطن هناك، يضاف إليهم بعض الوافدين من القيروان، فالمدينة الأساسية تقع على ضفتين أحد فروع نهر سبو، وهي في الحقيقة مكونة من مدينتين هما عدوة الأندلسيين، وعدوة القرويين، واسم فاس مشتق من

---

(١) البكري ص ١٢٣. روض القرطاس ص ٢٥ ـ ٣٢. الحلبي ـ الباب الثالث بأكمله. ابن الخطيب ص ١٩٦ ـ ١٩٨. التنيسي ص ٣٨ ـ ٣٩. الاستقصا جـ ١ ص ١٦٠ ـ ١٦٤.

(٢) ابن أبي زرع ص ٢٩.

كلمة تعني شاطئ النهر، ولسنا هنا بصدد التقصي بالبحث في تاريخ فاس، لكن الذي يهمنا هو الاشارة إلىالدور الكبير الذي شغلته هذه المدينة، فهي قيروان المغرب الأقصى، ولم تزل «من حين أسست دار فقه وعلم وصلاح ودين، وهي قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها، وهي كانت دار... ملوك المغرب في الاسلام»[١].

ولعل من بين الدوافع التي كانت وراء انتقال ادريس الثاني من وليلي إلى فاس قيام صراعات بين الجماعات العربية التي تحلقت حوله، وعناصر القبائل المحلية التي ساندت أباه من قبل، وقد يعلل هذا بعض التعليل مسيرة تاريخ الأدارسة سياسيا، والدور الثقافي المستمر الذي قامت فيه مدينة الأدارسة سياسيا، والدور الثقافي المستمر الذي قامت فيه مدينة فاس، فقد شهدت هذه المدينة تأسيس أعرق جامعة في تاريخ الاسلام وأعني بهذا القرويين، التي كان لها الفضل العظيم في انتشار عربية القرآن في المغرب الأقصى حتى السنغال، وفي أفريقيا كلها، وانتشار عربية القرآن كان يعني دوما انتشار الاسلام، إنما هنا وفق مدرسة أهل المدينة ــ المالكية الفقهية.

ونمت مدينة فاس نمواً سريعاً، وما زالت المعالم الأساسية للمدينة أيام الأدارسة موجودة حتى الآن، والحديث عن دور مدينة فاس يحتاج إلى مجلدات، وفي قلب فاس الحالية يقوم ضريح ادريس الثاني، إنما في عدوة الأندلسيين ليس بعيداً عن جامع القرويين، ولم يعمر ادريس الثاني طويلاً بل توفي وهو شاب في السادسة والثلاثين من عمره سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م[٢].

---

(١) ابن أبي زرع ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) البكري ص ١٢٣. ابن أبي زرع ص ٣٢ ـ ٥١. ابن الخطيب ص ١٩٦ ــ ٢٠٢. التنيسي ص ٣٨ ــ ٤١. الاستقصا جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٧١. مواد الباب الثالث من كتاب الدر النفيس للحلبي.

وخلف ادريس الثاني من الأولاد اثني عشر ولدا، كان أسنهم الأمير محمد وهو الذي خلف والده، ويقال بأن كنزة أم ادريس الثاني كانت حية، فعملت بمثابة وصي على حفيدها، وأشارت عليه بتوليه أخوانه الولايات في دولته، وبذلك بدأت دولة الأدارسة الفتية بالانهيار، لقيام الصراعات بين الأخوة والحروب، وصار الحديث عن دويلات أدارسة لا تأثير لها، ولا قدرة، في مغرب سادت فيه القبلية، وعاد مسرحاً للصراعات السياسية، وعدّ ابن أبي زرع سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م التاريخ الذي زال فيه حكم آخر الأدارسة، وقال: «وكان عملهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهرانز وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة، وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين، وغالبين كبيرين: دولة العبيديين بمصر وافريقية، ودولة بني أمية بالأندلس، وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة، ويعقدهم ضعف سلطانهم وقلة ما لهم، وكان سلطانهم إذا اشتد وقوي إلى مدينة تلمسان، وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة، وأصيلة، وحجر النسر، إلى أن اعتراهم الإدبار والفرقة، وانقضت أيامهم وانقطعت مدتهم»(١).

دولة الأغالبة في إفريقية:

كان من أبرز آثار التمزق العربي، وقيام الكيانات الوطنية المتنوعة، على كتابة التاريخ، انصراف جلّ الباحثين من محليين وأجانب، إلى الاهتمام بالتواريخ المحلية، على حساب التاريخ العام للأمة العربية، ومن ثم السعي لصياغة هوية للشخصية المحلية بمحنها خلفية تاريخية متميزة، ومن الممكن رؤية هذا بوضوح في الأبحاث التي تناولت تاريخ الأغالبة في إفريقية.

وعلى الرغم من هذه الحالة المرضية في البحث، من غير الممكن

---

(١) البكري ص ١٢٤. ابن أبي زرع ص ٥١ ـ ٩٥. ابن الخطيب ص ٢٠٢ ـ ٢١٢. التنيسي ص ٤١ ـ ٥٣. الاستقصا جـ ١ ص ١٧٢ ـ ١٨١. المغرب عبر التاريخ لابراهيم حركات جـ ١ ص ١٢٥ ـ ١٤١.

تناول تاريخ الأغالبة إلاّ في الإطار العام للتاريخ العباسي، يضاف إلى هذا أن التاريخ السياسي للأغالبة لا يعدل في مكانته وتأثيره التاريخ الثقافي والديني، الذي صبغ شخصية المغرب الكبير بصبغة أسهم فيها العلماء ورجال الرباطات.

وقبيل قيام الدولة العباسية تأثر المغرب الكبير بكل من مدرستي الشام الفقهية ومدرسة أهل المدينة، ولم يعد للمدرسة الشامية من فعالية بعد زوال الخلافة الأموية، وازدادت فعالية مدرسة أهل المدينة، ومعلوم أن الخلافة تأسست بفضل جهود أهل المشرق من خراسان، ويلاحظ أنه بعد نجاح الثورة العباسية، انقسمت دار الاسلام إلى قسمين: عربي، أهم حواضره مصر، وأعجمي أهم حواضره خراسان، وظلت الخلافة العباسية أسيرة مشاكل خراسان، والمثير للانتباه أن هذه الخلافة تأسست من قبل قوى أعجمية مشرقية، ثم زالت من الوجود بعد قرون على أيدي قوى أعجمية مشرقية.

ولم يتمكن العباسيون من بسط سيطرتهم بمركزية قوية على بلدان الوطن العربي، وارتبطت السيطرة العباسية بالبعد الجغرافي عن العراق، ورأينا كيف تمكن عبد الرحمن بن معاوية من الاستقلال بالأندلس، وكذلك برغواطة في المغرب مع تيهرت وسجلماسة، وكذلك الأدارسة وسواهم.

وبذلت السلطات العباسية ما امتلكته من طاقات في سبيل الحفاظ على ولاية إفريقية، حماية لها من سقوط مصر واستقلالها، ولجأت إلى مختلف الوسائل للحفاظ على المغرب الأدنى وبعض الأوسط، لكن لم يحالفها النجاح، وما شهدته ساحات المغرب تشابه من بعض الجوانب مع ما شهدته بعض مناطق خراسان ومع الأيام باتت السلطات العباسية مستعدة للقبول بقيام أسر شبه مستقلة تحكم باسمها، ولا توفر عليها فقط نفقات ارسال الحملات العسكرية بل تزودها ببعض المال سنوياً،

ويمكننا مشاهدة هذا الحل السقيم للحالات المرضية للخلافة بتأسيس حكم الأغالبة فــي إفريقيــة أيــام الرشــيد، وتأسـيس حكـم الدولــة الطاهريـة فــي خراسان أيام ابنه المأمون.

ولما كانت الأمـراض لا تـداوى إلاّ باجتثـاث الـداء، فإن الحـل الـذي تبنته بغداد قاد مع الأيام إلى تمزق دار الاسـلام سياسياً بشكل خطير، وأسهم أخيراً في سقوط الخلافة العباسية، ونجمت بعـض مشـاكل المغـرب ليس عن البعد الجغرافي بل عن فتـن الجنـد والصراعـات المتواليـة، وكـان لذلك من الأسباب ما لايمكن البحث فيه في هـذا المقـام، لكـن لعلـه تكفـي الاشارة إلى أن الحـل الـذي تبنتـه الخلافـة العباسـية باقامـة أسـرة وراثيـة تحكم باسمها لم يحقق الأمن والاستقرار السياسي، ولم يوقف فتـن الجنـد، ولم يوفر المال على بغداد، وزاد من أعباء الضرائب المحلية.

وكان الذي دفع الرشيد إلى القبول بتأسيس دولــة الأغالبـة مشـاغله في المشرق، في ثورات خراسان، وحركات الشيعة، وفوق هذا كله النشـاط البيزنطي في منطقة الثغور، مما دفع به إلى الإقامة في الرقة على الفـرات، والتخلي مؤقتاً عن بغداد.

واختارت الادارة العباسية أسرة الأغالبة لحكم إفريقيـة، ولـم يكـن ذلك من باب القبول بالأمر الواقع، كمـا سـيكون الحـال بقيـام دولـة آل طاهر في خراسـان أيـام المـأمون، وبالنسـبة للحـل المغربـي علينـا ان نتذكر دوماً الامكانات البحريـة للامبراطوريـة البيزنطيـة، وعـدم اهتمـام العباسيين بالبحر، لأن العراق كان بلداً قاريا، ليـس لـه سـواحل علـى البحر المتوسط.

ولن نقوم باستعراض تفاصيل الأوضاع قبـل الأغالبـة، وفـي ظلهـم،

فقد كفانا مؤونة ذلك أكثر من باحث حديث[1]، بل سنقتصر في تقديم عرض موجز لتاريخ الأغالبية، إنما سنطيل الوقوف بعض الشيء مع أحداث فتح صقلية، ودور العلماء والرباطات ومن ثم انتشار المالكية.

ينتسب الأغالبة إلى الأغلب بن سالم التميمي، «وكان ممن قام مع أبي مسلم الخراساني بخراسان، ثم سار إلى افريقية مع محمد بن الأشعث الخزاعي أمير مصر في سنة ثلاث وأربعين ومائة، فلما بلغ المنصور خروج محمد بن الأشعث من إفريقية بعث إلى الأغلب بولاية إفريقية في ربيع الأولِ سنة ثمانٍ وأربعينٍ ومائة»، ولم يتمكنِ الأغلب منِ امتلاك زمام الأمور في ولاية افريقية، وأثناء الصراعات أصابه سهم فقتله في شعبان خمسين ومائة»[2].

واضطربت أحوال إفريقية أيام الخليفة هارون الرشيد، وبرز أثناء الصراعات ابراهيم بن الأغلب، وقام ابراهيم بناء على رغبة بعض أهل إفريقية بالكتابة «إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، يطلب منه ولاية إفريقية، فكتب إليه، وكان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تحمل إلى إفريقية بمعونة، فترك ابراهيم ذلك، وبذل أن يحمل كل سنة أربعين الف دينار، فأحضر الرشيد ثقاته، واستشارهم فيمن يوليه إفريقية، ...فأشار هرثمة بن أعين بإبراهيم بن الأغلب، وذكر له ما رآه من عقله ودينه وكفايته... فولاه الرشيد في المحرم سنة أربع وثمانين ومائة (٨٠٠م)... وابتني مدينة سماها العباسية بالقرب من القيروان، وانتقل إليها بأهله وعبيده وتحصن بها».

(١) أهم هؤلاء محمود اسماعيل في كتابة «الأغالبة ـ سياستهم الخارجية» ط. فاس ١٩٧٨. «الدولة الأغلبية» لمحمد الطالبي ـ ترجمة عربية ـ ط. بيروت ١٩٨٥.

(٢) المقفى للمقريزي ج ٢ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨. البيان المغرب جـ ١ ص ٧٢ ـ ٧٥. لسان الدين ابن الخطيب جـ ٣ ص ٧. الاستقصا جـ ١ ص ١٢٩.

وواجه إبراهيم مشاكل كثيرة داخلية وخارجية، وقد حمته قلعته العباسية، كما أنه اصطدم بقوات ادريس الثاني فهزمها، كما سعى إلى تثبيت سلطته على منطقة طرابلس، وعلى العموم نجح في إقامة أسرة حاكمة شبه مستقلة في إفريقية، وحين توفي سنة ١٩٦/ ٨١٢م، ورث السلطة من بعده ابنه عبد الله[1].

وكان عبد الله عند وفاة أبيه غائباً في طرابلس، فضبط الأمور لصالحه أخوه زيادة الله حتى قدم سنة ١٩٧ و/٨١٣م، وبعد ما تسلم السلطة، اتبع سياسة العنف، وزاد في الضرائب خاصة على الأرض أخصبت أم أجدبت، وهو على كل حال لم يعمر طويلاً، بل توفي سنة ٢٠١هـ/٨١٦م.

وخلفه أخوه زيادة الله، وبعد استلامه للسلطة جاءه تثبيت من الخليفة المأمون، ومثله مثل من تقدمه واجه زيادة الله العديد من المشاكل مع الجند في القيروان ومع سواهم، وعندما صفت له الأمور بعض الشيء، اتجه لايجاد حل لمشاكل دولته في الخارج، وتجلى ذلك في مشروع فتح صقلية.

وموضوع فتح صقلية هو الموضوع الأهم في تاريخ دولة الأغالبة، هذه الدولة التي لم تنعم بصداقة أي من دول المغرب الكبير، وكان نفوذها العملي على قبائل المغرب الأوسط والأدنى معدوماً، وأحياناً عدوانياً خاصة بالنسبة لقبائل نفوسة، ثم لم تتمتع دولة الأغالبة بالهدوء الداخلي، وحفل تاريخها بفتن الجند، لذلك عندما وجدت فرصة لشغل الجند في الخارج، وانشدت نحو سواحل البحر المتوسط، واستغلت رباطات إفريقية،

---

(١) المقفى للمقريزي ج ١ ص ١٠٨ ـ ١١١. البيان المغرب ص ٩٠ ـ ٩٥. لسان الدين ابن الخطيب جـ ٣ ص ١١ ـ ١٥. محمود اسماعيل ص ٣٠ ـ ٣٥. الطالبي ص ٩٤ ت ١٧٧.

وورطت علماء الدولة في مشاريعها الحربية، وهكذا دار التاريخ المحلي دورة جديدة أعادت ذكريات قرطاج وصراعها مع روما.

فبعد نجاح حركة الفتوحات العربية شرقاً وغرباً، باتت أوربا محاصرة من قبل العرب، وتشدد الحصار على أوربا الغربية بعد فتح الأندلس، ومشاريع التوسع في جنوب فرنسا، وكان نطاق الحصار الذي فرضه العرب على أوربا الغربية جديداً تماماً: ثقافياً ولغوياً وقانونياً ودينياً وحضارياً، مما أرغم أوربا الغربية على تغيير قوام نظمها زراعياً وسياسياً وحضارياً فقد فقدت روما مكانتها السياسية، وحل محل الأمبراطور فيها البابا، وتوقف تدفق المنتجات الغذائية من الشرق على روما، فاضطرت أوربا الغربية إلى اكتشاف نفسها شمالاً، واضطرت إلى انتاج الغذاء، وبذلك انتهت بالفعل العصور الكلاسيكية القديمة وحلت محلها العصور الوسطى، وأخذت شمس اللاتينية بالكسوف، وبدأت اللهجات الجرمانية تتحول إلى لغات، ومع الاعتماد على الأرض ظهر النظام الاقطاعي ومعه نظام أقنان الأرض، وكذلك أنظمة الفرسان.

وامتلك العرب في العصر الأموي قوة بحرية فعالة، كادت أن تحوّل البحر المتوسط إلى بحيرة شامية، ولم يكتف العرب بالاعتماد على الأساطيل بل اهتموا بتحصين شواطئ بلادهم، فأنشؤوا الحصون الدفاعية، ومنائر الانذار، وبعد قيام الخلافة العباسية، ولكون العراق بلداً قارياً، أهمل العباسيون الأساطيل وزاد الاعتماد على الأنظمة الدفاعية، حتى في الحدود مع بيزنطة، وفي الوقت نفسه عرفت الخلافة العباسية مشاكل سياسية واجتماعية كثيرة، وصحيح أن خلفاء بني العباس نجحوا في تجنيد معظم رجال الدين، لكن ظل هناك من آثر عدم الالتحاق بالسلطان، مثلما فعل فقيه الشام الامام الأوزاعي حيث رابط في بيروت، ونقرأ في تهذيب الكمال للمزي أن الامام حماد بن سلمة (ت ١٦٧هـ) قال:

«إن دعاك الأمير أن تقرأ عليه (قل الله أحد) فلا تجبه»[1]، وهكذا لجأت أعداد كبيرة من كبار العلماء والزهاد إلى مواقع الدفاع عن دار الاسلام والمرابطة في الثغور، ونالت مواقع الدفاع، لاسيما البحرية منها اسم الرباطات ـ جمع رباط ـ وانتشرت الرباطات من المشرق إلى شواطئ المغرب، وصارت الأربطة تؤدي وظائف دينية ثقافية، وذلك بالإضافة إلى مقاصدها الحربية الدفاعية،وأقبل الطلاب على مراكز العلم والجهاد، وحوت المكتبات، وشغل المرابطون ـ لا بل والمرابطات ـ أنفسهم بالتعليم والارشاد والتفقه والنسخ وغير ذلك، ونجم عن هذا تأثير متعدد الجوانب، داخلياً وخارجياً، وصار بإمكان المرابطين بالتعاون مع أئمة المساجد وشيوخ حلقات الفقه والتعليم، التأثير على ما يمكن دعوته بالرأي العام في مدينة أو ولاية أو دولة، وفي رسم السياسة العامة، لا بل حتى في اتخاذ القرارات المصيرية[2].

وكان لنظام الأربطة في عصر الأغالبة دور فعال، في المناطق الثغرية البحرية، وازدهر هذا النظام بشكل رائع خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، وما زالت شواطئ تونس تحوي آثار عدد من الرباطات، مثل رباط المنستير الرائع البناء والنظام.

وامتلكت دولة الأغالبة جيشها الخاص، ورعت الحركات الثقافية في القيروان، واولت العلم والعلماء ما أمكن من عناية، وبهذا قلدت السياسة الدينية للخلافة العباسية في بغداد، وكانت حركة المواصلات بين بلدان المغرب والمشرق نشطة جدا، حيث توفرت قوافل التجار والحجاج وطلاب

---

(١) المزي تهذيب الكمال ج ٥ ص ١٨٣.

(٢) جمع المرحوم الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب مادة طيبة حول حياة الرباطات ودورها في عصر الأغالبة في كتابه «أوراق عن الحضارة العربية بإفريقية».

العلم، وتدفق المسافرون على المشرق وكان لهذا أعظم الآثار على مستقبل الغرب الاسلامي وأفريقيا، لا بل حتى على أوربا.

وغالباً ما وصل القادمون من الشمال الأفريقي عبر مصر إلى الحجاز، وزاروا المدينة المنورة قبل السفر إلى الشام أو العراق، وهكذا نال الذين وصلوا المشرق للتعلم والتفقه دروسهم الأولى في المدينة، وبعد ذلك عاد بعضهم عبر مصر، وذهب بعضهم الآخر لاستكمال التعليم في العراق.

والمدينة المنورة كانت حاضرة الإسلام الأولى، عاش فيها النبي ﷺ وكبار الصحابة، وفيها تأصلت الشريعة الإسلامية، وفيها لأسباب متعددة نشطت الحركة الفكرية في القرن الأول للهجرة، وأثمرت في القرن الثاني بقيام مدرسة أهل المدينة بالفقه على يد الإمام مالك بن أنس، وحين جاءت هذه المدرسة إلى الوجود، كانت هناك مدرسة أخرى كبيرة قد نشطت في الكوفة على يد الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت.

والمتتبع لتاريخ الخلافة العباسية منذ أيام مؤسسها الفعلي أبي جعفر المنصور، يجد أن هذا الخليفة قد أدرك أمور عصره، وعرف مكانة استغلال الدين والعلماء في خدمة التوجهات السياسية للدولة، وعلى نقيض الخليفة الأموي الذي اهتم بالشعراء بالدرجة الأولى لاعتماد السياسة الأموية على العصبية القبلية، اهتم المنصور أولاً وقبل كل شيء بالدين وبعلماء الدين، وسعى دوماً إلى ربط الجميع به، ذلك أن العباسيين قد وصلوا إلى السلطة على طريق ثورة أخذت بمفاهيم الإسلام القائمة على المزج بين العلم الديني والدنيوي، وألح كل خليفة على مكانته كإمام، وتبنى لقباً له معانيه الدينية، فالأسرة العباسية قد وصلت إلى السلطة عن طريق شرعية الوراثة والثورة، بينما كان معاوية ابن أبي سفيان قد اغتصب السلطة بقوة السلاح والمال.

وفي العراق تعاون العباسيون مع أبرز علماء مدرسة العراق الفقهيـة، فمحمد بن الحسن الشيباني تسلم القضاء للرشيد وكذلك فعل أبو يوسـف، ووجد الحكام في الغرب الإسلامي وخاصة في الأندلس أنفسهم بحاجة إلـى تقليـد العباسـيين، متذكريـن هنـا إقامـــة الخـــوارج لدولتهـم فـــي تيهـرت وسجلماسة.

لقد بات على جميع الحكام في المغرب اعتماد سياسة دينية، وأثرت الجغرافية والثغرية والمواجهة مع أعداء الإسلام على نوعيـة هـذه السياسـة وتحكمت بمواصفاتها.

وفرضت ظروف المواجهة الخارجيـة فـي الغرب الإسـلامي، وتقلبـات الأوضاع الداخلية التشدد، والتعصب أحياناً، مع التظاهر بالمثالية، وكانت مثالية الإسلام تؤخذ الآن من المدينـة المنـورة، لا مـن كوفـة أبـي حنيفـة، وظهير خريج مدرسة المدينة أعلى وأمتن مـن ظهـير المتخـرج مـن الكوفـة، ونضيـف هنـا أن تبنـي العباسـيين لفقـه أهـل العـراق، لابـد أنـه قـد دفـع بالقـائمين علـى مدرسـة المدينـة أيضـاً إلـى التطلـع نحـو مصـر والغـرب الإسـلامي، فالإمـام مـالك بـالذات اتخـذ أكـثر مـن مـرة مواقــف معارضـة للعباسيين، وقد تعرض للمحنة بسبب ذلـك، وبسـبب تحبيـذه لأمـراء مـن الغرب الإسـلامي.

ومن هذا كله نخلص إلـى أن أثـر الثـورة العباسـية لـم يقتصـر علـى شطر دار الإسلام إلى شطرين: عربي وأعجمـي، بـل شـطرها كذلـك فقهيـاً، لكن بعد وقت لم يكن طويلاً جرت محاولات للتطوير ولدمج مدرستي العراق والحجاز في مدرسة واحدة جديدة.

واستهدفت عملية المزج الوصول إلى حل وسط بين الطرفين، حفاظاً على الوحدة الفكرية العقائدية وذلك بشكل منطقي موثق ومؤصل، وهذا مـا

نشهده في سيرة كل من الإمامين الشافعي وأسد بن الفرات، وكما هو مشهور نجح الإمام الشافعي في عمله، وأخفق - كما سنرى - أسد بن الفرات، ذلك أن الشافعي نجّاه الله مبكراً من ظلم الوظيفة، ولم يعش في دياجير الولاية طويلاً، وهكذا أوقف حياته ونشاطاته على العلم، وأما ابن الفرات، فإنه في الوقت الذي كان من المفترض أن يعطي فيه تولى وظيفة القضاء، وتورط ببعض المشاحنات، ثم ما لبث أن جمع مع القضاء إمارة الجيش الذي توجه لفتح صقلية، وقد توفي أثناء أعمال الفتح، ومع ذلك لم تذهب جهوده العلمية هدراً، حيث أكملها الإمام سحنون، ولكن لصالح المالكية، ولهذا لابد من أن نسأل: هل جاء تعيين ابن الفرات في القضاء ثم في قيادة الجيش بناء على خطة هادفة مرسومة، أم أن ذلك جاء بمحض الصدفة؟

ولعلنا نحصل على بعض الإجابة لدى تعرفنا بإيجاز إلى سيرة ابن الفرات:

ولد الإمام أسد بن الفرات في مدينة حران الشامية، التي اتخذها مروان بن محمد - آخر الخلفاء بني أمية - حاضرة لملكه، وقد ولد - كما هو مرجح - سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م، وكان والده جندياً خراسانياً، ذهب إلى إفريقية للمشاركة في حملة عسكرية عباسية ضد الخوارج، وكان أسد بن الفرات في الثانية من عمره لدى دخول أسرته إلى القيروان، وعاشت أسرته في هذه المدينة خمس سنوات ثم انتقلت إلى مدينة تونس، فأقامت هناك قرابة تسع سنوات، وفي تونس تلقى ابن الفرات علومه الأولى، وفي سن الشباب ركب طريق المشرق، فنزل بالمدينة المنورة، وأخذ العلم عن الإمام مالك وروى عنه الموطأ، ثم اضطر إلى الذهاب إلى العراق للالتحاق بالإمام محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة وخليفته.

ولازم ابن الفرات الإمام الشيباني، وأكمل على يديه تحصيله، ثم عاد يريد إفريقية، فتوقف في مصر أولاً، حيث لازم الإمام عبد الرحمن بن القاسم، وكان من أقدم تلاميذ الإمام مالك وأعلاهم مكانة، وكان ابن الفرات، يغدو كل يوم إلى ابن القاسم «ويسأله ويجيبه ابن القاسم، حتى دوّن ستين كتاباً، وسماها الأسدية» وحوت المدونة الأسدية هذه رأي أهل المدينة حول المسائل التي تعلمها ابن الفرات في العراق.

ويحكى أنه عندما عزم ابن الفرات على العودة إلى القيروان، أعطاه ابن القاسم بضاعة ليبيعها، ويشتري بثمنها رفوفاً لنسخ الكتب، وفي القيروان أظهر ابن الفرات ما لديه من علوم، ونشر ما كان في أسديته، وذاعت شهرة ابن الفرات، ومقدر أن اشهر الذين سمعوا الأسدية كان الإمام سحنون، ومع الإمام سحنون سنقف فيما بعد إثر الفراغ من الحديث عن الإمام ابن الفرات.

وأثناء عمل ابن الفرات في القيروان سعى نحو وضع قواعد مدرسة للفقه جديدة، تعتمد على مدرستي العراق والمدينة، لكنه لم يمتلك الوقت للتفرغ لهذه المهمة، فقد كلفه الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٤هـ/٨١٩م بمهمة القضاء، وفي إثر ذلك عانت إمارة الأغالبة من فتن الجند، ونجا ابن الفرات من الفتن، وظل متمسكاً بما تمليه الشريعة، لا أهواء القوى المتصارعة، وبعد استرداد الأمن والاستقرار النسبي عهد إليه بإمارة جيش فتح صقلية[1].

وكانت صقلية تشكل بموقعها مكاناً استراتيجياً هاماً، له هيمنة على حركة الملاحة بين شرقي المتوسط وغربيه، وعبر صقليه انتقلت

(١) رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٧٣. المقفى للمقريزي جـ ٢ ص ٥٩ ـ ٦٢. البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

الحضارات، والمسيطر على صقلية يتمتع بخيراتها، ويمكنه مراقبة السواحل الإيطالية من جهة والسواحل الأفريقية من الجهة المقابلة.

وفي أيام الأغالبة كانت صقلية تابعة للسلطة البيزنطية، وقد توفرت الرغبة دوماً لدى العرب لفتحها، وجاءت الفرصة سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م، فأعدّ زيادة الله أسطولاً كبيراً، وجيشاً مناسباً، وعهد بقيادة الحملة إلى أسد بن الفرات، وأقلعت الحملة في الربيع من ميناء سوسة، وتوقفت أولاً أمام مدينة مازر، وهناك سحقت أسطول الجزيرة البيزنطي، ودخل المسلمون الجزيرة وشرعوا في فتح مواقعها الواحد تلو الآخر، وتولى ابن الفرات حصار مدينة سوقوسة، وواجه العديد من المصاعب وبعض الانتكاسات، وتوفي أثناء الحصار سنة ٢١٣هـ/٨٢٩م.

واستغرقت أعمال فتح صقلية أكثر من سبعين سنة خاض العرب خلالها ملاحم رائعة حتى خلصت الجزيرة لهم[1].

وحين توفي أسد بن الفرات، كان زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ما يزال حياً، فقد مكث في السلطة حتى توفي سنة ٢٢٣هـ/٨٣٩م فخلفه أخوه أبو عقال الأغلب بن إبراهيم، وقد اهتم الأغلب هذا بالجند، فأجرى عليهم الأرزاق فكسب قلوبهم، وجهز سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩م جيشاً أرسله إلى صقلية لمتابعة أعمال الفتح فيها، وقد توفي سنة ٢٢٦هـ/ ٨٤١م فخلفه ابنه محمد الأول، وكان يكنى بأبي العباس، وهو الأمير الذي ولى الإمام سحنون القضاء، كما سنذكر فيما بعد.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ١٨٦ ـ ١٨٨. رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٧٣. أعمال الأعلام جـ ٣ ص ١٠٩ ـ ١١١. المقفى جـ ٢ ص ٥٩ ـ ٦٢. البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣. المكتبة الصقلية ص ٤ ـ ٧٤. المسلمون في جزيرة صقلية لأحمد توفيق المدني ص ٥٧ ـ ٦٣. تاريخ صقلية الإسلامية لعزيز أحمد ص ١٣ ـ ١٥. الطالبي ص ٤٣١ ـ ٤٦٧. تاريخ المسلمين في البحر المتوسط الحسين مؤنس ص ٦٥ ـ ٧٦. بيزنطة ومسلمو جنوب إيطاليا وصقلية لوديع فتحي عبد الله ص ٧ ـ ٢٨.

واهتم أبو العباس هذا بسوسة ميناء ورياطاً، ومن سوسة بعث سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م جيشاً، قطع البحر وأغار على مدينة روما، وقد اقتحم الجيش المسلم مدينة روما عنوة، ودخل إلى كنيسة القديس بطرس، وسلب ما كان فيها، ومكث هناك قرابة الشهرين ثم انسحب عائداً إلى إفريقية، وظل الأمير الأغلبي يتمتع بسلطاته حتى توفي سنة ٢٤٢هـ/٨٥٣م، فقام مقامه ابن أخيه أحمد المكنى بأبي إبراهيم، ولهذا الأمير مآثر عمرانية متفرقة، وهو مثل متقدمية لم يعمر بالسلطة طويلاً حيث توفي سنة ٨٦٤/٢٤٩م، وتتابع من بعده الأمراء الأغالبة على السلطة على النحو التالي:

- زيادة الله الثاني وقد توفي سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م.

- محمد الثاني، وقد توفي سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م، وفي أيامه فتحت جزيرة مالطة.

- إبراهيم الأصغر، وقد توفي سنة ٩٠٢/٢٨٩م، وقد وصف بالنزاهة لذلك حاز على تأييد العلماء والرعية، لكن كان ذلك في بداية حكمه فقط، حيث ما لبث أن انزلق في هوة سفك الدماء، ويبدو أنه استفاق في آخر أيامه، فخرج إلى جزيرة صقلية للجهاد، ومن هناك قصد الجنوب الإيطالي، فلاقى حتفه بضربة رمح، وإبراهيم هذا هو الذي بنى قصور رقاد الفخمة خارج مدينة القيروان، وإليها انتقل من قصور العباسية.

ولدى مغادرة الأمير محمد الثاني إلى صقلية تسلم ابنه عبد الله الثاني مقاليد السلطة، ولم يحكم طويلاً حيث قتل سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م بمؤامرة دبرها ابنه زيادة الله، وزيادة الله هذا هو الذي هزم أبو عبد الله الداعي جيوشه في معركة الاريس سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م، فماكان منه إلاّ أن

جمع ماله وعياله، وخرج من رقاد، وقصد دار الخلافة العباسية مستنجداً، وبه زالت دولة الأغالبة لتخلفها الخلافة الفاطمية[1].

وحين طويت صفحة تاريخ الأغالبة في إفريقية، طويت صفحة من الاضطراب السياسي، وضعف الأمراء وعدم توازنهم، بين بزخ عظيم تجلى في بناء قصور رقاد، وبين تنسك ولبس للصوف حسبما وردت الأخبار عن عبد الله الثاني، ولاشك أن في حكاية فتح صقلية الذي استغرق سبعين سنة، دليل على وضع الحكم الغلبي، لأن المثير للانتباه أن سقوط صقلية فيما بعد للنورماندين لم يستغرق إلاّ وقتاً قصيراً!

وانشغال الأغالبة لمدة سبعين سنة في أعمال الفتح في صقلية جعلهم يهملون داخل إفريقية، وهناك نشط ـ لاسيما بين كتامة ـ دعاة الدعوة الإسماعيلية، حيث تمكنوا من إقامة الخلافة الشيعة الأكثر شهرة في تاريخ الإسلام، (وهذا ما سنعالجه في الفصل المقبل).

ومع انعدام الاستقرار السياسي أيام الأغالبة، حققت المالكية في عصرهم أعظم نجاحاتها، وكان ذلك بالدرجة الأولى بفضل الإمام سحنون صاحب المدونة.

والإمام سحنون هو عبد السلام بن سعيد، غلب عليه اسم سحنون، وكان قد ولد سنة ١٦٠هـ/٧٧٧م في القيروان، ويقال ولد لأب تنوخي أصله من جند حمص، أي من منطقة معرة النعمان، وجلبه أبوه معه من الشام إلى القيروان، والمهم أنه نشأ في القيروان، وفيها تلقى علومه الأولى، وقد أخذ عن أسد بن الفرات مدونته، وعندما بلغ الثلاثين من عمره قصد بلدان المشرق لمتابعة التحصيل، واستقر في مصر طويلاً،

(١) البيان المغرب ج١ ص ١٠٤ ـ ١٢٤. عبد العزيز الثعالبي ـ تاريخ شمال أفريقيا ص ٢١١ ـ ٢٥٩. حسن حسني عبد الوهاب ـ خلاصة تاريخ تونس ص ٨٠ ـ ٩٢. الطالبي ص ٢٣٩ ـ ٣٤٤.

لازم أثناء ذلك عبد الرحمن بن القاسم الذي كـان مـن كبار تلاميذ الإمام مالك، وعلى ابن القاسم عرض سحنون المدونة الأسدية، فهذبها وزاد فيها، وأخرجها مدونة جديدة، حملها معه لدى عودته إلى القيروان، وهناك أقبل عليه طلاب العلم وحملوها عنه.

ويروى بأن الإمام سحنون قد احتاج إلى مال كثير لينفقه على نفسه وعلى عياله وعلى طلبته وكذلك على بعض أصدقائه، لذلك كان يمارس أعمال الفلاحة في قطعة أرض امتلكها في الساحل، وعاتبه طلبته على انقطاعه عنهم، فأخبرهم بإيثاره ذلك وتفضيله على اللجوء إلى الأمراء ونيل المال منهم، لكن على الرغم من مواقفه المتشددة هذه قبل في سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م تسلم منصب القضاء في القيروان، وكان وقتها في الرابعة والسبعين من عمره، وجاء ذلك بعد تردد، وضغط عليه شديد من الأمير، ومعارضة عنيفة من قبل بعض تلاميذه وأصدقائه.

ويقي الإمام سحنون متسلماً للقضاء حتى تاريخ وفاته سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م، وسجل له المؤرخون مواقف شجاعة جداً، واستقامة في إحقاق الحق، ولاشك أن سلوكه وعلمه واستقامته في عمله كانت وراء انتشار المالكية واستقرارها في إفريقية، وينبغي أن نشير هنا، إلى اهتمام المالكية منذ عودة أسد بن الفرات من عند ابن القاسم بالكتب والكتابة والتعليم، ومن الأدلة على ذلك المال الذي حصله ابن الفرات من البضاعة التي أعطاها إياها ابن القاسم، ومن سلوك سحنون، ولهذا لا عجب أن نجد محمد بن سحنون كان من أوائل من اهتم بالتعليم في تاريخ الإسلام، حيث كتب كتاباً بعنوان «آداب المعلمين»[1].

(١) نشر هذا الكتاب أكثر من مرة، ونشره للمرة الأولى حسن حسني عبد الوهاب في تونس سنة ١٩٣١. انظر رياض النفوس جـ ١ ص ٣٤٥ ـ ٣٧٣. خلاصة تاريخ تونس ص ٨٥ ـ ٨٦. سعدي أبو حبيب ـ سحنون مشكاة نور وعلم وحق، ص ٢٣ ـ ٧١.

هذا وسيأتي الحديث في الفصل المقبل عن الدعوة الإسماعيلية ومن ثم تأسيس الخلافة الفاطمية، حيث سنجد المهدي هو أول خلفاء الدولة الفاطمية، وما أن تسلم الرجل السلطة حتى باشر الحكم شخصياً، ليس حسب فكرة المهدي المنتظر، بل حسب قاعدة الإمامة عند الإسماعيلية، فالدعوة الإسماعيلية كانت تعليمية، فيها يمتلك الإمام وحده حق التشريع ومن ثم الحكم، وقام الخليفة الجديد بجمع دعاة الدعوة، ولعله عمل على إعادة تنظيم الدعوة، التي صارت الآن علنية، وأوجد المهدي جيلاً جديداً من الدعاة، ونجح في هذا المقصد كثيراً، ذلك أن المسؤولية عن الفكر الإسماعيلي ستصبح بعد أمد قصير بأيدي جيل من الدعاة جلهم مغاربة، وسيظل هذا الجيل محافظاً على مكانته حتى أيام الحاكم وقيام الدعوة الدرزية.

ويحكى بأن المهدي قد جلب معه من المشرق مجموعة من الكتب الإسماعيلية، وإذا صح هذا، فإن هذه الكتب قد اتخذت أساساً للعمل الدعوي العلني الجديد، ومع هذا تفجرت ردات فعل متباينة بالعنف، بسبب إعلان الدعوة في القيروان، وبسبب انفراد المهدي بالسلطة، فهذا الانفراد شكل حرماناً لأبي عبد الله الداعي ولبعض أعوانه، وجاء بمثابة مخالفة علنية لما أشيع حول المهدي المنتظر.

وروى القاضي المعتزلي عبد الجبار الهمذاني في كتابه «تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ»، أنه بعدما تمت بيعة المهدي بالإمامة، قام بعض رجال أبي عبد الله الداعي من المغاربة بتحميل أمتعة المهدي: «فوجدوا ملابس الحرير والديباج، وأواني الذهب والفضة، وخصيان روما، وآثار الأنبذة، فأنكروا ذلك في أنفسهم، مع بلادة البربر، وسألوا أبا عبد الله الداعية عن ذلك، وإنما أنكروا ذلك لأن أبا عبد الله هذا كان مقيماً سنين كثرة في كتامة يدعوهم إلى المهدي، الذي هو حجة الله، ويزعم أنه

صاحبه، وكان أبو عبد الله يتقشف ويلبس الخشن، ويأكل العشب، ويعدهم عن المهدي بمثل ذلك، فلهذا أنكروا وسألوا، فقال لهم أبو عبد الله: هذه الآثار لأصحابه وأتباعه، وكان معه أتباع كثير»[1].

واصطدم المهدي مع أبي عبد الله الداعي، وتمكن من القضاء عليه وقتله، وقتل من سانده، وهكذا تكررت حكاية أبي سلمة الخلال ومن بعده أبي مسلم الخراساني، وتبرهن أن الواقع العملي غالباً ما جاء معاكساً للواقع النظري، ففي الواقع النظري يتعامل الإنسان مع أوهام الوعود، وفي الواقع العملي يتعامل مع الذهب، وسيف السلطة، والملك دوماً عقوق لا يعرف الوفاء، بل يعرف مصلحته فقط[2].

وواجه المهدي معارضة من أهل القيروان المالكية، فبعد ما نزل هذا الخليفة في قصور رقاد، وبعيد أسبوع من ذلك، ولدى حلول يوم الجمعة قصد المهدي المسجد الجامع في القيروان، وهنا أمر «الخطيب أن يذكره في الخطبة، فيقول: عبد الله الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، فلما صعد الخطيب المنبر وانتهى إلى ذكر المهدي، قام واحد من رجالات السنة الحضور واسمه جبلة بن حمود الصدفي قائماً وكشف رأسه حتى رآه الناس ومشى من المنبر إلى آخر الجامع وهو يقول: قطعوها قطعهم الله، ويكررها، يعني الخطبة لبني العباس، وقام الفقهاء ووجوه البلد معه، فما حضر أحد من الأماثل.

وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف، ومعه الدعاة، وأحضروا

---

(١) زكار ـ أخبار القرامطة ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ١٥٠ ـ ١٥٢. أخبار بني عبيد ص ١١٥ ـ ١١٦. رسالة افتتاح الدعوة ص ٢٦٠. صلة عريب ص ٥٢. البيان المغرب جـ ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥. لسان الدين ابن الخطيب ص ٥٢ ـ ٥٣. نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٣٥. معالم الإيمان جـ ٣ ص ٤٧. عيون الأخبار جـ ٥ ص ١٢٣. المقفى جـ ٣ ص ٤٨٣ ـ ٤٩٣؛ جـ ٤ ص ٥٦٠.

الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى مذهبهم، فأجابوا إلى ذلك إلاّ القليل، فأمر بهم، فضربوا وحبسوا، ونابذت طائفة من الفقهاء المهدي حتى أنه أدخل برجل على الوالي، فقال له الوالي: قل لا إله إلاّ الله، فقال: أما من قولك فلا، إنني لا أدري ما تقول لي بعدها، وأدخل إليه بآخر، وبين يديه مصحف، فقال له: أليس هذا هو القرآن؟ فقال له: ما أعرف ما هو.

ووجد رجل من أصحاب المهدي المشارقة مقتولاً، فأتوا إليه وقالوا: قتل رجل من الأولياء، قال: وأين هو؟ قالوا له: أكلوه ولم تبق إلاّ عظام ساقيه، فقال المهدي: هذا بلد لا يحل أن يقام فيه، فأمر بقتل المحبسين إن لم يرجعوا عما هم عليه، فقتل منهم على ما قيل أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عابد ورجل صالح»[1].

وبدأ المهدي يواجه المشاكل الصعبة، فقد قال له أبو موسى هارون بن يونس، الذي يقال له شيخ المشايخ من كتامة... إن كنت المهدي فأظهر لنا آية، فقد شككنا فيك، فغضب المهدي وأمر بضرب عنقه»، وأقامت كتامة «طفلاً وزعموا أنه نبي يوحى إليه»، فأرسل المهدي القائم ضدهم فقتل الطفل «وأفنى منهم أمماً عظيمة وجلاّهم إلى البحر».

وتصادم أهل القيروان مع كتامة لأسباب سياسية واجتماعية، وقتل في الصدام خلق كثير، وتدخل المهدي شخصياً «وسكن الفتنة، وكف الدعاة عن طلب الناس بمذهب التشيع»[2].

وأيقن المهدي بأنه من الصعب العيش بالقيروان، ولعله تذكّر التجربة الأغلبية وبناء قلعة العباسية، لذلك بما كانت سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م: خرج

---

(١) المقفى جـ ٢ ص ٤٣ ـ ترجمة جبلة بن حمود جـ ٤ ص ٥٥٨ ـ ٥٥٩.

(٢) المقفى جـ ٤ ص ٥٦٠ ـ ٥٦١.

بنفسه إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة، فلم يجد بقرطاجة إلى تونس أحسن ولا أحصن من موضع المهدية، وهي جزيرة، متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند فتأملها فأعجبته فشيد في ذلك المكان مدينة حصينة جداً فهو أراد من الموقع أن يكون حصناً «يعتصم هو فيه، ثم من يخلفه»، وردم المهدي بعض البحر لزيادة رقعة المدينة، وصنع لها مرسى ثمّ نقره بالصخر، وأوجد حلولاً لتخزين الماء من أجل الصيف[1].

وبعدما أنجز بناء المهدية ارتحل إليها سنة ٣٠٨هـ/٩٢١م، وبعد ذلك أمر بتحويل طرق التجارة إليها مع أركان الدولة، وجاء هذا الإجراء بمثابة عقوبة قاسية بحق أهل القيروان، ولا شك أن هذا أسهم في إضرام الثورات ضد الفاطميين وخاصة ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ولذلك بعد ما قضى المنصور اسماعيل على هذه الثورة ترك المهدية، وبني في ضاحية القيروان صبرة المنصورية لارضاء التجار وكسب سكوت أهل القيروان[2].

وعلى الرغم من اتخاذ المهدي للمهدية، ظل يتطلع نحو الشرق، ولهذا وجه ضد مصر عدة حملات باءت بالاخفاق، كما أنه اعتمد على جيش عملاق من الدعاة، وتوقفت الأنشطة ضد مصر بعد وفاة المهدي سنة ٩٣٤م[3].

وآلت الخلافة بعد وفاة المهدي إلى القائم محمد، ولم يتمكن هذا الخليفة من اعلان أية نوع من أنواع القيامة حسب الفكر الإسماعيلي،

---

(١) المقفى جـ ٤ ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤.

(٢) المقفي جـ ٢ ص ١٧٢ ـ ١٧٣، جـ ٤ ص ٥٦٢ ـ ٥٦٤..

(٣) المقفي جـ ٤ ص ٥٦٤، جـ ٦ ص ١٧٠ ـ ١٧٤. عيون الأخبار للقرشي جـ ٥ ص ١٢٠ ـ ١٣٦. لسان الدين ابن الخطيب ص ٤٦ ـ ٤٩.

وانشغل بالحفاظ على ملكه ووجوده الذي كادت أن تجتثه ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ولا يعنينا هنا التعمق بتفاصيل هذه الثورةن ومهم هنا تدخل قرطبة في هذه الثورة بارسال المال والمعونات إلى النكاري، وتوفي القائم سنة ٩٤٦م والثورة قائمة، وخلف القائم ولده المنصور إسماعيل وقد تسنى لهذا الخليفة بعد حروب طويلة، وبعد الإفادة من حصانة المهدية، واحسان استخدام البحر، القضاء على ثورة النكار، واعادة توطيد اركان الخلافة ليسلمها بعده إلى ابنه المعز الذي يعد أشهر خلفاء الفاطميين قاطبة[1].

(١) لسان الدين ابن الخطيب ص ٥٢ ـ ٥٥. المقفى جـ ٢ ص ١٣١ ـ ١٦١؛ جـ ٢ ص ١٧٦ ـ ١٧٩. صالح باجيه ـ الأباضية بالجريد ص ١١٥ ـ ١٢٤. زكار ـ الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٩٠، حيث ذكر مشاهدته لدينار ذهبي في القيروان ضرب سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م، وهذا الدينار من دنانير أبي يزيد مخلد بن كيداد، ويعتقد أنه ضرب لصالحه في قرطبة، ومفيد جداً العودة إلى المقتبس لابن حيان جـ ٥ ص ٢٥٥ ـ ٢٦٧ ـ ٣٥٤ ـ ٣٦٩ ـ ٣٧٤.

الفصل الثاني

مقدمات عن الاسماعيلية
حتى وصول الفاطميين الى السلطة

درج كثير ممن كتب في تاريخ التشيع على الابتداء بحادثة السقيفة التي كانت بعد وفاة النبي ﷺ أو قبل ذلك، وقد فعل ذلك كتاب الشيعة للقول بان جذور التشيع قديمة قدم الإسلام، أما المستشرقون فذهبوا هذا المذهب للقول بأن الإسلام حمل مع بداياته تناقضات كثيرة، وسأسعى إلى تخطي هذين الطريقين وأبدأ مع تولي علي بن أبي طالب رضي الله عنه مقاليد الخلافة إثر مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد كانت الفتنة والخلافة بعدها حدثاً فيصلاً في تاريخ الإسلام السياسي، وجاء تسلم علي بن أبي طالب للخلافة إثر مقتل عثمان ابن عفان، لكن ذلك فرض من قبل الثوار وليس على يدي بقايا العشرة المبشرين بالجنة أو أهل المدينة أو سواهم، ورفض البيعة لعلي عدد من القادة المسلمين تصدرتهم عائشة أم المؤمنين في مكة المكرمة، ثم معاوية

ابن أبي سفيان، في بلاد الشام، وكانت هذه هـي المرة الأولى منذ وفاة النبي ﷺ يعلن بها عدم الانصياع للقرارات المتخذة في المدينة من قبل أهل مكة وسكان الأمصار في بلاد الشام، وفي هذا مؤشر على تعمق الخلافات وتطور التمزقات السياسية.

وتجمع حول السيدة عائشة، مجموعة من المعارضين لعلي بن أبي طالب، وزحف هؤلاء إلى البصرة حتى استولوا عليها. الأمر الذي اضطر علي بن أبي طالب إلى مغادرة المدينة، والذهاب إلى الكوفة، وفي استقرار القوة المعارضة أو المتصارعة في الأمصار، دليلاً على أن شبه جزيرة العرب، خسرت مكانتها السياسية ودورها المؤثر في أحداث تاريخ العرب والإسلام، وانتقل هذا الدور إلى الأمصار، حيث تجمعت القوى العربية العسكرية، وبات مستقبل الحكم معلقاً، بالطاقات العسكرية، وبحسن استخدامها، وصارت الأمصار المفتوحة، هي مركز الصراعات على السلطة، وبما أن الإسلام مزج بين المفاهيم، فإن الصراعات لم تقتصر بلونها على السياسة، بل تمازجت فيها الألوان، ما بين السياسة، والاقتصاد، والاجتماع وغير ذلك.

وعلى هذا يمكن أن نفهم، ما حدث في معركة الجمل، ثم ما حدث في معركة صفين. لقد دخل الجند العرب، إلى ميادين السياسة، فما كان من السياسة إلا أن دخلت بألوانها التي امتزجت بها بين صفوف الجند، فتعمقت التمزقات، واستمرت، وعلى هذا الأساس نفهم ما حدث في الكوفة بعد معركة الجمل، حين أخذ الكوفيون، يتناقشون في مسائل الكفر والإيمان ثم ما حدث بصفين، عندما قامت حركة الخوارج، وتعمقت أكثر قضايا الصراع الفكري، والعقائدي، ولم يحالف النجاح الإمام علي بن أبي طالب في تدارك هذه الأمور، كما أخفق من بعده خلفاء بني أمية في

اجتثاث حركة المعارضة، التي أخذت تتحول إلى فرق دينية[1] ذات توجُهات سياسية لا بل حتى اقتصادية بالنسبة لبعضها، وتعطلت مشاريع دمج عناصر الأمة واستيقظت القبلية والفئوية والإقليمية وسواها.

لكن هذا التحول تأثر بعدة حوادث كبيرة، ويهمنا هنا ما حدث للتشيع دون سواه، فقد كان على رأس الحوادث، التي أثرت في التشيع ومازالت، حادثة كربلاء[2]، ففي أيام يزيد بن معاوية تمّ البطش في العراق بالحسين بن علي بن أبي طالب سبط النبي ﷺ، وبمعظم آله، وأدى هذا إلى تنظيم صفوف بعض قوى المعارضة وتلونها بالتشيع، وإلى الأخذ بمبادئ السرية في العمل، هذا ورأى الشيعة أنهم ينتمون إلى علي بن أبي طالب، وآمن أكثرهم بأن إمامهم بعد علي هو ابنه الحسن، ومن بعده الحسين قتيل كربلاء، وقال أكثريتهم بأن الحسن فقد حقه عندما تنازل عنه لمعاوية بن أبي سفيان، وأن الإمامة باتت في الحسين وأبنائه من بعده، وعلى هذا إن التشيع، الذي سنتعامل معه هو التشيع الحسيني، ولن تكون لنا أدنى علاقة بالحركات التي قادها أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب.

ويلاحظ أن حركة التشيع بدأت حركة إسلامية، عربية، إلى حد كبير لكن ما لبثت مع الأيام، أن دخلها غير العرب، إلى درجة أنها باتت أشبه بالاختصاص بالمسلمين من غير العرب، وأدى هذا إلى تسرب أفكار كثيرة وعقائد غريبة إليها، وكلما ازداد هذا التسرب أدى إلى التمزق داخل

---

(١) تاريخ خليفة جـ ١ ص ٢١٦. تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٥٥٢ ـ ٥٧٦. جـ ٥ ص ٥ ـ ٧١ وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري ط القاهرة ١٣٦٥هـ. الأخبار الطوال ص ١٥٢ ـ ٢٠١. تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ١٨٤ ـ ١٩٤. مروج الذهب للمسعودي ط القاهرة «محي الدين عبد الحميد» جـ ٢ ص ٣٨٤ ـ ٤١٤.

(٢) المواد حول كربلاء كثيرة جداً لدى مختلف الكتاب المسلمين ولعله تكفي الإحالة هنا على ترجمة الحسين بن علي في كتابي تاريخ دمشق لابن عساكر، بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم، فقد جمع هذان المؤرخان جل ما كتبه المسلمون حول هذا الموضوع ونشرت ترجمة الحسين لدى ابن عساكر في بيروت ١٩٧٨ ونشرت ترجمة لابن العديم في دمشق ١٩٨٩.

صفوف الشيعة، ولجأ بعض زعماء الشيعية في العصر الأموي إلى القيام ببعض الحركات العسكرية، وكان أبرز هؤلاء زيد بن علي الذي ثار في الكوفة سنة ١٢٢هـ في عصر هشام بن عبد الملك(١).

قبل ثورة زيد بأمد طويل استغل المختار الثقفي المطالبة بدم الحسين فأسس الحركة الكيسانية التي ورثتها الدعوة العباسية، واستقر غالبية أفراد أسرة الحسين في الحجاز في العصر الأموي، ولم يشاركوا في النشاطات السياسية، والتنظيمية، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول إن الحركة الشيعية تمت وتطورت في الأمصار. ويبدو أن الذي عدوا فيما بعد أئمة لم يكن لهم دورهم في تطوير تنظيمات هذه الحركات خاصة من الجوانب العقائدية، ومسألة الازدواجية هذه سنواجهها دوماً في تاريخ أي حركة من حركات التشيع، فالإمام علي لم يشارك في الإعداد لثورة أهل الكوفة ضد عثمان بن عفان، وأخذه الثوار إلى الكوفة، وهناك لاقى حتفه والحسين بن علي لم يتول الإعداد للثورة ضد يزيد بنفسه في الكوفة بل استدعي إليها، وفي الطريق لقى حتفه، وهذه الازدواجية ستكون واضحة لدينا لدى التعرض لنشوء الإسماعيلية، وتطورها. وستكون إحدى خلفيات الطعن في أنساب الأئمة الإسماعيليين، وأعمال الشقاق، فستجد أن الذي أعد للثورة في إفريقية، هو أبو عبد الله الداعي، لكن عندما تسلم المهدي السلطة، قام بتصفية الداعي وجل أعوانه.

وتبنت عقيدة التشيع أثناء تطورها فيما تبنته عقيدة المهدي المنتظر، وظهرت هذه العقيدة منذ العصر الأموي والمسألة هنا مرتبطة بوقائع الفتنة الكبرى، حين رأى الثوار أن إزالة الخليفة عثمان قد يوفر الحل لجميع قضاياهم، في إزالة عثمان، وإحلال علي بن أبي طالب

---

(١) تاريخ خليفة جـ ٢ ص ٥٣٦. تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦. تاريخ الطبري جـ ٧ ص ١٦٠ ـ ١٩١. الأرجوزة المختارة ص ٩٨ ـ ١٨٠.

محله. أي أن مصدر الاضطراب فرد من الأفراد، والإصلاح يأتي من خلال فرد آخر من الأفراد، وهذا أمر جديد كل الجدة على الإسلام وعلى العرب، ولعل العرب تعرفوا إلى عقيدة المنتظر في البلدان المفتوحة في بلاد الرافدين وفارس، ذلك أن عرب ما قبل الإسلام، لم يعرفوا فكرة المنتظر أو المخلص، ولم يعرفوا عقيدة الفداء، فقد كان ﷺ قد أرسله الله تعالى «بالحق بشيراً ونذيراً»[1]. وسيرته عليه السلام كانت جهود هداية نحو الوحدانية لله تعالى ولم تكن أعماله أعمال فداء، وبالوقت نفسه نلاحظ أن التاريخ العربي الإسلامي المبكر عرف عدة عمليات اغتيال كبيرة، كان من بينها اغتيال عمر بن الخطاب، ثم علي بي أبي طالب، ثم سواه لكن ما من مصدر من المصادر، وسم عملية الاغتيالات بسمة الفداء أو أطلق اسم فدائي أو فداوي على الذين تولوا أعمال الاغتيال[2].

النبي ﷺ كان رسول الله، يسعى إلى هداية قومه ومن هنا أُطلق عليه بعض معاصريه لقب المهدي، لكن هذا اللقب اختلف تماماً في محتوياته عن معنى المهدي كما جرىتصوره لدى الشيعة، إنه مرتبط هنا - بالأصل اللغوي العربي للكلمة، ففي العربية (المهدي هو الذي قد هداه الله إلى الحق)[3] وعلى هذا الأساس قال حسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي ﷺ:

جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً	يا خير من وطئ الحصى لا تبعد
بأبي وأمي من شهدت وفاته	يوم الاثنين النبي المهتدي

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٩.

(٢) انظر كتاب أسماء المغتالين من الأشراف لمحمد بن حبيب، نشر داخل كتاب نوادر المخطوطات. تحقيق عبد السلام هارون طبع القاهرة ١٩٧٢ جـ ٢ ص ١١٢ - ٢٧٥.

(٣) انظر كتاب النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري مادة «هدى».

ومدح الفرزدق فيما بعد سليمان بن عبد الملك فقال:

وألقيت من كفيك حبل جماعة وطاعت مهدياً شديد النقائم

ومدحه جرير فقال:

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدي قد وضح السبيل

ومدح جرير نفسه هشام بن عبد الملك فقال:

فقلت لها الخليفة غير شك هو المهدي والحكم الرشيد[1]

وحين نعود إلى كتب الحديث النبوي ومن أقدمها مصنف الإمام عبد الرزاق الصنعاني نجد هذا الإمام قد أفرد باباً في كتابه بعنوان كتاب المهدي، وفي هذا الباب عدة روايات من باب الآثار، وحديثين فقط الآثار منقولة عن بعض الصحابة أو لنقل معزوة لبعض الصحابة والتابعين، أما الحديثين فأحدهما مرفوعاً إلى النبي وجاء في مطلع الثاني «ذكر رسول الله[2]».

لقد تضخم حجم المادة المتعلقة بالمهدي وتبدلت سمات هذا المهدي منذ قيام الثورة العباسية، وكان أقدم من جمع حول هذا الموضوع كتاباً مفرداً هو الإمام نعيم بن حماد المروزي الخزاعي (ت ٢٢٨هـ) سماه كتاب الملاحم والفتن[3]، ويلفت الانتباه ليس غزارة المواد التي وردت عند نعيم ابن حماد، لكن رأي كبار الأئمة أئمة الفقهاء والحديث فيها، يقول الإمام

---

(١) انظر كتاب المهدي في الإسلام لسعد محمد حسن ط القاهرة ١٩٥٣ ص ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) انظر المصنف طبع بيروت ١٩٧٢ جـ ١١ ص ٣٦ ـ ٢٩. انظر محتويات الإمام المهدي عند أهل السنة.

(٣) نشر هذا الكتاب محققاً في بيروت ١٩٩٢ بعناية سهيل زكار.

أحمد بن حنبل: «ثلاث كتب ليس فيها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير»[1].

إن على الباحث في تاريخ التشيع لاسيما تاريخ الدعوة الإسماعيلية أن يلتفت إلى قضية المهدي وعقيدته وأن يقف عندها بعض الوقت لما لهذه العقيدة من تأثير في تاريخ الإسماعيلية والخلافة الفاطمية.

عقيدة المهدي عند الشيعة جميعاً وفيما بعد عند غالبية أهل السنة شديدة التأثر بعقيدة الفداء والمخلص التي عرفت ببلاد الرافدين في الحقبة الإيرانية قبل الإسلام والتي بالوقت نفسه استعارها اليهود بعد السبي البابلي الأخير فظهرت بما دار حول النبي العزير ثم تطورت تطوراً مذهلاً مع قيام المسيحية، ومن ثم تحولها إلى نصرانية، وهذه العقيدة ارتبطت بتراث الغنوصية (العرفان) لأعالي بلاد الرافدين وشمال بلاد الشام خاصة في حران والرها وأنطاكية وطرسوس، فهنا في هذه العقيدة الأمور جميعاً استقطبت حول شخص فرد حبيٍّ بصفات علوية خاصة، ورفعته بعض الجهات إلى عليين وجعلته رباً من الأرباب، وهذا الشخص الذي ملك أسرار المعارف الخفية يظهر وقت الحاجة، ويقوم بتفريج الكرب عن الناس أجمعين، ونذكر هنا ثانية بما سلف وأشرنا إليه وكيف حدثت وتحول بعض المسلمين من التعلق بالشريعة كسبيل إلى حل المشاكل إلى التعلق بفرد من الأفراد. وقد يتساءل المرء: متى دخلت عقيدة المهدي بشكلها الجديد إلى المجتمع الإسلامي؟.

تكاد المصادر الإسلامية المبكرة تجمع على أن هذه العقيدة لم تكن رائجة في العصر الأموي. لكن عدم الرواج هذا على الأقل بين أوساط الامويين لاينفي وجودها في الأوساط غير الأموية وبالتالي ترافق مفهوم

---

(١) الكامل في الضعفاء، لابن عدي طبع بيروت ١٩٨٤ جـ ١ ص ١١٨.

العقيدة مع تطور مفهوم الإمامة لدى الشيعة. فقد روي عن القاضي عامر الشعبي أنه قال: «إن علياً عليه السلام أتاه قوم فقالوا أنت هو، قال ومن أنا؟ قالوا أنت ربنا فأمر بنار فأججت فألقوا فيها وفيهم قال علي عليه السلام:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبرا

فحرقهم علي بن أبي طالب على باب المسجد ونفاهم من البلاد». وفي رواية أخرى قيل:« أتي علي بن أبي طالب فقيل له: إن ههنا قوماً يزعمون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا، وخالقنا، ورازقنا» وراجعهم الإمام علي في هذه القضية فأصروا على موقفهم، وتهددهم فازدادوا إصراراً، فما كان منه إلا أن أمر بإحراقهم[1].

وعلى الرغم من شيوع فكرة المهدي في الأوساط الإسلامية لم يؤمن بها كبار الفقهاء، فقد رُوي أن أحد المسلمين سأل الإمام سفيان بن سعيد الثوري فقال: «قد أكثروا في المهدي فما تقول فيه؟» فقال: «إن مرّ على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه، واعلم علمك الله الخير أن هذه الطائفة طمع في سخافة عقلها وكثرة جهلها وادعاء المنكرات من الأفعال والأقوال كل أحد ممن يريد كيد الإسلام وتشويش قواعد الدين والإمامة، وخرق إجماع أهل العقل والإسلام، حتى ترسم لهذا الأمر وترشح له من هو له أهل ومن ليس له أهل، وما كان سبب ذلك إلا ادعاء هذه الطائفة خروج هذا الخارج، الذين يدعون أنه صاحب الوقت، والزمان، تعالى مدبر الزمان، ومالكه، عما يقولون علواً كبيراً»[1].

---

(١) الحرز والمنعة لعبد الله بن محمد بن الوليد ط بيروت ١٩٨٨ ص ٢٣ ـ ٢٧.

(١) الحرز والمنعة، ص ٥٩ ـ ٦٠.

والمستعرض لتاريخ الإسلام والمسلمين قديمه وحديثه، يجد أن أكثر من واحد ظهر فيه، بدعوة المهدي المنتظر، لكنه لم يزل الظلم، ولم تحدث المعجزات على أيد أحد منهم، فالتغيير يحدث من خلال التبديل الشامل وتطبيق الشريعة، لا من خلال فرد من الأفراد يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [1].

بعد هذه التوطئة لنعد إلى مسار البحث فنجد أن الخلافة آلت إلى علي بن أبي طالب، بعد مصرع عثمان بن عفان، لكن خلافة علي بن أبي طالب لم تطل، وانتهت باغتياله، وبعد اغتياله بأمرٍ قصيرٍ تخلى ابنه الحسن عن الأمر لمعاوية بن أبي سفيان، وبهذا انتقل شيعة آل البيت ثانية إلى صف المعارضة للسلطة، ولقد كانوا قد أظهروا معارضتهم للمرة الأولى يوم اختير عثمان للخلافة، والآن أعلنوا عن معارضتهم بشكل مستمر منذ أن استولى على السلطة معاوية بن أبي سفيان، وظل آل البيت محرومين من الوصول إلى السلطة طوال العصر الأموي، ومع وصول أبناء عمهم من العباسيين إلى سدة الخلافة ازداد حرمانهم، وجرت محاولات عدة في العصرِ الأموي، وفي مطلع العصر العباسي للوصول إلى السلطة فأخفقت جميعاً، وكان الثمن غالياً للغاية، حيث سفكت دماء آل البيت، والمستعرض لمصادر التاريخ الإسلامي أو لمقاتل الطالبيين لأبي فرج الاصفهاني يجد ما شاء من الأمثلة ليختار.

لاشك أن الانتكاسات ترافقت مع تعقد المشاكل السياسية، والاقتصادية، خلال العصرين الأموي والعباسي، وتصاحبت مع دخول مجموعات هائلة من الشعوب الشرقية وغيرها في الإسلام، كل منها وقد حمل تراثه، وموروثاته العقائدية وتطلعاته ونزعاته الإقليمية والقومية،

---

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

وأدى هذا كله إلى ظهور عدة تيارات وسط ما عرف بعد كربلاء، بخط الإمامة الحسينية، وقال هذا الخط كما هو معروف: إن الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، كانت لعلي بن أبي طالب ومعها الخلافة، فالإمامة مثلت الدين والخلافة مثلت الدنيا واستأثر أبو بكر بالجانب الدنيوي، لكنه لم يستطيع استحواذ الجانب الديني، واجتمعت الإمامة والخلافة بعلي بن أبي طالب لدى تسلمه السلطة، ثم آلت من بعده إلى ابنه الحسن، لكن الحسن تخلى عن حقه هذا لمعاوية، وبما أن الإمامة نور إلهي مصون صوناً ربانياً، فإن تخلي الحسن لم يعن أن تزول الإمامة، من صفوف أبناء علي، حيث إن الإمام بعد الحسن كان أخوه الحسين، وبعد مصرع الحسين في كربلاء آلت الإمامة إلى ابنه علي بن الحسين (زين العابدين) وبعد وفاة زين العابدين، انتقلت إلى ابنه محمد الباقر الذي سمي بالباقر لأنه بقر العلم، فالعلم ركن أساسي في عقيدة الشيعة، ومن هذا الباب روي عن النبي ﷺ قوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». ورأى الشيعة أن النبي ﷺ أعطى لعلي علماً خاصاً به، وأورث علي بن أبي طالب هذا العلم الخاص للإمام من بعده، وهكذا انتقل العلم من إمام إلى إمام، ومع الأيام غالى الشيعة خاصة الإسماعيلية، بمسألة العلم هذا، حتى جعلوا الإمام يعرف ما كان وما سيكون.

وبعد وفاة محمد الباقر آلت الإمامة إلى ابنه جعفر بن محمد، فهو الإمام السادس[1] وولد الإمام جعفر الصادق سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٤٨هـ، وهذا يعني أنه عاصر الحقبة المروانية من الحكم الأموي، ثم شهد قيام الخلافة العباسية، وحكم أبي جعفر المنصور، لقد نشأ جعفر بن

---

(١) الغلو في علم الإمام ظهر أيضاً لدى الشيعة الاثني عشرية، وهذا نراه في كتابي الكافي للكليني وعيون أخبار الرضا، لمحمد بن علي بن بابويه القمي، ويلفت الانتباه استخدام الإمامية لرقم ١٢ وجعل الإمام جعفر الصادق رقمه السادس. ذلك أن بلاد الرافدين تبنت قديما النظام الستيني.

محمد بالمدينة، وفيها انصرف إلى الثقافة الإسلامية، فبات علمها الأول، وهكذا عدته الشيعة إمامها، وقصده طلاب العلم من كل مكان حتى روي أن أبا حنيفة النعمان بن ثابت إمام أهل العراق قصده وأخذ عنه، وكذلك فعل الإمام مالك بن أنس إمام أهل المدينة، وعندما قامت الثورة العباسية راسل أبو سلمة الخلال الإمام جعفر الصادق عارضاً عليه التعاون فرفض، وهكذا لم يتورط في أي عمل سياسي معلن، ومع هذا يلاحظ أن الحزب الذي آمن بإمامته انشطر في أواخر حياته، أو بعيد وفاته[1]؟ إلى قسمين: متطرّف ومحافظ، وسبب هذا الانقسام هو أن الابن الأكبر لجعفر الصادق كان اسماعيل، ويقال في بعض المصادر، كان اسماعيل غير مرضي السيرة، لذلك حرمه أبوه من ولاية العهد وعيّن عوضاً عنه ابنه الثاني موسى الكاظم، وقالت روايات أخرى، توفي اسماعيل في أيام أبيه، لذلك أقدم الإمام على تسمية ابنه موسى ولياً لعهده وإماماً من بعده ورفض عدد كبير من الشيعة هذا الإجراء، على أساس عقيدة أن الإمامة نور ينتقل في الأصلاب من أب إلى ابنه البكر، وهكذا دواليك، فالإمامة بعد ولادة اسماعيل انتقلت من جعفر الصادق إلى هذا الابن، وقبل أن يتوفى اسماعيل كان قد ولد له ابن حمل اسم محمد، وعلى هذا الأساس انتقل نور الإمامة إلى هذا الحفيد لجعفر الصادق[2].

وبهذا بات الخط الإمامي للشيعة، عبارة عن خطين واحد قال بإمامة محمد بن إسماعيل والآخر قال بإمامة موسى الكاظم، وسيتابع خط موسى الكاظم تسمية الأئمة إلى الإمام الثاني عشر، الذي هو عندهم المهدي

---

(١) انظر عيون الأخبار، للداعي المطلق أدريس القرشي، جـ ٤ طبع بيروت ١٩٧٣ ص ٢٥٣ الأرجوزة المختار، ص ١٨٩. الكافي، لمحمد بن يعقوب الكليني ط بيروت ١٤٠١م ط، ص ٣٧٢ ــ ٣٧٥ وصدر بعد الثورة الإيرانية عدد كبير من الكتب عن جعفر بن محمد من أهمها أخبار الصادق وعلاقته بالمذاهب الأربعة، لأسد حيدر طبع في ثلاثة مجلدات، بيروت ١٩٨٣.

(٢) عالج القاضي النعمان بشكل مباشر وغير مباشر هذه المسألة في ثنايا الأرجوزة المختارة.

المنتظر، وصاحب الزمان وقائم آل محمد، وبه يؤمن جلّ الشيعة في أيامنا هذه لاسيما في إيران، أما الذين آمنوا بإمامة محمد بن إسماعيل فقد باتوا يعرفون باسم الإسماعيلية، أو السبعية أو التعليمية أو الباطنية إلى غير ذلك من التسميات.

تذهب بعض الآراء إلى أن الإسماعيلية عرفوا بالسبعية لأنه وجد في العالم القديم لاسيما الكلاسيكي منه ومصر من قدس رقم ٧، مثلما قدس البابليون الرقم ١٢ وقدس الإيرانيون الرقم ٥ خاصة لدى المانوية، ولقد قال الإسماعيلية «إن السموات سبع والكواكب السيارة سبع والأرض سبع، وأعضاء الإنسان سبع، والنقب في الرأس سبع، والأنبياء ذوي العزم سبع[1]».

وستكون لنا عودة إلى اعتقاد الإسماعيلية بأن الأنبياء ذوي العزم سبع المهم أن نبين الآن أنهم عرفوا بالتعليمية لأن عقيدتهم قامت على «إبطال النظر والاستدلال والدعوة إلى الإمام المعصوم، ويقولون أن الحق إما أن يعرف بالرأي أو بالتعليم، وباطلاً أن يعرف بالرأي لتعارض الآراء، واختلاف العقلاء، فلم يبق إلا أن يعرف بالتعليم[2]».

وعرفوا بالباطنية، لأنهم قالوا لكل ظاهر باطن، والعلم علمان، علم الظاهر وعلم الباطن، وأسرفوا في تأويل النصوص الدينية، وشغلت مسألة الاعتقاد بعصمة الإمام وتأويل النصوص وأن الأنبياء ذوي العزم سبعة

---

(١) فرق الشيعة للنوبختي، ط استانبول ١٩٣١ ص ٥٧ ـ ٥٨، عيون الأخبار، للقرشي جـ ٤ ص ٣٤٩ ـ ٤٥٠.

(٢) مصادر الحاشية السابقة.

دوراً أساسياً في تاريخ الدعوة الإسماعيلية، والخلافة الفاطمية وعلى هذا نستطيع أن نعلل مسلك كل واحد من الخلفاء الفاطميين(١).

دعت المصادر الإسماعيلية محمد بن إسماعيل باسم محمد المكتوم، وذكرت أنه تخفى خشية من السلطات العباسية، وعلى هذا كان أول سلسلة من الأئمة السريين مختلفاً حولهم تسميةً وزماناً وعدداً، وقد انتهت سريتهم بإعلان الخلافة الفاطمية، وفي مقابل ما ذهبت إليه المصادر الإسماعيلية وعلى نقيض منها، ذهبت المصادر الإمامية، إلى أن محمد بن إسماعيل، لم يكن متخفياً وأن علاقته بعمه موسى الكاظم كانت سيئة، فقد كان يحسد عمه، ويسعى للإيقاع به، وبلغ الأمر أنه وشى به إلى الخليفة هارون الرشيد، فاعتقله وأودعه السجن حيث مات، ومن ثم دفن في بغداد ومازال مشهد الكاظمية في بغداد واسع الشهرة يزار(٢).

ومهما يكن من أمر شكلت الجماعات التي انتمت إلى إسماعيل فرقة سرية جداً، تم إعدادها بشكل محكم، ونظمت بكل دقة وإتقان حتى استطاعت أن تقوم بعدة أدوار على مختلف الصّعد، وبذلك تفوقت على جميع فرق الإسلام التي نافستها، والتي تقدمت عليها، ففي مكان العمل الانفعالي، والاعتماد على الإثارة العاطفية، أحكم رجالات الإسماعيلية صنع نظام للعقيدة الإسماعيلية، كان على مستوى فلسفي رفيع، وقدرات على الدعوة والتبشير عالية، وأنتج هذا الحزب أدباً كبيراً، في مختلف المجالات ظهر إلى النور العديد من محتوياته، وتظاهر الإسماعيلية باحترام الإسلام والقرآن والشريعة، وبالمقابل واعتماداً على التأويل، والفكر الباطني

(١) النوبختي، ص ٥٧ ـ ٥٨. الكافي للكليني، ص ٤٨٥ ـ ٤٧٥. عيون أخبار الرضا ص ٧٠ ـ ٨٩، عيون الأخبار، للقرشي جـ ٤ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠. أصول الإسماعيلية، لويس. ترجمة عربية ط بغداد ١٩٧٤ ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) أصول الإسماعيلية، برنارد لويس، ص ٨٢ ـ ٨٣ ـ المشيشية ط بيروت ١٩٧١ ص ٣٧ ـ ٤٤.

الخاص، قدموا للفلاسفة، وللصوفية معاً شرحاً فلسفياً حيناً، وباطنياً حيناً آخر للكون، واعتمدوا هنا على التراث الفلسفي الشرقي والكلاسيكي، ونهلوا حتى الثمالة من الأفلاطونية المحدثة، وحين عرضوا حياة الأئمة وما عانوه، قدموه على شكل أفكار معارضة للنظام الإسلامي السني، الذي كانت تمثله الخلافة العباسية، وبطريقة هادفة، لكن بوعود سرابية حيث عرضت الوعود بالإصلاح والتغيير عن طريق الإمام الذي سيظهر عندما يحين الوقت[1].

واختارت الدعوة الإسماعيلية، الوقت الموائم للتحرك، وذلك بعد ما عانى نظام الدولة العباسية من انتكاسات خطيرة جداً، فالعباسيون كانوا بعد وصولهم إلى السلطة، قد اعتمدوا سياسة دينية، جعلت من جدهم عبد الله بن العباس حبر هذه الأمة، ولعلهم استهدفوا بتركيزهم على معارف ابن عباس وعلمه أن يحلوه محل علي بن أبي طالب، وكان العباسيون قد قربوا إليهم العلماء. ورجال الدين، واستخدموا هنا مختلف الوسائل ترغيباً وترهيباً، وتدخلوا في مختلف أوجه النشاط، فالخليفة المنصور ـ وكان يعد من العلماء ـ لم يكتف بأن طلب من الإمام مالك تصنيف الموطأ، بل أرشده إلى ما ينبغي أن يذكره به، كذلك أعاد ابن اسحاق ـ بناءً على طلب من المنصور ـ تأليف كتاب السير والمغازي، وحين أتت المصادر على وصف مجالس الخلفاء العباسيين، صور كل خليفة وقد أوقف شطراً كبيراً من وقته لمجالسة العلماء، ولسماع شعر الشعراء ــ واستمرت

---

(١) الكافي للكليني جـ١ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٧. عيون أخبار الرضا ٧٠ ـ ٨٩. النوبختي ص ٥٧ ــ ٥٨. الفرق بين الفرق؛ لعبد القاهر البغدادي ط القاهرة ١٩٤٨ ص ٣٩. الملل والنحل، لمحمد الشهرستاني ط القاهرة ١٩٤٨ جـ ١ ص ٣٣١ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ط بيروت ١٩٨٣ جـ ٩ ص ١٧٥.

* جعفر بن منصور اليمن، سرائر وأسرار النطقاء طبع بيروت ١٩٨٤ ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ عيون الأخبار، للقرشي جـ ٤ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠. محمد حسن الديلمي. بيان مذاهب الباطنية وبطلانه طبع استانبول ١٩٣٨ ص ٢١ ـ ٢٥. أصول الإسماعيلية ص ٨٣.

الصلات وثيقة بين العلماء وخلفاء بني العباس إلى درجة أننا نجد المأمون، قد أشرف بذاته على نشاطات المعتزلة وعدّ عقيدتهم عقيدة الدولة، وبعد المأمون ببعض الوقت فعل المتوكل على الله العباسي عكس ما فعله المأمون، حين حرض العلماء على محاربة الاعتزال والتشيع، لكن المتوكل كما نعرف انتهت حياته بقتله من قبل الجند الأتراك، وبعد مقتل المتوكل تحكم الجند بالخلفاء، واستمروا في استخدام العلماء، ووجد العلماء أنفسهم متورطين في مشاكل السلطة كل آونة يفتون بعزل خليفة وبتنصيب آخر، أو بفعل مظلمة من المظالم، وأفقد هذا علماء أهل السنة جلّ الاحترام الذي كانوا يحظون به لدى سواد المسلمين، وقامت هوة سحيقة بين السلطة المتحالفة مع العلماء من جانب، وبين عامة المسلمين، وترافق هذا كله مع انقلابات اقتصادية داخل الدولة العباسية، فقد تمركزت الثروات لدى ملاك الأراضي وكبار التجار، ولحق الحيف والظلم الشديد بالفلاحين وصغار الكسبة، وهكذا تطلع هؤلاء إلى من يخلصهم، وكان الجمود قد أصاب حركة الاثني عشرية لهذا اغتنم الفرصة رجالات الدعوة الإسماعيلية، وحاولوا سدّ الفراغ[1].

وفي هذه الأونة اكتفت الدعوة الإسماعيلية، بالعمل الدعوي الفكري المنظم، ولم تتورط مباشرة في أي عمل عسكري، مثل ما حدث بالنسبة لثورة الزنج، لا بل حتى مثل ما حدث بالنسبة لحركات القرامطة، فالقرامطة وإن كانت أصولهم إسماعيلية غير أن قيادة الدعوة لم تتورط في نشاطاتهم العسكرية، وأدى هذا إلى مواجهات بين الأئمة والقرامطة وسنجد بعض وقائع هذه المواجهات لدى الإشارة إلى استقرار أئمة

---

(١) سهيل زكار، تاريخ العرب والإسلام، ط بيروت ١٩٧٤، ص ٢٨١ ـ ٣١٠ وكان الدكتور. فاروق عمر قد عالج تاريخ الخلافة العباسية في هذه الفترة في كتاب حمل عنوان الخلافة العباسية في عصر الفوضى العباسية ط بغداد ١٩٧٧.

الإسماعيلية في الشام، ثم انتقالهم إلى مصر والتخطيط بالانتقال إلى اليمن، ويواجهنا هنا سؤال لابد من التصدي لمعالجته وهو: من الذي كان مسئولاً عن الدعوة الإسماعيلية في هذه الآونة، ومن الذي نظم هذه الدعوة وطورها، وأين كان مركز الدعوة الإسماعيلية، وإلى أي مدى تنبه العباسيون للنشاط الإسماعيلي وحاولوا قمعه؟.

من غير الممكن، إن لم يكن من المستحيل، تقديم إجابة موثقة ومقنعة لهذا السؤال، حيث علينا في البداية أن نتحدث عن دعوات إسماعيلية، لا عن دعوة واحدة، فكما حدث من قبل في تاريخ التشيع العام، انضوت قوى كثيرة في أماكن متباينة تحت لواء الإسماعيلية أو نسبت إلى الإسماعيلية ولم تكن إسماعيلية.

وذكرنا من قبل أن المصادر الإسماعيلية، قالت أن دور الستر والكتمان بدأ مع محمد بن اسماعيل، الذي عرف باسم محمد المكتوم، أو الإمام المكتوم، وادعت هذه المصادر أن المكتوم جرى إيداعه لدى رجل أعجمي عرف باسم ميمون القداح (أي طبيب العيون) وان هذا الإيداع جرى من قبل الصادق نفسه، أو من قبل إسماعيل، إنما لا نعرف أين تم ذلك أفي الحجاز، أم في العراق، أم في بلد آخر، لاسيما والقداح إيراني الأصل[1]؟.

وإذا سلمنا مع المصادر الإسماعيلية بوجود محمد بن إسماعيل، لكن ماذا عن الأئمة من بعده، من هم، ما هي أسماؤهم، وأين عاشوا، وما هي الأدوار التي قاموا بها؟ في كتاب إسماعيلي مجهول المؤلف يعود تاريخه - كما هو مرجح - إلى ما قبل قيام الخلافة الفاطمية، نشر قطعة

---

(1) سرائر وأسرار النطقاء، ص ٢٦٢ - ٢٦٤. عيون الاخبار، للقرشي جـ ٤، ص ٣٣٢-٣٣٥. أصول الإسماعيلية، ص ٨٥-٨٦.

منه سهيل زكار في كتابه أخبار القرامطة، وحمل هذا الكتاب عنوان كتاب «التراتيب وهي سبعة تراتيب على التمام والكمال»، في هذا الكتاب تحدث مؤلفه عن العلاقة بين جعفر الصادق، وأبي جعفر المنصور وانه نتيجة لضغط المنصور الشديد: «احضر الصادق عند ذلك حجبه ودعاته وأهل شيعته، ومن يلوذ به وسلم إلى ولده إسماعيل بمحضر منهم، وأمرهم بالدعاء له في جميع الأمصار والأقاليم، وأن يأخذوا العهد منه، وان أمر الدعوة بيده وكلها له»[1].

وعندما علم المنصور بهذا قصد بالأذية «آل إسماعيل عليه السلام ودس عليه من يقتله[2]، وبعد وفاة إسماعيل، صنع الصادق محضراً رسمياً، شهد فيه الشهود على وفاة إسماعيل ودفنه، مما بعث السرور في نفس أبي جعفر المنصور» فاطمئن قلبه وسكن روعه وظن بجهله أن أمر أولاد الحسين قد انقطع، وأنه لا بقية لهم فعمّا قليل بلغه ممن يتولاه ويركن إليه أن إسماعيل، قد ظهر في البصرة، وانه مرَّ بمزمن له أربعون سنة بذلك الزمن، وهو في جحفل من الناس، وهم يسمونه ويكنونه، فقال له خذ بيدي يا بن بنت رسول الله، أخذ الله بيدك، فأقبل عليه وأخذ بيده، وأقامه فبري من ساعته»[3].

وعندما علم المنصور بهذا أصابه الهلع، فاضطر إسماعيل إلى أن «ستر على نفسه حجابا لعظم الفترة وتغلب الضد»[4] ويشير هذا بشكل غير مباشر إلى أن إسماعيل نشط في البصرة، وفيها توفي، وإذا صح هذا يمكننا القول أن الحركة الإسماعيلية انطلقت أولا من البصرة، لكن لماذا

---

(١) الجامع في أخبار القرامطة، طبع دمشق، ١٩٨٧ جـ ١ ص ٢٨٧.
(٢) المرجع نفسه، جـ١ ص ٢٨٧.
(٣) المرجع نفسه، جـ١ ص ٢٨٨.
(٤) المرجع نفسه، جـ١ ص ٢٨٩.

من البصرة، والمعروف أن الكوفة هي معقل الشيعة والتشيع؟ ولعل السبب أن الكوفة كانت للخط الإمامي، وكانت مراقبة بشكل جيد من قبل السلطات العباسية، واحتياطا من إسماعيل ليكون قريباً من الأراضي الإيرانية اتخذ البصرة مقراً له.

ومضى مصدرنا الإسماعيلي المبكر هذا إلى القول، بأن إسماعيل سلم الأمر قبل وفاته إلى ابنه محمد المكتوم، ولما توفي محمد، وهو أول الأئمة المستورين، سلم الأمر لولده أحمد الرضي: «وكان حجابا الذي احتجب به وستره الذي ستره والذي نصبه وأقامه مقامه ميمون القداح، وأمره الإمام عليه السلام أن يأخذ العهود لنفسه، أعني ميمون القداح، ففعل ما أمر به الإمام»[1]، ويلفت الانتباه هنا أن الداعي المطلق إدريس القرشي ذكر أن اسم الإمام الرضي كان عبد الله بن محمد بن إسماعيل[2].

إن التباين والخلاف بين المصادر الإسماعيلية حول ترتيب أئمة الستر وأسمائهم لا يمكن توفيقه، فهي حتى لم تتفق على عدد الأئمة، الأمر الذي دعا بعض الباحثين إلى التشكيك في وجود أئمة في الستر، ملكوا فعلاً النسب الإسماعيلي، وكل ما في الأمر أن ميمون القداح، كان هو المسئول عن القضية بأكملها، وميمون هذا أبدع فكرة أن الإمامة على نوعين: استقرار، واستيداع، وأن إمام الاستقرار من ولد إسماعيل في ستر محكم، وإمام الاستيداع هو الذي يتولى قيادة الدعوة، هذه الدعوة التي قسمت عالم أيامها إلى عدد من الجزر الدعوية، وجعلت كل جزيرة عدة أقاليم، وبثت الدعاة في مختلف الأقاليم، وكان الداعي في كل جزيرة من الجزر مسئولا عن الدعاة في أقاليم جزيرته، وعرف الرأس الأعلى للدعوة، باسمه «داعي الدعاة»، وارتبط داعي الدعاة بالإمام، أي بإمام الاستيداع،

---

(١) المرجع نفسه، جـ١ ص ٢٨٩.

(٢) عيون الأخبار، جـ٤، ص٣٥٧.

وكان منذ البداية اسمه ميمون بن القداح، وبعد وفاة ميمون خلفه ابنه عبد الله بن ميمون، ويستفاد من مصدرنا الإسماعيلي «كتاب التراتيب»، أن وفاة ميمون كانت في أيام إمامه الرضي، ولذلك عندما دنت منية الرضي: «أحضر ولده محمد عليه السلام، وسلم الإمامة له بمحضر من خواص الدعاة البالغين في الدين، وعندهم علم الكتاب، فقام محمد عليه السلام بالأمر وأمر الإمام (محمد) ابن ميمون القداح، أن يقوم مقامه، ويأخذ العهد لنفسه كفعل أبيه ميمون القداح، ولم يزل قائماً بالأمر عن إذن الإمام عليه السلام إلى أن حضرت محمد النقلة، فعند ذلك أحضر ولده أحمد عليه السلام، وأكابر الدعاة وخواص الحجج وسلم إليه بمحضر منهم كفعل من تقدم من آبائه عليه السلام»[1].

وعلى هذا ترتيب الأئمة حتى الآن:

١ ـ أئمة الاستقرار.

إسماعيل

محمد بن إسماعيل

أحمد بن محمد بن إسماعيل

محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل.

٢ ـ أئمة الاستيداع.

ميمون القداح.

عبد الله بن ميمون من بعده

ويستخلص من كتاب التراتيب أن الإمام أحمد استبدل بعبد الله بن ميمون القداح، واحداً من أخوانه ونصبه إمام استيداع، وظل هذا الأخ

(١) الجامع في أخبار القرامطة، ج١، ص٢٨٩.

قائماً بهذا الأمر حتي وفاة أحمد، وكان أحمد قبل أن يتوفى سمى ابنه محمد ولياً لعهده وإماماً من بعده بلقب المهدي، وأمر هذا الابن بالانتماء إلى عمه إمام الاستيداع، واستطرد في روايته ليقول أن إمام الاستيداع أراد أن يحرم ابن أخيه من الإمامة الحقة، وينفرد بها، لكنه لم يفلح في ذلك، وعندما توفي المهدي سمى ابنه ولياً لعهده، ولقبه بالقائم: «وكان أمر الظهور قد اقترب بأوان طلوع الشمس من مغربها»[1]، وقبل أن يتوفى هذا الإمام سلم أخاه عبد الله إمامة الاستيداع، وأمره أن ينوب منابه ويتسمى باسمه وينعت نفسه بنعته، وينسب القائم عليه السلام انه ولده، كي تعلو كلمته وتثبت دعوته لأنه صاحب الكشف عليه، وبيده يكون الظهور، والفرج وبروز كل أمر من الدين مستور، وقام القائم عليه السلام بصورة الجود الكلي والفيض الإلهي، وقام عمه عبد الله بالخلافة والنيابة وتلقب بالمهدي كما أمره الإمام على ذكره السلام، ودعا لنفسه وبسط الدعاة والحجج في الجزائر والأقاليم من قبله، والدعاء له والطاعة لأمره، وانه الإمام المقصود، الذي دلت الحدود على طاعته، وعلى يده يكون الظهور وبروز كلام من الدين المستور، فلم يزل كذلك حتى ظهرت الدعوة باليمن، على يد بعض دعاته، وهو الملقب بمنصور اليمن، فظهرت الدعوة بالمغرب على يد أبي عبد الله الشيعي، واستقام أمره وتم المراد وظهرت الإمامة والملك، وخطب له على المنابر في جميع الأمصار وسائر الأقطار»[2].

ونعود ثانية لاستخلاص سلسلة الأئمة كما أوردها هذا المصدر الإسماعيلي المبكر فهي كما يلي: إسماعيل ـ محمد ـ أحمد ـ محمد ـ أحمد ـ بعد محمد المهدي ـ القائم أئمة الاستيداع ـ ميمون القداح ـ عبد الله بن

(١) المرجع نفسه، جـ١، ص ٢٩٠.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص ٢٨٩ـ٢٩١.

ميمون ـ أخو أحمد؟ عبد الله المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية، ويتعارض هذا الترتيب بشكل شديد مع روايات مصادر إسماعيلية أخرى، لاسيما مع ما ورد في «كتاب استتار الإمام عليه السلام، وتفرق الدعاة من الجزائر لطلبه»، وفي كتاب «عيون الأخبار» للداعي إدريس القرشي، وذلك فضلا عما جاء في المصادر غير الإسماعيلية، ذلك أن صاحب كتاب التراتيب لم يوضح لنا كيف تم إلغاء دور أسرة القداح ومتى وأين تم، ولم يبين تفاصيل الخلافات بين أفراد البيت الإسماعيلي خاصة إذا أخذنا بعين التقدير أن الفاطميين بعد قيام دولتهم قالوا بشكل رسمي بأن القائم الذي تسلم السلطة بعد المهدي كان ابناً له.

لقد حاول أكثر من كاتب خاصة لويس وايفانوف تعليل هذه المسألة، لكن ما من أحد أوصلنا إلى القناعة الكلية، مما قد يدفع المرء إلى التشكيك بمجمل الروايات ورفضها وعدم القبول بحكاية أئمة الاستيداع وأئمة الاستقرار، وان أسرة القداح اخترعت هذا كله، وهذا ما قالت به المصادر السنية والدرزية، وقد ذهب القاضي عبد الجبار الهمذاني في كتاب «تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ»إلى أن إمام الإسماعيلية وأول خلفائهم هو حسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وأن هؤلاء كانوا باطنية، «قد تستروا بالإسلام وبقراءة القرآن الكريم وبالصلاة والصيام والحج، وإظهار الالتحاق بأهل البيت، وقد أوثقوا أمورهم بالكتمان وأخذ الإيمان والعهود على من أجابهم، وتجنبوا استدعاء الأدباء والعلماء والفقهاء، وتنكبوا الواسطة، وقصدوا الأطراف البعيدة التي قد استولى على أهلها الغفلة والجهل والقوة، وقصدوا أهل الترفه والعجب والشغل بالدنيا والملك، وتسموا بالاسم الحسن، من أنهم الشيعة، وغروا المسلمين»[1].

---

(١) نصوص من تثبيت دلائل النبوة في كتاب الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ص٢٩٧ـ٢٩٨ رسائل حمزة بن علي الزوزني في مجموع فيه «كتاب فيه تقسيم العلوم واثبات الحق وكشف المكنون» تأليف اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي، ورقة ٧و- ٨ظ.

وعلى الرغم من تشككنا الذي ذكرناه أعلاه، لابد لنا من أن نمضي بالحكاية حتى آخرها، ونعني هنا قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب، ونحن سنضطر للاعتماد على المصادر الإسماعيلية إلى أبعد الحدود، ويبدو من هذه المصادر أن بيت أئمة الاستقرار تنقل بين مكان وآخر في جبال الديلم، ولم تنقطع صلاته بالكوفة والعراق، وان الانقسامات الخطيرة والخلافات الشديدة، بين أفراد هذا البيت، دفعت بالإمام المستقر إلى الهرب إلى بلاد الشام، والتخفي هناك.

روى صاحب كتاب استتار الإمام، أن أول أئمة الستر بعد محمد المكتوم اسمه عبد الله، وقدم عبد الله هذا من المشرق إلى الشام، وبعدما تنقل في عدة أماكن شامية استقر أخيراً في بلدة السلمية، واثر وفاته التي تمت في السلمية آلت الإمامة إلى ابنه أحمد، وبعد وفاة أحمد آلت الإمامة إلى ابنه حسين، وحسين هذا هو والد عبد الله المهدي، أول خلفاء الدولة الفاطمية، والمهدي هو أبو القاسم، وليس عمه، وحسين والد المهدي جعل إمامة الاستيداع إلى أخيه سعيد الخير، وسعيد الخير هو الذي حاول أن يغتصب الإمامة لنفسه ويحرم منها ابن أخيه المهدي[1].

قدم عبد الله بن محمد المكتوم من المشرق إلى الشام، أولاً إلى منطقة جبل السماق، وهنا افتقده الدعاة، فاجتمع سبعة منهم بمدينة عسكر مكرم، وتفرقوا في الأمصار بحثاً عنه حتى وجدوه في جبل السماق (جبل الأربعين في شمال بلاد الشام) وهناك تعرفوا عليه، ثم رافقوه إلى بلدة مصياف، ولم يقم الإمام إلا مدة وجيزة هناك، ومن مصياف غربي حماه - انتقل إلى بلدة السلمية على مقربة من حماة إلى الشرق منها، والواقعة على سيف البادية، ومن السلمية جرى مجددا بث

---

(١) كتاب استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة من الجزائر لطلبه، نشر داخل الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٧١ - ٢٧٦.

الدعاة، وهو أمر سنعود إليه، لكن قبل هذا مفيد أن نشير إلى أن الإمام الذي استقر في السلمية ادعى أنه تاجر من أهل البصرة، فهل يا ترى تخفي أبناء إسماعيل في البصرة منذ البداية، وهربوا من ثم إلى الشام وجاء هروبهم ليس فقط بسبب تمزق داخلي، وإنما ارتبطت القضية بظهور القرامطة في العراق ونشاطهم هناك وأورد الداعي المطلق أدريس القرشي رواية خاصة به حول هذه الأحداث، ويبدو أن روايته مثلت ما جاء بالمصادر الفاطمية المستعلية، ووفقاً لإدريس، كان أول أئمة الستر بعد محمد المكتوم ابنه عبد الله، وقد حمل لقب الرضي، وعبد الله هذا هو الذي بعث الدعاة إلى المغرب العربي، وبعد وفاة عبد الله (الرضي) خلفه ابنه أحمد التقي، وأحمد هذا هو الذي انتقل إلى الشام وأثناء استقراره في مصياف كتب رسائل أخوان الصفاء، ثم انتقل إثر ذلك إلى السلمية، وبعد وفاة أحمد التقي خلفه ابنه حسين الزكي، وعبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين هو ابن حسين الزكي، وفي أيام حسين حاول سعيد الخير اغتصاب الإمامة لنفسه، كما ذكر صاحب كتاب استتار الإمام من قبل[1].

من الصعب جداً التسليم بما ذهب إليه إدريس القرشي حول تصنيف رسائل أخوان الصفا، فالرأي المجمع عليه أن هذه الرسائل، وإن كان الأثر الإسماعيلي فيها شديد الوضوح، هي نتاج عمل جماعي.

إن التناقض والتباين لشديد جداً بين هذه الروايات الإسماعيلية، وهو حين نطلع على الروايات غير الإسماعيلية، سيزداد، وهكذا نقرأ عند المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا أن أول أئمة الستر بعد محمد المكتوم اسمه جعفر بن محمد، وقد حمل لقب المصدق، وخلف جعفر هذا بعد وفاته محمد الحبيب، ومحمد الحبيب هو والد عبد الله المهدي[2].

---

(١) عيون الأخبار وفنون الآثار جـ ٤. ص ٣٥١ - ٤٠٠.

(٢) اتعاظ الحنفاء للمقريزي ط طبع القاهرة ١٩٧٣ ص ١٦.

وبما أن المقريزي قد عاشر ابن خلدون في مصر وتأثر به وربما نقل عنه، ذلك أن رواية ابن خلدون حول هذا الموضوع مطابقة لما ذكره المقريزي[1].

ليس من المجدي المضي في عرض هذه الروايات المتباينة، وهذا التباين إما قد يدفعنا مجدداً إلى رفض الحكاية من أولها إلى آخرها، أو إلى القول بشيء من الاعتدال أن الدعوة الإسماعيلية، كانت دعوات وكل رواية أرخت لواحدة من هذه الدعوات، وأن دعوة السلمية هي التي كتب لها النصر والوصول إلى الخلافة، لكن هذا الوصول لم يزل التراث التابع للدعوات الأخرى، ونأخذ هنا في عين التقدير مسائل تغيير الأئمة بالوفاة، وتعديل السياسات، وفوق هذا كله قضية المسافات، فكل داعية من دعاة الإسماعيلية، في جزيرة من الجزر الدعوية، كان سيد عمله، نشط حسب مهمته، ومعطياته، وانبرى إلى تعليل الأمور وفق منظاره، وخضوعاً إلى معطيات بيئته ومواريثه، وعندما نتعامل الآن مع الأدب الإسماعيلي المنشور يمكننا أن نرى أن هذا الأدب لم ينتم إلى مدرسة فكرية ذات بعد جغرافي واحد، بل انتمى إلى عدة مدارس، وكل مدرسة كان لها مواردها الإقليمية والعامة، فنحن عندما نقرأ رسائل أحمد الكرماني، وحمزة بن علي الزوزني اللذان عاصرا الحاكم بأمر الله ونشطا في مصر في أيامه، وكان للزوزني دوره المتميز في قيام العقيدة الدرزية، نجد في رسائلهم مؤثرات مانوية واضحة وكلاهما جاء إلى مصر من منطقة إيرانية، سيطرت عليها المانوية قبل الإسلام[2].

لقد جاء اختيار السلمية اختياراً ذكياً، فهي بلدة كان جلّ سكانها من الهاشميين مما يبعد عنها الشبهات، وكانت مفتوحة على البادية،

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ط بيروت ١٩٥٨ جـ ٣ ص ٤٤٩.

(٢) زكار ـ الجامع في أخبار القرامطة ص ٦٢ ـ ٦٣.

ويمكن بيسر السفر منها إلى العراق، كما يمكن السفر منها شمالاً نحو حلب، ومناطق أعالي بلاد الرافدين، ولم تكن بعيدة عن حمص، ومعروف أن حمص وثيقة الصلات بدمشق فجنوب بلاد الشام فمصر، وأنه من حمص أو من حماة المجاورة لها كان السفر متيسراً لطرابلس على البحر المتوسط، وفي السلمية يبدو أن الدعوة الإسماعيلية أعيد تنظيمها، ومنها جرى إرسال الدعاة إلى مختلف الأمصار خاصة إلى اليمن ومصر وإفريقية.

النشاط الدعوي في اليمن:

لقد كان على رأس الدعاة الذين ذهبوا إلى اليمن، داعيان هما ابن حوشب، وهو عراقي الأصل، كما يبدو، وعلي بن الفضل، وهو يمني الأصل، ونشط ابن حوشب في الجنوب اليمني، على مقربة من عدن أبين (عدن لاعة) أما علي بن الفضل، فقد تمركز في المناطق الجبلية الحصينة في الشمال اليمني، وهناك حققا نجاحات واسعة جداً، مما دفع إلى قيام قيادة السلمية بإعلان اليمن دار هجره، حتى أن مركز قيادة السلمية خططت للانتقال إلى اليمن، الأمر الذي سنقف عنده بشيء من التفصيل، والمهم هنا الإشارة إلى أن مركز اليمن الذي ارتبط بابن حوشب، هو الذي بعث بالداعية الذي نجح بالإطاحة بحكم الأغالبة، وتأسيس الدولة الفاطمية.

كان علي بن الفضل من قبيلة ذي جدن السبائية اليمانية، وقد جاء بالأصل من بلده «جيشان»(*)، وكان مثله مثل أهل بلدته شيعياً، على مذهب الاثني عشرية، وقد حج في بعض السنين إلى مكة، وكان الشيعة قد درجوا منذ زمن بعيد على زيارة كربلاء ـ حيث قبر الحسين عليه السلام ـ بعد الحج، وفي العراق لفت علي بن الفضل انتباه ميمون القداح، وكان آنذاك هناك، وبعد مراقبة مركزة له من قبل ميمون وابنه تمكنا من اجتذابه إلى

(*) مدينة خربة في اليمن شمال بلدة قعطبة بمسافة ١٥كم. انظر معجم المدن والقبائل اليمانية لإبراهيم أحمد المقحفي طبع صنعاء ١٩٨٥، مادة بجيشان.

الدعوة الإسماعيلية، وبعد أمر جعله ميمون يلتقي بإمام الإسماعيلية الصحيح، وتباحث علي بن الفضل الذي بات إسماعيلياً الآن مع أركان الدعوة الإسماعيلية، حيث تقرر - بعد ما خضع لدورة تثقيفية إسماعيلية - تكليفه بالعمل الدعوي في شمال اليمن، وكلف بالوقت نفسه بالذهاب إلى اليمن داعيه آخر قيل أنه كان ينتسب إلى مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وعرف بالحسن بن زاذان وهو الذي سيشتهر بلقب منصور اليمن[1].

ويبدو أن إقامة علي بن الفضل برفقة منصور اليمن كانت طويلة بالكوفة، لعلها امتدت أكثر من عام، ومعنى هذا أن مركز التدريب الإسماعيلي للدعاة كان آنذاك بالكوفة، وعندما اكتمل التدريب، كلف بالذهاب إلى اليمن وجاء التكليف في أن يتوجها إلى مكة المكرمة، ومن هناك يرافقا قافلة الحج اليماني لدى عودتها إلى اليمن، ويقول القاضي النعمان: «وقضى الناس الحج وتوجه أبو القاسم وأبي الحسن معهم، فدخلا اليمن في أول سنة ٢٦٨هـ، فقاما في اليمن سنتين، يدعوان مستترين، ثم ظهرت الدعوة باليمن سنة ٢٧٠هـ». ولقد كلف منصور اليمن بالعمل في المنطقة الجنوبية من اليمن، وأرسل إلى بلدة عرفت باسم عدن لاعه، وعدن لاعه هذه كانت لاتبتعد عن مدينة عدن كثيراً، وكانت بلدة تحتوي على تنظيم إسماعيلي، وأن إسماعيلية هذه البلدة، جاؤوا إلى عدن أبين ينتظرون الداعية المرسل إليهم، وفي هذا دليل على وجود مراسلات بين إسماعيلية اليمن ومركز الدعوة، الذي كان آنذاك كما رجحنا بالكوفة[2].

---

(١) كتاب كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك. نشر داخل الجامع من أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٣٦٠. الفصل السادس من كتاب العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك للخزرجي نشر في الجامع من أخبار القرامطة ص ٦١٥ - ٦١٧. القاضي النعمان بن محمد. رسالة افتتاح الدعوة ط بيروت ١٩٧٠ ص ٣٢ - ٤١.

(٢) رسالة افتتاح الدعوة ص ٤٤ - ٤٥.

وكان المسئول الإسماعيلي في جنوب اليمن، قبل هذا التاريخ اسمه أحمد عبد الله بن خليع، وقد كشفت أمره السلطات اليمنية، فاعتقلته، ومات في السجن، ولدى وصول أبي القاسم الحسن بن حوشب إلى عدن لاعه، نزل في دار ابن خليع، وتزوج إثر ذلك ابنته، ومن هناك نشط في عمله الدعوي في اتجاهين: الأول محلي يماني، والثاني بإرساله من تولى أمر الدعوة إلى الفكر الإسماعيلي في السند، وعلى هذا تحول إسماعيلية السند والهند إلى هذا المذهب منذ ذلك التاريخ المبكر(1).

وداوم أبو القاسم مراسلاته مع بيتِ الإمامة الإسماعيلي، ويبدو أنه عرف بأخبار انتقال هذا البيت إلى الشام، فراسل الشام وتلقى دوماً منها التعليمات، كانت الأوضاع في اليمن مواتية للدعوة الإسماعيلية، لتمزق البلاد، ولقيام الفتن والاضطرابات فيها، ولوجود ميول شيعية عامة لدى قبائل اليمن(2).

وبعد ما حقق منصور اليمن النجاحات، بنى له أتباعه حصناً عرف باسم (عثر محرم) وأخذ ينشط عسكرياً «وعمل لنفسه طبولاً ورايات، وأظهر مذهبه ودعا إلى المهدي وقال: ما أخذت هذا بمالي ولا برجالي، وإنما أنا داعي المهدي، فانهمك إليه عامة الناس، فدخلوا في مذهبه»(3)، وبعد هذا بأمد قصير تمكن من استحواذ منطقة جبل مسور الذي كان عليه حصنٍ عرف باسم حصن فائز، وعدّ هذا الحصن من أقوى حصون مخاليف اليمن، وهكذا يمكن القول إن الدعوة الإسماعيلية كسبت قاعدة هامة في اليمن الجنوبي(4).

---

(1) رسالة افتتاح الدعوة ص ٤٥.

(2) الحمادي، في أخبار القرامطة ج ٢ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥. المسجد المسبوك في أخبار القرامطة جـ ٢ ص٦١٧ ـ ٦١٩.

(3) أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٦١٨.

(4) أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ـ ٦١٨ ـ ٦١٩. رسالة افتتاح الدعوة ص ٤٦ ـ ٥٣.

أما علي بن الفضل فقد نشط بدوره في المناطق الشمالية في اليمن، وهناك أيضاً حقق نجاحات كبيرة، وتأسست له دولة قوية، ودخل علي بن الفضل في صراعات شديدة مع القوى المحلية في اليمن، وفيما بعد مع الشيعة الزيود، الذين التفوا حول دولة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، ولن ندخل في هذه التفاصيل، لأنها جزء من تاريخ اليمن، ولها انعكاسات ضئيلة على ما حدث بالمغرب العربي، وتكفينا الإشارة إلى أن علي بن الفضل اصطدم وهو في ذروة قوته بمنصور اليمن، وحاصره في قلعته، وأراد القضاء عليه، لكنه لم يفلح[1]، ويمكن فهم جزء من أسباب تفجر العلاقات بين علي بن الفضل ومنصور اليمن من خلال انتقال بيت الدعوة الإسماعيلية إلى مصر، وتخطيطه للذهاب إلى اليمن.

إن هذه المسألة سنعرض لها من خلال الحديث عن الدعوة الإسماعيلية في المغرب، ولدى تعليلنا لأسباب توجه المهدي الفاطمي، ومن معه من مصر إلى سجلماسة، وعدم مضيهم إلى اليمن، وكان المغرب العربي بين المناطق النائية عن بغداد والمنفصلة عنها نفوذاً وسياسة، مما اهتم به الدعاة الإسماعيليون اهتماماً كبيراً، فقد كانت الأوضاع دوماً هناك موائمة للعمل الدعوي المعارض للسلطة، وكانت الاتصالات غالباً ما تتم مع المغاربة حين تأتي جماعات من قبائلهم لتأدية فريضة الحج، وإلى المغرب كما نعلم توجه عبد الرحمن بن معاوية، ومن هناك ذهب إلى الأندلس، حيث استأنف الحكم الأموي فيها، وفي المغرب الأدنى والأوسط نجح الخوارج الأباضية مع نهاية الدولة الأموية وانتهوا بإقامة الإمامة الرستمية في تاهرت، وفيما بعد نجح الأدارسة في المغرب الأقصى ونجح أبناء سليمان (أخو إدريس الأول) في منطقة تلمسان، وحين جاء القرن

(١) من أجل علي بن الفضل ونشاطاته لنظر أخبار القرامطة، النص المنتزع من سيرة الهادي الى الحق ص ٢٣١ـ ٢٦٨، والحمادي في الكتاب نفسه ص ٣٦٥ـ ٣٧٩، نص المسجد المسبوك ص ٦٢١ـ ٦٢٧.

الثالث للهجرة، كانت بلاد المغرب العربي موزعة بين عدة قوى: كانت هناك دولة تامرت في جزء من جزائر اليوم، ودولة الأغالبة في القيروان وصقلية، ودولة بني مدرار الصفرية في سجلماسة، ودولة بني صالح او بر غواطة في تامسنا على الساحل الأطلسي في المغرب الأقصى، وكان لأبناء سليمان أخوة الأدارسة بعض الوجود في منطقة تلمسان، وفقط كانت هناك ديار قبائل كتامة في المغرب الأوسط (في شرق الجزائر وعلى مقربة من تونس) أقرب إلى الشغور السلطوي المركزي.

إلي هذه المنطقة، بعثت الدعوة الإسماعيلية. بعدد من الدعاة اشتهر منهما اثنان في مرحلة السلمية هما أبو سفيان، والحلواني، ويعزو القاضي النعمان إرسالهما إلى الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٥، وهذا أمر مستبعد لما عرضناه من قبل حول نشوء الخط الإسماعيلي، المهم أن هذين الداعيين لاقيا بعض النجاح في عملهما، ولعلهما دعيا إلى الرضا من آل محمد بشكل عام، ولربما وجد في مناطق أخرى غيرها، المهم أنهما توفيا في مرحلة السلمية[١].

ويبدو أن الخبر وصل إلى السلمية على يد بعض رجالات كتامة، أو بعض المغاربة وهنا أصدرت السلمية تعليمات إلى منصور اليمن، ليختار عدداً من الدعاة للذهاب إلى ديار كتامة في المغرب، ولعل ترتيبات وضعت بأن يتم لقاء بين القادمين من اليمن وبين وفد من الحجاج الكتاميين، وهنا أستبعد تصديق ما أورده القاضي النعمان، بان اللقاء حدث بين القادمين من اليمن والحجاج المغاربة مصادفة[٢]، والذي جرى إرساله من اليمن عرف

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٥٤ ـ ٥٨. عيون الأخبار جـ ٤ ص ٣٢٩ ـ ٣٩٥. نصوص من نهاية الأرب للنويري في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧. كتاب التراتيب، ٢٩١. استتار الإمام ٢٧٢ ـ ٢٧٥. اتعاظ الحنفاء جـ ١ ص ٥١. دور كتامه في تاريخ الخلاف الفاطمية لموسى إقبال، طبع الجزائر ١٩٧٩ ص ٤٥ ـ ٣٢٩.

(٢) رسالة افتتاح الدعوة ص ٥٩ ـ ٦٩.

باسم أبي عبد الله الداعي، وكان أبو عبد الله هذا من أهل الكوفة، واسمه الحسين بن أحمد، وكان في البداية من الاثني عشرية ثم غدا إسماعيلياً، والتحق باليمن، وبعيد التحاقة بأمد وجيز تمّ تكليفه بالذهاب إلى أرض كتامة، وهنا نتساءل لماذا طلب مركز السلمية من اليمن بالذات توجيه داعية أو دعاة إلى أرض كتامة، وهل يمكن بسهولة أن نصدق إقدام الدعوة على تكليف رجل التحق بها حديثاً بشئون الدعوة ومسئولياتها في المغرب العربي؟ هذا ما لا نجد له جواباً عند القاضي النعمان، فالبحث من خلال القرائن والمواد المتوفرة عند الإجابة، أولاً يبدو بعد النجاحات التي حققها منصور اليمن أن الدعوة الإسماعيلية أعلنت لأتباعها عن اليمن دار هجره، وفكرت القيادة الإسماعيلية بالذات بالإنتقال إلى اليمن، ثانياً من بين كتب المكتبة الإسماعيلية التي نشرت قبل وقت طويل كتاب صغير نشره مصطفى غالب في دمشق ١٩٥٦ باسم «البيان لمباحث الأخوان» وهو قد صنف في حقبة الستر في مرحلة السلمية من قبل «منصور اليمن» وشهر هذا المؤلف باسم التادلي أو الشاذلي، وهذا يعني أن اسم المؤلف كان فرج بن حوشب بن زاذان الكوفي ذلك أن اسم منصور اليمن كان أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زاذان الكوفي، والتادلي نسبة إلى بلدة في المغرب، فهل كان فرج بن حوشب أو والده ممن عمل في الدعوة في المغرب، ثم عاد إلى المشرق.

نعثر لدى قراءتنا لتاريخ نشوء دولة المرابطين أن عبد الله بن ياسين عندما قام بحملته على برغواطة في تامسنا، قضى في طريقه على جماعة عرفوا باسم بني ماغوس، وكان على يمين بني ماغوس «قبيل يقال لهم بنوطاس وكلهم روافض، ويعرفون بالبجليين، نزل بين ظهرانيهم رجل بجلي من أهل نفطة قسطيلية، قبل دخول أبي عبد الله الشيعي إفريقية، يقال له محمد بن ورستد، فدعاهم إلى سب الصحابة، رضوان الله

عليهم، وأحل لهم المحرمات، وزعم أن الربا بيعاً من البيوع، وزادهم في الآذان بعد أشهد أن محمد رسول الله، أشهد أن محمد خير البشر، ثم بعد حي على الفلاح، حيّ على خير العمل»[1].

فعلى هذا هل كان للإسماعيلية دعاتهم في مختلف مناطق الشمال الإفريقي؟ ومن جملة ما وصلنا إليه من كتب مكتبة الإسماعيلية كتاب حمل اسم «الكشف» ألفه جعفر بن منصور اليمن، أي حفيد صاحب البيان لمباحث الأخوان، ولدى قراءة محتويات هذين الكتابين بشكل متمعن نجدهما ينتميان إلى ما يمكن أن نسميه مدرسة في التفكير الإسماعيلي منفردة، أو لنقل بكلمة أخرى أن ما عرض في كتاب الكشف من قضايا هي القضايا عينها الموجودة في البيان لمباحث الأخوان، لكن مع بعض التطوير[2].

إننا نستطيع الآن وقد تخلينا عما أورده القاضي النعمان أن نرجح أن الحسن بن فرج منصور اليمن كان سليل أسرة إسماعيلية قديمة، وأنه دون سواه امتلك معلومات وفيرة عن أحوال الشمال الإفريقي، وهذا يمنطق طلب السلمية منه إرسال داعية أو دعاة للعمل في أرض كتامة، وبالوقت نفسه نرى أن أبا عبد الله الشيعي الذي وقع الاختيار عليه للذهاب إلى أرض كتامة، كان إسماعيلياً قديماً ايضاً، ونفترض هنا أن منصور اليمن أعطى تعليمات واضحة ومعارف مفيدة لأبي عبد الله وعمن اختار ليصطحبه، ذلك أن البعثة التي وقع الاختيار عليها بالذهاب كانت مكونة من أبي عبد الله الداعي وما لا يقل عن أخوين من أسرة يمانية

---

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري، وهو جزء من كتابه المسالك والممالك، ط. الجزائر ١٨٥٧ ص ١٦١، وقد شهر باسم التادلي مؤلف آخر هو صاحب التشوف إلى رجال التصوف المطبوع في الرباط ١٩٥٨.

(٢) نشر كتاب الكشف في اكسفورد عام ١٩٥٢ ثم أعيد نشره في بيروت ١٩٨٤.

بارزة في الدعوة الإسماعيلية هي آل أبي الملاحف، لكن قبل انطلاق البعثة إلى مكة تخلى واحد من آل أبي الملاحف عنها، وفي مكة تخلف الآخر، وهكذا انفرد أبو عبد الله بالمهام، وسيعرف أبي عبد الله بعدة أسماء منها الصنعاني لقدومه من اليمن.

ومن المرجح أنه كان في مكة جماعة كبيرة من الحجاج المغاربة شطر كبير منهم كان من كتامة، ولكن نفترض أنه لم يكن جميع الحجاج شيعة أو إسماعيلية، بل ربما بعضهم ولهذا أخذ أبو عبد الله بالحذر وتظاهر أنه معلم أطفال، يود السفر إلى مصر وبالتنسيق المتواصل مع الإسماعيليين من كتامة في قافلة الحجاج، متن مكانته بين جميع المغاربة، وبذلك لم يكتف هؤلاء بالموافقة على مرافقتهم على المغرب، بل طلبوا منه ذلك بإلحاح.

ووصف القاضي النعمان أبا عبد الله الشيعي بقوله: «كان أبو عبد الله هذا من الكوفة، واسمه الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا، وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة، وكان أكثر علمه الباطن، ونظر في علم الظاهر لم يبالغ فيه[1]» ويؤيد هذا الكلام ما ذهبنا إليه حول رسوخ قَدَم أبي عبد الله في الدعوة الإسماعيلية، ومهما يكن من أمر بعد ما وصل أبو عبد الله إلى أرض كتامة، نشط فيها نشاطاً مكثفاً، مكنه في بضع سنين من إستمالة العديد من القبائل، وقد قام بتنظيم صفوف هذه القبائل وقادها عسكرياً، فانتصر في عدد من المعارك مكنته من بسط السيطرة الفاطمية على المغرب الأوسط، وإزالة دولة الأغالبة من الوجود، واحتلال أراضي كلا من دولتي تاهرت وسجلماسة، ومرجح أنه طوال عمله

---

(١) افتتاح الدعوة، ص ٥٢.

في المغرب كان اتصاله مع اليمن، وليس مع السلمية مباشرة[1].

لا ندري فيما بعد إذا كان أبو عبد الله الداعي قد تكلم البربرية من لهجة كتامة، فالأداة اللغوية، لا بد أنها كانت مهمة جداً في العمل الدعوي، ولعله تعلم البربرية، وبحكم عمله كمعلم وداعية استطاع أن يعد بعض الدعاة الجدد، وأن ينظم من جديد جهاز دعوته ليس فقط عقائدياً، وبتوجيهه عسكرياً، ونقدر أنه في عمله التعليمي التحق به أبناء الزعماء فقويت علاقاته بالتالي مع الزعامات القبلية، ولربما تنقل بين التجمعات، وطرح الأفكار المتعلقة بحق آل البيت بالإمامة، ثم استغل فكرة المهدي المنتظر، وقرب موعد ظهوره، وكان ومازال قد راج بين صفوف القبائل المغربية نظرية حول نسبها، تقول بإنحدار هذه القبائل من حمير، وأن هذه القبائل جاءت من فلسطين او اشتاقت نفوسها إلى العودة إلى فلسطين، ولعل أبا عبد الله وعد الناس، بأن المهدي سيقودهم راجعين إلى فلسطين، ودوماً اعتاد حجاج المغاربة على إكمال حجهم بزيارة القدس، وبعد استيلاء جوهر على مصر كان أول عمل قام به إرسال القائد المغربي جعفر بن فلاح لإلحاق فلسطين بالحكم الفاطمي، وتقدمت بنا الإشارة إلى «كتاب الكشف» الذي صنفه جعفر بن منصور اليمن، وفي هذا الكتاب نقرأ أن المهدي هو الذي «يهدي إلى الأمر الخفي... يظهر مع جبريل على فرس أبلق بسراج من نور، وعليه سرج من ذهب، وعلى جبريل تجافيف من نور، ومغفر من حديد، وبيده حربة من نور... في سنان الحربة النصر، وفي وسطها الرعب، وفي زجها الظفر، وعمودها من نور العرش... وهو لا يهدي بالدلالة أهل بلد إلا وهداهم الله، ومن أبى ذلك رماهم الله بحجارة الكبريت حتى يردهم أجمعين إلى هداه، يستسلمون

---

(1) افتتاح الدعوة ص ٥٩ ـ ١٢٢ مروج الذهب جـ٢ ص ٣٧١. ابن خلدون جـ٣ ص ٣٢ الدرجيني، طبقات المشايخ طبع قسنطينة ١٩٧٨ جـ١ ص ٩٨. اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٥١. نور كتامة ص ١٩٢ ـ ٢٢١.

بأجمعهم إليه، ويكسر الصليب، ويهدم البيع والكنائس، ويقتل الخنزير وتنقض دعوة الشرك، وتظهر دعوة الفرج، وتقوم الدعوة بدين الله خالصاً... فحينها يشرب الثور والسبع من حوض واحد، ويخلف الراعي الذئب على غنمه»[1].

ويمكن لنا ان نفهم ترغيب البربر في العودة إلى فلسطين في إطار ما هدفت إليه الدعوة الإسماعيلية، من الإستيلاء على العالم الإسلامي وسواه، وإزالة الخلافة العباسية من الوجود، وطبعاً كانت فلسطين من بلدان الخلافة العباسية وللدخول إلى العراق لابد من المرور عبرها، لكن الذي حدث في تاريخ الخلافة الفاطمية أنها أخفقت في تجاوز حدود بلاد الشام، والوصول إلى العراق.

وتقدم أيضاً لنا الإشارة إلى أن المصادر الإسماعيلية، تحدثت عن شقاق بين أفراد البيت الإسماعيلي في مرحلة السلمية، حول محاولات سعيد الخير «إمام الاستيداع» آنذاك الاستئثار «بإمامة الاستقرار» لنفسه، ونقرأ في كتاب استتار الإمام وغيره من المصادر لاسيما في الترجمة الغنية التي حواها كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب للزعيم القرمطي (الشامي) صاحب الخال، ففي هذه المصادر نقرأ عن قيام القرامطة بهجوم مدمر على السلمية، وأن صاحب الخال ومن قبله صاحب الناقة أو الجمل ادعى كلاً منهما النسب الإسماعيلي، وقال عن نفسه إنه الإمام المهدي المنتظر.

ويخبرنا الحاجب جعفر في سيرته، أنه رأى المهدي الذي سيكون الخليفة الفاطمي الأول ومعه القائم الذي سيكون الخليفة الفاطمي الثاني، رآهما يقومان بمغادرة السلمية مكتفيان باصطحاب أبي الحاجب جعفر

---

(١) كتاب الكشف، ص ٣٢ ـ ٣٥.

ورجلاً آخر اسمه ابن بركة الحاضن، وغادر هذا الركب السلمية بحراسة أحد الزعماء المحليين إلى حمص سراً، ومنها إلى طرابلس الشام ومن طرابلس إلى بلدة الرملة في فلسطين، وتبعاً للحاجب جعفر أقام الأربعة رجال بالرملة أكثر من سنة من الزمان، لم تنقطع أخبار ما كان يجري في الشام عنهم، ولعل ذلك كان في سنة ٢٩٠هـ أو قبلها أو بعدها بقليل، كما أن بعض الصلات تمت بين قيادات القرامطة والمقيمين بالرملة، وأخيراً تمّ اتخاذ القرار بمغادرة بلاد الشام إلى مصر لقيام صاحب الخال بتدمير بلدة السلمية، وقتل كل من كان فيها، ولا ندري هل طال القتل هنا جميع أفراد البيت الفاطمي أم أن بعضهم هرب من السلمية، ونتساءل عن مصير محتويات القصر الإسماعيلي في السلمية، وعما آلت إليه مكتبته وسجلاته، وسافر الأربعة رجال من الرملة إلى مصر، ولربما أن استقرارهم كان في الاسكندرية ونفاجئ بحديث الحاجب جعفر بظهور شخصية جديدة حملت اسم فيروز، وفيروز هذا وصف بداعي الدعاة وأجلٌ الناس عند الإمام، وأعلاهم منزلة لديه، فهل يا ترى كان فيرزو يقيم في مصر، أم أنه التحق بالذين استقروا بالرملة أثناء وجودهم بها، وارجح اقامته في مصر، ذلك أن الداعية الإسماعيلي الذي كان مسئولاً عن العمل في مصر حمل اسم أبو علي، وأبو علي هذا قريب فيروز زوج ابنته وربيبه.

المسئول الآن عن البيت الإسماعيلي هو الذي يحمل لقب المهدي، وسيكون أول خلفاء الدولة الفاطمية، ومعه القائم، والحاجب جعفر، وخادم آخر، والآن التحق بهم داعي الدعاة فيروز، وتوجه المهدي إلى مصر ليسافر من هناك إلى اليمن، هذا ما تقوله الروايات، فهل كانت نيته السفر بحراً؟ هذا ما لا نعرفه لانه لو كان فعلاً على نية السفر إلى اليمن لتوجه من فلسطين إلى الحجاز، ومن ثم من مكة المكرمة إلى اليمن، ويبدو لي أنه ذهب إلى مصر ليبتعد عن الخطر القرمطي وليملك الوقت لاتخاذ قراره

بالتحرك الثاني، وإقامته في الرملة ثم في مصر كانت مرصودة، ليس فقط من قبل القرامطة، وإنما أيضاً من قبل السلطات العباسية، ورأينا منذ البداية أن البيت الإسماعيلي عندما استقر في البداية بالسلمية تنكر بالعمل التجاري، وادعى الإمام آنذاك أنه تاجر من أهل البصرة.

ويحدثنا الحاجب جعفر عن تفاصيل ما حدث بمصر وعن النشاطات التي قام بها المهدي هناك، وأن والي مصر تسلم تقارير عن نشاط إسماعيلي من مصر، وعن وجود القيادة الإسماعيلية فيها، وأن الشكوك حامت حول المهدي وأصحابة حتى أن السلطات اعتقلت الحاجب جعفر شخصياً، ثم أطلقت سراحه، ويقول جعفر: «وكنت ذلك الرجل المقبوض عليه، وضربت أسواتاً يسيرة، ضرباً خفيفاً لم يكن عليّ منه بشيء، وكان المهدي قد تقدم إليّ قبل القبض، وقال لا توجعك نفسك إذا دفعتك إلى العامل دون أصحابك فإنني أريد أن أردك إلى السلمية لتستخرج القمقمين الذين امرتك بدفنهما، فليس معي من الغلمان سواك، وإذا وقفت للتقرير فقل أنا رجل حر خدمت هذا الرجل باجرة معلومة، فعلام تقررونني ولم أخدمه إلاّ من قريب، وأنا أرد عليه باقي اجرته وأرجع عنه إلى بلدي.

قال ففعلت ما آمرني به وخلى العامل سبيلي، فدخلت على المهدي بالليل فقال لي بكر في الغداة ولا تلوي شيء حتى تصل السلمية، وتستخرج المال وتشتري فيه احمال قطن وتجعله في بعضها، واحذر أن تظهر لأحد بالسلمية... وأنا انتظرك بطرابلس المغرب، ولا ابرح منها حتى أراك انشاء الله»[1].

لقد كان القرار الذي اتخذه المهدي بقصد بلدان المغرب العربي بدلاً من اليمن مفاجئاً لأتباع المهدي يقول: «الحاجب جعفر ولم نشك أنه يُريد

---

(١) سيرة الحاجب جعفر ص ١٠٩ ـ ١١٤.

اليمن، فلم يظهر سيره إلى المغرب إلاّ تلك الليلة، قال جعفر: فاشتد على كل من كان معه وشق علينا ذكر المغرب»[1]. فما هي الأسباب التي دفعت بالمهدي إلى اتخاذ هذا القرار؟ لقد رجحنا من قبل أن المهدي قدم إلى مصر ليتدارس الأوضاع لا ليتوجه مباشرة إلى اليمن، وعللنا ذلك أنه كان بإمكانه سلوك الطريق البري السهل من فلسطين إلى الحجاز، وفي الحجاز كان يمكنه التستر والاختفاء بكل يسر، ومن ثم التوجه براً إلى اليمن أو حتى بحراً، ولعل المهدي علم بأوضاع اليمن، وهو في الرملة، وتواترت لديه الأخبار وازدادت وضوحاً عندما أقام في مصر، فمنذ سنة ٢٨٤ كان قد حقق الإمام الحسني الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين نجاحات للدعوة الزيدية في اليمن، وخاض الهادي معارك كثيرة ضد قرامطة علي بن الفضل، وسيطر على معظم أرجاء اليمن ولاشك أن هذا كان مقلقاً للمهدي الذي كان بظهوره باليمن سيدعي أنه الإمام الشيعي الصحيح[2]، وبالإضافة إلى أخبار اليمن المثبطة تفجر في مصر خلاف بين المهدي وداعي الدعاة فيروز، وأدى هذا الخلاف بينهما إلى مغادرة فيروز مصر قبل أن يغادرها المهدي والسفر إلى اليمن، حيث التقى أولاً بمنصور اليمن، ثم ما لبث أن هجره وتوجه نحو علي بن الفضل[3]، ولعل اعتقال الحاجب جعفر من قبل السلطات المصرية جاء بعد الخلاف الذي وقع مع فيروز، وهذا قد كان وراء قرار المهدي الإسراع بمغادرة مصر نحو طرابلس الغرب.

لقد ذهب المهدي من الاسكندرية يؤم مدينة طرابلس، ويقال أنه وصلت آنذاك إلى السلطات المصرية تقارير واضحة عنه تحكي صفاته

---

(١) سيرة الحاجب، ص ١١٤.

(٢) من أجل الصراع بين الهادي بالحق وقرامطة اليمن انظر المختارات المنتزعة من سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين والمودعة في الجامع في أخبار القرامطة، ج١ ص ٢٥١ - ٢٦٨.

(٣) سيرة الحاجب جعفر، ص ١١٥.

وملامحه، وتبين مكانته، ونتساءل هنا من أين وصلت هذه التقارير الوثيقة المعلومات إلى السلطات المصرية؟ لاشك أنها لم تصلها لا من الشام، ولا من العراق والراجح هنا استنتاجاً أن جماعة الإسماعيلية في مصر الذين كان داعي دعاتهم أبو علي صهر فيروز، هؤلاء كما يبدو هم الذين قدموا المعلومات الدقيقة للسلطات المصرية، ومع هذا يبدو أن المهدي كان قد اتخذ احتياطاته، وبذلك تمكن من الوصول إلى طرابلس عن طريق الرشوة والتنكر، وركوب المسالك غير المطروقة، مما عرضه للنهب من قبل بعض القبائل[1]، ولا ندري طول المدة التي أقامها المهدي في طرابلس. لكن يرجح أنها امتدت عدة أشهر حتى عاد من الشام الحاجب جعفر بعد تنفيذ المهمة التي كلفه بها المهدي، ومن طرابلس سافر المهدي يريد أطراف الصحراء نحو مدينة سجلماسة (تافللت أو إقليم الراشدية في المملكة المغربية حالياً). ووقفت سجلماسة على طرف الصحراء، وكانت مركزاً تجارياً نشيطاً جداً، لهذا شبهه بعضهم بمكة قبل الإسلام، وحكمت سجلماسة آنذاك من قبل أسرة عرفت ببني مدرار، وهذه الأسرة كانت خارجية صفرية. ومع أننا قد نرى في اختيار سجلماسة ما يشبه اختيار الدعوة الإسماعيلية من قبل مدينة السلمية[2]، سيما وأن المهدي دخل سجلماسة على شكل تاجر من التجار الكبار، ومع هذا لابد من سؤال لماذا ذهب المهدي إلى سجلماسة، وتحمل مخاطر الطريق الطويل، وأبو عبد الله الداعي كان ليس ببعيد عن طرابلس يحقق النجاح تلو الآخر في ديار كتامة؟ ليس في المصادر المتوفرة إجابة مباشرة على هذا السؤال، وأرجح هنا أن المهدي لم يلحق بأبي عبد الله الداعي، بل لربما تجنب الاتصال به، لأن أبا عبد الله أرسل من اليمن، ولم يرسل من

(١) سيرة الحاجب جعفر ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانا كما يعرفها مال كوك، ترجمة عربية ط الدار البيضاء دار الثقافة ص ١١ ـ ٣٥. المغرب الإسلامي للحبيب الجنحاني ط تونس ١٩٧٨ ص ١٤٣ ـ ١٩٠.

قبل السلمية، وأوضاع اليمن بعد سفر فيروز إليها كانت مظلمة بالنسبة للمهدي، وذكر الحاجب جعفر أن المهدي كتب إلى منصور اليمن يخبره بما كان بينه وبين داعي دعاته فيروز وطلب من منصور القيام بقتل فيروز، وزاد الحاجب جعفر أن فيروز علم وهو في اليمن بما وصل من عند الإمام، فتدبر أمر فراره إلى علي بن الفضل، الذي كان متمكناً بشدة، وسيداً لعدد من القلاع في شمال اليمن، وقال الحاجب جعفر أنه «فتن علي بن الفضل وشعوذ لهم» وحدثنا الحمادي والخزرجي وغيره من المؤرخين اليمنيين عما يمكن أن نصفه بإعلان قيامه وفق العقيدة الإسماعيلية في ديار علي بن الفضل، وأن حرباً طاحنة وقعت بين علي بن الفضل ومنصور اليمن.

وتقول المصادر اليمنية أن علي بن الفضل «أظهر كفره، وادعى النبوة وأحل البنات والأخوات»[1] وقال الخزرجي: تمكن علي بن الفضل من احتلال صنعاء وبعد هذا «أظهر مظهره الخبيث ودينه المشؤوم، وارتكبت محظورات الشرع، وادعى النبوّة، وكان المؤذن يؤذن في مجلسه أشهد أن علي بن الفضل رسول الله، وأباح لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات والاخوات، وسائر المحرمات، وأن شاعراً من الشعراء أنشده وأصحابه:

خذي الدف يا هذه والعبي	وغني هزاريك ثم أطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة	وهذي شرائع هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضي	وإن صاموا فكلي واشربي

(١) الحمادي في أخبار القرامطة ص ٣٦٩. وانظر في الملاحق المنشور الصادر عن منصور اليمن.

ولا تطلبي السعي عند الصفا | ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي نفسك المعرسين | من أقربي وأجنبي
فكيف تحل لهذا الغريب | وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربه | وسقاه في الزمن المجدب
وما الخمر إلا كما السماء | حلالاً فقدست من مذهب[1]

وكاد علي بن الفضل أن يقضي على منصور اليمن، لكن منصور اليمن، أو الدعوة الإسماعيلية تخلصت من علي بن الفضل بعملية اغتيال ناجحة، ولعل ذلك كان سنة ٢٩٣هـ/٩٠٥م[2]، وفي هذه الأثناء كان منصور لليمن قد اتصل بأبي عبد الله، ومن مصر علم أبو عبد الله بوجود المهدي في الأراضي المغربية، ومنذ ذلك التاريخ قامت الصلات بين أبي عبد الله والمهدي[3]، وحدثنا الحاجب جعفر أن المهدي تعرف قبيل وصوله إلى سجلماسة على أحد التجار من أهل القيروان، كان مطلبي النسب، صاحب ميول شيعية، وقد كلف المهدي بعد استقراره في سجلماسة هذا المطلبي الاتصال بأبي عبد الله الداعي[4]، وقد نتشكك بمسألة الصدف هذه، ويتبادر إلى الذهن أن هذا المطلبي كان واحداً من الدعاة الإسماعيلية، وأنه تظاهر بالعمل التجاري. ويستخلص مما تحدث به الحاجب جعفر، أن المراسلات تواترت بين المهدي وأبي عبد الله، وأن بيت المهدي بسجلماسة كان يقوم بنشاط مريب، مما دفع باليسع بن مدرار حاكم سجلماسة الصفري إلى مراقبة الوضع، ثم اعتقال المهدي والتحقيق معه، بعد أن اتهمه بالنشاط السياسي، وأن التجارة ما هي إلا تمويه فقط،

---

(١) أخبار القرامطة ص ٣٦٩ ـ ٦٢٢.
(٢) أخبار القرامطة ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦.
(٣) أخبار القرامطة ص ٦٢٥ـ ٦٢٦ رسالة افتتاح الدعوة ص ١٤٩ـ ١٥٤ـ ٢٣٦ـ ٢٨٨.
(٤) سيرة الحاجب جعفر ص ١١٦ ـ ١٢٠.

لقد أودع ابن مدرار المهدي في سجن، وأودع القائم في سجن آخر، وقام بتعذيب حاشية المهدي، وكان أبو عبد الله الداعي قد غدا منذ سنة ٩٠٩/٢٦٩ سيد إفريقية، أزال دولة الأغالبة من الوجود، ووعد أتباعه بقرب ظهور المهدي، ولعل هذه النجاحات هي التي جعلت اليسع بن مدرار يحافظ على حياة المهدي ليساوم بها أبي عبد الله الشيعي، وسارع أبو عبد الله الشيعي نحو سجلماسة على رأس جيش كبير لينقذ المهدي، ولينقذ نفسه أيضاً بالوفاء بما وعد به أتباعه أثناء الدعوة، ووصل أبو عبد الله إلى سلجماسة، ومعه المطلبي التاجر، وحاصر المدينة وراسل اليسع بن مدرار، يطلب منه إطلاق سراح المهدي مقابل الانصراف عن بلده وعدم التعرض له، لكن ابن مدرار رفض اطلاق سراح المهدي وهنا شدد أبو عبد الله الحصار، مما أقنع اليسع بن مدرار أنه مهزوم لاشك وبأن يبحث عن وسيلة لإنقاذ نفسه وحكمه، واستشار أهله، والمقربين منه فبعضهم نصحه بقتل المهدي وأصحابه، وبعضهم الأخر نصحوه بالمحافظة عليهم، والمثير هنا أننا نستخلص من روايات الحاجب جعفر، أن اليسع بن مدرار كان قد اعتقل المهدي وتجاراً آخرين، وهذا يعني أن الأمر قد التبس عليه ولم يكن واضحاً، وعندما ضاق الحال باليسع لم يعد يدري ماذا يفعل واضطرب الوضع كثيراً داخل سجلماسة، وهرب اليسع من بلدته وسقطت المدينة إلى عبد الله وأطلق سراح المهدي، وإثر هذا، أقيم سرادق كبير، وصف جيش كتامة، ووضعت الترتيبات اللازمة لبيعه المهدي بالخلافة، وطبعاً جاء ذلك بعد لقاء قصير بين المهدي وأبي عبد الله الشيعي.

وقدم لنا الحاجب جعفر وصفاً وثائقياً مسهباً لبيعة المهدي، فقد نصب سرير كبير جداً للمهدي، جلس عليه، ووضع هذا السرير تحت سرادق كبير مفتوح من جميع الجوانب جاء أشبه بمظلة سماوية كبيرة، ومسألة المظلة لها دلالاتها وخصوصيتها في تاريخ الخلافة الفاطمية، ذلك

أن مصادر السيرة النبوية تحدثت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظلله الغمام، ولادعاء الفاطميين الانتساب إليه صلى الله عليه وسلم حملوا على رؤوسهم في الأماكن العامة مظلة فيها مؤشر على الانتماء والإمامة، وعلى الرغم من زوال الخلافة الفاطمية، فإن عادة المظلة ظلت قائمة في بلاد المغرب العربي حتى يومنا هذا في المملكة المغربية.

المهم بالأمر أن المهدي جلس على سريره، وأحاط به رجال حاشيته وإلى جانبه القائم، وعلى بعد وقف أبو عبد الله الداعي، وأخذ يرسل إلى المهدي دعاته، وقادة قواته دفعة تلو الأخرى واستغرق هذا العمل عدة أيام، وبعد استكماله قصد المهدي مدينة القيروان ليتخذها مقراً لملكه[1].

وولدت بيعة المهدي دولة شيعية هي الكبرى والأشهر في تاريخ الإسلام، وجاءت ولادتها إثر عمل دعوي طويل، وعرفت الدولة الآن ليس باسم «الخلافة الإسماعيلية»، بل باسم الخلافة الفاطمية نسبة إلى فاطمة الزهراء، ويلفت الانتباه هذا الانتماء إلى فاطمة الزهراء، وليس إلى علي بن أبي طالب، ولابد أن الانتماء إلى فاطمة الزهراء نبع من شعور داخلي لدى أئمة الإسماعيلية بتأكيد صحة أنسابهم، وسلفت الإشارة في أكثر من مكان إلى قضية الغموض في المعلومات حول حقبة الستر وصحة الإنتماء النسبي إلى علي بن أبي طالب، مما دفع ببعض الناس إلى القول إن الإنتماء الروحي يغني عن الإنتماء الجسدي، وحمل أول خلفاء الدولة الشيعية الجديدة لقب المهدي، ووصل المهدي كما رأينا إلى السلطة بواسطة العمل المسلح وليس كما وصف صاحب الكشف من قبل ظهور المهدي، فهو لم يقد الجيوش بل الذي قادها أبو عبد الله الشيعي. وأبو عبد الله هو الذي خلص المهدي من سجن سجلماسة، وأعلنه خليفة،

---

(١) سيرة الحاجب جعفر ص ١٢٠ ـ ١٢٣، افتتاح الدعوة ص ٢٤١ ـ ٢٤٥.

ولاشك أن صورة الواقع قد بددت صورة الخيال الدعوي، وبعد وصول المهدي إلى القيروان، رأى بعض أتباع الإسماعيلية من الصعب التعايش مع مرارة الواقع، ولهذا شهدت حقبة المهدي اضطرابات وانشقاقات داخلية كان على رأس ضحاياها أبو عبد الله الداعي نفسه.

ولا حاجة بنا مجدداً للخوض في قضية نسب المهدي، ولكن نتساءل ما هو اسمه؟ في المصادر السنية عبيد الله، وعبيد الله صيغة تصغير لاسم عبد الله، وكما يقال إن في التصغير تحقيراً، لكن هل كان فعلاً اسمه عبيد الله ثم ما هو اسمه قبل الخلافة والسلطة؟ لا نستطيع الإجابة على الشطر الثاني من هذا السؤال لكن الشطر الأول نملك إجابة موثقة له: كان اسم المهدي عبد الله، وقد ورد على النقود، ففي متحف دمشق دينار ذهب، وربع دينار يؤكدان هذا، وهناك نقود ذهبية أخرى في متاحف القيروان والجزائر وقسطلية وبلدان أخرى كلها ورد عليها اسم «المهدي بالله الإمام عبد الله أمير المؤمنين»[1].

وبقي أمامنا مشكلة أخرى تتعلق بالعلاقات بين المهدي والقائم، فقد وردت لدينا إشارات من قبل اقتبسناها من المصادر الإسماعيلية، تذكر أن القائم لم يكن ابناً للمهدي، وأن المهدي كان بالتالي إمام استيداع، ولم يكن إمام استقرار، وأوضح هذه الإشارات كما مر من قبل قد وردت في كتاب التراتيب المجهول المؤلف، حيث ذكر أن والد القائم حمل لقب المهدي، وهو الذي أمر أخاه عبد الله أن يقوم مقامه، وأن يتلقب بلقبه كما أمر ابنه القائم بأن ينتمي إليه، وهذا يفيد أن «المهدي أبا القائم هو أخو المنتقل إلى سجلماسة، وكان المهدي صاحب الكشف هو المولود بالسلمية المنتقل (أي المتوفى) بالمهدية كما جاء بالتواريخ، ومن هذه

(١) انظر المسكوكات المغربية لصالح بن قربة، ط. الجزائر ١٩٨٦ ص ٢٨٠ ـ ٣١١.

الجهة أنكر العباس أخو أبي عبد الله الشيعي إمامة المهدي الظاهر بسجلماسة. لأنه كان عارفاً بالمهدي أباً للقائم، فلما رأى الأمر وسوس لأخيه أبي عبد الله الشيعي، وقال إن هذا الذي يدعي بأنه الإمام وسلمت مقاليد الملك الذي بيدك إليه، وقلت أنه المهدي المنتظر، ما هو كما قلت، ولا الأمر كما توهمت ولا هو صاحب الأمر، ولقد كنت أنت أحق بالخلافة منه وأولى بالنيابة»[1].

هذا دليل مباشر من رواية إسماعيلية تذكر بوضوح أن المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية كان عم القائم، وكان إمام استيداع لا استقرار، ونعرف أيضاً أن خلافاً تفجر بين أبي عبد الله الشيعي وأخيه العباس من جهة، والخليفة المهدي من جهة أخرى، وأن المهدي قتلهما، ونضيف إلى هذه الرواية أمراً يمكن أن نستخلصه من الألقاب، فقد سلف وبينا أن الإسماعيلية آمنت أن الأنبياء ذوي العزم سبعة هم: «آدم ـ نوح ـ إبراهيم ـ موسى ـ عيسى ـ محمد». والقائم الإسماعيلي، والقيامة عند الإسماعيلية تعني ليس نهاية الحياة، بل نهاية للديانات الستة وبداية عصر القائم، وأوضحنا أن في هذا خروجاً عن الإسلام، ذلك أن الإسلام قائماً على عقيدة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء وخاتم الرسل، وما دمنا نتعامل مع وقائع التاريخ نتابع عملنا، وهنا نجد في مخطوط عثر عليه في مصياف في مكتبه إسماعيلية، واسم هذا المخطوط الرسالة «المذهبة في الحكمة والتأويل»، وهي إحدى الرسائل السرية جداً، كتبها القاضي النعمان، ومرجح أن كتابتها كانت أيام المعز لدين الله الفاطمي وفيها تحدث القاضي النعمان مطولاً عن شخصية القائم لدى الإسماعيلية، وكان مما قاله حوله «قد ذكر الله عز وجلّ في كتابه العزيز له ثلاثمائة وستين اسماً يعرفها العارفون، ويعمى عنها الجاحدون حتى أن الصفوة الذين اقتفوا آثار الأئمة

---

(١) الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ص ٢٩١.

صلوات الله عليهم أجمعين اختلفوا فيه، فزعمت طائفة منهم أنه جسماني غير مؤيد، واحتجوا على ذلك، وقالوا: أنه مقتف آثار أبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، مقتبس من علمه، لا يحكم إلا بما وصى به إليه جده ـ عليه أفضل الصلاة والسلام، وكيف لا يكون ذلك، وقد أعطاه الله تبارك وتعالى ما لم يعط لأحد غيره لقوله عز وجل ﴿ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون﴾ (التوبة: ٣٣) ولا يكون أفضل من فاضل، وتحقيق ذلك أن سائر النطقاء والرسل والنبياء والخلفاء من الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين ـ كلهم مبشرون مجاهرون به داعون الله.

وقالت طائفة أخرى: إنه روحاني منتقل من الجسماني، وهم الجم الغفير... وقالت طائفة أخرى أيضاً: إنه سابع سبعة من آدم، فالنطقاء سبعة أولهم آدم، وآخرهم القائم... ومثله مثل من سلف من النطقاء (أي الأنبياء ذوي العزم) أصحاب الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، غير أنه أيده الله بما لم يؤيدهم به، وأعطاه ما لم يعطهم، وذكر الدعاة إليه والمبشرون به المخبرون عنه أن دوره صلاة الله وسلامه عليه آخر الأدوار، إذ كان يومه آخر الأيام، وأنه يحيي بالجسمانية فيحكم في الجسمانية، ويملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً وأن دوره دور القيامة، فلا تزال دعوته قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والقائم يحكم بالحياة الجسمانية، وبعد الحياة في الروحانية، كما حكم في الجسمانية، لا على من كان في عصره وزمانه فقط بل على الجميع من الأولين والآخرين، إذ كان هو صلوات الله عليه سبباً لبدء الابتداء وإليه الانتهاء»[1].

وفي الرسالة المذهبة مواد إسماعيلية هامة جداً حول شخصية القائم، عولجت فيها جميع المسائل العقدية على أساس النظام السبعي،

---

(١) حصلت على صورة نسخة خطية من الرسالة المذهبة فيها سقط وتصحيفات وأخطاء كثيرة، لكن نظراً لأهميتها الفائقة سوف أنشر مقتطفات منها ألحقها برسالتي هذه.

وهكذا الأنبياء عند القاضي النعمان، لا بل الأنبياء ذوي العزم عند المعز لدين الله الفاطمي هم «النطقاء السبعة عليهم السلام، وذلك لأن الولاية لآدم عليه السلام، وإن الطهارة لنوح، وأن الصلاة لإبراهيم، وأن الصوم لعيسى، وأن الحج لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن الجهاد للقائم صلوات الله على ذكره».

ويستخلص من هذا الكتاب الهام أن عمل المهدي هو التمهيد لعصر القائم، وعندما يستلم القائم الإمامة يفتح عصره بإعلان القيامة، أي إلغاء الشريعة الإسلامية، والأخذ بشريعة القائم، وفي هذا برهان جديد على أن شخصية القائم أعلى في الفكر الإسماعيلي من شخصية المهدي، وعلى هذا لم يكن الخليفة الفاطمي المهدي أباً للقائم، وقد نتساءل لماذا لم يعلن القائم الفاطمي القيامة بعد وفاة المهدي وتسلمه للخلافة؟ والإجابة على هذا السؤال كامنة في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، الذي قام بحركة كاد أن يسقط بواسطتها الخلافة الإسماعيلية[1].

ولعل ما قدمته حتى الآن يكفي في البرهنة على نوعية العلاقة بين القائم والمهدي، ونزيد ذلك برهاناً آخر فعندما نقرأ في كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان. إن المهدي الفاطمي بعدما استقر في إفريقية تزوج وأنجبت له زوجته في مدينة المهدية غلاماً ذكراً أطلق عليه اسم أبي الحسن، ولقد فكر المهدي في جعل ابنه هذا ولياً لعهده، لكن الغلام اصيب بالجدري فذهب بصره، وهكذا بقيت ولاية العهد للقائم، وكانت أم الغلام المجدور دوماً تقول: «والله لقد خرج هذا الأمر من هذا ـ تعني قصر

---

(١) لا يكاد كتاب إسماعيلي ديني يخلو من حديث مركز حول شخصية القائم والقيامة من ذلك انظر سرائر وأسرار النطقاء لجعفر منصور اليمن ص ٢٢٩ ـ ٢٦٤. كتاب الكشف له، ص ٤٦ ـ ٥٠، ٦٤ ـ ٦٧، ١٠٥ ـ ١٠٦، ١١٦ ـ ١١٧. كتاب البيان لمباحث الأخوان، للمنصور اليماني ص ٨٨ ـ ٩٩، ١٠٨ ـ ١٠٩، وعالج لويس هذه القضية في كتابه الدعوة الإسماعيلية الجديدة ص ٨٧ ـ ٨٩.

المهدي ـ فلا يعود إليه أبداً، وصار إلى ذلك القصر تعني قصر القائم... فلا يزال في ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا»[1].

ونحن نعرف أن المهدي بنى مدينة المهدية، واتخذها عاصمة، لكن نفهم من هذا النص أن المهدي لم يبن في المهدية، دار خلافه له وللقائم، بل ابتنى لنفسه قصراً وللقائم قصراً منفرداً، على الرغم من ضيق مساحة شبه جزيرة المهدية، وفي هذا دلالات كافية على العلاقة بين الرجلين، ونعرف أيضاً أن ذهاب البصر لا يمنع الزواج، وهكذا عندما نقرأ سيرة الأستاذ جوذر، وهو خصي من أصل صقلبي ربما ورثة الفاطميون من القصور الأغلبية، وعاصر جوذر جميع الخلفاء الفاطميين بالمغرب، وعلا شأنه جداً أيام المعز، حتى بات الشخصية الثانية بعد المعز بالغرب.

كان جوذر المسئول عن القصور الملكية في مدينة المهدية، وكان كلما واجه مشكلة من المشاكل يكتب فيها مذكرة يرفعها إلى الخليفة، وغالباً ما تلقى إجابات مكتوبة من الخليفة، وفي سيرة جوذر المنشورة عدد كبير من نصوص الرسائل المتبادلة بين جوذر والخلفاء، خاصة بينه وبين المنصور إسماعيل ثم المعز لدين الله، وفي عدد من الرسائل شكا جوذر بمرارة إلى الخلفاء من سوء سلوك من سماهم بأسرة المهدي، وطالب باتخاذ إجراءات صارمة ضدهم، ووافقه الخلفاء على ما اقترحه حتى أننا في إحدى الرسائل نجد المنصور يصف أبناء أسرة المهدي بأنهم الشجرة الملعونة في القرآن الكريم، ووصفهم المعز بالقردة، وبأوصاف مفزعة أخرى، وبلغه في إحدى المناسبات أن أحمد بن المهدي كان يتآمر عل المعز وينال منه ويذكره بالقبح ولا يأبه بمكانته السياسية والدينية، فكتب المعز إلى جوذر رسالة مطولة وسم فيها آل المهدي

---

(١) المجالس والمسايرات، للقاضي النعمان بن محمد ط تونس ١٩٧٨ ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣.

بالحسد، وبانحطاط الأخلاق، وبالكفر وبسوء الطالع والشؤم، وغير ذلك[1].

ولايزال ما قدمناه من شك، أن القائم لم يكن ابناً للمهدي، ولعل كشف هذه الحقيقة، كما قال صاحب كتاب التراتيب، كانت سبباً في بعض المشاكل التي تفجرت في وجه المهدي، وأدت إلى مقتل أبي عبد الله الداعي وأخيه، فالمهدي ما إن استقر في رقادة حتى أخذ يباشر الأمور بنفسه، ويحكم حسب مواريث قاعدة الإمامة ومفهومها عند الإسماعيلية، فالإمام كما رأينا من قبل هو وحده مصدر التشريع، وصاحب الحق في السلطة، ولعل المهدي قد قام بجمع الدعاة وسعى إلى إعادة تنظيم الدعوة الإسماعيلية، لأنها دخلت في طور علني بعد ما كانت قبل الإطاحة بالأغالبة سرية، وللمرة الأولى في تاريخ الفكر الإسماعيلي آلت زعامة هذا الفكر عقائدياً إلى المغاربة، وحتى النعمان نفسه يعتقد أن أصله كان مغربياً، وفي تاريخ الخلافة الفاطمية والعقيدة الإسماعيلية سيظل هؤلاء المغاربة يقودون الفكر الإسماعيلي حتى أيام الحاكم بأمر الله، الذي اعتمد مجدداً على مشارقه رفعوه إلى صف الإله وصنعوا العقيدة الدرزية، والمطلع على مؤلفات القاضي النعمان، يتضح له أن الخلافة الفاطمية امتلكت إثر تأسيسها مكتبة إسماعيلية حوت جلَّ المؤلفات، ولا نعرف الوسيلة التي جمعت بها هذه المكتبة، لكن نعرف أن ما حوته المؤلفات الإسماعليلية من أفكار نظرية حول شخصية المهدي، وحول الوعود المنتظرة لدى ظهور المهدي، كانت شيئاً، والطريقة التي مارس في المهدي سلطانه كانت شيئاً آخر، فهو، أي المهدي، مارس السلطة مثلما كان خلفاء بني العباس، أو حكام بني أمية بالأندلس، مارس السلطة مثل ما كان يمارسها أي حاكم متسلط آخر، وبهذا استلب من أبي عبد الله جهوده، لكن الأهم أن هذا التطبيق العملي شكل لكثير

---

(١) سيرة الأستاذ جوذر ص ٦٥ ـ ٦٩، ١٠٥ ـ ١٠٦.

من الإسماعيليين انتكاسة عقائدية. وروى ـ كما ذكرنا من قبل ـ القاضي عبد الجبار الهمذاني في كتابه «تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد عليه السلام» أن المهدي بعد خروجه من سجلماسة يريد القيروان جاء بعض الرجال من أتباع أبي عبد الله الشيعي لجمع متاعه وتجهيز أشيائه لحملها «فوجدوا ملابس الحرير والديباج، وأواني الذهب والفضة وخصيان روما وآثار الأنبذة، فأنكروا ذلك في أنفسهم مع بلادة البربر، وسألوا أبا عبد الله الداعي عن ذلك، وإنما أنكروا ذلك لأن أبا عبد الله كان سنيناً كثيرة في كتامة يدعوهم إلى المهدي، الذي هو حجة الله، ويزعم أنه صاحبه، وكان أبو عبد الله يتقشف، ويلبس الخشن، ويأكل العشب، ويعدهم عن المهدي بمثل ذلك، فلهذا أنكروا وسألوا، فقال لهم أبو عبد الله هذه الآثار لأصحابه وأتباعه، وكان معه أتباع كثير»[1].

المستعرض لكتابات القاضي عبد الجبار، يلاحظ أنه كان شديد التعصب على الإسماعيلية فالتعصب والبغض يلغيان العقل والمنطق في كثير من الأحيان، ذلك أن هناك اجماعاً بين المؤرخين على مختلف مشاربهم أن المهدي لدى تخليصه من سجلماسة عندما كان سجيناً عند اليسع بني مدرار، كان يتكون أهل بيته من القائم وجعفر الحاجب وطيب الخادم، فمن أين جاءته الأنبذة وملابس الحرير والرجل كان سجيناً صودرت ثيابه ومقتنياته؟! كذلك لا يمكن أن نقبل بهذا التعليل الذي قدمه القاضي عبد الجبار لأسباب تفجر الخلاف بين المهدي، وأبي عبد الله الداعي، ويمكن أن نجد الأسباب في أمور تعلقت بالسلطة وبالعقيدة، أو لنقل بالفوارق بين النظرية والتطبيق.

وعالج القاضي النعمان في كتابه رسالة افتتاح الدعوة مسألة الخلاف بين المهدي وأبي عبد الله الداعي، فعزا أصل الفساد إلى العباس

---

(١) زكار ـ الجامع في أخبار القرامطة ج١ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

أخي أبي عبد الله الداعي، فالعباس كان أكبر سناً من أبي عبد الله وأقدم سابقه في الدعوة الإسماعيلية، وأراد بعد قيام الخلافة أن يكون الأمر إليه والسلطة بيده «والنهي نهيه، فلما عدم ذلك فسدت نيته وتداخله الحسد، واستفزه الشيطان فأغواه، وزين له فاستهواه، فجعل ينكر ذلك ويزري على المهدي عليه السلام عند أبي عبد الله أخيه ويقع فيه... ثم واجه أبا عبد الله بالبيان... وقال له ملكت أمراً وإنطاع لك، فعينت من أزالك عنه وأخرجك منه وتنقصك واضطهدك، وكان أقل الواجب أن يدعك وما كنت عليه فتكون الآمر الناهي، ويشتغل إن شاء بنفسه»[1].

وعلى هذا كان أصل الخلاف وسبب المشاكل هو السلطة، فالمهدي بعد تسلمه الخلافة استحوذ على كل شيء، وحرم أبا عبد الله من سلطانه، وليس هنا لدى النعمان أدنى إشارة إلى وجود خلاف عقائدي كما قلنا من قبل، والمسألة هي مسألة التباين بين النظرية والتطبيق، وعلى كل حال ذكر القاضي النعمان أن أبا عبد الله فاتح المهدي في الموضوع، وأخبره أنه يخشى من غضب كتامة، لأن كتامة ستنقاد إليه دون سواه، لأنه هو الذي أدخلهم في العقيدة وثار بهم، فلما سمع ذلك منه المهدي عليه السلام أيقن بما تداخله، وعلم من حيث أتى، فرد عليه في ذلك رداً لطيفاً، ولم يره أنه علم بحاله[2].

ولدى معرفة العباس بما حدث استغل رفض المهدي، وزاد في إفساد أخيه ولم يكتف بذلك بل استفسد كما يقول القاضي النعمان: «بعض قادة كتامة بضروب من الحيل، ووجوه من الكيد، إلى أن حمل من استفزه من الدعاة على المباينة بالنفاق والإعلان بالشقاق»[3].

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٠.

(٣) افتتاح الدعوة ص ٢٦١.

وشعر المهدي أنه على أبواب ثـورة، وكـادت كتامـة أن تجتمـع علـى الإحاطة بالمهدي، وتدارك الأمـر فبعـث بعـض مشـايخ كتامـة فـي مهمـات بعيدة واشترى بالمال بعضهم الآخر ثم عزم أمره، وأعد خطة بحيـث جعـل بعض الجند من كتامة يقومون بإغتيال أبي عبد الله وأخيه العباس، وهمـا في طريقهما إلى قصر المهدي[1]».

تخلص المهدي من أبي عبد الله وأخيه، ومن بعض أعوانهما، ويذكرنا هذا الحادث بحادث آخر يشبهه هو ما وقع عنـد تأسيس الخلافـة العباسـية، عندما تخلص السفاح من أبي سلمة الخلال، فبواسطة جند الثـورة العباسـية اغتيل أبو سلمة وهو في طريقه إلى الخليفة، أو بعد خروجه من عنده اغتيل على يد بعض الجند، والآن حدث الشيء نفسه، وكما كان الحـال فـي تـاريخ الخلافة العباسية تكرر الأمر نفسـه، هنـاك أراد أبـو سـلمة الخليفـة أن يملـك دون أن يحكم، وهنا أراد أبو عبد الله بتحريض مـن أخيـه أبـي العبـاس أن يملك المهدي دون أن يحكم، فكانت النتيجة أن تخلص المهـدي منهمـا بواسطة الجيش الذي اشترى ذمم قادته بالمناصب والأموال.

وبعد مقتل أبي عبد الله وأصحابه، دخلت الخلافـة الفاطميـة مرحلـة جديدة توجب على المهدي حينها أن يعيد تنظيم الدعوة الإسماعيلية، وأن يجدد نشاطها في مختلـف بلـدان دار الإسـلام شـرقاً وغربـاً، ومـن الجـانب الإداري لم يواجه المهدي مشاكل ومصاعب، فقـد ورث فـي رقـاد القـيروان إدارة الأغالبة ونظمهم، وعمل مع الأيام على تطوير هذه النظـم وأحكامهـا، لكن مصرع أبي عبد الله لـم يشـكل آخـر الأزمـات المهـددة لدولـة المهـدي الناشئة، فالمخاطر الحقيقية لم تأت على دولـة المهـدي مـن داخـل الدعـوة الإسماعيلية، لكن جـاءت مـن الخـارج، جـاءت مـن أهـل المغـرب، فسـكان

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦١ ـ ٢٦٧.

المدن لاسيما القيروان كانوا مالكية، وكانت في أرض المغرب الأوسط قوى خارجية متجذرة، وسلف وذكرنا ما حدثنا به المؤرخون أنه بعد ما حل المهدي في رقاده القيروان، وبعدما حلّت الجمعة «أمر المهدي الخطيب أن يذكره في الخطبة فيقول عبد الله المهدي بالله أمير المؤمنين» فلما صعد الخطيب المنبر وانتهى إلى ذكر المهدي ثار المصلون في الجامع وقام على رأسهم فقيه اسمه جبلة بن حمود الصدفي، فقد رفع عن رأسه عمامته وصرخ داخل المسجد: «قطعوها قطعهم الله»، أي قطعوا خطبة بني العباس قطعهم الله، وانقلبت صلاة الجمعة إلى ثورة، وتأججت هذه الثورة عندما بدأ الدعاة الإسماعيليون بالتبشير لمذهبهم داخل المسجد الجامع في القيروان، ولجأ أهل القيروان إلى مقاومة السلطات الفاطمية باغتيال المتعاونين معها أو بعض رجالاتها، واستخدم المهدي وسائل الإرهاب والضغط وسجن بعض القيروانيين، وقتلهم حتى قيل أنه قتل أكثر من أربعة آلاف قيرواني، ومع هذا لم يرضخ أهل القيروان، فالمسألة ارتبطت بعقيدتهم، واضطر المهدي إلى التراجع والبحث عن حل[1].

قد يصعب علينا تصديق إقدام المهدي على قتل أربعة آلاف من أهل القيروان، لكنه واجه ثورة، وكان عليه أن يقمعها ولم يفلح في قمعها، وكان المهدي أيضاً في الوقت نفسه له تفكيره وخططه الاقتصادية والتجارية، وكان اقتصاد إفريقية بيد أهل القيروان، كما أن القيروان كانت مركز الثقافة الإسلامية ومقر تمركز الثقافة الإسلامية، لذلك بات على المهدي وقد اقتنع أن القيروان لن تمنحه الولاء والإخلاص، أن يبحث عن مخرج فيه الحماية لسلطانه الجديد، والعقوبة لأهل القيروان، فأخذ يرتاد مكاناً يبني عليه عاصمة لدولته، قوية، يسهل الدفاع عنها، ونقرأ في

---

(١) المقفى، للمقريزي، ترجمة المهدي طبع دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧ الترجمة رقم ١٥٢٨ رياض النفوس للمالكي، ط بيروت ١٩٨١ جـ ٢ ص ٣٨ ـ ٤٢.

ترجمة المهدي المسهبة التي حواها كتاب المقريزي المقفى انه عندما حلت سنة ٣٠٠هـ ـ ٩١٣م خرج المهدي «بنفسه إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة، فلم يجد بقرطاجة إلى تونس أحسن ولا أحصن من موقع المهدية، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بالزند فتأملها فأعجبته»[1].

وقام المهدي ببناء مدينة المهدية وانتقل إليها، وأرغم التجار على ترك القيروان وبذلك حقق لنفسه الغايتين اللتين ذكرناهما أعلاه، ويلفت الانتباه كثيراً اختيار المهدي لموقع على شاطئ المتوسط يكون عاصمة لملكه، وعدم اختياره لمكان بري في داخل الأراضي المغربية، وبالفعل حمت مدينة المهدية الدولة الفاطمية أوقات الشدائد بواسطة البحر وحصانة هذه المدينة، ويجد الباحث كيف استطاع الفاطميون مقاومة ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ومن ثم القضاء على ثورته[2].

ولا شأن لنا بقضية بناء المهدية وتخطيطها، لكن يكفينا أن نذكر ونحن نختم هذا الفصل، أنه على الرغم من بناء المهدية، لم يشعر المهدي بالطمأنينة، ولم يثق بسكان الشمال الأفريقي، ومن هنا تطلع نحو مصر وخطط للاستيلاء عليها، وانتزاعها من حكم الدولة الأخشيدية، فأرسل القائم على رأس عدة حملات نحو مصر أخفقت جميعاً في تحقيق هدفها[3].

وقد يرى بعض الباحثين في التوجه إلى مصر تطبيقاً لبرنامج الفاطميين في الاستيلاء على دار السلام، لا بل على العالم أجمع. وقد

---

(١) المقفى ج٤ ص ٥٦٣ـ ٥٦٤.

(٢) ترجمة القائم والمنصور إسماعيل في كتاب المقفى: القائم الترجمة رقم ٢٦٤١، والمنصور رقم ٧٨٠.

(٣) ترجمة القائم من المقفى.

يكون هذا صحيحاً من بعض الجوانب ولا يعارض ما ذهبنا إليه حول المشكلة الأمنية.

وتوفي المهدي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م وتسلم السلطة من بعده القائم ولم يطل حكم القائم (٣٢٢ ـ ٣٣٤) كثيراً أو بالأحرى لم يجد القائم الوقت والإمكانيات لاستئناف مشروع الاستيلاء على مصر، فقد انشغل ومن بعده ابنه المنصور إسماعيل (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ/٩٤٦ ـ ٩٥٣م) بالتصدي لثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

ولا يعنينا هنا البحث في هذه الثورة، لأنها موضوع قائم بذاته، فنحن اتخذنا من هذا الفصل توطئة للوصول إلى عصر المعز لدين الله الفاطمي، وتكفي الإشارة إلى أن المنصور إسماعيل والد المعز تمكن من القضاء على ثورة أبي يزيد، وهكذا عندما تسلم المعز الخلافة، وجد دولة استردت تماسكها وقوتها، لذلك امتلك الفرصة لمد سلطان الخلافة الفاطمية على المغرب، ومع هذا شعر بإخفاق المشروع المغربي وأن الخلافة الفاطمية وإن نجحت سياسياً في المغرب لكنها لم تتمكن من النجاح عقائدياً، لهذا استأنف المعز مشروع السيطرة على مصر.

الفصل الثالث

المعز لدين الله الفاطمي:

النشأة والشخصية

واستلام السلطة ومباشرتها

شبه بعضهم المنصور إسماعيل (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ/٩٤٥ ـ ٩٥٢م) بأبي جعفر المنصور[1] لأن كليهما تفاقمت في وجهه الخطوب وكثرت المشاكل، فاستطاع أن يتخلص منها جميعاً، لكن الحقيقة شتان ما بين الرجلين، فالمنصور العباسي أسس فعلياً دولة غطت معظم دار الإسلام، لكن المنصور الفاطمي حافظ على وجود دولة ناشئة، وجاءت هذه المحافظة مؤقتة، حيث بعد المنصور بعقدين من الزمن غادرت الأسرة الفاطمية الحاكمة المغرب إلى مصر، في حين مكثت الأسرة العباسية في العراق أكثر من خمسة قرون، أي حتى قضى عليها هولاكو.

كما أن حمل كل منهما للقب «المنصور» لم تمله الظروف نفسها،

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ٤١.

وبالتالي لم تكن له الدلالات نفسها، فهناك لدى العباسي جاء اللقب في الإطار الإسلامي العام حول المنتظر حسبما نادت به الدعوة العباسية، لكن المسألة مع الفاطمي اختلفت، حيث بعدما أخفق القائم الفاطمي والد المنصور في إعلان أي نوع من أنواع القيامة، عادت العقيدة الفاطمية إلى المسار الطبيعي، ومسايرة أهل السنة وسواهم ظاهرياً، ومن هنا جاءت عملية المنصور في بناء صبرة المنصورية في ربض القيروان والانتقال إليها مع إجراءات تسوية أخرى، وسوف يتكرر هذا بعد أمد من الانتقال إلى القاهرة، فبعدما أعلن الحاكم عن قيامة عظمى اغتيل، وهنا حمل خليفته لقب الظاهر، لأنه عاد إلى دين الظاهر[1].

ووفق هذا المساق سار خليفة المنصور المعز لدين الله، فهو معز لدين الله، أي دين الإسلام، وليس معزاً للعقيدة الإسماعيلية، وهكذا سيكون حال خليفة الظاهر في مستقبل الأيام، أي المستنصر، أي مستنصراً بأمر الله، ويعد المعزّ أشهر خلفاء الدولة الفاطمية، وأعظمهم قاطبة، لأنه تمكن من بسط السلطة الفاطمية على معظم أرجاء المغرب الكبير، وأهم من هذا الاستيلاء على مصر، وبناء مدينة القاهرة، وأزهرها العظيم.

وولد المعز لدين الله معد، الذي شهر بلقب أبي تميم بمدينة المهدية حصن الفواطم وقاعدتهم، وكانت ولادته سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م، وقيل لابد ولد قبل ذلك بسنتين في سنة ٣١٧هـ/٩٣٠م[2]. أي أن الولادة حدثت في أواخر أيام المهدي، وعلى هذا عاصر المعز الخلفاء الفاطميين الثلاثة الأول، وهم المهدي مؤسس الخلافة، وجده القائم، وأبيه المنصور إسماعيل، ونشأ المعز في المهدية أميراً بارزاً وسط أسرة لم يكن تعدادها

---

(١) زكار الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٩٨ ـ ١٠١.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ٦٥ ـ ٧٤. الحمادي ص ٣٨. ابن خلدون جـ ٤ ص ٩٤.

قد صار كبيراً، وتحدثت المصادر عنه بأن علامات النجابة والفطنة والذكاء قد ظهرت عليه منذ سن مبكـرة، وأن اللـه قـد منحـه علمـاً فطريـاً: «شـهد بالأمامة له، ويرهـن علـى اتصـال مـادة اللـه عـز وجـل إيـاه، وتـأييده لـه بالحكمة.. لم نعلم له في الطفولية مؤدباً عالماً، فنقول أفاد منـه، ولا بعـد ذلك من جليس ولا مصاحب، كذلـك يحسـن شـيئاً فنقـول: أفـاد عنـه، ولا كانت له رحلة ولا طلب، ولا أراه يفيد شيئاً من دراسة الكتب يوازي جـزءاً لا يتجزأ مما نراه فيه، ونجده من فنون العلم والحكمة لديه[1]».

وروى القـاضي النعمـان عـن المعـز قولـه: «إنـي لأذكـر مـن أمـير المؤمنين المهدي بالله يومـاً حملـت فيـه إليـه، وأنـا يومئـذ فطيـم أعقـل الكلام، وأحفظ ما يكون فتناولني وقبلني وأدخلنـي تحت ثوبـه، وكشـف عن بطني وألصقها ببطنه، ثم أخرجني وبـارك علـي، وسألني عـن حـالي وأجلسني في حجره، ودعا لي بما آكل، فأتيت بطبق من فضة مذهب فيه موز وتفاح خريفي وعنب، فوضع بين يدي، فلم أتناول منه شيئاً، فـأخذه بيده، وناولنيه، فأخذته بيدي فقال: امض به فكـل أنـت مـا فيـه. وأعـط الطبق فلانة، وذكر بعض البنات، وهي يومئذ في مثل سني، فقلت بل آخذ أنا الطبق، وأعطيها ما فيه، فضحك وتعجب من انتبـاهي لذلـك، ودعـا لـي بخير، وقال للخادم احمله، فحملت وحمل الطبق بين يدي، وقـال سـيكون له نبأ ومثل هذا الكلام»[2].

وإذا صحت هذه الرواية بجميع تفاصيلها فهـذا يعنـي أن المعـز كـان صبياً واعياً له من العمر قرابة الخمس سـنوات أو أكثر، وعلـى هـذا كـانت ولادته قبل سنة ٣١٩هـ لأن المهدي توفـي سـنة ٣٢٢هـ، وتسـاور النفـس الشكوك حول كون نوع التفاح «خريفيـاً» وأن يملـك صبـي صغير القـدرة

---

(١) النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٥٤١ الداعي إدريس ـ عيون الأخبار جـ ٦ ص ١١.

على مثل هذا التحديد، ولعل ذلك جاء من إضافات المعز لدى روايته الخبر، أو أن الحكاية كلها مخترعة من قبل المعز نفسه أو من قبل القاضي النعمان، للدعاية ولربط المعز بالمهدي وللتغطية على مشكلة النسب، وهي مشكلة تقدمت الإشارة إليها في الفصل الثاني، ونحن إذا ملنا إلى رفض الحكاية، فوقتها ننفي تذكر المعز للمهدي، ونؤكد أنه ولد سنة ٣١٩هـ.

ولا نشكك مطلقاً بعيش المعز في ظل جده القائم، ومعرفته له عن قرب، فقد روي بأن القائم كان يأنس به، ويدربه ويكلفه ببعض الأعمال والمهام، فقد بعث به شيوخ كتامة إلى القائم يشاورونه حول مسائل الحرب ضد أبي يزيد مخلد بن كيداد فقال القائم له: «قل لهم فليفعلوا من ذلك ما أحبوه»[١].

ويبدو أنه توفر خلاف، أو خلافات في الرأي بين القائم والمنصور إسماعيل، فقد انتقد المعز أمام أبيه المنصور، تقاعس القائم أمام ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد فقال: «لو قد كان القائم بأمر الله ﷺ حاول من ذلك ما حاولت، وقام منه بما قمت، فجلاها (الفتنة) والأمر مجتمع، والحال صالح، ولم يدع ذلك إلى أن كان ما كان من الفساد في الأرض، فقد كان من القوة والمنعة ومكانفة الرجال في أكثر مما كنت أنت فيه يوم قمت بذلك»[٢].

والخلاف بين المنصور وأبيه جعل القائم لا يعلن عن المنصور ولياً لعهده إلا قبل ثلاثة أيام من وفاته[٣]، فقد كان القائم يريد تعيين المعز ليكون الخليفة من بعده، وهذا لم يكن أمراً سرياً، قال القاضي النعمان: «وسمعت الإمام المعز لدين الله صلوات الله عليه يحدث عن محبة القائم

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٢٤٨.

(٣) الداعي إدريس ـ عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٢.

بأمر الله ﷺ له، واختصاصه إيّاه وما كان يؤثره به ويتوخاه له، مما كنا نعرفه ويبلغنا عنه، فقال: لقد قال لي يوماً: لولا صغر سنك لجعلت هذا الأمر إليك، ولكن أنت أبو تميم حقاً كما كنيت»[1].

واستدعى القائم المعز إليه في مرضه الأخير «وذلك قبل وفاته بثلاثة أيام، وعنده بعض حرمه، فأمرها فتنحت عنه، ثم أدناني من نفسه، وضمني إلى صدره، وقبل بين عيني، وبكى فبكيت لبكائه، ولا أدري ما أبكاه، ثم قال لي: يا بني إن مولاك ومحبك مفارقك بعد ثلاثة أيام وعقدها بيده، قلت: بل يبقي الله أمير المؤمنين، ويمد في عمره، ويقدمنا قبله.

قال: اسمع ما أقول لك: إن أخوف ما أتخوفه عليك من أبيك ما أعلمه من إيثاري إياك، وإيثارك أمري على أمره، وميلك إليّ دونه، وما أعلمه من ميله إلى أمهات إخوتك، فأخشى خشية المشفق عليك أن يعدل بهذا الأمر عنك إلى غيرك منهم، كلا لا يفعل ذلك إنشاء الله.

لكن متى رأيت منه أثرة عليك، أو ميلاً عنك، فاصبر صبر من أحله الله محلك، وأقامه مقامك، فأنت والله صاحبها، ولولا صغر سنك اليوم ما عدتك، وعن قريب تصير إليك[2].

هذا وتفيد هذه النصوص قيام الفاطميين بتعديل النظرية الإسماعيلية حول تداول الإمامة وانتقالها من إمام إلى إمام، فلدى الحديث عن إسماعيل وأبيه جعفر الصادق ذهب الإسماعيلية إلى القول بأن الإمامة نور تنتقل بالأصلاب من إمام إلى ابنه البكر، لكن الآن صار الأمر مرتبطاً بتعيين الإمام لمن يخلفه، والأخذ بهذا المبدأ وتعميمه، يفيد صحة تعيين الصادق لابنه موسى الكاظم، وبالتالي انتفاء حق إسماعيل، والقضية هنا

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) الداعي إدريس ـ عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٢ ـ ١٣.

هي القضية المعتادة في الفوارق ما بين النظرية والتطبيق، فمشاكل الحكم وواقعية السياسة والأهواء وتيارات القصر قد تفرض ما يتعارض مع المبادئ النظرية، وقد يقول إنسان: لم تبلغ الأمور هذا الحد، فطالما الإمام هو مصدر التشريع والتفسير يحق له القيام بما يراه، لكن الذي نراه في أيامنا. أن الإمام كان بشراً، بعيداً عن العصمة، وبالتالي تصرف خلفاء الدولة الفاطمية مثل تصرف غيرهم من الحكام.

ويبدو على كل حال أن من أسباب تقريب القائم لحفيده، وإيثاره على المنصور، أن المهدي حين أخفق في الحصول على ابن له يسميه ولياً لعهده، قرب إليه المنصور إسماعيل، وأراد توليته بدلاً من القائم[1].

ولاشك أن المعز قد تلقى في طفولته تدريبات خاصة جداً، وعني به، ونحن إذا ما عددنا كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان، أفضل وثيقة تصور عصر المعز، نجد في هذا الكتاب مادة مدهشة، نستخلص منها صوراً عن الثقافة التي نالها المعز، وكونت شخصيته، وأسهمت في جعله أوسع الخلفاء الفاطميين شهرة، وتنوع ثقافة المعز والإشارة إلى عدد من الكتب الإسماعيلية وسواها فيها دليل على الاهتمام بالثقافة من قبل الفاطميين الأوائل، وعلى أن عدداً من ذوي الاختصاصات قصدوا البلاط الفاطمي وعملوا فيه، وإذا ما سايرنا القاضي النعمان نجد:

أن المعز مع نباهته، منذ الصغر، تدرب على أساليب فض النزاعات، فقد اختلف رجلان أمام المنصور حول قضية تتعلق بسقاية أراضيهما، وتلكأ المنصور في تقديم فتوى لفض الخلاف، فالتفت أحد رجال الركب إلى القاضي النعمان فسأله: ما ترى؟ فقال النعمان: «والله ما وقفت من ذلك على حقيقة أمر أقطع القول به، ولقد اشتبه عليّ أمرهما، وحسبك ما

(١) المجالس والمسايرات ص ٥٤٢ ـ ٥٤٥.

ترى من توقف أمير المؤمنين (ص) عن الفصل بينهما، ولكني أقول: إنهما لو وقفا بين يدي الأمير - أعني المعز لدين الله صلوات الله عليه - لفصل بينهما، قال: ومن أين قلت ذلك؟ قلت: لعلمي به، والله ما ضاق عليّ أمر رأيته واشتبه عندي وجه الحق، فرفعته إليه إلاّ أجابني عنه[1].

وتدرب المعز أيضاً على علوم الباطن وأتقنها، وكان يطلب من الدعاة الذين كانوا يحضرون مجلسه توجيه جميع الأسئلة إليه في أي مجال شاؤوا، ويقول لهم: «من ذا وجد من إمام قبلنا ما وجدتموه عندنا؟ إنّا لنجيب من سأل ونبتدئ من لم يسأل ممن نرى أنه يقبل، وما يخيب لدينا إلاّ المعرضون عن الله وعنا[2]».

وشدد المعز على علم الباطن، وقال بأن هذا علم خاص بالأئمة، وقد «زاغ من زاغ عن الهدى من انتحل علمنا وقال بزعمه بقولنا» ولم ينكر علم الظاهر، لأنه «لا يقال باطن إلاّ لما له ظاهر، ولا يقال ظاهر إلاّ لما له باطن[3]».

وحرص المعز على الرمز بعلم الباطن رمزاً خفياً، وإبقاء الأمور تحتمل التأويل، وطالبه القاضي النعمان بالتوضيح والشرح حتى يفهم الجميع مراده فقال له: « إنا لو كشفنا كل شيء لكم، وأوضحناه لسائركم لبطل التفضيل بينكم، ولنال الفضل مستحقه وغير مستحقه، ولكنا نريد أن يصل الفضل إلى مستحقه، ويمر القول صفحاً على سمع غير المستحق»[4].

وكان المنصور إسماعيل يشرف أحياناً على تدريب المعز، وتعليمه المحاجة، وروى النعمان عن المعز قوله: «لقد كان المنصور عليه السلام

(١) المجالس والمسايرات ص ٦٠ - ٦٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٨٢ - ٨٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٦.
(٤) المصدر نفسه ص ١٠٤.

إذا أفادني شيئاً من العلم والحكمة قال لي: قل في هذا ما يعرض لك أنه يدخل فيه، فربما قلت: ما عرض لي فيه شيء، فيقول: فاسأل عما أشكل عليك منه، فلا يكون عندي فيه إشكال، فأقول ما أشكل علي منه شيء، فيقول: قل فيه بما عسى أن ترى أن عدونا ومخالفنا يقول، فإن العلم والحكمة لا يثبتان في القلوب إلا بعد الحجة والمعارضة، فربما قلت في ذلك، فيتفجر علي منه من بحور العلم والحكمة ما لم أن أؤمله ويزيدني من الفوائد ما لم أكن أرجوه ويظهر لي في ذلك ما لم أكن أظنه»[1].

وكان المنصور إسماعيل قد اقتنع بولاية المعز لعهده وسلم بذلك فقال له وهو يحتضر: «والله ليودعنك الله من الخير، ويجعل لك من النعمة والغبطة والمسرة والصنع وعلو المنزلة والتوفيق والسعادة بعدي ما لم يكن لأحد مثله تقدمك»[2].

ولغلو الفاطميين بالعمل الباطني كانوا يراسلون دعاتهم بالرموز، ويتولى كل خليفة تعليم ولي عهده هذه الرموز، قال المعز: «دفع إليَّ المنصور بالله عليه السلام. كتاباً بخط المهدي فيه حروف المعجم بخط كان الإمام قبله يكاتب به الدعاة، فقال المنصور بالله (ع): انقله بخطك: وقد كان عرفني معناه»[3].

وشدة الاهتمام بالمعز، جعلته مؤهلاً، ومتميزاً على سواه، قال القاضي النعمان: «وجدناه صلوات الله عليه قد نظر في كل فن، وبرع في كل علم، وإن تكلم في فن منها أربى على المتكلمين وكان نسيج وحده في العالمين، أما علم الباطن ووجهه فهو البحر الذي لا تخاض لجته ولا يدرك آخره، وأما القول في التوحيد وتثبيت الدين، والرد على أهل اقتراف البدع

---

(١) المصدر ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٠ ـ ١٣١.

والملحدين فهو واحده، وهو علمه ومناره، وعمدته. وأما الفقه والحلال والحرام، ومسائل الفتيا والأحكام، فذلك مجاله وميدانه، وصنعته وديدانه.

وأما الطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة، فأهل النفاذ في كل فن من ذلك في يديه، وكلهم في ذلك عيال عليه، يخترع في كل يوم لهم من الصنائع، ويبدع لهم فيه البدائع من دقائق معانيه، ما تحار أذهانهم»[1].

وهكذا فكر المعز بفكره المبدع بصنع قلم «يكتب به بلا استمداد من دواة، يكون مداده من داخله، فمتى شاء الإنسان كتب به فأمده، وكتب بذلك ما شاء، ومتى شاء تركه، فارتفع المداد، وكان القلم ناشفاً منه، يجعله الكاتب في كمه أو حيث شاء فلا يؤثر فيه ولا يرشح شيء من المداد عنه»، وجئ بأحد الصناع، فشرح له الفكرة، فصنع له قلماً من ذهب «فأودعه المداد، وكتب به فكتب، وزاد شيئاً من المداد على مقدار الحاجة، فأمر بإصلاح شيء منه فأصلحه، وجاء به فإذا هو قلم يقلب في اليد ويميل إلى كل ناحية فلا يبدو منه شيء من المداد، فإذا أخذه الكاتب وكتب به كتب أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد»[2].

ومثلما أبدع المعز في اختراع القلم، أبدع في هندسة البناء، وخطط لمشاريع معمارية كبيرة، ولاستجرار مياه البحر نحو إحدى مدن الداخل[3]، وهذا بلا شك كله مفيد، ودليل رقي حضاري وسمو فكري، لكن المعز، على الرغم من الصورة المثالية التي قدمه فيها القاضي النعمان، كان بشراً له غرائزه، في الحب وفي الانتقام والتشفي من الأعداء، وهكذا أراد أن ينتقم من اثنين من المتمردين عليه، فأمر «بعمل عجلتين، ليكون كل

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٥، ٥٣٠، ٥٥٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٢٥، ٥٣٠، ٥٥٢.

واحد منهما على واحدة، تجرّ به في حين النداء عليه، وذلك مما لم يعلم أنه سبق به ولا رآه أحد، وجعل يصفهما للنجارين، فقال يجعل سطح من ألواح، وعلى خشبة مصلبة، وترفع على أربع فلك، ويبنى عليه برج من ألواح، واسع الأسفل، ضيق الأعلى، يكون طوله عشرة أذرع، ويكون في أسفله قفص من خشب وثيق له من خلفه باب يُدخل فيه أسير، ويغلق عليه، وله سقف، فوق تابوت من البرج، له باب يفتح ويغلق، وفيه شباكة يسيرة مقدار ما يدخله من الضوء، وفي وسط القفص خشبة عظيمة كصاري المركب في أسفلها مرود على سطح السرير يخرج من وسط سقف القفص وسقف التابوت الذي فوقه، ويظهر على سقفه منها مثل قامة، وعلى رأسها سرير مقدار ما يجلس فيه الجالس، حوله حاجز من شباك مخروط يمنع من السقوط عليه، وليكن في التابوت رجلان لا يريان، وفي الخشبة معهما وتدان فيها يديرانها، فيدور السرير الأعلى بمن يكون عليه ليرى كل من حوله وجهه، ولا يعلمون بم يديره»[1].

ولا شك أن وراء هذا الاختراع فكراً مبدعاً، لكنه بالوقت نفسه مليء بالحقد، فالقاضي حين عرض هذا الموضوع وأنهى خبره علق عليه قائلاً: «فتعجبنا لذلك لما عمل ورأيناه، كيف اخترع ذلك واهتدى إليه صلوات الله عليه، قال (عم): رأيته فيما يرى النائم قبل أخذ هذين الفاسقين بمدة، فجعلت أنظر إليه كما هو الآن بين يدي وأقلبه وأقول: ما هذا؟ فيقال لي: هذا يكون ينادى على أعدائك عليه، ففهمت صورته وعملته على ذلك».

وخطير جداً أن يقض التفكير بالانتقام مضجع هذا الإمام، فيبدع هذه الطريقة اللاإنسانية، ويقول بعد هذا إنه اهتدى إلى ذلك إلهاماً إن لم

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٤١٨ ـ ٤١٩.

نقل وحياً، ولدينا خبر آخر - ربما بين أخبار - يبين طبيعة المعز وحبه للانتقام والتشفي، فقد روى المقريزي في اتعاظ الحنفا الخبر التالي قال: «وكان قيصر ومظفر الصقلبيان قد بلغا رتبة عظيمة عند المنصور والمعز، وكان المظفر يُدل على المعز لأنه علّمه الخط، وهو صغير، فاتفق أنه حرد يوماً، فسمعه المعز يتكلم بكلمة صقلبية استراب بها، فأخذ المعز نفسه بحفظ اللغات، فابتدأ بالبربرية فأحكمها، ثم بالرومية، ثم بالسودانية، ثم استدعى الصقلبية، فمرت به تلك الكلمة فيها فإذا هي شتمة، فبقيت في نفسه حتى قتلهما»[1]. وتعامل حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف مع هذه الحكاية في كتابهما عن المعز بسذاجة ولم يحسنا فهم القضية حيث قالا: «ولما كان المعز على شيء كبير من الذكاء عمل على تعلم كثير من اللغات، فتعلم اللغة الإيطالية القديمة (اللاتينية) لقرب بلاده من إيطاليا، ولا غرو، فقد أخذت جيوش الفاطميين في صقلية تغزو إيطاليا الجنوبية، وخصوصاً قلورية (كالبيرا) وإيطاليا الشمالية، وتستولي على جنوى نفسها، وكأن المعز كان يطمع في الاستيلاء على إيطاليا فتعلم لغتها.

ومهما يكن من شيء، فقد استطاع المعز أن يتعلم هذه اللغة في صباه حين كان في جزيرة صقلية، مما يدلل على أنه لم يكن من الأمراء الخاملين، بل كان كثير الترحال والاختلاط بالناس، كما تعلم اللغة الصقلبية التي كانت سائدة في هذه الجزيرة، وإذا علمنا أنه كان من جند المعز الذين غزوا مصر فرقة كبيرة تسمى فرقة الصقالبة، وأن أساتيذ المعز في طفولته، كانوا من هؤلاء الصقالبة، أدركنا لماذا تعلم هذه اللغة، وعلى هذا النحو تعلم المعز اللغة السودانية، لأن السودانيين كانوا يكونون جزءاً كبيراً من جيشه، ولأنه عول على فتح مصر، وضم السودان إليها،

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ١٠١.

كذلك تعلم المعز لغة البربر لأنه يقيم بين أظهرهم، وقد رأى أن يتعلم لغتهم ليتقي شرهم»[1].

وحين نتأمل في هذا الكلام، ومعه رواية المقريزي التي بني عليها، نغفر للمقريزي أولاً حين لم يبين أية لغة من لغات أفريقيا السوداء (السودان) تعلم المعز، وأية لهجة من اللهجات البربرية، ولا نستبعد هنا أن تكون لهجة كتامة، القبيلة التي قامت الخلافة الفاطمية على أكتافها، لكننا نعجب من صدور هذا الكلام عن أستاذين جامعيين، لأن فيه دليل على انعدام المعرفة بتاريخ أوربا في العصور الوسطى، لأن الصقالبة هم الرقيق السلافي الذي استخدم بكثافة في الأندلس ولدى الأغالبة، وعن الأغالبة ورث الفاطميون هؤلاء الصقالبة الذين كان منهم قيصر ومظفر، وجؤذر، وجوهر وغيرهم كثير، يضاف إلى هذا إن النسبة إلى صقلية «صقلي». وتحدث أهل صقلية من غير المسلمين باللغة «الإيطالية»، وعرفت أيضاً الإغريقية، لغة الامبراطورية البيزنطية، وكذلك العربية التي باتت بعد الفتح العربي لغة الادارة والثقافة، لأن العرب انتزعوا صقلية من الامبراطورية البيزنطية، هذا ونميز دوماً بين القارة الأفريقية، والسودان المصري، وبالفعل كان للفاطميين في مصر سياسة تجاه أطراف هذا السودان المصاقبة لمصر، لكن هدف الفاطميين كان بعد الاستيلاء على مصر الاستيلاء على بلاد الشام[2]، يضاف إلى هذا كله كيف لنا أن نوثق عيش المعز في صقلية بعض الوقت؟ ونذكر بالوقت نفسه بوجود قوات سودانية في الجيش الأغلبي، ولعل بعض بقايا هذه القوات شارك في الحملات على مصر، ولاسيما الحملة الأخيرة، ولا يستبعد تجنيد الفاطميين لبعض السودان في جيشهم.

---

(١) المعز لدين الله ص ١٦ ـ ١٧.

(٢) عالج د. عطية القوصي في كتابه «تاريخ دولة الكنوز الإسلامية» علاقات مصر الفاطمية مع تخوم السودان «الحالي» ـ ص ١٥ ـ ٤٤. وانظر أيضاً زكار ـ الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٩٤ ـ ٩٨.

ونعود الآن الى القاضي النعمان لنستكمل استعراض صورة المعز وشخصيته، من خلال كتاب المجالس والمسايرات، فقد كان المعز يسعى دوماً إلى التأكيد على صحة نسبه الهاشمي، وبالتالي النيل من الخليفة عبد الرحمن الناصر في الأندلس، لا بل تعدى ذلك إلى الأندلسيين أنفسهم، فقد أقام عبد الرحمن الناصر اتصالات سرية مع المعز، طلب فيها «الصلح والالفة وكف الحرب والفتنة» فرفض المعز ذلك، لأن الناصر تلقب بلقب أمير المؤمنين، والإمامة حسب قول المعز لنا «دونه ودون من سواه»، وجدد الناصر المراسلة، وشدد على إلغاء الحرب فيما بين المسلمين، واسترحم رسوله المعز للمسلمين وقال: قد علم أمير المؤمنين أن الحرب متى كانت، هلك فيها من الفريقين، وهم مسلمون، فإن رأى أمير المؤمنين حقن دمائهم، والكف عما يخاف فيه الهلاك عليهم، فعل؟!

فقال أمير المؤمنين: المسلمون هم أمة جدي، لا أمة جدّ مرسلك، وأنا أرأف وأعطف عليهم وألطف وأرحم بهم، فإن دخل أحد منهم في جملة صاحبك فقد دخل في جملة طائفة أهل البغي، ووجب عليّ وعلى سائر المسلمين قتالهم».

وهكذا فوت المعز على المسلمين فرصة التوحد للوقوف في وجه الامبراطورية الكارلونجية، ووجه اعتداءات الامبراطورية البيزنطية في ظل الأسرة المقدونية، فقد تمكنت هذه الأسرة من انتزاع جزيرة كريت من المسلمين، واستباحة مدينة حلب، بعد تدمير نظام الثغور الشامية والجزرية.

ويبدو أن الناصر الأموي حين راسل المعز أطرى نفسه بعض الشيء وامتدح أهل الأندلس لشجاعتهم ولعلو الثقافة والمعارف لديهم، واستخف المعز بهذا كله وقال: «فنحن بحمد الله أهل الفخر والإطراء، والفضل

والسناء، لقرابتنا من رسول الله ﷺ، وآله محلنا الذي أحلنا الله به من الإمامة، وما أولاناه من الفضل والفخر والكرامة»، وعدّ المعز الخليفة الناصر أموياً لعيناً، اكتسب أمواله من الحرام، وحوى سلطانا تعدى عليه واغتصبه، وأهل الأندلس أهل المعاصي والملاهي والمخازي والخمور والفجور، والناصر نفسه له «من العيوب الفاضحة والآثام القبيحة التي اشتهر بها واستفاض عنه الخبر فيها، من أنه يؤتى في نفسه».

وكان الناصر الأموي قد افتخر بما كان «يحاك له في بلد الأندلس من الخز والوشي وأصناف الثياب» فعلق المعز بغطرسة مفرطة على ذلك «وما سمعنا أحداً يدعى عقلاً يفخر بالحاكة».

ويبدو أن الناصر دافع عن شرعية حكمه، وأن أهل بلده بايعوه بالامامة، وعلق المعز على هذا، أنه لايؤخذ بهذه البيعة، لأنها صادرة عن العامة من الناس، «فلو كان للناس أن يقيموا لأنفسهم إماماً فتجب طاعته بإقامتهم إيّاه، لوجب كذلك أن يقيموا نبياً وإلهاً كما فعلت الجاهلية في نصبها آلهة من دون الله».

وفي مقابل هذا التعنت افتخر الناصر بامكانات بلده العسكرية، وتعرض لقبائل إفريقية الذين أيدوا الفاطميين فقال عنهم: «بربر أغتام لايميزون شيئا» فوصفه المعز بالركاكة والجهل والحمق والرقاعة، ونال مجدداً من أهل الأندلس فقال: «ولولا سخف عقولهم وغلظ طباعهم وأذهانهم لما اقروا لمن طرأ اليهم ممن فرّ من بني أمية، ولو وجد في الأرض أجهل منهم لقصد إليهم دونهم»، وعلى هذا صار الناصر عند المعز مثله مثل «من عمي عن معايب نفسه، ولم يعلم محاسن غيره، فهو لايقلع عن المعايب إذ جهلها، ولايدري المحاسن في غيره فيستحسنها»[1].

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٦٥ ـ ١٩٦.

وإذا ما أخذنا بقاعدة «يكاد المريب أن يقول خذوني» و«رمتني بدائها وانسلت» فإن هذا الوصف أجدر بالمعز، الذي ضيع فرصة التعايش ما بين دولة سنية ودولة شيعية، وصرف الجهد كله للصالح العام، فهو على الرغم من ثنائه على أهل المغرب وحديثه عن إخلاصهم لأسرته، قد اضطر الى مغادرة المغرب والاستقرار في مصر، وأخذت الأندلس بعد أمد وجيز من وفاة الناصر تعيش محناً قاسية أدت إلى تمزقها وقيام حكم دول الطوائف فيها.

هذا وليس الغرض هنا استعراض العلاقات ما بين المعز والأندلس، بل متابعة التعرف إلى شخصية المعز، ذلك أن المؤرخ في هذه الأيام لايكتفي باستعراض الحدث التاريخي ونقده والتأكد من صحته، بل يهمه أيضاً «سيكولوجية الحدث»، لأن البطل الحقيقي لكل حدث تاريخي هو انسان له «سيكولوجية خاصة» دفينة فيه، واظهار «السيكولوجية» يعمق معارفنا ويخطو بنا خطوت واسعة نحو الحقيقة.

وآثر المعز دوماً التظاهر أمام الناس بالزهد بالدنيا وكان يقول: «نبذنا الدنيا واطرحناها، وطلبنا الآخرة وآثرناها، فأتى الله عز وجل إلينا بالدنيا وهي راغمة، وأعد لنا كريم ما لديه في الدار الآخرة»[1].

ومن المقرر أن الطفل يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو يمجسانه، وهذا ما حدث للمعز أكثر من سواه، فقد تربى أن لكل ظاهر باطناً، وأن الحقيقة على هذا ذات وجهين ظاهر وخفي، وقد يكون الظاهر محدود الملامح واضحها، لكن الوجه الباطني غير محدود، وهو مجال خاضع للخيال وللرغبة وللحاجة، وهذا يعني قوام الحياة على نوع خطير من الازدواجية، ولاشك أن التعايش مع الازدواجية هو تعايش مع مرض مستفحل دائم.

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٩٧.

وشعر المعز في بعض الساعات بخطورة هذا المرض، ذلك أن بعض أتباع الدعوة الاسماعيلية اشتطوا «لما أفردوا الباطن ودانوا به، ورفضوا الظاهر وتركوا العمل به، وأباحوا المحارم إذ لم يروا ظاهراً يقوم، وكيف يثبت ذلك عند الأشقياء، وهل يقال باطن إلا وله ظاهر، وإذا لم يثبت ظاهر، فلماذا يكون الباطن، وكذلك إذا لم يكن باطن فلاظاهر إذن، وإنما يصح كل واحد منهما ويقوم بإثبات الآخر، ولو لم يثبت أحدهما لم يدل اسم الثاني عليه، ولايقال باطن إلا لما له ظاهر، ولا يقال ظاهر إلاّ لما له باطن، وإلاّ كان ذلك القول محالاً»[1].

ومع هذا وجد المعز نفسه شغوفاً بما عرف باسم علوم الباطن، ودعا ذلك باسم الحكمة حتى أنه قال «والله إني لأجد من اللذة والراحة والشهوة في النظر في الحكمة ما لو وجده أهل الدنيا لاطرحوها لها، ولولا ما أوجب الله سبحانه عليّ من أمور الدنيا لأهلها وإقامة ظاهرها ومصالحهم فيها، لرفضتها للتلذذ بالحكمة»[2].

والاستغراق في التأويل الباطني من قبل المعز جعل بعض أتباعه لايدركون مراميه، غير أن هذا السلوك شجع أتباعه أو بعضهم على أن يقوم كل منهم بالتأويل الباطني حسب هواه، فقد أباح احد الدعاة «المحارم، وقال لبعض من قبل عنه: إن ترك المعاصي سوء ظن بالله عز وجل أنه لايغفر الذنوب»[3].

ولاشك أنه كان لذلك ردات فعل حادة، لذلك كان المعز يجد نفسه مضطراً إلى التدخل لتدارك الأمور، فيقوم بلعن من اشتط من الدعاة ويتبرأ منه، وينبه الناس فيقول لهم: «إني لأحب أن تراجعوني فيما

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٨٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٤.

(٣) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

تسمعون، وتذكرون من ذلك ما تشكون فيه، ويشكل عليكم فأوضحه لكم»[1]، ومرد هذا أنه لإمام، ولابد لكل عصر من وجود إمام، والأئمة أعلام الحق، وهداة الخلق، وقد ضل الناس الذين أرادوا «أن يكونوا أئمة أنفسهم، وألا تكون لهم واسطة فيما بينهم وبين ربهم»[2]، والإمام عند المعز مخلوق رفيع جدا، يختلف عن عامة الناس الذين شغلتهم دنياهم «وما يتلذذون به منها»[3]، واشتكى المعز من طباع الناس، وعدم قدرتهم على استيعاب حكمة الأئمة وما يرمزون اليه من علوم الباطن[4]، ومع هذا لم يقم بالتفكر بهذه العلة، والاقلاع عن العبث الباطني، بل أصر على أن القرآن الكريم لايمكن لإنسان فهم ما فيه، وفقط الأئمة لديهم القدرة على فهمه وعلى تأويله، لأنهم توارثوا ذلك منذ آدم عليه السلام ومنذ بداية الخليقة[5]، ومع هذا لم يكن الأئمة سواء، بل وجد تفاوت بينهم «في الضبط والكفاية والقيام بأمور الأمة»، مثلهم بذلك مثل الأنبياء حيث هناك من هو عادياً في نبوته، ومنهم من كان من ذوي العزم[6].

ويتضح مما جاء في كتاب المجالس والمسايرات، أن المعز تلقى تدريبات عالية جداً وأنه أتقن فن الجدل اتقاناً كبيراً، وكان بالتالي يحسن استغلال ذلك، ليجعله آية على صحة إمامته، ففي إحدى المناسبات ناقش المعز الفوارق بين وحدانية الله ووحدانية العدد الحسابي، فأدهش الذين أصغوا اليه مما دفع القاضي النعمان إلى القول: «وعلمت أن أولياء الله

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٨.
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٠.
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٧٢.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٨٢.

كيف تحدثوا وأينما تصرفوا إنما يسرحون في بحور العلم، ويقطعون لجج الحكمة، وأكثر الناس عن ذلك في عمى وغفلة»[1].

ومن الحساب انتقل المعز إلى النحو، فطرح على أهل مجلسه من النحويين أحجية نحوية قطعهم[2] فيها، وناقش أيضاً واحداً من علماء السنة، فأفضى الأمر الى اقتناع السني[3]، وقام في واحد من مجالسه بالرد على المعتزلة وبعض المتكلمين، وتوصل الى أن المعتزلة قد «ضلوا وهلكوا، ولو سألوا الراسخين في العلم الذين أمرهم الله بسؤالهم وأخبرهم أن عندهم تأويل الكتاب، لعلموا من عندهم وجه الصواب»[4]، «ذلك ان العاقل هو المطيع لله (عج) العامل بأمره المنتهي بنهيه، الآخذ عنه وعن أوليائه، والجاهل، العادل عن ذلك، المتعاطي علم ما لم يأت عن الله ولاعن رسوله ﷺ»[5]، وبالنظر الى انتماء المعز الى النبي صلى الله عليه وسلم، أعطاه الله تعالى من المنزلة والشرف ما لم يعطه لأحد من البشر، وهكذا «قد أحوج الله تعالى جميع العباد إلينا ديناً ودنيا»[6].

ومن جديد أدى هذا إلى مغالاة بعض الاسماعيلية بالقول بالأئمة، فما كان من المعز إلاّ أن أعلن: «ونحن نبرأ إلى الله من كذبهم علينا وتقولهم فينا، ونحن عباد من عباد الله مخلوقون مربوبون، لاعلم لنا إلاّ ما علمنا وصار إلينا عن نبيه جدنا محمد ﷺ مما أودعه الله إياه وأورثناه ممن بعده، وأودعناه، لانحيط بشيء من علمه إلا بما شاء، ولامن غيبه إلاّ ما اطلع عليه منا من ارتضاه كيف أحب وشاء، لاندعي النبوة والرسالة،

(١) المجالس والمسايرات ص ٢٩٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٥.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٧٧.
(٥) المصدر نفسه ص ٤٢٣.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٨٥.

بل نحن المستحفظون على الإمامة، حلالنا من كتـاب اللـه، وحرامنـا منـه، وطاعتنا مفروضة على عباد الله بحكمه، من عرفنـا فقـد عـرف اللـه، ومـن جهلنا فقد جهله، نحن الدالون بحكمته عليه، والقائمون بأمره على عباده، نحن دون ما يقول الغالون، وفوق ما يظن الجاهلون»[1].

وقد تملك المعز ناصية العربية خطابة ومراسلة، ومناقشة، وغالباً مـا كانت خطبه مذهبية[2]، كمـا أن معارفـه بنحـو اللغـة العربيـة كـانت عاليـة جداً[3]، وبما أن القاضي النعمان كان أبرز رجالات الدعوة الاسماعيلية فـي المرحلة الإفريقية، وأغزرهم انتاجاً، فقد كان يتلقى أفكار كتبـه مـن المعز مباشرة، كما كان النعمان يعرض علـى المعـز مؤلفاتـه قبـل نشـرها وتعميمها، من ذلك على سبيل المثال كتاباً سماه النعمان بكتـاب الدينـار، فقام المعز بقراءة الكتاب وكتب إلى النعمان يقـول: «وقفـت علـى الكتـاب وتصفحته، فرأيت ما أعجبني فيـه مـن صحـة الروايـة وجـودة الاختصـار، ولكن فيه كلمات تعتاص على كثيرين من أوليائنا معرفتهـا فاشرحها بما يقرب من افهامهم، فيستوي فـي معرفتـه والاحاطـة بعلـم ألفاظـه الشـريف والمشروف، فإنه يجيء طريفـاً قريـب المـأخذ، وسـماه «كتـاب الاختصـار لصحيح الآثار عن الأئمة الأطهار»، فإن ذلك أشبه به من «كتاب الدينـار»، لأن فيه من علم أولياء الله ما يحق على كافة الخلق طلبه بأرواحهم فضـلاً عن أموالهم»[4].

هذا ويلاحظ أن المعز قـد اسـتلم السـلطة بعـد وفـاة أبيـه المنصـور اسماعيل وهو كله خوف من أن تتفجر في وجهه الاضطرابات، لاسيما مـن

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠. يبدو أن هذا الكتاب مختصر لكتاب دعائم الاسلام، انظر شرح الأخبار للقاضي النعمان ط. قم سنة ١٤٠٩ هـ.ق جـ١ ص٥٧.

قبل أسرة المهدي، ولذلك أمر بكتمان وفاة أبيه حتى يتمكن من ضبط الأمور، وقد كتب إلى جوذر الصقلبي الذي كان متوليا لشؤون القصور في المهدية يخبره بوفاة المنصور، ويعبر عن مشاعره الخاصة ومخاوفه فقال: «وكان من قضاء الله السابق وأمره النافذ أن أجرى على سيدنا ومولانا أمير المؤمنين من حكمه وقضائه ما أجراه على آبائه المهديين وجده محمد خاتم النبيين ﷺ فامتحنني بفقده، والانفراد بعده، في الديار الموحشة، والقصور الخالية، والبلد المشاقق، بين عدو وفاسق، وقد جمعوا من أقطار الأرض من شرق وغرب، وبر وبحر، فأنا فيهم الفريد الغريب الوحيد، المتوكل على ذي القوة المجيد... وعليك فيما قبلك بالاحتراس ما أمكنك، والضبط ما استطعت ومنع هؤلاء القردة من الوصول إلينا، والخروج من أبواب بيوتهم فضلاً عما سوى ذلك، والكتمان ثم الكتمان عن الأهل والخاص والعام، وإن اتصل بهم شيء من ذلك فكذبه ما استطعت وخوفهم ما قدرت»[1].

وكان المعز وقتذاك في صبرة المنصورية، وقد ظل كاتماً خبر وفاة أبيه من سلخ شوال سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م حتى حلول عيد الأضحى من السنة نفسها، ففي يوم العيد خطب الناس بالمنصورية خطبة «نعى فيها المنصور بالله صلوات الله عليه، وأظهر وفاته، وجاء فيها من الحكمة بما هو أهل لذلك»[2].

ولدى استعراض هذه الخطبة العصماء نجدها اسماعيلية محضة، فهي من حيث المبدأ قد تألفت من قسمين، خطبة أولى قصيرة جاءت بمثابة افتتاحية، وخطبة ثانية طويلة جداً، وهذا معاكس لعادة أهل السنة،

---

(١) سيرة جوذر ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) سيرة جوذر ص ٧٦ ـ ٨٤ حيث أورد نص الخطبة الكامل، وهي أول خطب المعز بعد تسلمه الخلافة. عيون الأخبار جـ٦ ص٢٤ ـ ٣٢.

وتعرض في الخطبة الأولى الى أهمية الحج والأضحى مع بعض الأدعية، ثم عرض في الخطبة الثانية الفكر الاسماعيلي، حيث ركز على الأئمة وأهميتهم ومكانتهم، وأن الامام علي بن أبي طالب الذي هو جد الأئمة كان أفضل الوصيين، ثم ذكر بالاسم من الأئمة المهدي فالقائم، وانتقل بعدها إلى نعي أبيه المنصور، وخصه بعبارات عاطفية مركزة مثل قوله: «وإن القلق وشدة الحرق عليك يا أبتاه، يا سيداه، يا إسماعيلاه، يا أبا الطاهراه، يابحر علوم الأئمة الطاهرين الهداة المهديين، يا بقية أبناء الرسول، وأولاد الوصي، والطاهرة البتول، يا إمام الأئمة، ومفتاح باب الرحمة، يا سراج الهدى، وشمس الورى، ومجلي الطحياء، يا مخصوصاً من الله بتعجيل الكرامة، عظم والله علينا المصاب بك، وحلّ البلاء، وعدم العزاء لفقدك، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء فضائلك وتعداد مناقبك، فوا الذي اختصك بكرامته وحباك بجزيل عطاياه، وشرفك بأبوة رسوله، لولا ما أوعزت إليّ به وأكدته علي من القيام بحق الله والندب عن أمة جدك رسول الله ﷺ، واستنقاذهم من غمرة الجهالة، وبحار الضلالة، ومهاوي الفتن، ومعاطب المحن، وما تقرر عندي، ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله، ولأئمة الهدى لضربت على وجهي سائحاً في البلاد، قاليا للمهاد، راضياً ببلغة من الزاد إلى أن يلحقني الموت سريعاً بك، فأفوز بقربك»[1].

ثم توجه بخطابه إلى أولياء الدولة بشكل عام دون أن يسمي مجموعة بعينها فوعظهم وثبت أقدامهم، وحثهم على التمسك بطاعته التي هي طاعة لله ولرسوله، وقال لهم: «فتثبتوا تسلموا، ولاتضلوا لتندموا، فلن يخلي الله أرضه وعصره في كل زمان من قائم لله بالحق، شاهد على الخلق، يقرّ به

---

(١) مصادر الحاشية المتقدمة.

المؤمنون، ويجحده الكافرون الضالون الأخسرون»[1] «النور أيها الناس فينا مصون، وعطاء ربكم لنا غير ممنون، فأين تذهبون وفي أي أرض تتيهون، هيهات هيهات لما توعدون، فأطيعونا تهتدوا، وتمسكوا بحبلنا وشدوا، واعملوا بما تفوزون في آخرتكم تسعدوا»[2].

ونلاحظ أن هذه الخطبة لم تتضمن طرح سياسة جديدة، أو مشاريع مستقبلية، هذا ولم تورد المصادر المتوفرة نص خطبة أخرى ألقاها المعز خلال الحقبة المغربية، كما لم تذكر أنه ألقى خطبة عامة في مناسبة تالية من المناسبات، ذلك أن المعز، وإن باشر السلطة بنفسه فإنه فعل ذلك من وراء حجاب خلال توجيه رسائل مكتوبة إلى ذوي الشأن أو بوساطة عقد مجالس خاصة لأعيان الدولة، والتحدث إليهم، ويبدو أن مرد ذلك للحفاظ على قداسته وسمو مكانته، ولعدم تعريض ذاته للمخاطر.

وحفظت لنا مصادر عصر المعز اهتمامه الزائد بسادة قبائل كتامة. وبعبيده من الصقالبة، وحدث في بعض الأحيان تنافس ونزاعات بين الصقالبة وشيوخ كتامة، فما كان من المعز إلاّ التدخل لفض الخلافات وإرضاء المجموعتين[3].

وأورد القاضي النعمان أخباراً كثيرة دلل فيها على اهتمام المعز بالقضاء والعدل وإنصاف المظلومين، وغالباً ما كان يحث القاضي النعمان على هذا، ويوجهه إليه[4].

وعلى العموم اجتمعت في شخصية المعز المؤهلات الشخصية مع

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) المجالس والمسايرات ص ٩٦، ٩٨ ، ١٣٨، ٢٠٣، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٥٧، ٣٢١، ٣٢٣، ٤٨٦.

(٤) المجالس والمسايرات ص ٥٥، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ١٥٩، ٢٤٩، ٣٠٧، ٣٩٦.

التربية الحازمة والميراث، هذا وصورة المعز في المصادر المعاصرة له صورة رجل دولة حازم، عفيف، تقي، غير متهتك، ليس له قصص مع نساء القصر أو مع غلمانه، ولاتوجد روايات عن مجالس للشراب مثلما حكي عن خلفاء آخرين من بني أمية وبني العباس، هذا وليس بإمكاننا توثيق هذه الظاهرة، لأنه أمضى حياته محتجباً عن الناس، ومع ذلك نميل إلى تصديقها، لأن المصادر العربية حكت في كثير من الأحيان أخبار بعض خفايا حياة القصور، مما كان يرشح من هنا وهناك، لكننا لم نجد في المتوفر من المصادر شيئاً من هذا القبيل، وفي هذا دليل إضافي يؤكد أن المعز لدين الله الفاطمي كان أعظم خلفاء الفاطميين قاطبة.

الفصل الرابع

العلاقات مع القوى المحلية في بلدان المغرب على عهد المعُز لدين الله

١ ـ الاستيلاء على المغرب الأقصى والقضاء على أدارسة فاس:

يقرّ المستعرض لتاريخ انتشار الإسلام، وتثبيت طابع العروبة في بلدان المغرب الكبير، بالدور العظيم الذي شغلته مدينة القيروان، حتى قيام الخلافة الفاطمية، ومحاولة فرض العقيدة الإسماعيلية، وهنا تحول جلّ النشاط إن لم نقل كله، إلى قاعدة مغربية جديدة هي مدينة فاس، وهناك ترابط عضوي ما بين النشاط الثقافي لمدينة القيروان، ولما أسهمت فيه مدينة فاس، فنشاط مدينة فاس قد ارتبط بمؤسسة القرويين، التي أسستها جماعة وفدت إلى فاس من القيروان، ويمكن القول بأن مؤسسة القرويين هي الأقدم من نوعها في تاريخ الإسلام في المغرب الأقصى، وهي أقدم من مؤسسة الأزهر، لم يتعطل نشاطها منذ تأسيسها، ولم يتحول عن اللون السني المالكي، وهناك ظاهرة هامة ترتبط بنشاط

هذه المؤسسة هي أنها كانت منذ التأسيس غير سلطوية، ولهذا كتب لها الاستمرار بدون تأثر كبير بتطور الأوضاع السلطوية في فاس وفي سواها، لا بل أثرت هي في الأوضاع السياسية، وهذا كان على قاعدة الإسلام العامة، فالإسلام لا يتبع السياسة ولا أهواء الحكام ورغباتهم، بل العكس تماماً هو الصحيح، ولا شك أن قيام فاس ونشاطها المتميز شكل الدافع الأساسي لقيام شخصية المغرب الأقصى، وأسهمت الصراعات حول فاس وغيرها من المناطق المجاورة في تكوين الخلفية لانبعاث منطقة الصحراء الكبرى ولأدوار قبائلها الكبير في المستقبل، وخاصة دور المرابطين.

وتقدمت الإشارة إلى تأسيس مدينة فاس، لدى الحديث عن قيام دولة الأدارسة، وبعد تسلم المعز لدين الله مقاليد السلطة، لم يتخل عن توجه سلفه بالنظر نحو الشرق، لكنه اضطر لحماية دولته، ولتأمين الانتصار على خصومه الأمويين، ولأسباب كثيرة أخرى، إلى السعي لاحتلال جميع بلدان المغرب، ومن هنا يمكن فهم دواعي الحملات التي أرسلها ضد فاس، وهي حملات لم يكتب لمحصلاتها النجاح المستمر أو الدائم.

هذا ويمكن القول أنه كان من وراء الاستيلاء على جميع أرجاء المغرب الكبير الحصول على التمويل، وربما الرجال من أجل مشروع الاستيلاء على مصر وبلدان المشرق العربي، وقد يقول أحدهم: كان يدعى للخليفة الفاطمي على المنابر بان يفتح الله له مشارق الأرض ومغاربها، ولذلك اهتم الفاطميون بالاستيلاء على بلدان المغرب مثل الاهتمام بالمشرق، ولا سيما وأن الدعوة الإسماعيلية دعوة عالمية، ولم تكن محلية، وقد يكون هذا صحيحاً بعض الشيء، ولكن الأصح، أن الدعوة الإسماعيلية لم تلق النجاحات العقائدية في بلدان المغرب، وفي المشرق توفرت أعداد كبيرة من الإسماعيلية، وفي المشرق أيضاً كانت هناك كل من مكة والمدينة، وفي المشرق عاشت الخلافة العباسية، العدو الأهم والأخطر للفاطميين.

واهتم الفاطميون بفاس، وبالقضاء على الأدارسة منذ أيام المهدي، فقد استعان هذا الخليفة (المعز) بقائد قبائل مكناسة الطموح والقوي، موسى بن أبي العافية، وكان مركز نفوذه حول تازه ليس بعيداً عن مدينة فاس، وقد طمح للاستيلاء عليها، واستعان المهدي بقائد بربري آخر هو مصالة بن حبوس، وبالفعل نجح هذان الزعيمان بالاستيلاء على فاس، ومن ثم إزالة الحكم الإدريسي منها إلى أبعد الحدود[1]، وترتب على إزالة الحكم الإدريسي من فاس عدة نتائج، لم تكن على العموم لصالح الفاطميين، من ذلك:

١ـ تكتل قوة الأدارسة في منطقة الريف الاستراتيجية الوعرة، وتطلعها نحو قرطبة للاستعانة بقواها ضد الفاطميين.

٢ـ استبداد موسى بن أبي العافية بفاس مع إقليم المغرب الأقصى، وانقلابه وغيره من زعماء القبائل على الفاطميين وإعلان الاستقلال عنهم، ومراسلة قرطبة ونيل المساعدات منها[2]. وهكذا تعين على الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، بعد استقرار الأمور له في إفريقية، الالتفات نحو المغرب الأقصى، حيث توجب عليه الآن القتال ضد الأمويين وضد حلفائهم، وكنا قد تعرضنا بعض الشيء إلى إخفاق محاولات التسالم ما بين عبد الرحمن الناصر والمعز لدين الله، وكان موسى بن أبي العافية قد استفاد من زوال الحكم الادريسي من فاس، ومن انشغال الفاطميين بعد المهدي بثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، وفي هذه الأثناء أعلن عن قطعه لصلاته بالفاطميين، وصار يخطب لعبد الرحمن الناصر.

وهناك قاعدة تاريخية بالنسبة لتاريخ الأندلس، قضت بتورط

---

(١) روض القرطاس: ص ٨٠. الاستقصا: جـ ١ ص ٨٨.

(٢) المقتبس لابن حيان جـ ٥ ص ٢٥٤ ـ ٢٦٩. روض القرطاس ص ٨٣ ـ ٦٤. نبذة من مفاخر البربر ص ٥٩. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٤٦ ـ ٤٧، جـ ٧ ص ١٠. الاستقصا جـ ١ ص ١٩٤. المؤنس ص ٩٣.

حكامها بأعمال توسع ونشاط كبير في البلدان الأوربية المجاورة لها، وإذا ما واجهت هذه النشاطات انتكاسة كبيرة وأغلقت التخوم الأوربية في الشمال في وجه السلطات الأندلسية، تحول هذه السلطات نظرها نحو الاتجاه المعاكس، أي نحو المغرب، خاصة الجزء الأقصى منه، وعلى أساس هذه القاعدة نفهم زيادة التورط الأندلسي في المغرب، بعد معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩م التي هزم فيها عبد الرحمن الناصر هزيمة ساحقة، فقد صار موسى بن أبي العافية رجل الأمويين في المغرب، ينفذ سياسة أندلسية بتأمين قاعدة للأندلسيين في المغرب، وكانت هذه القاعدة مدينة سبتة، وساعد على انفراد ابن أبي العافية، موت الزعيم القبلي الآخر مصالة بن حبوس، وانتصاره على العاهل الإدريسي زعيم الادريسي الحجام، الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس، الذي كان آخر أدارسة فاس، كما أنه انتصر بالوقت نفسه على أدارسة الريف وبذلك صار سيد بلاد المغرب[1].

واضطر المعز إلى التحرك، فتطلع نحو استرداد مدينة فاس، ولتحقيق هذه الغاية أرسل جيشاً نحو فاس كلف بقيادته حميد بن يصال، والي تيهرت وابن أخي مصالة بن حبوس المتوفى، وتمكن حميد من إنزال الهزيمة بقوات موسى بن أبي العافية، التي تخلت عن مدينة فاس، وهكذا غدت هذه المدينة من جديد خاضعة للفاطميين، وكانت قوات ابن أبي العافية التي تصدت للجيش الفاطمي بقيادة مدين بن موسى بن أبي العافية، وأثر على هزيمة مدين وأسهم فيه، تدخل قوى الأدارسة ضده، منتهزين فرصتهم، ولذلك عندما سمع مدين بقدوم الجيش الفاطمي، ورأى المخاطر تحيق به من جميع الجهات، انسحب من فاس وتخلى عنها، لا بل

---

(١) المقتبس جـ ٥ ص ٢٨٨-٣٠٠. روض القرطاس ص ٨٣. ابن خلدون جـ ٤ ص ١٧، ٥٠. ابن عذاري جـ ٢ ص ٢١٧. الاستقصا جـ ١ ص ٧٩ ـ ٨٦.

يقال هربت عساكره من المدينة وتخلت عنها دونما قتال، واستغل الأدارسة هذا، وهاجموا القوات المنهزمة، وسلبوها أكثر ما كان معها، وقام القائد الفاطمي المنتصر حميد بن يصال، بتعيين رجل اسمه حامد بن حمدان والياً على فاس، وعاد هو إلى تيهرت[1].

للبرهان على أن هذه الحملة على فاس كانت من نوع الحملات البدوية على قاعدة الكر والفر، فما أن انسحبت القوات الفاطمية، حتى تعرض الوالي الذي زرع في فاس إلى حملات القوى المعادية للفاطميين، أي قوى موسى بن العافية وحلفائه، وقد تمكن أحمد بن بكر بن سهل الجذامي من قتل الوالي الفاطمي مع ابنه، وبعث برأسيهما إلى موسى بن أبي العافية، الذي قام بدوره فبعث بهما إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر.

وكان أحمد بن أبي بكر بن سهل الجذامي قد ولي من قبل للناصر عدوة القرويين في فاس، ثم وقع في أسر القوات الفاطمية التي حملته إلى المهدية، وقد مكث فيها سجيناً حتى أطلق المعز سراحه، فرجع بولائه إلى الأمويين، مما جعل المعز يحقد عليه حقداً عظيماً، فكان أنه عندما أسر مجدداً من قبل جوهر في حملته المغربية الكبرى سنة ٣٤٨ هـ/٩٥٩م أن اخترع له المعز القفص الذي أشرنا إليه في الفصل المتقدم للتشهير به ولتعذيبه[2].

وعادت الخطبة مجدداً إلى الخليفة الأموي في بلاد المغرب الأقصى، وشكل هذا تحدياً خطيراً للمعز، وخشية منه أن تقوم قبائل إفريقية وسواها بالتمرد عليه جهز حملة عسكرية عملاقة ضد جميع المناطق المتمردة عليه بقيادة جوهر الصقلبي، وكان ذلك سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م،

---

(١) البيان المغرب جـ ١ ص ٢١٣، روض القرطاس ص ٨٢. الاستقصا جـ ١ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦. المقتبس جـ ٥ ص ٢٤٧ ـ ٢٥٣. الأنيس المطرب ص ٥٦ ـ ٦٠. الاستقصا جـ ١ ص ٨٩ ـ ٩٩ . الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ١٨٩.

وقبل الحديث عن هذه الحملة نشير أنها لم تتمكن من إزالة حكم موسى بن أبي العافية الذي اعتصم في منطقة تازة، وظلت «دولة ابن أبي العافية» باقية حتى ما بعد ارتحال المعز من المغرب إلى مصر، وارتبط وجودها بالعلاقة مع الأندلس فبعدما تمزقت الأندلس، وأثناء خضوعها للحكم المرابطي، وقتذاك زالت بقايا دولة آل ابن أبي العافية من الوجود[1].

روى المقريزي أن جوهراً كان قد ولد سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م، وكان غلاماً من أصل صقلبي (سلافي)، امتلكه في البداية واحد من غلمان الفاطميين اسمه صابر، ثم انتقلت ملكيته إلى خادم آخر اسمه خيران، وبعده «إلى خادم يقال له خفيف، فأهداه خفيف إلى الإمام المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل، فحمله إلى ابنه الإمام المعز لدين الله وهو صغير، فرباه حتى بلغ مبالغ الرجال في خدمته، وكناه بأبي الحسن، ورقاه في الخدم إلى أن قام في الخلافة بعد أبيه»[2].

وارتفع شأن جوهر في سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م، «وصار إلى رتبة الوزارة» وفي سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م «أخرجه المعز... على عسكر عظيم بالعدة والقوة ليتوجه به إلى جعفر بن علي الأندلسي، وزيرى بن مناد الصنهاجي، ويعلى ابن محمد الزناتي، فخرجوا معه بعساكرهم حتى وصلوا إلى تاهرت، فتلقاه يعلى بن محمد الزناتي، وكان صاحب المغرب، وأكرمه وقام له بالوظائف والعلف أياماً، غير أن أهل مدينة أفكان كانوا إذا باعوا أهل عسكر جوهر شتموهم واستخفوا بهم، ومع ذلك فإن يعلى لم يسارع بالمسير مع جوهر.

---

(١) البيان المغرب جـ١ ص ٢١٣. روض القرطاس ص ٨٣. أرجوزة نظم السلوك للملزوزي ص ٤٩. جذوة الاقتباس جـ١ ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) ترجمة جوهر الصقلبي من المقفى للمقريزي، مجلد برتو باشا، في ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية لسهيل زكار ص ٣٢١.

فلما رحل جوهر بعساكره من عند يعلى، مشى يعلى ليشيعه، فسار جوهر، وأخذ العسكر في رفع أثقالهم إذ سمع صياحاً عظيماً، فقال: ما هذا؟ فقيل له: أصحاب يعلى قد ضربوا على ساقه العسكر، وقد شغبوا، فقال يعلى: أنا أمضي لأفرقهم، فمنعه جوهر من المضي، وزاد الصياح، فأمر جوهر بيعلى فأرجل عن فرسه، وأركب بغلة، ثم زاد الأمر، فأمر جوهر بيعلى فأنزل عن البغلة ومشى بين يديه راجلاً، فاشتد الأمر ونهبت الزوامل، فأتى أبو طاعة بن يصل الكتامي إلى جوهر وقال: السيف يعمل في عسكرنا وهذا حي؟ فجرد سيفه فضرب يعلى أطار رأسه، ورفعها على قناة، وحملها إلى موضع القتال فلما رآها أصحابه انهزموا، فمال عليهم العسكر حتى بلغوا إلى أفكان والسيف يعمل فيهم، فدخلوا أفكان بالسيف، فقتل أكثر أهلها، ونهب كل ما فيها، وأسر يدو بن يعلى، ثم هدمت أفكان وحرقت بالنار».

وعلى هذا نجح جوهر أولاً في إعادة إخضاع منطقة تاهرت، وأنزل ضربة قاسية بقبائل زناتة، وكان قوام جيشه مشكلاً من قبائل كتامة، وبعد هذا الإنجاز، صار بإمكانه قصد فاس، فقد حمى ظهره، وأبقى طريق الاتصال بإفريقية مفتوحاً.

«ورحل جوهر حتى انتهى إلى فاس، وبها أحمد بن بكر (أو بكين)، فامتنع من جوهر، وقاتله مدة، فلم يقدر عليه جوهر، ورحل عن فاس إلى سجلماسة فلما قرب منها فرّ عنه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر لله أمير المؤمنين، وكان قد تغلب عليها ست عشرة سنة، ثم أخذ أسيراً وحمل إلى جوهر»[1].

وعاد بعد هذا القائد جوهر، واتجه نحو ساحل «البحر المحيط، وأمر

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٢.

أن يصطاد له من حيتانه، وجعلها في قلة فيها ماء، وكتب إلى المعز كتاباً في قصبة من ضريع البحر المحيط، وبعثه بذلك إليه، يشير إلى انه انتهى إلى البحر المحيط»[1].

وهكذا تمكن جوهر من عزل مدينة فاس من جميع الجهات تقريباً، غير أنه لم يقم بالتوجه نحو تازة للقضاء على موسى بن أبي العافية، ويبدو أنه خشي من عبور ممر تازة الاستراتيجي، وآثر السلامة، وعاد إلى فاس، وصحيح أنه كما سنقرأ مع رواية المقريزي احتل فاس، لكن هذا الاحتلال جاء عابراً بلا ديمومة، وهكذا بقيت تازة قادرة على استرداد فاس، وستظل تازة باقية مستقلة حتى قضى عليها المرابطون الذين قدموا من الاتجاه المعاكس، ولم يكونوا مرغمين على المخاطرة بعبور ممر تازة، ولنتذكر هنا أيضاً أن جوهر لم يهاجم مدينة سبتة قاعدة الأندلس في المغرب الأقصى.

قال المقريزي: «ثم عاد إلى فاس بعد أن ملك تلك البلاد كلها، فنزل عليها، وقاتل أهلها مدة قتالاً حتى يئس منها، ثم جدّ فيها إلى أن ملكها، ونهب عسكره ما فيها، وسبوا ذراريها، وأخذ أحمد بن بكير، وقيده وجعله مع محمد بن الفتح أمير سجلماسة، وذلك لعشر بقين من رمضان، وعمل قفصين من خشب سجن فيها المذكورين، وقفل إلى إفريقية، بعدما فتح الفتوح، وأداخ البلدان إلى البحر المحيط، ولم يتعرض لسبتة، وكانت بيد بني أمية.

فلما قدم إلى تاهرت ولى عليها زيري بن مناد وضمها إلى يده، فقوي أمره وتركه بها، وسار إلى المسيلة، فترك عليها عامله جعفر بن علي الأندلسي، ورد كل قوم إلى مواضعهم، ووصل إلى المنصورية، ومعه

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

أحمد بن بكير أمير فاس، ومحمد بن الفتح الشاكر لله أمير سجلماسة، ويدو بن يعلى بن محمد الزناتي أمير تاهرت، وكثير من الأسرى»[1].

وسنعود ثانية للبحث في مسألة محمد بن الفتح، الذي أعلن عن نفسه خليفة بلقب الشاكر لله في سجلماسة، ونبقى الآن مع صمود فاس وتمردها على الفاطميين.

فقد كانت العلاقات الفاطمية مع أمويّ الأندلس قد تدهورت كثيراً، حتى أنه في سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م، أدخلت إلى قرطبة مجموعة من رؤوس بعض رجالات الفاطميين، كان بينها رأس ميسور الخادم، فاحتفلت قرطبة بذلك احتفالاً مشهوداً، وضربت الطبول سروراً بذلك على باب قصر قرطبة[2].

وكان المعز يشعر أنه لا يمكن أن يغامر بإرسال جيش كبير إلى مصر ووضعه مهدد في مناطق المغرب، وفاس تقف متحدية له، ومن هنا جاءت دوافع حملة جوهر، التي سار فيها وشارك بها كبار رجالات القبائل، ومع ذلك رأينا هذه الحملة تخفق للمرة الأولى، بالاستيلاء على فاس، مع أن عدد القوات الفاطمية قد تخطى الثلاثين ألفاً، وبديهي أن المعز كان يرى أن حكم جميع أرجاء المغرب حق شرعي له، وان حملته التي قادها جوهر حملة تأديب عصاة تمردوا على الإمام، وتعاونوا مع عدوه الأموي المتغلب على الحكم في الأندلس[3]، متذكرين أن أحمد بن ابي بكر، المعتصم في فاس، كان المعز قد أطلق سراحه من سجنه وبعث به إلى

(١) المدخل ص ٣٢٣. ابن أبي زرع ص ٩٠. ابن خلدون جـ ٧ ص ١٠. الاستقصا جـ ١ ص ١٨٦.

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٤. خطط المقريزي جـ ١ ص ٣٥٢. ابن أبي دينار ص ٦١. ابن خلدون جـ ٤ ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٢١٥. ابن أبي زرع ص ٨٩. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٣ ـ ٦٤. ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٩ ـ ٦٠. الاستقصا جـ ١ ص ٨٦.

فاس[1]، ومع ذلك أخفق جوهر في الاستيلاء على فاس، فتوجه إلى سجلماسة وكانت هدفاً أسهل نواله، واستنجد في الوقت نفسه بالمعز، وهكذا تجاوز تعداد جيشه الأربعين ألف مقاتل عندما حاصرها للمرة الثانية.

وكانت فاس مدينة قوية الأسوار حصينة. اتسم أهلها بالشجاعة والجَلَد وشدة البأس، ولذلك صمدت في وجه القوات الفاطمية، وكان المعز قلقاً جداً تجاه الأخبار التي كانت تصله من فاس، «قال القاضي النعمان ابن محمد: سمعت الإمام المعز لدين الله ـ صلوات الله عليه ـ وقد أتاه فتح مدينة فاس بعد أن كان أكثر الناس يئسوا من ذلك لطول إقامة الجيوش عليها، وهروب من هرب منهم عنها، وقوة أهلها وكثرة الأطعمة فيها ووعر خنادقها وحصنها، فقال (ص): هذا من قول الله (عج): ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾ (يوسف: ١١٠)، والله ما استيأس رسل الله من فضله (عج) ونصره إياهم، ولكنهم استيأسوا ممن خذلهم ولم يقم بواجب حق الله (تع) الذي افترضه في جهاد عدوهم، فقطعوا من الخلق رجاءهم، ووصلوه بالله ربهم، فأتاهم نصره الذي به وعدهم.

وقد كان المعز لدين الله (صلع) كلما ورد عليه من أمر فاس هذه أمر يئس معه من سمعه من فتحها، يقول ـ ونحن نسمعه من غير موطن ـ: إذا أتى مثل هذا، ما أتوكل في أمرها، وكل أموري إلاّ على الله لا شريك له، ولا أرجو غيره، وإني لواثق بفضله ونصره.

ثم قال (ص) لما أتاه الفتح: والله إني لربما أريد أن أسأل الله تعالى في الزيادة من فضله فيما يكون من مثل هذا، فأستحي أن أسأله

---

(١) روض القرطاس ص ٩٠. ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٩. المؤنس ص ٦٣.

ذلك لكثرة ما أولاني منه، له الحمد لا شريك له، وإني لربما سألت الله (تع) طول البقاء لعدوي ليخزيه الله بذنوبه، ويرى ويسمع من صنع الله عندي ما ينكيه ويؤلمه.

ثم قال ﷺ: أتدرون ما أردته بالكتاب الذي كتبته منذ قريب لأهل فاس هؤلاء الأشقياء؟ ـ وقد كان كتب لهم كتاباً بالأمان إن أنابوا، وعرفنا به، فلما انتهى إليهم ردوه فلم يقبلوه ـ قلنا: الله ووليه أعلم! قال: والله إن أردت بذلك إلاّ هلاكهم بإقامة حجة الله تعالى عليهم، وإلا فقد علمت أنهم متى جاءهم، وهم يرون أنهم في قوة وأن عساكرنا قد سئمت من المقام عليهم، وانحل بعضها عنهم، وجاءهم مثل هذا من عندي، أنهم يدفعونه، فأردت أن أجعله ككتاب رسول الله ﷺ إلى صاحب فارس، إذ أتاه فمزقه، فمزق الله ملكه، وككتاب المنصور بالله ﷺ إلى مخلد اللعين وأصحابه وقد حاصرهم بقلعة كيانة إذ كتب إليهم الأمان فردوا كتابه، فأمكنه الله (تع) منهم في أقرب وقت، وكذلك أردت بكتابي الذي رأيتموه، وكان كما أردت ذلك بحمد الله، ونعمته»[1].

وقد يكون تسويغ المعز هذا مفيداً في وقته لمستمعيه من رجاله، لكنه يعكس حقيقة انشغاله بأمر فاس، حتى وصل به الأمر إلى حد إعطاء الأمان لأهل المدينة وانسحاب قواته عنها.

ومهما يكن الحال، فقد توالت النجدات على قوات جوهر التي يبدو أنها لم تكن تحسن استخدام الأسلحة الجماعية، ولم تكن معها مجانيق وما شابه ذلك، ولذلك اعتمدت على الزحف المتواصل على الأسوار، وتضييق الحصار، وفي إحدى الليالي قبيل حلول شهر رمضان تمكن زيري بن مناد مع بعض أصحابه من تسلق الأسوار ليلاً، وهكذا فتح أحد أبواب المدينة،

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٩١ ـ ٤٩٢.

ودخلت القوات المحاصرة إليها فألقت القبض على واليها أحمد بن أبي بكر، وهكذا سقطت فاس سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م، واستبيحت وصار أهلها طعمة للسيف، ونهبت المدينة، وهدمت أسوارها.

وكان أثر هذا الحادث مروعاً بالنسبة لأهل فاس، ويخيل للمرء أن القوات الفاطمية استهدفت تعطيل رسالة القرويين ودورها، من أجل مشروع أزهرها الذي سيتأسس بعد أمد وجيز في القاهرة المعزية الجديدة.

وأشرنا من قبل إلى أن القائد جوهر لم يغامر بالتوجه إلى تازة، وظل ابن ابي العافية معتصماً هناك، لديه ظهيره القبلي، لكن موقف أدارسة الريف اختلف عن هذا الموقف، وكانت زعامة أدارسة الريف بيد الحسن بن القاسم قنون، فهذا لم يصمد في وجه قوات الفاطميين، ورأى السلامة باللجوء إلى الأندلس، وقد يفسر ذهابه إلى الأندلس على أنه انسحاب، إذا أقررنا بأن الأدارسة كانوا تابعين تماماً لأموي الأندلس، وعلى العموم أسرت قوات جوهر بعض شخصيات الأدارسة، وبعثت بهم إلى المهدية، ولا نمتلك تعليلاً مقنعاً لعدم إقدام جوهر على مهاجمة كل من طنجة وسبتة، ولعل سبب ذلك ما عانته قواته أثناء حصار فاس، وأنه لم يكن من السهل اقتحام الممتلكات الأندلسية والدخول بمواجهة عسكرية مباشرة معها، متذكرين أن تطلعات الفاطميين ظلت بالأساس نحو المشرق.

وقدم السلاوي وصفاً لما قام به القائد جوهر، وتحدث عن انصرافه عائداً: «بعد أن دوخ البلاد، وأثخن فيها، وقتل حماتها، وقطع دعوة الناصر فيها وردها إلى العبيديين، فخطب للمعز على جميع منابر المغرب، وانتهى القائد جوهر إلى المهدية. دار المعز لدين الله، وقد حمل معه أحمد ابن أبي بكر أمير فاس وخمسة عشر من أشياخها، وحمل أيضاً محمد بن

أبي الفتح أمير سجلماسة، ودخل بهم أسرى بين يديه في أقفاص من خشب على ظهور الجمال، وجعل على رؤوسهم قلانس من لبد مستطيلة منبتة بالقرون، فطيف بهم في بلاد إفريقية، وأسواق القيروان، ثم ردوا إلى المهدية، وحبسوا بها حتى ماتوا في سجنها»[1].

ومع هذا ظل النصر الذي حققه جوهر يفتقر إلى الديمومة، فهو قد استباح مدينة فاس، لكنه لم يترك حامية دائمة بها، واهتم بالحكم بتاهرت أكثر، وفي منطقة الريف ما أن عادت القوات الفاطمية إلى إفريقية حتى عاد الحسن بن القاسم الإدريسي من الأندلس، واستأنف نشاطه هناك ضد الفاطميين ولصالح الأمويين ورداً على هذا أرسل المعز قائده بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي في حملة تأديبية جديدة فاستطاع «أن يعيد الخطبة للمعز في بقايا دولة الأدارسة ويبطل الدعوة للأمويين في إقليم فاس»[2].

ومع ذلك لم تهمل قرطبة شأن ممتلكاتها في المغرب وخشية منها لاستسلام الأدارسة للفاطميين، عملت على بسط سلطانها على جميع منطقة الريف، فقد بعث الحكم الثاني، خليفة عبد الرحمن الناصر، جيشاً أسند قيادته إلى مولاه القائد غالب، لمحاربة الحسن بن القاسم، ولإنهاء استقلاله، وانتصر الجيش الأندلسي على قوات أدارسة الريف، ووقع الحسن هو وأهل بيته في أسر الجيش الأموي، وجرى حمل الأدارسة إلى قرطبة، وقد مكثوا هناك طوال أيام المعز تقريباً، ثم أطلق الحكم الثاني سراحهم بعدما عفا عنهم، لكنه لم يسمح لهم بمغادرة الأندلس، ثم ما لبث أن غضب الحكم عليهم، فطردهم من قرطبة، فنجوا ووصلوا أولاً إلى تونس، وكانت الخلافة الفاطمية قد انتقلت منذ أمد إلى مصر، وكان المعز

---

(١) الاستقصا جـ ١ ص ٨٦ ـ ٨٧. ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٩. المؤنس ص ٦٣.

(٢) الاستقصا جـ ١ ص ٨٧.

قد مات وخلفه ابنه العزيز، ورحب العزيز بهم في القاهرة، وأمد الحسن بن القاسم بقوة قصد بها إفريقية، وهنالك قدّم له زيري بن مناد المساعدة بجيش آخر، بغية طرد الأمويين من المغرب، واسترداد الملك الإدريسي هناك، وكان الخليفة الحكم الثاني قد توفي، ورست سلطات الأندلس بيدي الحاجب المنصور بن ابي عامر، الذي بادر إلى إرسال جيش قوي، اصطدم بقوات الإدريسي فهزمها، وقتل الحسن بن القاسم، وهكذا زال ملك الأدارسة في المغرب، بعدما أقام قرابة القرنين بشكل موزع وغير مستقر، وكان ذلك سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م[1]، وجاء زوال الأدارسة نتيجة لوضع الأسرة ولتمزقاتها، ولجهود موسى بن أبي العافية، والقوات الفاطمية وقوات الأندلس، لكن المهم أنه نجم عن ذلك كله ظهور شخصية المغرب الأقصى، ومن ثم شكل ذلك مقدمات بعيدة لما ستشهده الصحراء الكبرى بظهور حركة المرابطين، ذلك أن دور القرويين الديني والثقافي والاجتماعي قد استؤنف بتأثير قوي، متذكرين استبداد التمزق السياسي في أرجاء الأندلس بعد وفاة المنصور بن أبي عامر بأمد وجيز واستشراء حرب الاستغلاب، وأيضاً غلبة التمزق على المغرب الأقصى، وازدياد الهجرة إليه من الأندلس، وتوفر أسباب الشكوى، وبروز دور العلماء في هذه الأجواء.

ويلاحظ أن ضعف الأدارسة في إقليم فاس قد ترافق مع ازدياد قوة قبائل زناتة وامتداد نفوذها، وصحيح أن جوهر الصقلبي بحملته الكبيرة قد قتل زعيم زناتة، لكن ذلك لم يقض على القبيلة، ذلك أن حملة جوهر وغيرها من حملات الفاطميين على إقليم فاس وأقاليم المغرب الأقصى لم تكن سوى حملات تأديبية، ولهذا لم يصف حكم المغرب الأقصى بعد سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨ للفاطميين، وما كاد المعز أن يرسل جيشه بقيادة جوهر

---

(١) ابن أبي زرع ص ٨٣. ابن خلدون جـ ٤ ص ١٧. البيان المغرب جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٧.

لاحتلال مصر، حتى استغلت زناتة الفرصة فثارت سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م، بقيادة واحد من شيوخها واسمه أبو خزر الزناتي.

ويبدو أنه قد خيل لأبي خزر، أنه بعد رحيل جوهر نحو مصر، أن المعزّ بات لا يمتلك لا الرجال ولا المال للقيام بأي عمل ضده إذا ما ثار، يضاف إلى هذا أن من دوافع زناتة للثورة ما عمله جوهر سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م قبل ذهابه إلى مصر، فقد روى المقريزي في ترجمته لجوهر، أن المعز أخرج القائد جوهر «في سنة سبع وخمسين لإصلاح المغرب في عسكرٍ عظيم، وليحشد كتامة الذين ينهض بهم إلى المشرق، ويجبي من البربر خمسمائة ألف دينار، ويدوخ المغرب، وقدم يوم الأحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين بعساكر عظيمة من كتامة والجند والبربر، فأقام خارج المنصورة لتجتمع إليه الحشود والعساكر، وفتح المعز بيت المال، وأعطى الأموال من ألف دينار إلى عشرين ديناراً.

ثم دخل في يوم السبت لأربع عشرة مضت من ربيع الأول بالعساكر، ومعه زيادة على مائة ألف فارس، وبين يديه أكثر من ألف ومائتي صندوق فيها المال، فنزل برقادة ـ خارج القيروان ـ وخرج إلى المعز وخلا به، وأطلق يده ليتصرف في بيوت أمواله كيف شاء، ويأخذ منها زيادة على ما معه، ما أحب واختار»[1].

ويستخلص من إتيان هذا النص على كميات الأموال التي أمر جوهر بجبايتها، والتي أعطيت له، أن الخلافة الفاطمية اتبعت سياسة مالية جائرة جداً، وإلا من أين كان من الممكن اجتماع هذه الكميات في أيام المعز وبعض أيام أبيه، متذكرين الظروف التي عاشتها الدولة الفاطمية أيام القائم

---

(١) ترجمة جوهر في المدخل لزكار ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

ثم المنصور إسماعيل لدى التصدي لثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

المهم أن المعز وجد نفسه مرغماً للمرة الأولى على الخروج بنفسه لإخضاع أبي خزر والقضاء على ثورة زناتة، وزحف حتى وصل إلى باغاية، ففر أبو خزر من وجهه، وهنا راسله المعز بوساطة القائد القبلي الكبير زيري بن مناد، وبناء عليه استسلم أبو خزر، ووصل إلى المعز مستأمناً طالباً الدخول في طاعته، فتلقاه المعز بالترحاب، وفرح به، وأعطاه المال الكثير، والرزق العميم[1].

لكن هذه لم تكن آخر الثورات ضد المعز، ذلك أن زعيم مغراوة محمد ابن الحسن بن خزر، فجّر ثورة ضد المعز في المغرب الأقصى، وهنا استغل المعز الخلافات الحادة ما بين قبائل زناتة وقبائل صنهاجة لصالحه، فقد حال دون اجتماع كلمتهما ضده، وبعث القائد يوسف بن بلكين بن زيري بن مناد للقتال ضد مغراوة، وحلت الهزيمة بمحمد بن الحسن، وفقد كثيراً من رجاله، وكان ذلك قبيل رحيل المعز إلى مصر.

ومع ذلك لم تتوقف زناتة عن نشاطاتها في إقليم فاس، فقد تحالفت مع صاحب المسيلة وأعمال الزاب ضد الفاطميين، وكان هذا يحقد على زيري بن مناد، قائد المعز لدين الله، وقاتل الحليفان ضد زيري، وقتلاه، وزاد هذا من أوار المنافسة والعداء بين الصنهاجيين والزناتيين.

ومن جديد انتقم يوسف بن بلكين بن زيري لمقتل أبيه انتقاماً مروعاً، فقتل من زناتة أعداد كبيرة جداً، وسبى كثيراً منها، وحدث هذا كله والمعز ما يزال بعد في إفريقية لم يغادرها إلى مصر، وزاد الصراع بين زناتة وصنهاجة من سرور المعز، وهكذا زاد في إقطاع بلكين بن زيري

---

(١) الكامل لابن الأثير: جـ ٨ ص ٢١٥. اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١١٢. طبقات المشايخ للدرجيني جـ ١ ص١٥٦. كشف الغمة ص ٢٧٨.

المسيلة وأعمالها[1].

واستمرت الاضطرابات في أقاليم المغرب، ولم يمحض المغاربة الولاء للفاطميين، واقتنع المعز بصعوبة تحقيق الاستقرار في المغرب، وفي الوقت نفسه حدثت تطورات مثيرة جداً في المشرق، وبات الملك الفاطمي في القاهرة مهدداً بالزوال على أيدي قرامطة البحرين الذين تحالفوا مع أهل دمشق وسواهم.

وكانت حملة جوهر الصقلبي قد استولت على مصر دونما صعوبات تذكر، وما أن فرغ هذا القائد من أمور مصر حتى وجه إلى الشام جيشاً بقيادة جعفر بن فلاح، وكان من رجالات كتامة وأرقاهم بيتاً وأجلهم قدراً، وإليه أشار ابن هانئ الأندلسي بقوله:

كانت محادثة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى رأيت فلا والله ما سمعت أذناي بالعشر مما قد رأى بصري

واستطاع جعفر أن يصفي بقايا القوات الاخشيدية في فلسطين، وأن يستولي بعد صعوبات جمة على دمشق، وظلت دمشق مضطربة، قاومه فيها أحداث المدينة، واتصل واحد من زعماء الأحداث بالحسن الأعصم زعيم قرامطة الاحساء والبحرين، فجاء على رأس قواته إلى دمشق وانتزعها من الفاطميين، ولاقى جعفر بن فلاح أثناء ذلك مصرعه، فاضطر جوهر إلى التدخل، وأخفق جوهر أمام القرامطة وواجه الذل، وتبرهن أن قواته التي رافقته من كتامة وسواها أدنى كفاءة في فنون القتال من المشارقة، وهدد القرامطة القاهرة، العاصمة الفاطمية فاضطر إلى ترك إفريقية، والتوجه نحو مصر، ولضخامة أعداد المغاربة الذين

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥. ابن أبي زرع ص ٩٢ ـ ٩٣. المؤنس ص ٦٥.

ساروا في موكبه، والذين ساروا من قبل في موكب جوهر، رأى بعضهم ذلك أشبه بهجرة بشرية مغربية إلى المشرق.

وأشرنا أعلاه إلى اعتماد المعز قبل رحيله إلى مصر، على الصراع بين صنهاجة وزناتة، وأنه من هذا الباب منح يوسف بن زيري ولاية المسيلة، فقد رأى يوسف في هذه الولاية عبئاً جديداً لا نعمة أضفيت عليه، ولهذا قال للمعز لدين الله: «يا مولانا أنت وأباؤك الأئمة من ولد رسول الله ﷺ ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي، وأنا صنهاجي بربري»؟

وبالفعل كان يوسف بن زيري على حق حين خاطب المعز بهذا القول، فهو المغربي الأصيل، كان أدرى الناس ببلاده، وقد رأى الصورة واضحة في أيامه وتصورها كيف ستكون بعدما قرر المعز سنة ٣٦١هـ/٩٧٢، مغادرة إفريقية، لا بل رآها رأي العين، فقد ثارت عدة مناطق ضده، في الوقت الذي كان يودع فيه المعز، حيث خرجت باغاية عليه وتيهرت، كما ثارت قبائل زناتة في تلمسان، وتحالفت مع قوى المسيلة وأعمال الزاب، وهكذا استمرت نار العداء متأججة بين الصنهاجيين والزناتيين، وامتلك يوسف بن زيري وقتذاك القدرة على البطش بالمتمردين وتأديبهم بعد إنزال خسائر عظيمة فيهم وقتل وسبي.

وكان للمعز في إقليم فاس بعض العمال، وتابع المعز حتى بعد انتقاله إلى مصر أخبار فاس، واستمر في مراسلة عماله هناك مثل عبد الجبار الخراساني وحسني بن خلف، ومع ذلك خرجت مناطق المغرب الأقصى على طاعة المعز والفاطميين، وعلى الرغم من أن يوسف بن زيري

كان صلب القناة، ينزل ضرباته بالمتمردين، إلاّ أن ذلك لم ينفع[1]، وفقد الفاطميون المغرب الأقصى وجلّ المغرب الأوسط، ولن يطول الزمان حتى فقدوا المغرب كله، فالقبليّة كانت أقوى من المركزية الفاطمية، وكانت المالكية أرسخ من الإسماعيلية، ثم إن الإسماعيلية أخفقت في تحقيق أي هدف من أهدافها وبرامجها العقائدية، وكانت بلدان المشرق تشهد يقظة سنية جديدة، تمكنت من الوصول إلى المغرب والتأثير فيه على الرغم من الوجود السلطوي الفاطمي في مصر، فالأفكار يحملها الدعاة في صدورهم، ولم يحدث قط أن تمكنت أية قوة سياسية من السيطرة على أفكار المعارضة اللهم إلاّ بقرع الحجة بالحجة، ولقد ولى العصر الذي سيطر فيه الفكر الإسماعيلي على تيارات الفكر الإسلامي، فإسماعيلية السلطة كانت أضعف فكراً من إسماعيلية المعارضة، ذلك أن السلطة تقيد رجل الفكر بقيود مصالحها وهذا ما نراه مع القاضي النعمان، في حين أن رجل الفكر أثناء المعارضة يمكنه أن يطلق لنفسه العنان في دغدغة آمال المحرومين في غد يحكم فيه المهدي أو القائم، فقد رأى الناس الآن المهدي الإسماعيلي ورأوا القائم، وكذلك المنصور، وأيضاً المعز، فقد مرّت أيام المهدي كئيبة دموية، قتل فيها أبا عبد الله الداعي مع أخيه، واستبد بالسلطان، وعاش في صراع خفي حول الخلافة مع القائم، أما القائم فلم يعلن أية نوع من أنواع القيامة، وعاش يجتر مرارة العجز أمام ثورة صاحب الأتان، وعدّ المنصور منصوراً لقضائه على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، لا لفتوحاته ولا لإنجازاته، حيث لم تكن هناك فتوحات ولا إنجازات، لاسيما وأفريقيا كانت أمامه بلا منازع، أما المعز صاحبنا فهو لم يعز دين الله حين توفرت أمامه فرصة التعاون مع عبد الرحمن الناصر،

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٦٤. الخطط المقريزية جـ ١ ص ٣٥٢. المعجب للمراكشي ص ١٤٧. ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٩ ـ ٦١. ابن عذاري جـ ١ ص ٢٤٠. المؤنس ص ٦٥ ـ ٦٦. نبذة من مفاخر البربر ص ٥٩. كشف الغمة ص ٢٧٦. البرادي ـ الجواهر ص ٢١٨.

ولم يعز دين الله في الدفاع عن مسلمي كريت حين استأصلهم نقفورفوقاس إمبراطور بيزنطة، وطبعاً لم يتمتع بالعز بعد دخوله إلى مصر، فهناك حاصره القرمطي ابن الدعوة الإسماعيلية، لذلك ليس من الغلو القول بأن التاريخ الفاطمي كله شكّلُ انحرافاً بالإسلام عن مسيرته، وقد نجح الإسماعيلية نتيجة للأمراض التي ألمت بأهل السنة بسبب السياسة الدينية للعباسيين، ولتعاون رجال الدين معهم لكن ما كان للمرض أن يدوم، وهكذا كان المصير هو الإخفاق وظل الإسلام القرآني السني قوياً متماسكاً يؤتي خير أكل ويعطي أطهر ثمار.

وبعد عرضنا لعلاقات المعز لدين الله الفاطمي مع إقليم فاس، سنلتفت نحو علاقاته مع بقايا الخوارج الصفرية أصحاب دولة سجلماسة المدرارية، ولكم حاولت تجنب التداخل والتكرار فتعذر ذلك، وفرضت طبيعة الموضوعات نفسها، حيث أشير أحياناً إلى بعض الأمور في موقع ثم جرى تفصيلها في موقع آخر منفرد.

٢ ـ العلاقات مع الخوارج الصفرية:

تقدم الحديث من قبل عن تأسيس مدينة سجلماسة وقيام الدولة المدرارية فيها، وأن هذه الدولة قد دانت بشكل عام بمذهب الصفرية من الخوارج، يضاف إلى هذا أشرنا إلى لجوء المهدي الفاطمي ومن كان معه إليها، واعتقالهم من قبل اليسع بن مدرار، وكيف قام أبو عبد الله الداعي باحتلال سجلماسة وبتخليص المهدي من السجن، وبذلك تصور الناس أن دولة بني مدرار قد زالت من الوجود، وأن سجلماسة قد غدت من ممتلكات الخلافة الفاطمية الناشئة، لكن بعد إفريقية عن سجلماسة، واضطراب أوضاع الفاطميين في أيام القائم والمنصور قدم فرصة للقوى المدرارية في سجلماسة ليس فقط للاستقلال من جديد، وإنما لاعلان محمد بن الفتح

ابن واسول الذي استبد بها عن نفسه خليفة بلقب الشاكر لله، وبهذا ضاعف من تحديه للخلافة الفاطمية[1].

وبناء عليه كلف المعز لدين قائده جوهر سنة ٣٤٧هـ/٩٤٩م، بإعادة جميع المناطق المتمردة إلى الحظيرة الفاطمية، وتمثلت هذه المناطق: بتيهرت، وسجلماسة وفاس، فبعد الفراغ من شأن تيهرت ـ الأمر الذي سنفصله فيما بعد ـ قصد جوهر مدينة فاس حيث حاصرها لمدة وجيزة، ثم غادرها وتوجه إلى سجلماسة، ويقول القاضي النعمان: «ولما تمادى أمر اللعين ابن واسول وارتكب ما ارتكبه وتعاطى ما تعاطاه من التغلب بسجلماسة، وخلع طاعة الأئمة وتسمى بالإمام أمير المؤمنين الشاكر لله، وهو الكافر بالله (عج) لعظيم ما ارتكبه من نهيه، رأى المعز لدين الله (صلع) جهاده لعظيم جرمه، وأنه لا يسعه تركه لما تعدى إليه وتعاطاه، فأنهض إليه عسكراً، فأمكنه الله (عج) من رحمته من غير يد لأحد من الخلق عليه فيه.

وذلك أن قائد ذلك العسكر تقدم إلى أهل سجلماسة من قبل أن يحل بهم بمدة، بكتب منه في القبض عليه، وأنهم إن فعلوا ذلك أمنهم، وأحسن إليهم وعفا عن ذنوبهم التي اقترفوها بطاعته على ما ارتكبه من عظيم جرمه وإلقائهم بأيديهم إليه، فلم يفعلوا.

فلما قربت العساكر المنصورة منه خرج من المدينة هارباً بنفسه، فلقيه نفر من أهل المدينة فأخذوه وأتوا به القائد، فعاتب القائد أهل سجلماسة في تركه، ثم رأى الصفح عنهم، وولى عليهم والياً منهم وانصرف، فوثبوا على ذلك الوالي فقتلوه، وأقاموا مقامه منتصراً بن

(١) الاستبصار لمجهول ص ٢٠١. روض القرطاس ص ٨٩ ـ ٩٠. البيان المغرب جـ ١ ص ١٤٨ ـ ١٥٧. الروض المعطار للحميري ـ مادة سجلماسة ـ المؤنس ص ٦٣. سير الشماخي ص ١٢٨ ـ ١٣١. ابن خلدون جـ ٤ ص ١٩١.

محمد بن المعتز، وكان أبوه وجده قد وليا البلد باستعمال أمير المؤمنين، وكانا من أهل الولاية»[1].

وعلى هذا كان الذي أنجزه القائد جوهر هو خلع ابن واسول، لكنه لم يفلح بالقضاء على الحكم المدراري في سجلماسة حيث قتل أهل سجلماسة الوالي الفاطمي، وأسند والحكم إلى المنتصر بن محمد بن المعتز بن واسول، وكان المنتصر هذا قد ولي حكم سجلماسة بعد أبيه سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م وكان وقتها في الثالثة عشرة من عمره، وكانت جدته تدير أمور الملك باسمه، مما زاد من نفوذ النساء في البلاط، ولهذا تطاول العمال وخدمهم على الرعية، وسادت الفوضى، واصطرع أفراد البيت المدراري فيما بينهم، وبناء عليه ثار محمد بن الفتح ابن واسول على ابن عمه واعتقله وألقاه في السجن، وظل يحكم حتى اعتقله جوهر الصقلبي[2].

وقبل متابعة الحديث عما آل إليه أمر المنتصر بن محمد، مفيد أن نبين أن دوافع مذهبية دفعت أهل سجلماسة إلى الثورة على الفاطميين، فقد ظل هؤلاء مع أسرة بني مدرار خوارج أباضية وصفرية، ورفضوا بمدة قبول التشيع الإسماعيلي الذي سعت الخلافة الفاطمية إلى فرضه.

يضاف إلى هذا التركيبة القبلية لأهل سجلماسة وإقليمها، ولاعتماد الفاطميين على قبائل كتامة، فلقد عدّ السجلماسيون كل من الفاطميين والكتاميين غرباء، لا يجوز القبول بحكمهم والإذعان إليهم، كما أن أهل سجلماسة رأوا في الحاميات الكتامية التي بقيت مع الولاة الفاطميين احتلالاً كتامياً لديارهم، لذلك كانوا يثورون كلما سنحت لهم الفرصة.

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٢) البكري ص ١٥١. أعمال الأعلام ص ٧٣. ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٧٠. الاستقصا جـ ١ ص ١٢٦.

ونذكّر هنا مجدداً بالسياسة المالية الفاطمية الجائرة، وهم لم يطبقوا ما نادت به الدعوة الإسماعيلية، فضلاً عن هذا ما دخلت القوات الفاطمية إلى مدينة كانت عاصية عليهم إلاّ وتعرضت المدينة وأهلها إلى السلب والنهب والتدمير، كما حدث لفاس ولسواها(1)، ولاشك أن أهل سجلماسة التجار تأذوا كثيراً من هذه السياسات.

ونعاود هنا التذكير بأن حكم بني مدرار لم يقض عليه الاحتلال الإسماعيلي الأول لسجلماسة، ونتيجة لصعوبة السيطرة على سجلماسة سعى المعز وسلفه دوماً إلى التعامل مع الأزمة سياسياً، إنما في حدود الإمكان، وهكذا ولي سجلماسة كل من جد وأبي المنتصر بن محمد، وكذلك ولي المنتصر حتى ثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح، ونجح ابن واسول في جمع شمل الصفرية، ولم يكتف بإعلان نفسه خليفة لا بل فكر سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م بغزو ولاية النكور، لكن الصفرية لم يوافقوه على ذلك وقنعوا باستقلالهم بسجلماسة والبقاء حيث هم(2).

وتمتع الخليفة الشاكر لله بالاستقرار والبعد عن الخطر طوال أيام المنصور إسماعيل مع السنين الأولى من حكم المعز، ثم ما لبث المعز لدين الله أن رأى وجوب مبادرته للقضاء على حكم الشاكر لله. بعدما عمت الثورات مناطق المغرب، واستولت القوات الأموية على بعض القواعد الساحلية، وهكذا كانت حملة جوهر لعام ٣٤٧هـ/٩٦٠م، واحتلال سجلماسة بدون مقاومة واعتقال الشاكر لله.

وطبعاً ابتهج المعز للسيطرة على سجلماسة وزاد سروره بعد الاستيلاء على فاس، لكن ما لبث الوضع أن تفجر في سجلماسة، ونعود الآن إلى رواية

---

(1) الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ١٣. ابن خلدون جـ ٣ ص ٣٦٣، جـ ٤ ص ٧٨. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٨٤. الخطط للمقريزي ص ٣٥٠. البكري ص ١٥٠. البيان المغرب جـ ١ ص ٢٢٠.

(2) الاستقصا جـ ١ ص ١٩٨. ابن أبي زرع ص ٩٠ ـ ٩١.

القاضي النعمان حول ما حدث: «وكان ابن واسول هذا الفاسق المتغلب، لما تغلب اعتقل منتصراً هذا، وهو غلام حدث، فأقام معتقلاً عنده مدة، فقدّمه أهل البلد لما قتلوا العامل الذي استعمله عليهم القائد، ونسبوا إليه من القبيح ما زعموا أنه أوجب قتله، وذكروا أن الغوغاء والعامة قتلوه، وذهبوا في تقديمهم هذا الذي قدموه إلى ما هو عليه من الولاية والمحبة، وقيل إنه سعى في قتله في ذلك، وأرسل رسولاً من فوره،وأرسل أهل البلد وكتبوا إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله (صلع) يذكرون ذلك ويعتذرون ويصفون حالهم، فصرف رسولهم بأنه غير قابل ذلك من عذرهم، وأنهم لا أمان لهم عنده إلى أن تأتي وجوههم، وسماهم، ويأتي منتصر هذا إليه مُحكمين في أنفسهم، فحينئذ يرى رأيه فيهم.

وانصرف الرسول بذلك إليهم، فما كان إلاّ مقدار مسافة وصوله إليهم وانصرافه حتى أتى منتصر هذا الذي قدموه، ومائتي رجل من وجوههم، وهم الذين سماهم أمير المؤمنين، قد ركبوا طرق الرمال والفلوات خوفاً من أن يصل إليهم أحد دون الباب حتى حلوا به، فأدخلهم أمير المؤمنين (صلع) فلما مثلوا بين يديه وقبلوا الأرض، ووقفوا نظر إليهم نظرة مغضب، وأطرق ساعة فامتقعت ألوانهم، وارتعدت فرائصهم، ولم يستطع أحد منهم أن ينطق بحرف لما داخلهم من الخوف»[1].

وهكذا أفلح العمل السياسي في إعادة أهل سجلماسة إلى الطاعة القاطمية، ويلاحظ أن المبادرة جاءت من السجلماسيين، وكأن المعز كان ينتظر ذلك، ومدهش عدم إصراره على الانتقام لدم عامله المقتول، أو المطالبة بتعويض أو فرضه لأية غرامات مالية على أهل سجلماسة، بل إنه اكتفى بمجيء وفد للاعتذار، وقد قام كما حدثنا القاضي النعمان بمعاملة

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

هذا الوفد معاملة حسنة، كما اكتفى بالمطالبة بالطاعة السياسية ولم يتعرض للمسألة المذهبية لا من قريب ولا من بعيد وعلى هذا حالف النجاح أهل سجلماسة، وسجلت السياسة الفاطمية انتكاسة فعلية جديدة في السعي إلى دمج سجلماسة في ممتلكاتها، ومثير للانتباه أن القائد جوهر، والمعز الآن لم يصدر عنه أي اهتمام بأهل الصحراء وراء سجلماسة، ولا بأهل أفريقيا السوداء، فالكتابات الإسماعيلية والفاطمية لم تأت قط على ذكر أهل السودان وعلى ضرورة إدخالهم بالإسلام، وصحيح أن البرنامج الإسماعيلي كان برنامجاً عالمياً، لكن هذه العالمية اقتصرت على دار الإسلام، واستهدفت السيطرة عليها، أما دار الحرب فكانت مغيبة، لا بل أكثر من هذا عُدّت دار الإسلام دار حرب يتوجب إخضاعها بالدعوة أو بقوة السلاح، ونجد في هذا المقام أن كل بقعة دخلها الفاطميون بقوة السلاح، لم تنتشر فيها العقيدة الإسماعيلية، واستمر بقاء الإسماعيلية فقط في بعض المناطق ذات السمات الخاصة، والتي تحولت إلى الإسماعيلية عن طريق الدعوة، والقاعدة هنا أن التوسع بالقوة، يعتمد على السيف، ويتلطخ السيف عادة بالدم، فيتآكل بسرعة، اللهم إلا إذا كان لهذا السيف قراب عقائدي وثقافي له قبول عام، وهذا ما لم تتسم به العقيدة الإسماعيلية.

ونعود الآن إلى رواية القاضي النعمان حول اللقاء الذي كان بين المعز لدين الله الفاطمي ورجالات وفد سجلماسة، فقد خاطبهم المعز بقوله:

«يا أهل سجلماسة، فعلتم ما فعلتم في أيام المهدي بالله (صلع)، واقتدر عليكم مرة بعد أخرى، فعفا عنكم وأحسن إليكم لحلوله الذي كان فيكم، ومجاورته إياكم مدة إقامته فيكم، كما يرعاه من أحله الله محله من كرم الطباع، وحسن الصنيع، ومن غير يد كانت لكم عنده، ولا فعل من

الجميل تقدم لكم لديه، فصفح وأحسن، وعفا وأجمل، فما رعيتم ذلك حق رعايته، ولاهمتم بشكره ثم نعق فيكم ناعق من الشيطان فلبيتموه، ودعاكم إليه داع فأجبتموه، قام فيكم دعي فيما ادعاه، متوثب على ما تولاه، قد عرفتم نسبه ودريتم سببه، فتغلب على ولاة أمركم، وتحلى بالرئاسة والتصنع لكم، وتسمى بأمير المؤمنين، وإمام المسلمين لكم، وأنتم على علم لا تشكون ويقين لا تمترون، وأن ذلك لا يجوز له، ولا يحل تسليمه لمثله، فسلمتموه له، وأطعتموه وتوليتموه، واتبعتموه، ففارقتم جماعة المسلمين، وخرجتم من حزب المؤمنين، وأحدثتم حدثاً عظيماً في الدين، وانتهى إلينا من أمركم، وأمره ما لم يسعنا تركه والغفلة عنه لما افترضه الله علينا، عز اسمه، من القيام بحقه في أرضه، وجهاد من صدق عن دينه، وغير سنة رسوله، وحل محلكم ومحل هذا الفاسق فيكم.

فأنهضنا إليكم جيشاً من أوليائنا، وأنصار دولتنا وعبيدنا، مع عبد أمرّناه عليهم، وتقدمنا إليه في الأعذار، والانذار إليكم في الانابة والتوبة قبل الوقوع بكم، فلم يزل مع طي المراحل نحو كم يتابع الكتب إليكم مع رسله، تأكيداً في الحجة عليكم مرة بالوعد، ومرة بالوعيد. وتارة باللين، وتارة بالتشديد، يدعوكم إلى الطاعة والنزوع عما أنتم عليه من المعصية والضلال، والقبض على عدو الله فيكم، إن تمادى على ما هو عليه من الغي والضلال إن استطعتموه، أو البراءة منه وتركه بجانب، إن لم يقدروا عليه، ووصلت كتبه إليكم، وأدى إليكم من اجتاز به منكم كل ذلك، وأنتم على باطلكم مصرّون، وبالفاسق المضل لكم متمسكون إلى أن حلت جيوشنا بقربكم، وانتشرت عساكرنا ببلدكم، وعاين من عاينها من عيون

عدو الله من جمعها وعتادها وقوتها ما أنهاه إليه، وقد علم أنه لا طاقة لكم ولا له بعسكر من عساكرنا»[1].

وبالفعل كان الشاكر لله قد غادر مدينة سجلماسة أثناء حصارها من قبل جيش القائد جوهر، هذا الحصار الذي دام ثلاثة أشهر، وهرب الشاكر لله بأمواله وبذويه إلى حصن منيع على بعد اثني عشر ميلاً من سجلماسة اسمه تاسجد، وكما رأينا دخل جوهر إلى سجلماسة وطمأن أهلها وعاملهم معاملة حسنة، وهنا اغتنم الشاكر لله فرصته وتسلل إلى سجلماسة، في محاولة منه لتأليب أهلها، أو لنقل أعوانه، على الفاطميين، فكشف أمره، واعتقله رجل من قبيلة مطغرة، وسلمه إلى القائد جوهر[2]، فحمله هذا إلى المعز، كما تقدم بنا التبيان.

وذكر الخليفة المعز هذه الأحداث في كلمته التي قرع بها أهل سجلماسة، حيث قال: «فلما حلت بعقولكم ـ عساكرنا ـ، ونزلت بداركم، وأنتم مع الفاسق على ما أنتم عليه، نهض مولياً عنكم، وهارباً متسللاً من بين أظهركم، وقد كنتم تقدرون على أخذه لو أردتموه، ويمكنكم من ذلك ومن حصاره في داره متى أجبتموه لو أخذتم بحظكم في ذلك ففعلتموه، لكنكم أقمتم مصرين على طاعته وتوليه إلى أن نزع عنكم، وأقدرنا الله (عج) بفضله وإحسانه عليه، كعادته الجميلة، بلا صنع لكم ولا لغيركم في ذلك، وأقدرنا عليكم، وأمكننا منكم، وأنتم على ما أنتم عليه من غيكم وضلالكم، وما تستوجبون به اجتياحكم ودماركم، فسار عبدنا فيكم بما أمرناه به من العفو والصفح والمرحمة، وانصرف عنكم فأحدثتم بعده ما أحدثتم، فماذا تستحقون أن يفعل بكم؟

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٢) ابن حماد ص ١٩ ـ ٣١، ٣٩. جمهرة ابن حزم ص ٤٩٦. ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٥. سيرة الأستاذ جوذر ص ٨٤. المؤنس ص ٨٣.

يكلمهم بهذا الكلام (صلع) كلام مغضب، فاصفرت ألوانهم، وتغيرت وجوههم وأرعدت فرائصهم، وأفحم أكثرهم عن الكلام، وقال من قال منهم قول مذعور دهش: أن يعاقب أمير المؤمنين (ص) فنحن أهل العقوبة، وإن يعف فهو أهل العفو والفضل والرحمة».

فما كان من المعز بعد أن فكر ملياً إلا أن استدعى «منتصراً بن محمد بن المعتز، فقربه إليه وأمره بالجلوس، فقبل الأرض مراراً، وشكر لأمير المؤمنين، ثم عطف (صلع) على الوفد، فقال قد كنتم تستحقون أليم العذاب والنكال، ولكنا للذي جبلنا الله عليه من الصفح والعفو والمرحمة قد عفونا عما سلف من ذنوبكم ما استقمتم وأصلحتم، وقد استعملنا عليكم عبدنا هذا، وأومأ إلى منتصر، فقبل، وقبلوا الأرض مراراً، وشكروا بما قدروا عليه، وزال ما ظهر عليهم من الهلع والجزع، وأمر (صلع) بصرفهم إلى موضع أنزلهم فيه، وخلع على منتصر وحمله، وفعل ذلك بجماعة من وجوههم، وأمر بإجراء النزل لهم أجمعين، وأقاموا بذلك مدة في أرفه عيش وأحسن حال، ثم لما رأى صرفهم، عقد لمنتصر على سجلماسة وعملها، وخلع عليه خلعاً سنية، وحمله على عدة من الخيل بسروج مفوفة، ووصله بصلات جزيلة، وحمل جميع من قدم معه وكساهم ووصلهم وصرفهم إلى بلدهم»[1].

وقبل عودة الوفد السجلماسي إلى بلده تحادث المعز لدين الله مطولاً مع المنتصر وأوصاه وصايا كثيرة ووجهه توجيهات عامة، وخلا الحديث من أية توصيات مذهبية إسماعيلية خاصة أو عامة، باستثناء الإدانة المشترك لابن واسول، والواقع أن المعزّ لجأ إلى هذه السياسة مضطراً، وأراد كسب ولاء المنتصر وإخلاصه له وإن كان اسمياً، ولهذا

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

عمد إلى إكرامه وتعزيز مكانته أمام أهل سجلماسة، وخط المعز بهذا سابقة سيطورها فيما بعد، وهي إيكال حكم بعض مناطق المغرب إلى حكام محليين، أو لنقل بكلمة اخرى: إعادة الأوضاع السلطوية في بعض المناطق المغربية إلى ما كانت عليه قبل تأسيس الخلافة الفاطمية، ولاشك أن في هذا إقراراً بإخفاق توحيد المغرب تحت الراية الإسماعيلية.

وعاد الآن المنتصر إلى سلجماسة والياً رسمياً معيناً من قبل المعز بالذات، عاد إلى ملكه الذي ورثه عن أبيه بعدما أزاحه عنه ابن عمه، لقد عاد بعدما اعتقل الفاطميون ابن عمه، ومهدوا أمامه السبيل بشكل غير مباشر، ثم بشكل مباشر وصريح.

وأشرنا من قبل إلى التشيهر بالخليفة ابن واسول والطواف به مع عامل فاس ابن أبي بكر، وبعد اكتمال أعمال التشهير أودعا بالسجن في المهدية، وبعد مرور شهر على ذلك، وفي أثناء احتفال المعز بعيد الفطر، أمر المعز بابن واسول وبابن أبي بكر فأحضرا من السجن، وهنا خيل للناس أنه سيقوم بإعدامهما، وأحضرا أمام المعز في داخل قصره «فمثلا بين يديه، وهو قائم على فرسه والرمح بيده، فقبلا الأرض، ووقفا، فقال لهما أيهما كان أحسن لكما: أن تكونا اليوم في مثل حالكما هذه بمعصيتكما وعداوتكما، أو تكونا اليوم في جملة أوليائنا، ومن إئتم بنا، فتقضيان فرض ربكما معنا، أو حيث كنتما على طاعتنا التي افترضها الله تعالى عليكما، وعلى سائر خلقه، وأنتما وادعان سالمان آمنان؟ فلم يفهم عنه ابن واسول ما قاله، وأظن الخوف والذعر غلب عليه، فقال: بل الذي نحن فيه يا مولانا أفضل، فتبسم أمير المؤمنين لما علم بأنه لم يفهم عنه، وأظن البائس إنما ظن أنه خاطبه بمثل ما خاطبه به قبل ذلك، فإنه (صلع) قال: له قبل ذلك في يوم أحضره إليه: والله إنك في حالك هذه

التي أنت فيها ـ وإن كنت في الأسر والوثاق ـ لأفضل مما كنت فيه من معصية الله بتخطيك إلى ما تخطيت إليه، وتسميك بما تسميت به، وإن كرهت ما أنت اليوم فيه، فقال هو كما قال أمير المؤمنين (صلع) فأحسبه ظن أن الخطاب الذي خاطبه به امير المؤمنين (ص) في هذا المقام كذلك كان»[1].

ولعل الأمر كما قال القاضي النعمان، أو أنه ومولاه المعز أرادا أن يفهما كذلك، وأن الإجابة لم تكن إجابة صفري أعلن نفسه خليفة للمسلمين، ذلك أن ابن واسول قد أثنى النعمان نفسه عليه وعلى فهمه، ولنعد الآن إلى وصف النعمان للقاء تقدم بين المعز وابن واسول جرى إثر وصول ابن واسول إلى المهدية وكان هو اللقاء الأول بين الرجلين، قال القاضي النعمان: «وأدخل المعز لدين الله (ص) ابن واسول إلى نفسه بعد عدة أيام من وصوله، وهو في وثاقه، فلما مثل بين يديه، أمره بالجلوس فجلس، فأمسك عنه حتى رأى أنه سكن روعه، ثم أقبل عليه من غير تجهم فقال: ما الذي حملك على ما ادعيته وتسميت به؟.

قال الحين والجهل يا أمير المؤمنين (ص)»[2].

وتابع المعز توجيه الأسئلة، وكان ابن واسول يتعمد التهرب من المواجهة ويعتذر عما أقدم عليه، واستشهد بالقاضي النعمان، ذلك أن هذا القاضي الذي كان لسان السلطة الفاطمية، كان قد كتب رسالة ردّ فيها ما «ادعاه من الإمارة بغير عقد إمام، وما تعدى إليه بعد ذلك من ادعائه الإمامة، وتسميه بأمير المؤمنين، وتلقبه بالشاكر لله»[3]، وقد

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٤١٤.
(٢) المجالس والمسايرات ص ٤١٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٤١٥.

اعترف ابن واسول بأنه مقر بكل ما ذكره القاضي النعمان، ومعلن عن توبته إلى الله تعالى.

ثم شرع المعز «يبسطه ويسأله عن أخباره وأخبار البلد الذي كان به»، ثم سأله بشكل محرج «ما يقول الناس عندك فينا وينسبوننا إليه في الذي ننتحله ونقول به» وطلب ابن واسول إعفاءه، وبين أن لسانه «لا ينطاع للقول بذلك» وهنا تطوع المعز شخصياً، فسرد بعض ما راج بين الناس، وكان على رأس ذلك:

١ ـ دفع نبوة محمد ﷺ.

٢ ـ ادعاء الأئمة الفاطميين للنبوة بعده.

٣ ـ دفع الفاطميين لسنة النبي ولشريعته.

٤ ـ عبادة الفاطميين لرأس عندهم يكلمهم ويسجدون له من دون الله، وهو ينثر لهم الدنانير[١].

واقر ابن واسول وهو مكره، بأنه سمع هذا كله، وهنا ألقى عليه المعز محاضرة فضفاضة، أراد بها أن يبرهن على الأخذ بسنة النبي والتمسك بنبوته، وبعبادة الله الواحد الأحد، ومشير للانتباه إشاعة هذه الأمور كلها حول الفاطميين، ومثير أيضاً أن المعز لم يحاول إقناع ابن واسول بالتخلي عن عقيدته والأخذ بالعقيدة الإسماعيلية، ونعود مجدداً إلى التعليل الذي قدمه القاضي النعمان بأن ابن واسول لم يفهم ما قالها لمعز، لنقول بأن ذلك تعليل سلطوي، وأن ابن واسول الذي أحضر مكتوفاً بين يدي المعز، الذي كان على ظهر حصانه، وبيده رمح ليطعن به الأسيرين معاً، أو واحد منهما، ولعل ابن واسول أراد ميتة شريفة، أو أراد حسب

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤١٦ ـ ٤١٧.

مذهبه نيل الشهادة، لكن بعد تبدل موقف المعز، كان لابد له من الرضا بما وسم به وهو عدم القدرة على الاستيعاب والفهم، ولندع الآن سجلماسة لننتقل إلى تيهرت وعلاقة الفاطميين أيام المعز بها.

العلاقات مع الخوارج الأباضية في تيهرت:

تحدثنا من قبل ــ بما فيه كفاية ــ عن الدور الهام الذي شغلته الحركات الخارجية في حياة المغرب العربي الكبير طوال العصر الأموي، وفي أوائل العصر العباسي، وأولينا تاريخ قيام الدولة الرستمية في تيهرت عناية خاصة، وقدمنا عرضاً موجزاً للمراحل التي مرّ بها تاريخ هذه الدولة، ونستأنف الآن مجدداً الحديث عن بعض ما تبقى من تاريخ أباضية تيهرت وعلاقتهم بالخلافة الفاطمية، أو بالحري السياسة الفاطمية تجاه تيهرت والخوارج الأباضية.

ورأينا أن تاريخ الدولة الرستمية تعلق بمدينة تيهرت، لكنه تأثر كثيراً بالقبائل التي سكنت حول تيهرت وبحركاتها وديارها وأماكن انتجاعها، ومع هذا يصعب الحديث عن أثر البعد الجغرافي، مقارنة بالعامل نفسه بالنسبة لدولة بني مدرار في سجلماسة، حيث لم تكن تيهرت نائية جداً عن إفريقية، مثلما هي سجلماسة، فعمال بني العباس على إفريقية هم الذين خضدوا شوكة الخوارج الأباضية، وطاردوهم حتى تيهرت نفسها التي حاصروها وكادوا أن يستولوا عليها، والخلافة الفاطمية اتخذت من إفريقية مقراً لها، لكن لم يسبق لعمال إفريقية مهاجمة سجلماسة، وأخفق الفاطميون في القضاء المبرم على حكم بني مدرار في سجلماسة.

هذا وهناك عداء مستحكم بين مختلف فرق الخوارج والإسماعيلية، يضاف إلى هذا أن الفاطميين أرادوا السيطرة على أرجاء المغرب الكبير، ودوماً تطلعوا إلى كسب المزيد من الأموال، ورأينا إلى أي مدى ازدهرت

مدينة تيهرت اقتصادياً ومالياً، بسـبب نشـاطاتها التجارية، وعلينـا تذكر هذه الأمور لدى معالجة السياسة الفاطمية نحو تيهـرت، إنمـا ينبغـي أن لا ننسى في هذا المقام وعورة الطرق مـا بيـن تيهـرت والقـيروان أو المهديـة، يضاف إلى هـذا أن الخلافـة الفاطميـة اعتمـدت بشـكل رئيسـي علـى جنـد قبائل كتامة، وكانت على هذا أية حملة فاطمية ضد أباضية تيهـرت حملـة إسماعيلية كتامية، ولهذا كانت حماسة الكتـاميين فـاترة جداً لـدى ندبهـم لعمل عسكري ضد تيهرت وقبائلها.

والقـاعدة فـي التعـامل مـع القبـائل البدويـة، أن زعمـاء القبـائل لا يمحضون الولاء الدائم لأحد، وهم خير من انتهز الفرص وتقلب في الأهواء بحثاً عن الصالح القبلي والذاتي لزعيم من الزعماء، ولم يحـاول الفـاطميون إقامة هدنة بين مختلف القبائل، لاسيما بين قبائل زناتة وصنهاجة، لا بـل أججوا الصراعـات بيـن هـاتين المجموعتيـن العملاقتيـن، وتدخلـت قرطبـة واستمالت قبائل زناتة إليها، وتطور الأمر إلـى رواج حكايـة أن جدّ ملـوك زناتة كان اسمه «حرب بن حفص بن صولات بن وازمار بـن مغـراو، مولـى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، أتي به إليـه مـن سـبي إفريقيـة فـي أول فتحها، فأسلم على يديه وحسن إسلامه، فمن هذه النسبة وهـذه الوسـيلة كان ميلهم إلى بني أمية بالأندلس ونفرتهم عـن أضدادهـم مـن بنـي عبيـد الله»[1].

وفي أيام المعز كان محمد بن خزر الزناتي المغراوي، أبرز زعمـاء قبائل زناتة، وتذكـر بعـض المصـادر انـه اضطـر أحيانـاً إلـى التظـاهر بطاعة الفاطميين مع أنه كان على اتصال وثيـق بالخلافـة الأمويـة فـي قرطبة.

---

(١) لسان الدين ابن الخطيب ص ١٥٣.

هذا ولم تتفق المصادر حول تسمية من ولي على مدينة تيهرت منذ قيام الخلافة الفاطمية، غير أن ابن عذاري ذكر أن المنصور إسماعيل قد احتل «مدينة تيهرت، وولى عليها ميسورا الفتى، فاضطرب عليه أهل البلد لأنه سار فيهم بسيرة غير مرضية، فاستدعوا محمد بن خزر الزناتي، وابن الخير، ومن معهما من زناتة، فقدموا إلى تيهرت في جمع عظيم، وأظهروا أنهم ناصرون لميسور، فخرج إليهم، فغدروه وأسروه، ودخل بنو خزر وزناتة مدينة تيهرت، ونزلوا دار الإمارة، ثم اضطرب أمر أهل تيهرت، وتغلب عليها يعلى بن محمد اليفرني الزناتي، إلى أن قدم جوهر قائد الشيعة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة»(1).

ونتساءل هنا ما الذي حدث في تيهرت حتى تبدلت الزعامة الزناتية، وهل كان الأمر نتيجة صراع داخل زناتة أو حدث التغيير، نتيجة عوامل أخرى؟ إننا عندما نتفحص العوامل التي دفعت إلى قيام حملة جوهر، ثم ما قامت به نحو يعلى بن محمد، يدفعنا إلى الافتراض أن التغيير قد حدث لأسباب زناتية داخلية.

وتحتوي بعض المصادر على روايات متداخلة مع تواريخ مختلفة، فبعضها تحدث عن حملة قام بها ميسور الفتى ضد فاس ومناطق أخرى حتى طنجة، وأنه لسوء سيرته كان الناس يثورون ضده فور مغادرته لمنطقتهم، ويبدو أن هذا القائد الصقلبي الأصل كان قد أناب عنه في تيهرت من أدار شؤونها في غيابه، وأنه أثناء حملته سبب تحرك الزعيم الزناتي باتجاه تيهرت، وأن هذا الزعيم اتفق سراً مع بعض زعماء تيهرت للتمرد على الحكم الفاطمي وهنا إثر التمرد استنجد به القائد

---

(1) ابن عذاري جـ ١ ص ١٩٨.

ميسور الفتى، أو التجأ إليه، فاعتقله، وربما قتله وأرسل رأسه إلى قرطبة التي احتفلت بوصول الرأس كما أشرنا أعلاه.

وفي تيهرت أعلن محمد بن خزر الدعوة للأمويين وجاهر بالعداء للفاطميين. قال لسان الدين بن الخطيب لدى حديثه عن ملوك مغراوة الزناتيين: «وكان محمد بن خزر الخزري المغراوي الزناتي ملك تيهرت ووهران وتلمسان، وسائر بلاد زناتة، بدعوة أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ملك الأندلس[1].

وكانت أبرز زعامات زناتة قد رست في بيتين هما «مغراوة وبنو يفرن»، وكانت زعامة مغراوة «في صدر المائة الرابعة أربعة أخوة وهم: محمد بن خزر، وعبد الله بن خزر، ومعبد بن خزر، وفلفل بن خزر، وكلهم رئيس شريف في قومه، ولهم أخبار مع خلفاء الشيعة بإفريقية والمروانيين بالأندلس يطول ذكرها»[2].

وكان زعيم بني يفرن هو يعلى بن محمد، وقد ولاه الخليفة الناصر الأموي «على مدينة طنجة وأحوازها... فنزلها في قبائل بني يفرن وأمضى أمره ونهيه فيها»[3].

ولسوف نتحدث مجدداً عن مقتل يعلى من قبل قوات جوهر، ويبدو أن خلافاً نشب بين مغراوة وبني يفرن، وهكذا قام يعلى بن محمد ببناء مدينة أفكان، ثم صار سيداً على منطقة تيهرت.

ونستخلص ما ورد لدى ابن خلدون أن يعلى بن محمد وقومه من بني يفرن شاركوا في الاستيلاء على تيهرت وأسر الخصي ميسور الفتى،

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٢) الاستقصا جـ ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٣) الاستقصا جـ ١ ص ١٩٧.

هذا وكان أبو يزيد مخلد بن كيداد من بني يفرن من زناتة، وعندما هرب من المنصور إسماعيل أوعز المنصور إلى محمد خزر «بطلب أبي يزيد ووعده في ذلك بعشرين حملاً من المال»(١).

وتقاسم محمد بن خزر يعاونه ابنه الخير، مع يعلى بن محمد السيادة على المغرب الأوسط، إلى أن نشب خلاف بين الزعيمين، وهنا ذهب وفد من أهل تيهرت ووهران إلى الأندلس إلى عبد الرحمن الناصر «فأجازهم وصرفهم إلى أعمالهم»(٢).

وتجددت في تلك الأونة الصدامات «بين مغراوة وصنهاجة، وشغل محمد بن خزر وابنه الخير بحروبهم»، واغتنم يعلى بن محمد الفرصة فاستولى على وهران وخربها»، فهل يا ترى كان هناك خلاف بين الزعيمين الزناتيين حول وهران، وعندما انشغل المغراوي بقتال صنهاجة قام اليفرني بالاستيلاء على وهران، وذلك بدلاً من تقديم العون لرجال قبيلته من زناتة؟ هذا هو المرجح، ويؤكده ما ذكره ابن خلدون أنه إثر هذا «عقد الناصر... ليعلى بن محمد على المغرب وأعماله، فراجع محمد ابن خزر طاعته الشيعة من أجل قريعة يعلى بن محمد»، ووفد على المعز وبقي في إفريقية «إلى أن حضر مع جوهر في غزاته إلى المغرب وأعوام سبع أو ثمان وأربعين، ثم وفد على المعز بعد ذلك سنة خمسين، وهلك بالقيروان، وقد نيف على المائة من السنين»(٣).

وكان في سنة خمسين وثلاثمائة للهجرة قد توفي الخليفة الناصر الأموي، وخلفه ابنه الحكم المستنصر، وفي أيام الحكم ومن بعده أيام المنصور بن أبي عامر دخل العلاقات بين قرطبة وزناتة مرحلة جديدة،

---

(١) ابن خلدون جـ ٧ ص ٥٤.

(٢) ابن خلدون جـ ٧ ص ٥٥.

(٣) ابن خلدون جـ ٧ ص ٥٤ ـ ٥٥.

ظهر فيها محمد بن خير بن محمد بن خزر، في واجهة الزعامة الزناتية، حيث حالف قرطبة مجدداً، وسندرج حديثه لدى الحديث عن علاقات الخلافة الفاطمية الصرفة أيام المعز مع قبائل زناتة، وذلك تجنباً للتكرار والتداخل بالقدر الممكن، وهكذا نعود إلى حملة جوهر لسنة سبع وأربعين وثلاثمائة للهجرة.

لقد استهدف المعز من هذه الحملة ـ كما تقدم القول ـ إخضاع المغربين الأوسط والأقصى، أي تيهرت، وفاس وسجلماسة، واهتم بتجنيد هذه الحملة من كتامة ومن الصقالبة ويبدو أن بعض شيوخ كتامة لم يكن متحمساً لها، كما توفرت معارضة لإسناد قيادتها إلى القائد جوهر الصقلبي، وحكى القاضي النعمان»، قال: وكنت كثيراً ما أسمعه (صلع) يقول إذا حضر عنده شيوخ كتامة ووجوههم: إني والله لو ندبت من أحداثكم، ومن عسى لا يؤبه له منكم من أندبه لأمر ترون أنتم أنه لا يقوم به غيركم، ولا يصلح لسواكم، لكان من أندبه إلى ذلك منهم عندما أريده، ولقام به حسب أملي فيه، والله ما سعد له منكم من سعد، وبان من بان إلا باختيارنا له وتنبيهنا إياه.

فلما هم (صلع) بإخراج العساكر إلى سجلماسة لقصد ابن واسول اللعين، المتسمي بالإمام أمير المؤمنين، والطريق إليها من البعد والمشقات والانقطاع والمخافات على ما يعظم في صدور الناس أمره، ويتهيبون سلوكه لذلك واقتحامه، أمر (صلع) أن يُندب لذلك من سارع إليه من شبان كتامة طائعاً، فلم تمض أيام حتى أتاه منهم من العدد فوق ما أراده، مسارعين إلى ذلك فرحين به، فأوسع لهم العطاء، وأجزل لهم الحباء.

فلما أرادوا الخروج حضر الشيوخ وحضرت معهم مجلسه، فذكر مسارعة من سارع منهم إلى الخروج في ذلك الجيش، وأنه كان فيما تقدم

يتهول ذكر سلوك ما ندبهم إليه دون تعاطي الخروج إليه، وذكر تثاقلهم ـ قبل ذلك ـ عما هو دون ذلك.

ثم قال (صلع): وهذا الذي كنت ذكرته لكم في غير مجلس ومقام أني لو ندبت من عسيت أن أندبه منكم لوجدت فيه ما أريده.

ثم أذن لم سارع منهم إلى الخروج، فدخلوا عليه فوجاً فوجاً، وغص القصر بهم فأثنى عليهم خيراً، وقال لهم قولاً جميلاً طويلاً، كان فيما حفظت منه أن قال لهم:

بارك الله فيكم، وأحسن صحابتكم والخلافة عليكم، فقد صدقتكم ظني فيكم، وأملي عندكم وأنتم من معدن البركة وعنصر الخير، بكم بدأ الله إظهار أمرنا، وبكم يتمه ويصلحه بحوله وقوته، وقد علمت مسارعتكم، إلى ما ندبتم إليه وإجابتكم لما أردتم له، وأرجو أن تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم، ويرفع الله (عج) بذلك درجاتكم ويعلي به ذكركم، أنت البنون والأخوة والأقربون ما يعد لكم عندي أحد، ولا يبلغ مبلغكم من قلبي بشر، وما ذلك إلاّ لمالي في قلوبكم.

ما نصر الله ولياً من أوليائه قبلنا بمثل نصرتكم لنا، على ذلك مضى أولكم، وعليه أنتم، على محبتنا ونصرنا وموالاتنا تتناسلون وتنشؤون، وبها غذيتم وعليها فطرتم، فأبشروا بما قسم الله (عج) من الفضل لكم، فأنتم حزب الله وأنصاره وجنده وأحباؤه، والله ما ردت بهذا البعث الذي بعثتكم فيه شراً أستدفعه، ولا دفع مكروه أخافه، ولا استكثاراً من دنيا أصيبها.

أما المكروه فقد علم الخاص والعام والقريب والبعيد أن غاية أماني من حولنا من أهل الأرض من المتغلبين ممن دان بملة الإسلام

والمشركين، أن يسلموا منــا ويعـافوا أمـر بأسـنا، ومـا أحـد منهـم أمسى وأصبح اليوم بحمد الله يطمع في شيء مما عندنا.

وأما اكتساب حطام الدنيا، فهـا نحـن، ننفـق مـن أموالنـا علـى هـذا البعث ما لا نرى أنّا نرتجع مثلـه، وإن مكننـا اللـه وأيدنـا ونصرنـا، ولكنـا أردنا بذلك وجوهاً، منها: ما افترضه الله (عج) علينا من جهاد مـن خـالف أمرنا وتسمى بأسمائنا، وادعى مـا جعـل اللـه (عـج) لنـا، ومنهـا: أن اللـه (عـج) قـد امتحـن عبـاده بالجهـاد فـي سبيله معنـا، نندبهم إليــه لنعلـم المجاهدين منهـم والصـابرين، ولـيرفـع اللـه (عـج) بـه درجــاتهم، ويجــزل مثوباتهم، وينقل حالاتهم، فكم منكم اليوم ممن ينفذ في هذا الجيش تابعاً يعود متبوعاً، ومرؤوسـاً يصـير رئيسـاً، إنمـا ترفعكـم عندنـا وعنـد ربكـم نياتكم وأعمالكم، وبها تتوسلون إلينا، وإلى بارئكم، لولا الســنة التـي أمـر الله عز وجل باتباعها، التي لا يصلح العباد إلاّ بها، ما قدمت عليكـم أحداً منكم ولا من غيركم إذ كـل واحـد منكـم عنـدي يسـتحق أن يكـون المقـدم ولكن لا يصلح النــاس إلاّ برئيـس، وقـد قدمـت عليكـم مـن قـد علمتمـوه، وأقمته فيكم مقام نفسي، وجعلته معكم كأذني وعيني، وكـل امـرئ منكـم على نفسه بصيرة، وقد أمرت لكم بـأجزل عطـاء أعطيتـه مـن قبلكـم إلـى أبعد من مسافتكم، وقد علمتم أنه لم يُعط من قبلكـم أحـد قبلـي مثـل مـا أعطيتكم، ولا استكثرت لكم ذلك، بل استقله لأفلكم، والذي لكم عنـد اللـه وعندي في الذي تستقبلونه أجل وأكبر، فسيروا علــى بركـات اللـه ويمنـه وسعادته ونصره وتأييده.

كونوا عندما رجوتكم له من الغناء والكفاية، وصـــلاح الحـال بينكـم، أحسنوا عشرة بعضكم لبعض وعشرة من تصحبونــه مـن غـيركم، وأنزلـوا من ينفذا معكم من عبيدي منازل أخوانكـم، واجمعـوا معهـم كلمتكـم، فهـم

لكم عضد ولحمة، وموالاتي تجمعكم إياهم، فلا تجعلوا بينكن وبينهم فرقاً، أحسن الله لكم الصحابة، وعليكم الخلافة»[1].

ومن استعراض لهذا النص المسهب نلاحظ أن المعز لم يشر إلى دخول زناتة وسواها في طاعة بني أمية، وأن حملته ضد العصاة وضد الأمويين، كما أنه لم يذكر الجانب العقائدي لدى أباضية تيهرت أو صفرية سجلماسة، وطبعاً لم يذكر ابن واسول بالاسم بل أشار إليه إشارة على أنه مخالف ادعى ما ليس له بحق، وهام جداً ما جاء في نهاية خطبة المعز، بشأن التوصية بالصقالبة وتسويغه لتعيين أحدهم قائداً للجيش، وذكر القاضي النعمان أنه بعدما أكمل المعز استعراضه لعناصر كتامة ووصيته لهم، «أدخل العبيد فأوصاهم بمثل ما أوصى به الأولياء، وأمرهم بأن يكونوا لهم أخوة، ومعهم ألفة»[2]. هذا ولا ندري مقدار نسبة العبيد الصقالبة بالنسبة لتعداد «الأولياء» من كتامة.

وسلف لنا أن أوردنا ما حكاه المقريزي في ترجمته لجوهر، ولاسيما مقتل يعلى بن محمد، فقد أفادنا المقريزي أن يعلى بن محمدساير القائد جوهر ولم يقاومه، والذي وقف في وجه قوات جوهر مشاغبة أهل أفكان، هذا ويستدل من كلام القاضي النعمان ومن روايات أخرى أن يعلى بن محمد علم أن لا طاقة له بمواجهة جيش جوهر، فخرج لتلقيه مسالماً، فكان مصيره القتل مع أخيه على أيدي الكتاميين.

ويستدل مما كتبه القاضي النعمان أن عبد الرحمن الناصر عندما علم بأخبار حملة جوهر «اشتد خوفه، واستولى عليه ذعره، فأرسل أوثق قواته عنده بعسكر أوعب فيه إلى ناحية المرية، فضرب على ساحل البحر

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٢٥٤ ـ ٢٥٧.
(٢) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٢٥٤ ـ ٢٥٨.

مضاربه، وأناخ به عسكره، إلى أن واتى مركب به بعض أهل يعلى اللعين يخبرون بقتله وقتل أهل بيته، واستيلاء العساكر في ساعة واحدة على مدينته وقياطينه، وجاء في مركب مخبر آخر يخبر عن هرب صاحب سجلماسة، ولم يكن علم بأسره، فما هو إلاّ أن بعث ذلك في العسكر الفزع فنفروا نفرة واحدة، فما اجتمع منهم اثنان، وما بقي بالمناخ إلاّ مضرب القائد، وهم من وراء البحر»[1].

على هذا حدث مقتل يعلى بن محمد قبل الاستيلاء على سجلماسة، ويبدو أن الذي حدث هو أن القائد جوهر توجه بحملته أولاً نحو ممتلكات يعلى بن محمد التي كان من بينها تيهرت، ولدى اقترابه من تيهرت خرج يعلى بن محمد إلى استقباله، متوقعاً الوصول معه إلى تسوية ومصالحة، لكن بينما كان يساير جوهراً وقعت اشتباكات ما بين جيش جوهر وقوات زناتة، مما أدى إلى قتل يعلى ومفاجأة قواته القبلية ومن ثم إلحاق الهزيمة بها ونهب أفكان وتهديمها، ويقول صاحب مفاخر البربر: «فلقيه يعلى هذا في منحدره بمدينة تيهرت واثقاً ببأسه، مدلاً بقوة قومه طامعاً فيما أبداه جوهر لنظرائه، ففتك به قواد كتامة بين يدي جوهر»[2]، ويبدو أن تيهرت لم تنهب واستخلف عليها جوهر والياً لكنه لم يعد إليها المغراوي، وقصد نحو فاس.

وحمل رأس يعلى إلى المعز بشارة ودلالة على نجاح حملة جوهر، وذلك قبل قصدها مدينة فاس، واستغل المعز هذه المناسبة، قال القاضي النعمان: «وسمعته (صلع) وقد أتي برأس يعلى بن محمد بن صالح ورأس أخيه، فوضعا بين يديه، فقال: هذا ممن قال الله فيه ﴿**أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار**﴾ (الزمر: ١٩)؟ قد صنعنا به ما قد علمتوه، أعطيناه من سلطان الله (عج) الذي أعطاناه، وملكناه وخولناه

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٢١٧.

(٢) مفاخر البربر ص ٤ ـ ٥. ابن عذارى جـ ١ ص ١٩٨. الاستقصا جـ ١ ص ٢١٢.

وأعززناه وكان رأينا فيه العفو والصفح عما يبلغنا عنه من نمط النعمة وكفر الإحسان ما ظهر بالطاعة، فأبى الله (عج) لنا من أن نقر على المكروه والضيم، فأبدى عليه ما أبطنه، وأظهر ما أسره، وعجل منه انتقامه وسلبه نعمته كعادته عندنا فيمن كان كأمثاله»[1].

وعلى هذا نجت تيهرت ولم يلحقها لا النهب ولا الدمار، بل ألم ذلك بأفكان التي ربما شكلت منافساً مؤقتاً لها، وإنه لما يلفت الانتباه إخفاق الفاطميين، في اجتثاث الأباضية من المغرب، ومازال في أرجاء المغرب حتى اليوم جماعات أباضية هنا وهناك، لكن لا يوجد أحد من الإسماعيلية مطلقاً.

وقد نرى في حملة جوهر لإعادة كل من تيهرت وسجلماسة إلى الحكم الفاطمي عملاً كان المقصد منه تجاري، أي السيطرة على التجارة مع السودان ومع الصحراء، أو بعبارة أخرى السيطرة على طريق الذهب، لكن لاشك أن عدم الاستقرار السياسي والأمني، لم يوصل الفاطميين إلى هذه الغاية، يضاف إلى هذا أن قبائل زناتة وسواها عادت إلى التمرد ضد الفاطميين، فقد تابعت قرطبة بعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر سياستها المغربية، وينقلنا هذا من تيهرت إلى حديث آخر متداخل أيضاً، عن علاقات الخلافة الفاطمية بكبريات القبائل المغربية.

العلاقات مع كبريات القبائل في المغربين الأوسط والأقصى:

لقد تصدر قبائل المغرب في أيام الخلافة الفاطمية بشكل عام، وأيام حكم الخليفة المعز لدين الله بشكل خاص، ثلاث مجموعات قبلية عملاقة هي: كتامة وصنهاجة، وزناتة، أما كتامة ففي ديارها وبين صفوفها

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٢٧٥.

انتشرت الدعوة الإسماعيلية، وعلى أكتافها تأسست الخلافة الفاطمية، وبفضل جهود رجالها استمرت حية، فهي عصبية الدولة، منها تكون عماد الجيش الذي قاده جوهر للاستيلاء على مصر، ولقد جاءت عملية الاستيلاء وما أعقبها حتى قدوم المعز إلى القاهرة أشبه بهجرة كتامية إلى المشرق العربي، ولاشك أن هذه الهجرة قد أضعفت كتامة في المغرب، مما هيأ الفرصة أمام سواها لوراثة السلطان الفاطمي في إفريقية والمغرب، وكانت قبائل صنهاجة هي التي نالت ذلك.

أما قبائل زناتة فقد اتسمت قديماً بالطابع الخارجي لكن التسنن كان قد عم بين صفوفها في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، وارتبطت بشكل عام مع السلطة الأموية في قرطبة، مع شيء من التقلبات أحياناً، مما رافقه بعض التبديل بأسماء الزعامات، ولقد عرضنا من قبل بعض أوجه النشاطات التي مارستها قبائل زناتة، لاسيما حول تيهرت، وقد مثل زناتة في أوائل أيام المعز لدين الله بشكل رئيسي محمد بن خزر المغراوي، ويعلى بن محمد اليفرني، أما يعلى بن محمد فقد لاقى مصرعه أثناء حملة جوهر الكبيرة لعام ٣٤٧هـ/٩٥٩م، وتقدم الذكر أن محمد بن خزر قد رافق القائد جوهر في حملته، وطبعاً لم يعده القائد جوهر إلى ولاية تيهرت، ربما لأنه كان مسناً، أو لسبب آخر، وقد عاد معه إلى إفريقية وفيها توفي عام ٣٥٠هـ/٩٦٢م.

وكانت الضربة التي نزلت بالفرع اليفرني من زناتة قاسية جداً، وقد خلف يعلى بن محمد ابنه يدو بن يعلى، وخلف محمد بن خزر في زعامة فرع مغراوة محمد بن خير بن محمد بن خزر أي أنه كان حفيد محمد بن خزر.

وكانت قبائل زناتة قبائل ظاعنة، ديارها شملت معظم المغرب الأوسط ولاسيما حول تيهرت ووهران وتلمسان، واشتملت ديارها على عدة سهول وهضاب وجبال، وبذلك توفرت لها المراعي والأماكن

الحصينة، وتاخمت الصحراء، وكانت متصلة بأباضية جبل نفوسة، جبل طرابلس[1].

وكانت ديار قبائل زناتة شاسعة جداً، شكلت همزة وصل استراتيجية فيما بين أجزاء كبيرة من المغرب الأقصى، والمغربين الأوسط والأدنى، واتسمت مواقفها منذ أيام الفتوحات الكبرى للمغرب بالعداء وعدم الاستكانة للسلطة المركزية، وكان رجالها يثيرون الاضطرابات، ومن ثم تلحق بهم الضربات واحدة تلو الأخرى، مما أضعف قواهم، وهيأ الفرصة أمام قبائل صنهاجة، كما أعطى المجال لظهور قوى قبلية جديدة، لاسيما في مناطق جبال درن (الأطلس الكبير) وما خلفه.

وكان أهم ثورات زناتة بعد رحيل جوهر الصقلبي إلى مصر، ثورة أبي خزر الزناتي، وتسبب في إثارة هذه الثورة اثنان من مشايخ الأباضية الوهبية هما أبو خزر وصاحبه أبو القاسم، فقد كانا «إماما أهل التوحيد، وفخر من نشأ بقسطيلية وغيرها من بلاد الجريد»[2]، وكانا من بني وسيان من زناتة، وكانت لأبي القاسم مكانة علمية وسياسية مرموقة، وكان «أبو القاسم أسن من أبي خزر، وكان مسكنهما بالحامة .. وكان أبو القاسم ذا مال كثير، وأما أبو خزر فلم يكن كذلك، إنما كانت معيشته من كسب يديه... (وكان) إذا دخل مدينة القيروان اضطربت المدينة كلها من أجله بفنون العلم والسؤالات المعضلة... وكان أبو القاسم ـ لما بلغ من العلم ـ عظيم الدرجة، رفيع المنزلة عند كل سلاطين القيروان، وبلغنا أن أبا تميم بعث إلى الحامة جيشاً، وكان من عادته إذا سخط على قرية أو مدينة أن

---

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦. الادريسي ص ٦١. الاصطخري ص ٣٦. ابن عذاري جـ ص ٢٠٠. ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٠٣. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) الدرجيني جـ ٢ ص ٣٤٠.

يبعث مع جنده راية حمراء، فهي أمارة السخط على تلك القرية أو المدينة، أما الراية البيضاء، فهي أمارة الرضا بعد السخط.

فسمع أبو القاسم ـ رضي الله عنه ـ أن أبا تميم بعث إلى الحامة جنداً بالراية الحمراء، وهو علم بخبر الرايتين، فخرج مبادراً إلى القيروان حتى وصل إلى أبي تميم، فلما دخل عليه سأله أبو تميم عن حاجته، فأخبره أبو القاسم عن حاجته، فاستعفاه عن الحامة، فعفا عنها وأعطاه أبو تميم الراية البيضاء، فأسرع بها أبو القاسم السيركي لا يستبقه العسكر إلى الحامة، فأوفى أبو القاسم العسكر لما وصل إليها، فلما رأى أهل العسكر الراية البيضاء تنحوا عنها وتركوها، وكانت منزلة أبي القاسم عند أبي تميم عظيمة...

وبلغنا أن أبا القاسم ـ رضي الله عنه ـ دخل ذات مرة على أبي تميم فطلب أن يريه سيف رسول الله ﷺ ذا الفقار، فأمكنه منه وأراه إياه، فلما أخذه أبو القاسم رضي الله عنه ـ سله وهزه بين يديه، فرعد أبو تميم منه، ثم قال أبو تميم ـ بعد ما رد السيف ـ لبعض وزرائه: لم آمن على نفسي حين أمكنت أبا القاسم من السيف حتى دخل يدي، وتخوف أبو تميم من جهة أبي القاسم كثيراً، وطعن في أبي القاسم ـ رضى الله عنه ـ بعض وزرائه، وأكثروا فيه الطعن... (و) تحدث (أبو القاسم) مع يهودي، فجرى بينهما كلام من أجل أبي تميم، فقال له أبو القاسم: ليس بيننا وبينه إلاّ يسيراً، فنظهر عليه ونخرجه من تلك المدينة ـ يعني مدينة القيروان ـ، فلما افترقا قام اليهودي مبادراً، فبلغ قوله إلى أبي تميم، فبلغ المشايخ ما قال أبو القاسم لليهودي، فأتوه، فعاتبوه على ذلك ولاموه... وكان أبو القاسم وجماعة المشايخ يخرجون أوان الربيع إلى ظعائن مزاته، وكانت لهم بها قوة عظيمة وعدتهم اثنا عشر ألف فارس، وأما الرجال فلا يعدون، وكثر الطعن في أبي القاسم ـ رضي

الله عنه ـ عند أبي تميم ـ لعنة الله ـ وذكر أنه يريد الخروج عليه، والقيام عليه»[1].

فما كان من المعز إلاّ أن بعث إلى عامله على الحامة، وشدد عليه، وأكد وجوب قتل أبي القاسم، ففعل، كما اعتقل غيره من زعماء الأباضية، وكان لمقتله وقع عظيم لدى الأباضية فقرروا الانتقام لدمه وتشاور مشايخ جبل نفوسة مع سواهم، وقلدوا أمرهم أبا خزر، صديق أبي القاسم، وتصرف الأباضية بشيء من الحيطة، لكن ظل طابع السذاجة والاعتداد بالقوة الذاتية، والمثالية العقائدية، مسيطراً على تحركاتهم، مثلما كان عليه حال أبي القاسم، ومع هذا قرروا مراسلة «بني أمية في شأن أبي تميم» وكتبوا إلى قرطبة كتاباً «فأخذ الكتاب في الطريق، فأتي به إلى أبي تميم، فوقف عليه وفهمه، فزاده ذلك حنقاً»[2].

وكان بين مشايخ الأباضية من «كره قيامهم وخروجهم على أبي تميم» وحذرهم أن امكاناتهم أدنى من أن تستطيع مواجهة قوى الخلافة الفاطمية، ومع هذا خشي المعز من خروجهم، فما كان منه «حين سمع بخروجهم، والتهيؤ لذلك، راسل المشايخ وقال لهم: ارجعوا إلى بلادكم التي وليتموها من تاهرت وغيرها، فتكونوا على ما كان عليه أوائلكم، ونكون على ما كان عليه أوائلنا، وكان ذلك مراد الشيخ أبي خزر ـ رضي الله عنه ـ أن يفعلوا، ولكن العامة أبت إلاّ مناصبة أبي تميم وقتالة والطلب بثأر الشيخ»[3].

واستنفر أبو خزر قوى الأباضية في كل مكان، وعقد الأباضية له «ولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ. فإن أدركوا حاجتهم عقدوا له

---

(١) كتاب السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكريا ص ١٩٤ ـ ١٩٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٩ ـ ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

ولاية الظهور، فزحف الشيخ أبو خزر، ولم ينتظر إمداده، فلما وصلت عساكره إلى باغاي (باغاية الحالية بين مجانة وقسنطينة) حاصر أهلها أشد الحصار، حتى اضطروا إلى القصر القديم»[1].

وقرر المعز الخروج بنفسه للقضاء على الثورة الأباضية، لكن قبل أن يصل إلى باغاية بلغه أن الخلاف نشب بين قوات أبي خزر، وأنها نتيجة لأمور كثيرة انهزمت، فقرر العودة إلى القيروان، وأرسل القائد الصنهاجي بلقين بن زيري لملاحقة فلول الأباضية، وانهزم أبو خزر «وتنحى وهرب إلى جبل يقال له تشأرت... فاستخفى الشيخ أربعين صباحاً، حتى غاب الخبر وعفا الأثر... ثم إنه توجه نحو جبل نفوسه»، وكان هذا كله سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م.

وتمكنت القوات الفاطمية من اعتقال أبي نوح، الذي كان الزعيم الآخر للأباضية بعد أبي خزر، وقد حمل إلى المعز الذي حقق معه شخصياً، ثم أطلق سراحه، وأعطاه أماناً لأبي خزر، فالتقى به في قابس، وأخذه معه عائداً إلى القيروان، حيث احتفظ بهما المعز، وقرر اصطحابهما مكرهين معه إلى مصر، ولذلك أنشد أبو خزر يقول:

عليكم سلام الله إني مسافر	ولم أدر بعد السفر إن كنت راجع
عليكم سلام الله في كل ساعة	سلام كثير دائم متتابع
وإني إذا ما هجت ليلاً بذكركم	أبيت حزيناً والنجوم طوالع
أحب لقا الأخوان في كل ساعة	فإن لقا الإخوان فيه المنافع
فيا رب اجمع بيننا في سلامه	فإنك للخلق المشتت جامع
وإلاّ فصبرني على طول غربتي	فأنت لمن يدعوك يا رب سامع

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥.

أجب دعوتي يا ذا الجلال فإنني دعوتك مضطراً إليك وطائع

ولم يصل أبو نوح إلى مصر، وعاش أبو خزر في مصر إلى ما بعد وفاة المعز واستخلاف ابنه العزيز، ولم تشهد منطقتهما بعدها أية ثورة ضد الفاطميين أو نوابهم[1]، لكن مناطق زناتية أخرى شهدت صراعات جديدة حادة ضد الفاطميين.

وذكر صاحب كتاب مفاخر البربر أنه قام بزعامة زناتة «محمد بن الخير بن محمد الخزري وكان من أكبر ملوكهم جمعاً وأبسطهم يداً، وأشدهم للمروانية إعظاماً وبراً، فعاود محمد بن الخير مغورة أولياء الشيعة، وأثر في ذلك أثراً حسناً.

وهلك مع أول ذلك الوقت الناصر لدين الله، وتضاعف عزم الحكم ابنه في حماية أعمال العدوة، فاستأنف في مخاطبتهم وتشحذ عزائمهم، وبسط آمالهم، وخص بأوفر ذلك محمد بن الخير زعيمهم، فثابر نشاطه وشمر عن ساقه، وقصد أصحاب معد، وعاش في أعماله، فرمى معد ثغر المغرب بصنيعته زيري بن مناد التلكاتي، زعيم بادية صنهاجة، وضد محمد بن الخير جملة ومحلة، وأقامه في أولياء الدولة، وسوغه ما افتتحه بسيفه من ديارهم، فنزل زيري مدينة أشير، واجتمعت إليه صنهاجة، واشتدت صولته، وكثرت وقائعه، إلى أن جمع له محمد بن الخير جمعاً عظيماً من زناتة، فخرج بُلقين بن زيري، المكنى بأبي الفتوح، خليفة زيري أبيه، وأكبر ولده، في جميع صنهاجة، وغامضة قبل أن يلتئم نظامه وتتسنى تعبئته، والتقيا في النصف من ربيع الآخر سنة ستين وثلاثمائة، فدارت بينهم الحرب التي لم يعهد بمثلها، ظهرت فيها صنهاجة بقوة الناموس، وهبوب ريح الصولة، فلما نظر محمد بن الخير إلى مصاف أهله،

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٦ ـ ٢٢٨. دور زناتة لابن عميرة ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

وأيقن أنه قد أحيط به، مال إلى ناحية فذبح نفسه بسيفه، واستمرت الهزيمة على قومه سحابة يومهم، فأبادوا منهم خلقاً عظيماً ظلت عظامهم بلائحة في المكان مدداً طائلة، وقتل في هذه الوقعة بضعة عشر أميراً من زناتة، ونصرت صنهاجة نصراً ثبت لها السلطان بأرض المغرب»[1].

لكن هذه الوقعة لم تكن نهاية المطاف بالنسبة لقبائل زناتة، فقد توفرت دوماً الأسباب الداخلية مع المحرضات الخارجية للثورة، «وذلك أن زيري بن مناد عقب هذه الوقعة استطال على بوادي البربر، وظن أن لا غالب له، وبسط على قبائل زناتة النازلين بأكناف المسيلة، وأميرهم يومئذ جعفر ابن علي بن حمدون، المعروف بابن الأندلسي، فأذله زيري فيهم، فتغير جعفر لذلك، وأحقده ذلك على الدولة العبيدية، وتحمل عن المسيلة، مظهراً اللحاق بالمنصورية، وذلك في جمادى الأخيرة سنة ستين وثلاثمائة، ثم مال بأهله وماله وعدده وعبيده، ورجاله إلى جمع زناتة، وخلع طاعة معد، واعتصم بدعوة المروانية، وتوافت إلى زناتة أمدادها من زناتة وغيرها ممن تخلف عن الوقعة، فبادر نحوهم زيري بن مناد طمعاً في فضهم قبل أن تقوى شوكتهم، فألقى نفسه عليهم، وهو منهم على غاية الثقة، وذلك في رمضان سنة ستين وثلاثمئة، فاشتدّ القتال بين الفريقين، وزيري في صدر خيله يحرضها بفضل نخوته، وشدة جرأته، إلى أن عقر به فرسه، وجدت زناته في القبض عليه، وصنهاجة في استنقاذه، ودارت رحى الحرب ساعة قتل فيها من أنجاد الطائفتين جماعة إلى أن ظهرت عليه زناتة وهو عقير، فاحتزت رأسه، واستمرت الهزيمة على صنهاجة فأبادتهم».

وإثر المعركة ارتحلت زناتة نحو سواحل البحر، وأرسلت رأس زيري إلى الحاكم المستنصر، وأرسلت قرطبة الأموال والجوائز إلى زناتة، وذهب

---

(١) مفاخر البربر ص ٥ - ٦. البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤٣. ابن خلدون جـ ٧ ص ٥٥ ــ ٥٧. ابن عميرة ص ٢٣٦.

جعفر إلى القائد المتنصر نفسه إلى قرطبة «فسر الحكم به وأكرمه ورفع منزلته»[1].

هذا ويلاحظ أن الصراع الآن بين زناته وصنهاجة كان من بعض الوجوه صراعاً بين الفاطميين والأمويين، ومن جانب آخر مثل أيام العرب قبل الإسلام، أي صراع عصبيات قبلية أثارتها الأحقاد وتباين المصالح. ويتساءل المرء، هل خلف هذا الصراع بين صفوف القبائل المغربية نوعاً من أنواع أدب الأيام، حسبما كان الحال لدى قبائل المشرق؟. ومن المفترض توفر شيء من هذا القبيل، لكن لعله لم يدون ليصلنا، وربما تناقلته الألسن، لكنه ضاع مع مرور الأيام وتمكن حركة الاستعراب.

ومهما كانت الأحوال لقد «وردت على الأدب الشيعي النكبتان معاً: فساد الأندلسي، وخلعه، وهزيمة زيري وقتله، فاشتد ذلك عليه وأقلقه، وقلد بلقين العملين معاً، وأنجده الشيعي بالمال والرجال وأخرجه إلى المغرب في أول سنة إحدى وستين وثلاثمائة، فأوغل في ديار زناتة، وقتل منهم في مواطن كثيرة خلقاً لا يحصيهم إلاّ الله، واستولى على تاهرت والمسيلة، وطنبة، وباغاي، وبجاية وبسكرة، وجميع المدن بالمغرب، حتى لم يبق لزناتة في شيء منها أمر، ثم انثنى على بواديها وصحاريها، فقتل من زناتة وهوارة، ونفزة وجميع أصناف البربر الخصاصين عالماً لا يعلمه إلاّ خالقه، وجعل يقول: لا أمان عندي لبربري ركب فرساً أو نتج خيلاً أبداً حيثما سلك من البلاد»[2].

وكان المعز لدين الله الفاطمي قد عقد عزمه على مغادرة إفريقية والتوجه إلى مصر، وقد قرر أن يدع سلطان الفاطميين في المغرب كله

---

(١) مفاخر البربر ص ٦ ـ ٨. المؤنس ص ٧٤. ابن خلدون جـ ٦ ص ٣١٤ ـ ٣١٦. ابن عميرة ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) مفاخر البربر ص ٨. المؤنس ص ٧٤. ابن خلدون جـ ٦ ص ٣١٦ ـ ٣١٧. ابن عميرة ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

بيد ي بلقين بن زيري زعيم قبائل صنهاجة، حيث لم يبق في الديار من أقوى شوكة منه، فزناتة قد تبددت قواها هنا وهنا، ولم تغامر قرطبة على الدخول بالصراع مباشرة ضد الفاطميين في البر أو البحر، وانحصرت همومها في المنطقة الساحلية، واستدعى المعز إليه «بلقين بن زيري، وكان متوغلاً في المغرب في حروب زناتة، وولاه أمر إفريقية والمغرب، ما عدا صقلية، وكانت لبني أبي الحسين الكلبي، وطرابلس لعبد الله بن يخلف الكتامي، وسماه يوسف بدلاً من بلقين، وكناه أبا الفتوح، ولقبه سيف الدولة، ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة، وحمله على مقرباته بالمراكب الثقيلة، وأنفذ أمره في الجيش والمال، وأطلق يده في الأعمال، وأوصاه بثلاث: أن لا يرفع السيف عن البربر، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا يولي أحداً من أهل بيته، وعهد إليه أن يفتح أمره بغزو المغرب لحسم دائه، وقطع علائق الأموية منه.

وارتحل يريد القاهرة سنة اثنتين وستين، ورجع عنه بلقين من نواحي صفاقس، فنزل قصر معد بالقيروان، واضطلع بالولاية، وأجمع على غزو المغرب فغزاه في جموع صنهاجة، ومخلف كتامة، وارتحل إلى المغرب»[1].

وبرحيل المعز استمرت بعض المناوشات ما بين بقايا قوى زناتة وقوى صنهاجة الصاعدة، وليس من شأننا هنا البحث في ذلك، غير أن الحديث عن استخلاف المعز لبلقين بن زيري بن مناد، يشكل مدخلاً موائماً للتفرغ للحديث عن قبائل صنهاجة وما قامت به أيام المعز لدين الله، وهذا الحديث سيكون مختصراً لتجنب التكرار، ذلك أن ما تقدم بحثه عن قبائل زناتة هو في الوقت نفسه كان حديثاً عن أدوار صنهاجة.

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣١٧ ـ ٣١٨، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٠ ـ ١٠١، ابن عميرة ص ٢٣٩.

ووقعت ديار صنهاجة فيما بين ديار كتامة من جهة وديار زناتة من جانب آخر، وعدّ الأمير بلقين بن زيري ورأى أنهم انتموا إلى حمير، فلدى قدوم أحد الوفود لتعزيته بمقتل والده، ولتهنئته بالإمارة بعده قال له: «إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهراً، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب، لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[1].

واستفادت صنهاجة من موقع ديارها الاستراتيجي في المغرب الأوسط، ورأت مصلحتها في موالاة الدولة الفاطمية، وفي أيام المنصور إسماعيل كان على رأس زعمائها زيري بن مناد، وساعده زيري في القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ومنذ ذلك الوقت شغل الفاطميون زيري وقبيلته في الحرب ضد زناتة، ولقد تقدم معنا ذكر ذلك حتى مقتل زيري واستخلاف ابنه بلقين، ثم الأدوار التي قام بها بلقين حتى استخلافه من قبل المعز، لدى إقدامه على الارتحال إلى مصر.

وعلى عكس زناتة التي كانت قبائل ظواعن، كانت صنهاجة قبيلة مستقرة حاضرتها مدينة أشير، ثم إنها تملكت تيهرت وسواها، وحين آل إليها حكم إفريقية عوضاً عن الفاطميين، كانت لديها الأهلية الحضرية للقيام بمهام الملك، ويبدو أن المعز الفاطمي كان على دراية بنسب صنهاجة، ولهذا أوصى بلقين «بأن لا يرفع السيف عن البربر»، وطبعاً هذه وصية شاذة صدرت عمّن عدّ نفسه إماماً للمسلمين، وأعظم غرابة وصيته له أن «لا يرفع الجباية عن أهل البادية».

وإذا قدرنا أن ما قاله بلقين كان بعد رحيل المعز وأنه كان صحيحاً، ففي ذلك تعبير عن نزعات استقلالية، ورفض لوصية المعز له، ووعد

---

(١) المعجب للمراكشي ص ١٤٧..

بسياسة جديدة، ولابد هنا من أن نتساءل: هل كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، عارفاً بالنزعات الاستقلالية لدى بلقين بن زيري، وخشية منه من تهديد مصر أو غيرها إذا ما تمكن من السيطرة على جميع أرجاء المغرب الكبير، ولكي يبقي الصلات قائمة ما بين بقايا كتامة ومصر، أسند ولاية طرابلس لرجل من كتامة هو عبد الله بن يخلف؟ هذا ما نرجحه، وتبرهن عليه مجريات أحداث العلاقات الفاطمية ـ الزيرية المستقبلية حتى أيام العز بن باديس.

وإذا ما تركنا صنهاجة بغية الوقوف عند علاقات المعز بقبائل كتامة، لابد من أن نقرر منذ البداية أن مجمل التاريخ الفاطمي في المرحلة المغربي هو تاريخ قبائل كتامة وإنجازاتها، وصحيح أن العلاقات ما بين بعض الخلفاء وبعض رجالات كتامة كان يصيبها بعض الفتور، لكن ظل أفراد كتامة دائماً هم «أولياء الدولة الفاطمية»، وأحاط الفاطميون أنفسهم بأعداد كبيرة من العبيد الصقالبة، وتوفر بعض التحاسد والتنافس ما بين الصقالبة وبعض القيادات الكتامية، لكن الخلفاء، كانوا يبادرون لاصلاح الحال، وفي المجالس والمسايرات حكايات كثيرة حول هذا الموضوع وتبيان لمدى اهتمام الخليفة المعز الدائم بقبائل كتامة، ونجد أيضاً مثل هذا في سيرة جوذر، ففي خطبة المعز العامة الأولى إثر توليه الخلافة قال مخاطبا كتامة: «معاشر أوليائنا، والقائلين بطاعتنا، والمتمسكين بولايتنا هذه المحن الشداد، المنضجة للأكباد، هذه الزلازل العظام التي لا تثبت لهاالأقدام، هذه المشاهد التي لم يألكم أئمتكم لها تثبيتاً، ولم تزل راغبة إلى الله في تثبيت أقدامكم وعصمة قلوبكم عند حلولها بكم، ووقوع المحنة فيها عليكم، فتثبتوا تسلموا، ولا تضلوا لتندموا»[1]، وختم خطبته بالدعاء لكتامة قائلاً: «وأخصص أولياء دولتنا وأنصار دعوتنا المجاهدين

---

(١) جوذر ص ٨٠.

الصابرين الشاكرين من رحمتك بما استوجبوه بطاعتك وقضاء فروضك، وموالاة أوليائك، ومعاداة أعدائك»[1].

واستقبل المعز في أحد الأيام «جماعة من مشايخ كتامة ووجوههم» فتحدث إليهم قائلاً: إن قد أزلت كباركم منازل الإخوة، وصغاركم منازل الأولاد، وأنتم في خير زمان، فاعرفوا قدر النعم عليكم، وقيسوا أنفسكم اليوم بمن مضى منكم بالأمسي، من قوم أنتم بعض حسناتهم لسبقهم وجهادهم وقدمهم، وما أقام الله عز وجل من هذا الأمر بأسيافهم وأيديهم»[2].

ولدى أعداد المعز لخططه للاستيلاء على مصر والمشرق جهد دوماً في سبيل إقناع كتامة بضرورة مشاركتها بهذا المشروع، الذي كانت أبسط معانيه التخلي عن الوطن والديار، ولهذا استغل ما كان رائجاً بين صفوف قبائل بربر المغرب، بأن هذه القبائل كان أجدادها يسكنون بالأصل في ديار فلسطين، وأن النبي داود قد أجلاهم عن ديارهم، وبيّن لهم أن قرار هذا النبي وعمله يحق للإمام نقضه، ذلك أن الإمام هو وارث الأرض وكتامة أتباعه وأولياؤه.

ووافقه الكتاميون، وحين قال لهم بأن المخالفين قد لا يقنعون «بهذا القول ولا يرون أنه حجة عليه»، أجابه أحدهم قائلاً: «من لم يقنع منا بهذا القول كانت سيوفنا على رأسه»[3]، ولهذا لا عجب أن روى القاضي النعمان وقال: «وسمعته صلوات الله عليه يذكر كتامة وموالاتهم وانطباعهم على الولاية، فقال عليه السلام: والله إني لأظن أنه لو مثلت لهم النار والجنة، وقيل لهم: هذه الجنة وفيها أعداؤنا. وكلا لا يكون ذلك ـ فإما

(١) المصدر نفسه ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) المجالس والمسايرات ص ٩٦.
(٣) المجالس والمسايرات ص ١٢٨.

أن تكونوا معهم فيها، وإلاّ فهذه النار فأدخلوها، لاختاروا دخولها»[1].

ومن المرجح أن رجالات كتامة آمنوا بالتشيع، لكنهم لم يتعمقوا بالفكر الإسماعيلي لاسيما الشطر الباطني منه، وحرص المعز دوماً على الاهتمام بثقافتهم الشيعية العامة بغية المحافظة على إخلاصهم، حيث يبدو أن تيارات الفكر والمناظرات بين الناس بشكل عام كانت ضد الفكر الإسماعيلي بشكل خاص والشيعي بشكل عام، ومع هذا كانت قدرة الكتاميين محدودة لم يتمكنوا من استيعاب الحجج الإسماعيلية الناقضة لآراء القوى المعارضة، ففي إحدى المناسبات ألقى المعز على الكتاميين محاضرة طويلة ختمها بقوله: «والله إني لأشهى في تعليمكم وتقويمكم مني في كل شيء أشتهيه، لأني أحب أن تكونوا أعلم الناس وأورع الناس، وأحلم الناس، فلا تدابروا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا»[2].

ولم يدع المعز لدين الله فرصة إلاّ وعبر فيها عن محبته لكتامة، وعن الإشادة بإنجازاتها، «قال القاضي النعمان بن محمد: سمعت الإمام المعز لدين الله صلوات الله عليه يوماً وقد قرب عيد الأضحى، وسأل عن مجيء كتامة من الأعمال لشهود العيد، فقيل له: يا أمير المؤمنين، يتسايرون وقد غص القصر بهم، فقال: بارك الله فيهم، وكثر أعدادهم، فما أسرني بهم وباحتفالهم، وما احب إليّ أشخاصهم وأزين في عيني مناظرهم»[3].

«ودخل إليه رجال من كتامة أتوا من النواحي لشهود العيد، فدخلوا إليه، وسلموا عليه، ووقفوا بين يديه، فسألهم عن أحوالهم، ومن خلفوه منهم، فأحفى السؤال بهم، فشكروا ذلك من افتقاده وسؤاله، وذكروا جميل أحوالهم، وهدوء نواحيهم، واستقامة الأمور قبلهم، وشكروا عمال

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٢٠٣.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٢١٩ ـ ٢٢٣.

(٣) المجالس والمسايرات ص ٢٤٥.

بلدانهم، فابتهج لذلك صلوات الله عليه وسره، وتهلل وجهه وتبسم»، وتبادل المعز الأحاديث مع زعماء كتامة ورجالاتها، الذين أكدوا له الولاء الكامل، فبين لهم قائلاً: «والله ما يختالجني الشك في اعتقاد صغيركم وكبيركم وحركم وعبدكم، وذكركم وأنثاكم ولايتنا، واجتماع قلوبكم على محبتنا، على ذلك نشأ صغيركم، وعليه كبر كبيركم»[1].

وحرص المعز على استمرار نوع من الوفاق ما بين كتامة وعبيده الصقالبة، ولم يدع مناسبة من المناسبات تمر دون أن يظهر فائق اهتمامه بكتامة، فهذا ما فعله عندما أقام حفلاً كبيراً بمناسبة ختان أولاده: عبد الله، ونزار، وعقيل، حيث قال لرجالات كتامة: «أريد أن تكون أنفسكم وهممكم بقدر مكانكم مني ومحلكم لدي، إني أحب أن أباهي وأكاثر بكم في الدنيا والآخرة.... فبي والله تدعون ـ يوم القيامة ـ وأنا الشهيد عليكم، وما أحسب أن يأتي أمثالي بقوم صالحين وآتي أنا بقوم لا خير فيهم»، وانزعج الكتاميون من هذا الكلام، وخيل إليهم أنه «قد خفض منهم»، ولاحظ ذلك القاضي النعمان، فتدخل لإزالة الالتباس[2].

وقد يستفاد من هذا أنه القدرة على فهم العربية لدى عامة الكتاميين وخاصتهم بقيت متدنية، وقطعاً تعذر عليهم فهم ما طرحه المعز من آراء ومن جدل.

وكان أبرز شخصيات كتامة في أيام المعز جعفر بن الفلاح، وقد شارك جعفر في حملة جوهر على مصر، وأسهم بشكل فعال باحتلال الفسطاط، ثم كلفه جوهر بالاستيلاء على بلاد الشام، فلم يحالفه النجاح،

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٣٢١ ـ ٣٢٣.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٥٥٦ ـ ٥٦٢.

وفقد حياته في دمشق[1]، وهذا يفيد أن عدداً كبيراً من كتامة أذابتهم أحداث المشرق، فمنذ أيام العزيز صار قوام الجيش الفاطمي مشارقة وسودانا، ونحن وإن كان هذا خارج إطار موضوعنا، الذي يهمنا قوله هو أن قبائل كتامة أسهمت في قيام الدولة الفاطمية والحفاظ عليها، وحققت من وراء السلطة مكاسب جمة، لكنها فقدت بالنهاية الدار والوطن، وكذلك السلطة التي بفضلها قامت، حيث آلت هذه السلطة إلى زعماء قبائل صنهاجة، لكن لابأس بهذا كله، فهي قد أعادت تمازج المشارقة بالمغاربة، بعد حركة الفتوحات الكبرى، وقبل الهجرة الهلالية العظيمة التأثير.

---

(١) ترجمه جعفر بن فلاح من المقفى للمقريزي، ملاحق مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣١٣ ـ ٣٢٠. موسى لقبال ـ دور كتامة ص ٤٤٨ ـ ٤٥٦.

الفصل الخامس

العلاقات عبر البحر المتوسط

(صقلية - الأندلس - بيزنطة)

صقلية:

قامت الخلافة الفاطمية على أرض بلد متوسطي مرموق، وشدت سواحل البحر المتوسط مؤسس هذه الخلافة إليها، فأسس مدينة المهدية، واتخذها عاصمة للدولة، يضاف إلى هذا أن الفاطميين ورثوا عن الأغالبة اهتماماتهم البحرية، فكان لديهم قوة بحرية فعالة، كما ورثوا عنها جزيرة صقلية.

وكانت لكل دولة متوسطية في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد مصالح وعلاقات مع القوى المطلة على المتوسط من مسلمين وسواهم، أي: الخلافة الأموية في الأندلس، والامبراطورية البيزنطية، وإيطاليا وقواها.

هذا ويلاحظ المستعرض لتاريخ المرحلة الإفريقية من حياة الخلافة

الفاطمية، أن الطابع العسكري قد سيطر على حياة هذه الخلافة في الداخل وفي الخارج، وجعل الوضع العسكري هذه الخلافة لا تشعر بالاستقرار، وأنها محاطة بالأعداء من كل مكان، ولاشك أن هذا قد ألقى بظلاله القاتمة على الخلفاء وعلى الحياة الاقتصادية لإفريقية وسائر بلدان المغرب، فالخلافة كانت دوماً بحاجة إلى المال للإنفاق العسكري، وكان ذلك عن طريق الضرائب العالية والمكوس والأتاوات والمصادرات، وعن طريق النشاطات التجارية (احتكار الدولة ورأسماليتها) عبر صقلية، وانعكس هذا سلبياً على سكان المغرب الكبير، واستفحلت أضراره، بكميات الأموال الهائلة التي زود بها الخليفة المعز لدين الله قائده جوهر، حين بعثه للاستيلاء على مصر، ثم بكميات الأموال الكبيرة التي حملها المعز معه حين غادر إفريقية إلى مصر.

وبحكم طلب خلفاء الدولة الفاطمية المتواصل للمال، جعل مصالح الفاطميين تتضارب مع مصالح القوى المتوسطية، كما أن هذه الخلافة أرغمت على التراجع عن أداء بعض المهام المتوسطية، لاسيما لدى تهديد بيزنطة لكريت المسلمة واحتلالها لها.

وتقدم بنا الحديث عن مشروع فتح الأغالبة لجزيرة صقلية، وقد استغرق هذا المشروع مدة طويلة، ولم يحقق المسلمون سيطرة كاملة على جميع أرجاء هذه الجزيرة، فضلاً عن هذا لم تكن أعداد المسلمين التي هاجرت إلى الجزيرة كبيرة، ومثل هذا كانت أعداد الذين تحولوا إلى الإسلام من سكان صقلية متواضعاً، وانقسم المسلمون الذين سكنوا الجزيرة بعد الهجرة إليها إلى قسمين: عرب وبربر، وكان بالوقت نفسه غالبية سكان صقلية من النصارى، يضاف إلى هذا كان في الجزيرة بعض الإغريق واللومبارد الإيطاليين، واليهود مع قلة من الفرس والسودان، وشكل العرب النخبة الحاكمة في جزيرة صقلية، وتلاهم بالمكانة البربر،

وقد تمركز هؤلاء بشكل رئيسي في جرجنت Girgenti وبعض مناطق إقليم مازرا Matara[(1)].

وانقسم النصارى الذين شكلوا أكثرية سكان صقلية إلى أربع فئات رئيسية هي: فئة مستقلة إلى أبعد الحدود، وفئة دفعت الجزية للمسلمين، وفئة التابعين الإقطاعيين، وفئة الرقيق، وكان المستقلون من النصارى يعترفون بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية، وعدّ النصارى الذين عاشوا في المناطق الإسلامية من أهل الذمة، يجري البت في مشاكلهم الداخلية فيما بينهم حسب أعرافهم وشرائعهم، وفيما بينهم وبين المسلمين حسب الشريعة الإسلامية، وعلى العموم كانت أحوال النصارى من أهل الذمة والعبيد أفضل من الذين عاشوا في ظل حكم اللومبارد أو الفرنجة في إيطاليا، ومع الأيام اعتنقت أعداد كبيرة من العبيد الإسلام، وبذلك صار المسلمون في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد يشكلون الأكثرية بين سكان صقلية، وكان هذا في ظل حكم الأسرة الكلبية التي هي محور دراستنا هنا[(2)].

وكان الحكم في صقلية قد آل للفاطميين، بعد زوال الحكم الأغلبي، دون صعوبات تذكر، ومثلما تقلبت الأوضاع في المغرب مع الفاطميين، حدث الشيء نفسه إلى حد ما في صقلية، وأخذت الأمور هناك منحى جديداً مع القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد واستقرار الأمور للمنصور إسماعيل[(3)].

وفي سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م، قرر المنصور إسماعيل حسم الأمور في

---

(١) المكتبة الصقلية لأماري: ٥٤/٣/٢. تاريخ صقلية الإسلامية لعزيز أحمد ص: ٢٩. المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا لأحمد توفيق المدني ص ١١٠ ـ ١١٧.

(٢) المكتبة الصقلية: ٦١٣/١ ـ ٦٣٠. عزيز أحمد ص ٣٠ ـ ٣١.

(٣) عزيز أحمد ص ٣٢ ـ ٣٦. أحمد توفيق المدني ص ١٠٩ ـ ١٢٢.

صقلية وضبط شؤونها، ذلك أن أهلها «كانوا يأخذون كل سفينة غصباً، ويكثرون إظهار السلاح في المساجد، ولا يتناهون عن منكر فعلوه: منهم بنو ماضوض، وبنو حيه، وبنو الطبري، وغيرهم»[1]، فأسند ولاية صقلية إلى الحسن بن علي الكلبي، وكان من شيوخ قبيلة كتامة.

ويبدو أنه لم يكن من السهل عليه السيطرة على القوى المستبدة بالجزيرة، وقد تردد في بعض الأحيان، وكان يعتمد على مساندة الأستاذ جوذر في دار الخلافة الفاطمية، ومعروف أن الأستاذ جوذر قد تمتع بمكانة كبيرة جداً، عند المنصور إسماعيل، ثم عند ابنه المعز لدين الله، فراسل الحسن بن علي الأستاذ جوذر، وأحال جوذر كتابه إلى الخليفة المنصور فأجاب جوذر عليه، وفي الوقت نفسه كتب إلى الحسن بن علي، ويستفاد من رسالة المنصور إلى جوذر، أن الأمير الكلبي اعتقل المتسلطين على صقلية، وبعث بهم إلى المهدية حيث أوكل أمرهم إلى جوذر، وطلب هذا الأمير التوسط لدى الخليفة ليرسل إليه رجلاً اسمه محمد بن عبدون، ومما قاله المنصور في رسالته: «وأما خباب وابن الطبري الأشترين ورجاء بن أخي حية، فاستوثق منهم، وطالبهم بما سرقوه من أموالنا واقتطعوا، ثم ابعث بهم بعد ذلك مكبلين. فاذكر له أنت في كتابك ما كتبت به إليك، وحضه حضاً شديداً على الصرامة، وأن يكون مراً مريراً شرساً، فإنه في بلد قد أسكرت أهله النعمة، وأبطرهم الإحسان، واعتادوا مع خليل أشياء لا يخرجها من رؤوسهم إلا السيوف، وليكن صعباً مستصعباً على كل داعر وفاجر، وليرفع عنهم السوط، ويستعمل فيهم السيف، فإن الواحد مسعف الألف، ولا يصغ إلى من يهول عليه بالأراجيف، فإنه إن فعل ذلك لم يكن حازماً، ولا مفلحاً»[2].

---

(١) سيرة جوذر ص ٧٠ - ٧١. عزيز أحمد ص ٣٧. المدني ص ١٢٣.

(٢) سيرة جوذر ص ٧٠ - ٧١. عزيز أحمد ص ٣٧. المدني ص ١٢٣.

وسيطر الحسن بن علي بهذه الصلاحيات على صقلية، وبإزاحته لكل معارض تهيأت أمامه السبل إلى تأسيس حكم وراثي في الجزيرة، تعاقب عليه بعد الحسن بن علي: «ابنه أبو الحسين أحمد بن الحسن، ثم أبو القاسم علي بن الحسن بن علي، ثم ابنه جابر بن أبي القاسم علي، ثم جعفر بن محمد» بن الحسن بن علي[1].

وإثر وفاة المنصور إسماعيل، وفد الحسن بن علي على المهدية، ومثل في البلاط الفاطمي، واستخلف عنه في صقلية ابنه أبا الحسين أحمد بن الحسن، ثم عاد بعد ذلك إلى صقلية، فقد سيره المعز سنة ٣٤٤هـ/٩٥٦م على رأس أسطول صقلية، فأغار على ألمرية الأندلسية، وأحرق ما كان فيها من مراكب، والأهم من هذا أنه استطاع أن ينتقم لمصرع أخيه عمار بن علي الذي غرق مع أسطوله سنة ٣٤٥هـ٩٥٧م، وأن يخضع المنطقة الجبلية الواقعة جنوب مسينا، وكان قائد قوات صقلية ابن أخيه الحسن بن عمار، الذي تحدث عنه المقريزي فقال: «ثم إن الحسن بن علي افتتح في سنة اثنتين وخمسين قلاعاً بجزيرة صقلية، ونزل على قلعة رمطة، فحاربها فطال عليه أمرها، فرجع إلى جزيرة صقلية، وترك على رمطة ابن أخيه أبا محمد الحسن بن عمار ـ صاحب الترجمة ـ فأقام عليها، وطال مقامه، واستغاث الروم بصاحب القسطنطينية فوجه إليهم عسكراً في البر، وعسكراً في البحر، والتقى ابن عمار مع مقدمة الروم في نصف شوال منها، بشرذمة يسيرة، فرزقه الله الظفر، وقتل قائد الروم صاحب عسكر البر، وأسر صاحب عسكر البحر، وانهزمت عساكرهم، فتبعهم المسلمون، فحزوا منهم عشرة آلاف رأس، وغرق منهم في البحر خلق كثير، وكان في طريقهم خرق عميق في الأرض، فحال بينهم وبين رؤيته الغبار فتواقعوا فيه وقت الهزيمة، وسقط الخيل والرجال، وصار بعضهم على بعض، فهلك فيه من الروم خلق لا يحصيهم إلا الله، فماتوا كلهم،

---

(١) الموسوعة الشامية ج ٣ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ «ترجمة جعفر بن محمد الكلبي من المقفى للمقريزي».

وأسر منهم بعد ذلك ألفا أسير، فيهم مائة بطريق، وأخذ من أموالهم وسلاحهم وكراعهم ما يقصر عنه الوصف، ونزل من قلعة رمطة نحو ألف علج خوفاً وجزعاً»[1].

وتعرف هذه المعركة باسم معركة المجاز، وهي من معارك التاريخ الكبرى، قررت مصير صقلية لمدة طويلة، فقد جهز الإمبراطور البيزنطي أسطولاً عملاقاً، يقال بأنه شحنه بأربعين ألفاً من المقاتلين الأشداء، ونزل البيزنطيون أرض صقلية في ناحية المضيق الذي يفصل بينها وبين إيطاليا، وكان اسمه عند العرب المجاز.

وكانت القوات البيزنطية متفوقة على القوات الإسلامية من حيث التعداد، غير أنها كما هو معتاد تشكلت من جنسيات متعددة، وقاتل المسلمون بشجاعة منقطعة النظير، وبثبات نادر، و«انهزم الروم لا يلوون على شيء، فمالوا في انهزامهم إلى جهة ظنوها سهلة وطيئة توصلهم إلى ساحل البحر، فإذا هي جهة وعرة صعبة المسالك، أدت بهم إلى جرف عظيم، فسقط الكثير منهم فيه وأمسوا هنالك يقتل بعضهم بعضاً، والمسلمون ينهالون عليهم ضرباً بالسهام والسيوف، فما انقضى اليوم حتى ترك الروم نحو العشرة آلاف قتيل على أديم الأرض، وانهزمت بقاياهم شريدة حتى وصلت الأسطول، فنجت بنفسها فيه»[2].

وإثر هذا الانتصار الكبير، استأنف الحسن بن عمار حصار رمطة، ووجه بقائد الأسطول البيزنطي والأسرى بما فيهم البطارقة «والرؤوس، وكتاب الفتح إلى مدينة صقلية، فخرج إليهم الحسن بن علي بالعدة والعساكر، فتلقاهم فرأى ما سره، وفرح بذلك فرحاً شديداً، ثم انصرف فاعتل من إفراط الفرح بحمى حادة، ومات بعد ذلك بسبعة أيام، لاثنتي عشر بقيت من ذي القعدة من هذه السنة.

---

(١) الموسوعة الشامية ج٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٠٦ «ترجمة الحسن بن عمار من المقفى الكبير للمقريزي».
(٢) المدني ص ١٢٦ ت ١٢٨، عزيز أحمد ص ٣٧ ـ ٣٨. أماري: ٢/٢٩٨ ـ ٣١١.

وفتح الله قلعة رمطة على يد الحسن بن عمار، لثلاث بقين منه، فقتل جميع من كان بها من الرجال، وسبى النساء، واستولى على جميع ما فيها من نعمة ومتاع وغير ذلك»[1].

ويبدو أن خبر وفاة الحسن بن علي وصل إلى المهدية، لكن المعز لم يتخذ إجراءاً بتعيين من يخلفه، فقد جاء في سيرة جوذر: «وتوفي الحسن ابن علي ـ رضي الله عنه ـ ولم يزل مولانا صلوات الله عليه، يترحم عليه ويثني بالجميل فيه كلما جرى ذكره، ولقد ذكره يوماً فأطنب فيه ووصف سعيه، وبذل نفسه في ذات الله، وكان الأستاذ حاضراً لذلك»[2].

وفي الجزيرة قام الناس بعد وفاة الحسن بن علي باختيار ابنه أحمد وتوليته عليهم، أو أنه تسلم مبادراً من قبل نفسه مقاليد السلطة، وهذا يعني أنه فعل ما فعله بحكم الضرورات الحربية التي كانت سائدة آنذاك، وأنه لم يرجع إلى المعز ولم ينتظر قراره، وخشية من أحمد من ردات فعل المعز وغضبه، لجأ إلى جوذر صديق والده، والذي كانت له مصالح اقتصادية كبيرة في صقلية ـ كما سنرى ـ، فكتب إلى جوذر «يصف عظيم مصابه بأبيه، وما صار إليه حال البلد من الاضطراب للفجيعة التي داهمتهم لفقده، ثم إنه قام في الناس، وعرفهم أن كل رزية قليلة في طول بقاء أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ فسكن أمر الناس، وأخذ هو بالحزم في جميع أموره، حتى كأنه لم يرزأ بشيء»[3].

ورفع جوذر الأمر إلى الخليفة المعز لدين الله، فأجابه قائلاً: «يا

---

(١) الموسوعة الشامية ج ٢ ص ٢٩٦ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط لارشيبالد. لويس ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥، العرب والروم لفازلييف ص ٢٢٨ ـ ٢٣١.
Histor y of the Byzantine Empire, by A.A.Vasiliev, nadison - United states of America, .Vol I, PP 303-304. G. Ostrogor Ky, Hestory of the By Zantine state, ox fosd 1967, P 284

(٢) سيرة جوذر ص ١٢٨.

(٣) سيرة جوذر ص ١٢٨.

جوذر أحسن الله إليك في دينك ودنياك، وقفنا على كتاب أحمد، وأعدناه إليك، فاصرف إليه الجواب بما يقوي نفسه، وحسن رأيه فيما فعل من الصبر ونفي الحزن، وعرفه ما لجميعهم عندنا من الجميل، فوالله لا سلبهم الله نعمتهم فيها ما أبقاهم، ورحم الله حسناً ورضي عنه وأرضاه فلقد كان مسعوداً مماته ومحياه..... وإن في محمد وأحمد لخلف منه وزيادة، بارك الله لنا فيهما، وقد علمت أن حسناً لم ينل ما ناله هؤلاء في أيامنا حتى أفنى عمره في طلب رضانا، فأبقى لذريته من العز والشرف ما أيسره يفي بعظيم ما كان هو قد ناله منا، والله يعينهم على تشييد البنيان على ما أسسه والدهم، حتى تبلغهم آمالنا فيهم بحول الله وقوته إنشاء الله»[1].

ولم يمنح المعز في هذه الرسالة الشرعية لأحمد بن الحسن، ولم يعترف بإمرته، ووراثته لمنصب أبيه، بل ترك المسألة عائمة، واعترف بأولاد الحسن جميعاً، لا بل إنه قدم بالذكر محمد بن الحسن على أخيه أحمد، ويبدو أن الوضع ظل هكذا ـ كما سنرى ـ مدة ستة عشر عاماً، استدعى المعز إثرها جميع آل الحسن بن علي إليه إلى إفريقية، وعلى هذا لم يأخذ الحكم الكلبي الشكل الوراثي الكامل في صقلية، ومع ذلك باشر الأمير الجديد سلطانه بموجب شرعية الأمر الواقع والتقدم على أفراد أسرته، حيث «لم يضع الوقت سدى، ولم يترك الروم ـ الإمبراطورية البيزنطية ـ يجمعون من جديد فلولهم لإعادة الكرة بعد نكبتهم الكبرى، فبادر بمهاجمتهم بخيله ورجله، وفاجأهم في المعاقل التي التجؤوا إليها، فاسترجع رمطة وأسر من كان بها من بقاياهم، ثم اجتاز البحر مسرعاً إلى قلورية [كالبيرا]، فأحرق في رجيو أسطول الإمبراطور»[2].

---

(١) سير جوذر ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٢٥. المدني ص ١٢٩. عزيز أحمد ص ٣٨. أماري جـ٢ ص٢٩٨ ـ ٣١١.

وبقي أحمد بن الحسن في ولاية صقلية ستة عشر عاماً، وأثنائها أبرمت هدنة مع بيزنطة التي وعدت بعدم غزو الجزيرة مجدداً، وقضت هذه الهدنة بإعادة طبرمين ورمطة وإخلائهما حتى يسكنهما المسيحيون من نصارى الجزيرة، وصدر أمر الخليفة بإخلاء هذين الموقعين فأخلاهما المسلمون عن كراهية وذلك بعدما دمروا دفاعاتهما، وهكذا نجد أن الخلافة الفاطمية لم تقم باستغلال نصر معركة المجاز، ولم تكتف بذلك بل إنها شرت السلم من بيزنطة مقابل تنازلات هامة، هي مكاسب معركة المجاز، ولاشك أن مرد ذلك إلى دوافع داخلية[1].

وبعد الاستيلاء الفاطمي على مصر، ومن ثم الصراع مع القرامطة، الذين لم يكتفوا باستخدام القوات البرية بل بعض القوات البحرية أيضاً، صدرت الأوامر إلى أسطول صقلية الذي كان تحت قيادة الحسن بن عمار في سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م، فتوجه نحو طرابلس الغرب ومنها نحو مصر، حيث «سار إلى تنيس، ولقي أسطول القرامطة، فأخذ منه سبع قطع وأسر خمسمائة رجل، ثم سار في رجب سنة اثنتين وستين إلى الحوف على عشرة آلاف فواقع القرامطة»[2].

وكان المعز لدين الله قد استدعى في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، أحمد بن الحسن بن علي «إلى إفريقية بأهله وماله وجميع من يتعلق به، فاستخلف على صقلية يعيش مولى أبيه الحسن بن علي»[3]، وكان بين الذين قدموا صقلية على المعز في تلك السنة من أمراء الكلبيين القائد الحسن بن عمار «فخرج معه لحرب أبي خزر يعلى الزناتي الثائر»[4].

---

(١) المدني ص ١٢٩ ـ ١٣٠. عزيز أحمد ص ٣٨.

(٢) الموسوعة الشامية ج ٢ ص ٢٩٦.

(٣) الموسوعة الشامية ج ٢ ص ٣٠١ «ترجمة محمد بن الحسن بن علي ـ من المقفى للمقريزي».

(٤) الموسوعة الشامية جـ ٢ ص ٢٩٦. سير جوذر ص ١٠٣ ـ ١٠٤، ١١٤ ـ ١١٥، ١٢٠.

وفي صقلية لم يستطع يعيش النهوض بأمور صقلية، ونشبت اضطرابات في الجزيرة كان من ضحاياها الكتاميون فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م: «وفي هذه السنة استعمل المعز لدين الله الخليفة العلوي على جزيرة صقلية يعيش مولى الحسن بن علي بن أبي الحسين، فجمع القبائل في دار الصناعة، فوقع الشر بين موالي كتامة والقبائل، فاقتتلوا، فقتل من موالي كتامة كثير، وقتل من الموالي بناحية سرقوسة جماعة، وازداد الشر بينهم، وتمكنت العداوة، وسعى يعيش في الصلح فلم يوافقوه، وتطاول أهل الشر من كل ناحية، ونهبوا وأفسدوا، واستطالوا على أهل المراعي، واستطالوا على أهل القلاع المستأمنة، فبلغ الخبر إلى المعز، فعزل يعيش، واستعمل أبا القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسين نيابة عن أخيه أحمد، فسار إليها، فلما وصل فرح به الناس، وزال الشر من بينهم، واتفقوا على طاعته»، ويفيد هذا أن ولاية الجزيرة كانت رسمياً لأحمد، ولم يرسله الخليفة وبعده إلى الجزيرة لأنه كان وقتذاك في طرابلس، مكلفاً بمهام أخرى لها علاقة بمشروع مصر[1]، وقد توفي بعد بضعة أشهر فيها، فثبت المعز لدين الله علياً في الولاية، وفي تلك الآونة أسند المعز ولاية إفريقية والمغرب إلى الأمير الزيري بلقين يوسف، وطبعاً لم يمنحه السلطة على الجزيرة، وبذلك أنشأ أسرتين حاكمتين وراثيتين قبل انتقاله إلى مصر، وكان مما ساعد على قبول حكم الأسرة الكلبية في صقلية وتدعيم سلطانها قبول السكان المسلمين لها بشكل عام، والهدوء النسبي الذي ساد الجزيرة، «والتوسع في إنشاء المستوطنات الإسلامية، وحاجة الفاطميين إلى جماعة وفية لهم في صقلية، يستفيدون من واليها في خططهم البحرية، ويستطيعون أن يمنحوه استقلالاً ذاتياً، كما فعلوا بالنسبة لأمراء بني زيري في إفريقية

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣٩.

في سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م، والكلبيون من جانبهم ظلوا على ولائهم التام للفاطميين، الذين أنعموا عليهم بألقاب شرفية»[1].

وكان جوذر هو شفيع أفراد الأسرة الكلبية لدى الخليفة والمدافع عنهم، وكانت له مصالح تجارية في صقلية، وكان ذلك بتجارة الأخشاب، ولاسيما أعمدة صواري السفن، وغير ذلك، وخص الأستاذ جوذر بعنايته كل من جعفر بن علي بن الحسن، وحسن بن علي، فقد كان جعفر بن علي يلي إحدى المدن، فأراد عن طريق جوذر مسامحته، مدعياً بأن دخل البلد ضئيل جداً، فرفع جوذر ذلك إلى الخليفة المعز، فاستغرب ذلك وكتب إليه: «يا جوذر، وقفنا على كتاب جعفر، والله ما أدري ما أقول في ذلك، لكن محلك من أنفسنا وموضعك من رضانا يمنعنا أن نطوي عنك ما عندنا سراً وجهراً، وجعفر فقد علم الله رغبتنا في إصلاح أموره وإجرائها على السداد، وبقاء النعمة عليه وعنده، واحدة: من أجلك وأنه منسوب إليك، وثانية: لأبيه وموضعه من رضا مواليه ـ صلوات الله عليهم أجمعين، وثالثة لنفسه»، ثم بين له أن البلدة قد بُذل له فيها سبعين ألف دينار، غير أنه آثر إبقاءها بيد جعفر[2].

وكان أهل الدولة يعرفون اهتمام جوذر بجعفر بن علي، وحسن بن علي «وكثر القول في عناية الأستاذ بهما، حتى قال القائل: إن الحسن بن علي يتعبد جوذر، وأنه لا يجوز إلى قصر مولانا أمير المؤمنين حتى يدخل إليه»[3].

وكان كل من جعفر بن الحسن، ومحمد بن الحسن، يستغلان

---

(١) سيرة جوذر ص ١٠٢ ـ ١٠٤، ١١٤ ـ ١١٥، ١٣٠. الموسوعة الشامية جـ ٢ ص ٢٥٢ ت ٢٥٣، ٢٩٥ ـ ٢٩٦، ٣٠١. عزيز أحمد ص ٣٨. المدني ص ١٢٩ ـ ١٣٧. أماري: ٢/٢٧٦، ٣/٣٢١.

(٢) سيرة جوذر ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣) سيرة جوذر ص ١٣١ ـ ١٣٢.

مكانتهما من جوذر، إلى حد الإحراج، مما دفع الأستاذ جوذر إلى التنصل من أعمالهما وإلى إخبار الخليفة المعز بذلك، وقد أجابه المعز في إحدى المرات قائلاً في رسالة طويلة: «وأما ما ذكرته من أمر جعفر فحالك مع والده حال أحسب أني أعلم بها منك، فرضي الله عن علي وأرضاه، وأصلح لنا جعفراً على ما نحبه ونهواه، وأبدله برأيه الفاسد ما هو أعود عليه نفعاً، فقد علم الله أنا نجد به كما يجد المرء بالولد السوء، فأما على أنا نحتسب عليك في مواصلته، فمعاذ الله والشهر الحرام، لأنك إن لم تواصله هلك مع سوء رأيه»[1].

ومع الأيام ساءت العلاقة بين جوذر. وبين محمد بن حسن، وأخيه موسى بن حسن، فاعتزم جوذر «على مصارمة الجميع من آل أبي الحسين، وقطع مكاتبة أحمد بصقلية، على أنه كان اتكاله على الأستاذ بمكاتباته، وجميع أسبابه»، فكتب بذلك إلى الخليفة المعز، فنهاه عن الإقدام على مباينة أحمد، لأن ذلك قد يدفع إلى ما لا يحمد عقباه في العلاقة مع جزيرة صقلية، وقال الخليفة المعز لجوذر في رسالته: «وأحمد فلا تقطعه فتظلمه، وربما أوجع الإنسان بعض أعضائه، أفيقطعها؟.... فقد سلف بينك وبين سلفهم ما لا يفكك منهم، ولا يفككهم منك شيء، وقد علمت أنه إذ رشقتهم سهام أعدائهم في حين كادوا يتلفون بسخط إمامهم عليهم حتى تطارحت علينا، وتطارحنا على المنصور بالله، صلوات الله عليه، فكان منه في أمرهم ما هو أهله، فمن لم تقاطعن في ذلك الوقت يجب ألا تقاطعه اليوم مع ما وسمناهم به من فضلنا ورضانا، ولعلهم أن يبقوا حظهم ويعودوا إلى ما هو أولى بهم»[2].

وفي سيرة جوذر خبر ليس واضحاً تماماً، لا من حيث الأسباب ولا

---

(١) سيرة جوذر ص ١٣٢.

(٢) سيرة جوذر ص ١٣٢ ت ١٣٤.

الملابسات فبعد عودة أحمد بن الحسن من صقلية كانت هناك مراكب محملة «بالعدة والسلاح والأطعمة إلى صقلية لنصرة العساكر»، وقد أمر المعز بعدم إنفاذ هذه المراكب، لكن المراكب ذهبت «وتنكب أربابها السبيل، وأقلعوا بها من بعض المراسي» الأمر الذي أزعج الخليفة المعز وأغضبه، وفي هذا الخبر كان أبو القاسم علي بن الحسن هو المتولي على صقلية عوضاً عن أخيه، حيث صرف المعز إليه أمر النظر بها وحكمها، فمتى حدث هذا؟ والمرجح هنا أنه كان بعدما استدعى المعز لدين الله المولى يعيش وأسند أمور الجزيرة إلى أبي القاسم علي بن الحسن، وجاء حادث المراكب هذا، وكتب المعز إلى جوذر معبراً عن سخطه، فأنفذ جوذر «أمراً إلى أبي القاسم بحرق تلك المراكب، وقتل الرؤساء، فأنفذ أبو القاسم أمر أمير المؤمنين، وكتب إلى الأستاذ يعرفه ذلك، وكيف امتثله، ورفع الأستاذ كتابه، فلما وقف عليه مولانا عليه السلام، صرف الجواب على ظهره وهو:

يا جوذر وقفنا على هذا الكتاب، فاكتب إليه باستحساننا فعله، ورضانا بما يبلغنا من حميد سيرته، وليدم على ذلك، ينفعه الله به، إن شاء الله»[1].

وبعد رجوع أحمد بن الحسن بن علي من صقلية وقعت مشاحنات بينه وبين أخويه محمد وموسى ابنا الحسن بن علي: «وكان أحمد يكاتب الأستاذ حسب ما جرى به الرسم قديماً، فتخوف أن يظن به محمد بن حسن الميل مع أخيه دونه فاحتاج أن يعرّف مولانا صلوات الله عليه بذلك، وأنه يتوقف عن الدخول بينهم في شيء من أمورهم، لئلا يعود عليه ذلك باللائمة، فوقع إليه الإمام صلوات الله عليه:

(١) سيرة جوذر ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

يا جوذر، ذكرت أمر أحمد وتجنبك الدخول بينه وبين إخوته، تخوفاً من أن يقع بينك وبين القوم وحشة، فالصواب ما رأيت في ذلك.. لكنا والله نحن في حيرة من أمرهم، فقد انتصب لهم الناس، وأعطوهم آذانهم حتى كأنهم ينتظرون وقعة بين العرب والعجم، ولا أدري ما سبب ذلك، ولا ما معناه..... فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإن كان هؤلاء على محلهم منا بمثل هذه الحال، فهذا شغل لنا من حيث لم نحتسب»[1].

وهنا لابد من سؤال: هل نشبت خلافات بين أولاد الحسن بن علي أثناء ولاية أحمد لصقلية كانت هي السبب في استدعاء الجميع من الجزيرة؟ إن المصادر المتوفرة لا تسعفنا بإجابة حول هذه المسألة، لكن بشأن العلاقات بين جوذر والأسرة الكلبية، لقد كان هذا الخصي الصقلبي يدير أعمالاً تجارية خاصة به في كل من المهدية وصقلية، وكانت لديه مخازن خاصة ببضائعه، فيها مختلف التجارات، ولاسيما الأخشاب، خاصة ما صلح منها ليكون صواري للسفن، كما أنه امتلك مركباً أو مراكب خاصة به، وكان أحمد بن الحسن والي صقلية يتولى في مواسم محددة «قطع العود من القلاع التي كانت ينقطع منها»، وفي إحدى السنين تعطل ذلك لأسباب عدم توفر من كان يوكل إليه مهمة قطع الأخشاب، فكتب إلى جوذر يخبره بذلك، فأخبر هذا بدوره الخليفة المعز، فأجابه بأن على أحمد «أن يبذل في أمره مجهوده حتى ييسر الله منه العسير بلطفه وجميل صنعه، والعلة التي ذكرتها من ذهاب من كان يستعان بهم في أمر هذا العود كأهل طبرمين ورمطة»[2].

وفضلاً عن مصالح جوذر في صقلية، يبدو أنه بحكم إقامته في المهدية، وإشرافه على دار الخلافة فيها، كان مسؤولاً في الوقت نفسه عن صقلية، ومشرفاً عليها، وبالتالي صلة الوصل بين واليها وبين الخلافة.

---

(١) سيرة جوذر ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) سيرة جوذر ص ١١٦ ـ ١١٧.

وكان جوذر بارعاً في تصرفاته فأثناء تهديد القرامطة للوجود الفاطمي في مصر براً وبحراً، وجه المعز أسطولاً بقيادة أحمد بن الحسن إلى طرابلس الغرب، ليذهب منها إلى مصر، وأمر ببناء المزيد من المراكب في دار الصناعة في المهدية، وقدم من طرابلس عاملها نصير الخازن لمتابعة هذه الأعمال، واحتاجت دار الصناعة إلى أعواد للصواري: «وكانت عند الأستاذ في مخزنه أعواد حسان، فتقرب بها إلى أمير المؤمنين، وكتب رقعة بذلك، ووقف مولانا عليه السلام على ما كتب به فصرف إليه الجواب، وهو:

لا والله يا جوذر ما نحب أن نخلي مخزنك من مثل هذا العود فدعه ذخيرة لنا، وليلتمس نصير ابتياع كل ما يجد إلى ابتياعه سبيلاً»[1]، ويبدو أن الكمية التي توفرت لم تكن كافية، فبعث جوذر إلى صقلية، فوافاه ما أراده وكانت دار الصناعة بحاجة إليه فقد وصله «عود كثير في مركبه من صقلية، وكانت دار صناعة مولانا، صلوات الله عليه، محتاجة إلى العود، فتقرب به، ورغب في قبوله منه، فصرف إليه الجواب:

ما نشك فيما أسعدك الله به من توخي رضانا، ومكنه في نفسك من ذلك، أحسن الله إليك، وبلغك أفضل أملك من رحمته ورضوانه، قد قبلنا منك ما تبرعت به، فاكتب إلى نصير بقبضه واستعماله إن شاء الله»[2].

ولم تقتصر نشاطات جوذر التجارية على الخط ما بين صقلية والمهدية، بل تجاوز ذلك إلى بعض بلدان المشرق، فقد تعطل مركب جوذر، فكتب إلى الخليفة المعز يسأله «الأنعام عليه بأحد مركبين قد اشتريا لمولانا من الروم، ليستعين به على حمل، نقلة في البحر إلى

---

(١) سيرة جوذر ص ١١٨ - ١١٩.

(٢) سيرة جوذر ص ١٢١.

المشرق، ويذكر أن الذي دعاه إلى ذلك عدم المشتري، وانه محتشم في سؤاله، فصرف إليه الجواب، وهو:

يا جوذر سلمك الله، ما نحسب مالنا إلاّ مالك، فقد وهبك الله من رضانا وممازجة أنفسنا ما لو علمنا أن مالك ليس إلاّ ما في يديك من نعمتنا، ما رضينا لك بأضعافها كما فعلنا بمن دونك، ولكنا نعلم أن مالك أكثر من أموالهم، وجاهك أوسع من جاههم، بما وهبك الله من رضانا الذي يكمله لك بنعيم الآخرة، فخذ أي المراكب شئت، بارك الله لك فيه، وعرفك بركته»[1].

واعتاد جوذر على تكليف والي صقلية بالإشراف على شحن مركبه بالبضائع المطلوبة من صقلية، ربما من منتجات محلية، وأخرى مستوردة، فبعد عودة أحمد بن الحسن إلى إفريقية، وفي أيام ولاية أخيه أبي القاسم علي بن الحسن بن علي، كتب جوذر إليه «يقول له: إنه إن عجز عن شحنة مركبه شيء، فليتمه من مال أمير المؤمنين، ويعرفه بمبلغ ذلك حتى ينزله في بيت المال بالمنصورية المباركة، فورد كتابه يذكر أن المركب لم يبق عليه من شحنة إلاّ بمائة دينار، وأنه دفعها إلى الوكيل من الذي ذكر، فكتب الأستاذ إلى أمير المؤمنين يعرفه بذلك، وأنه ينزل مائة دينار عند صاحب بيت المال، فوقع إليه صلوات الله عليه:

يا جوذر، سلمك الله، مالك هو مالنا، ومالنا هو مالك، وأنت والله أحوط على أموالنا منا عليها، ولو حطناها حياطتك لما شرب منها أحد الماء فضلاً عن غيره، وهذه الدنانير فأنت أحق بها، بارك الله لك فيها وفي كل ما خولناك من فضلنا، وأسعدك به من رضائنا في الدنيا والآخرة»[2].

---

(١) سيرة جوذر ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) سيرة جوذر ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

وفي سيرة جوذر مواد أخرى حول حياة أفراد الأسرة الكلبية في إفريقية، مما ليس له علاقة بصقلية، وبالمناسبة لابد من سؤال: كيف كان جوذر يتصرف بأمواله، وما هي الأوجه التي صرفها فيها، وفوق هذا إنه لأمر عجب أن يمارس كبار رجالات السلطة الفاطمية أعمال التجارة والكسب الذاتي، مما قد يتعارض مع المصالح العامة للدولة، وبالطبع مع الشريعة الإسلامية والفقه السني والشيعي سواء، ولاشك أن في انصراف رجال الدولة الفاطمية في المركز عن الاهتمام بالصالح العام في صقلية، وتركيز اهتمامهم على الصالح الخاص، فيه تعليل لما شهدته هذه الجزيرة من أحداث بعد معركة المجاز، وبعد توفر الإمكانات بالتوسع في إيطاليا بشكل دائم، مما أثر على مصير الإسلام والمسلمين في هذه الجزيرة المتوسطية الهامة، وفي العلاقات ما بين الوطن العربي والغرب الأوربي في مستقبل الأيام.

العلاقة مع الأندلس:

لقد جرى التعرض لهذا الموضوع في أكثر من مكان من قبل، كما تناوله عدد من الباحثين في تاريخ المغرب والأندلس، وركز الباحثون جهودهم على جذور الخلافات بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية في الأندلس، وعزوها إلى الخلافات التي تأصلت بين بني هاشم وبني أمية قبيل ظهور الإسلام، واهتموا بقضية الخلاف المذهبي بين أهل السنة المالكية والشيعة، وقد يكون هذا صحيحاً في عصر كانت السياسة فيه ديناً، والتعبير عن الدين فيه بوساطة الحرب والسياسة، لكن لابد هنا من أن نتذكر أن الغالبية المطلقة لسكان المغرب وأهل الأندلس كانت من المالكية، وأن المشكلة كانت تكمن في الخلاف بين المصالح والمطامح لدى كل واحدة من السلطتين في الأندلس والمغرب، والقول بأن جذور الخلاف تعود إلى ما قبل الإسلام، يخفف من غلوه موالاة قسم من

الأدارسة العلويين للسلطة الأموية في الأندلس، والذي يمكن قبوله كتفسير أكثر عقلانية لجذور الخلاف هو تنافر المصالح، وسعي كل طرف للدفاع عن ذاته عن طريق التوسع في مناطق الطرف الآخر، فالخلافة الفاطمية كانت صاحبة مشروع للحكم عالمي، وركزت الدولة الأموية على المغرب، منذ إحباط مشاريعها في التوسع داخل أوربا، يضاف إلى هذا أن الدولتين كانتا متوسطتين اهتمتا بالتجارة البحرية، ولنتذكر بالوقت نفسه أن الأسرتين الفاطمية والأموية قد وفدتا من المشرق، وهنا الذي جاء بين نتائج صراعهما على أرض المغرب الكبير، هو ظهور شخصية المغرب الأقصى، وزيادة المؤثرات على قبائل الصحراء، واهتمام المغاربة بشؤون الأندلس أكثر من اهتمامهم بشؤون بقية أجزاء الشمال الأفريقي، وبعبارة أوضح انشد المغاربة بشكل رئيسي نحو الصحراء من جانب، ونحو الأندلس من جانب آخر، وكان لهذا آثاره على أحداث المستقبل، لاسيما وأن القوتين اللتين تصارعتا، قد زالتا عن مسرح الأحداث المغربية ـ الأندلسية في وقت متقارب، حيث انتقلت السلطة الفاطمية إلى مصر، وصارت اهتماماتها شامية مشرقية، وزال حكم الأسرة الأموية، وتلاه الاستبداد العامري ثم حكم دول الطوائف، ويتوجب علينا لدى البحث في العلاقات الأموية الفاطمية أن نميز بين التشيع العام، والإسماعيلية، أي أنه لم يكن لغالبية حركات التشيع في الأندلس علاقة بالدعوة الإسماعيلية.

ولا نريد هنا التأريخ لمجمل العلاقات الأموية الفاطمية، لكن يلاحظ أن الدولة الأموية، لم تقم برصد نشاط أبي عبد الله الداعي في إفريقية، كما أنها لم تتدخل أثناء الأحداث التي قادت إلى سقوط دولة الأغالبة، وتحركت عندما استفحلت قوة الخلافة الفاطمية وأرادت السيطرة على المغرب الأقصى، فهنا خشية على نفسها، تحالفت الدولة الأموية مع بعض

القوى القبلية السنية مثل زناته ثم بشكل خاص مع موسى بن أبي العافية واحتلت سبتة وبعض أجزاء الساحل المغربي، أي أن التحرك الأموي جاء دفاعياً، ولم يكن هجومياً.

واتسم الصراع الأموي الفاطمي، خاصة في أيام المعز لدين الله بالشراسة والحقد اللامحدود، وكان المعز مؤمناً بشرعية حكمة وأحقية أسرته بالإمامة، على أساس الانتساب إلى كل من الإمام علي، وزوجته فاطمة الزهراء ابنة النبي ﷺ، ولقد نظر إلى الأمويين وعلى رأسهم عبد الرحمن الثالث، نظرة المغتصب للسلطة، يتوجب حربه وعزله.

واستولى الصراع بين الأمويين والفاطميين على جميع جوارحهم، وتجاوزوا به جميع الحدود المنطقية، واستخدموا الأساليب الدعائية، وقاد المعز شخصياً الحرب الدعائية ضد الأمويين والخليفة عبد الرحمن الناصر، ولم يفعل الخليفة الناصر فعله، بل حاول مراراً وتكراراً اللجوء إلى الصلح أو التهادن، لكنه عندما أخفق لجأ إلى بعض وسائل العنف والشدة.

ونحصل على صورة مجملة للحرب الدعائية التي شنها المعز لدين الله مما أودعه القاضي النعمان في كتابه «المجالس والمسايرات»:

فلقد ألح المعز على صحة نسبه إلى رسول الله ﷺ، وعلى أحقية أسرته خاصة من بين العلويين وبني هاشم بالإمامة، وقال بهذا الصدد: «من ذا يضمن عن الله غيرنا، أو من ذا يتوسل إلى الله بمثل وسيلتنا؟ ووسيلتنا إلى الله جدنا محمد ﷺ أفضل الخلق عند الله، فمن ذا يتوسل بمثله، أم من ذا يحل محلنا منه، إن الله أحلنا منه محلاً لم يُشرك معنا فيه غيرنا، ولقد اجتهدوا أن يتصلوا منه بسبب أو نسب، وفعل ﷺ ذلك لمن فعله تألفاً إلى دين الله، فأبى الله عز وجل أن يجعل ذلك لغيرنا منه، وقطع نسب كل ذي نسب ينتسب إليه، ولم يبق من ذريته غيرنا،

اختصاصاً أخصنا به، وفضيلة أكرمنا بها، على رغم من أراد أن ينافسنا فيها، ويشاركنا في مثلها، ثم جعلنا عز وجل صفوة من أكرمه بها، ولباب من انتجبه منها، وأعطانا وخولنا وفضلنا، فنحن صفوته من خلقه، وأمناؤه على عباده، وأئمتهم وألو الأمر فيهم، وكم جهد المتغلبون علينا على إطفاء نور الله منا، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره»[1].

ومقابل هذا طعن في نسب الأسرة الأموية بالأندلس: فقد «ذكر يوماً عنده (صع) من بالأندلس من بني أمية اللعناء، وقيل له ـ للمعز ـ ما يقال فيهم أن أباهم الواصل أولاً دعي، وليس له من ينسب إليه.

فقال: فإلى من ينسبون إذن؟ إلى الكلاب، أم إلى القردة، أم إلى الخنازير؟ والله إنهم لخير ممن انتسبوا إليه ـ يعني الكلاب والقردة والخنازير ـ وإن من انتسبوا إليه أسوأ حالاً منهم، فدعوهم وما ادعوه، فكفاهم عاراً وخزياً بانتسابهم إليه»[2]، يضاف إلى هذا كان بنو أمية هم الشجرة الملعونة بالقرآن، «والشجرة لا يقع عليها اسم شجرة إلاّ مع أغصانها وفروعها، ولا يسمى الأصل وحده شجرة»[3].

وبنو أمية وإن أظهروا الإيمان، والتمسك بالإسلام «هم على ما هم عليه، وأولهم، من اعتقاد الكفر، أليس بذلك وصفهم علي ـ عليه السلام ـ لما نظر إلى معاوية اللعين في جمعه بصفين، فقال: هذه والله رايات أبي سفيان التي قاتلنا بها، ونحن مع رسول الله، والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعواناً فقاموا به.... والله لو

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.
(٢) المجالس والمسايرات ص ٣٥٢.
(٣) المجالس والمسايرات ص ١١٦.

تعلقوا ـ بنو أمية ـ من الإسلام بشيء لظهر عليهم، ولو أقروا بمحمد صلى الله عليه وآله لما تناولوه من عترته وأهل بيته»[1].

والمعز بحكم كونه الإمام الحق، والوارث للإمام علي بن أبي طالب، الذي حمل الناس على الحق ولم يتغاض عن شيء، ولم يرخص لمنكر قط، سوف لن يخلي بين الناس وبين شهواتهم، ولن يبيح لهم «المظاهرة بشرب الخمور، والزنى واللواط، وإظهار الملاهي والمعازف»، مع إدراكه أن هذا سوف يغضب الناس.

وعلى عكس هذا «المتغلبين من بني أمية بالأندلس، وأنهم ورعاياهم يشربون الخمر، ويبتاعونها في أسواقهم جهاراً، ويتفكهون بالغلمان صراحاً، ويزنون علانية، وإن سجن النساء عندهم ليأتي إليه من يؤثر الزنى، فيدخل إلى السجان، فيختار من النساء على عينه من أراد، ولكل واحدة منهن رسم معروف، فأيتهن اختار دفع رسمها وفجر بها»[2].

والخليفة الناصر نفسه كان «فاسقاً، مرتكباً لمحارم الله عز وجل، متهاوناً بأمره، مناصباً لأوليائه وحزبه»[3].

وتقدم بنا أن ذكرنا أن الخليفة عبد الرحمن الناصر حاول التهادن مع الخليفة المعز لدين الله، لكن المعز رفض بإصرار وشدة، وأوضح أنه سوف يلجأ إلى استخدام السلاح لغزو الأندلس، واستمرت الحرب الإعلامية، فاتهم الأمويون الخلفاء الفاطميين بالكفر وبالخروج على الإسلام، وأنهم يدفعون نبوة النبي ﷺ، ويدّعون النبوة بعده، ويدفعون سنته وشريعته،

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٢٣٥.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٩٢.

(٣) المجالس والمسايرات ص ١٩٦.

ويدعون إلى غيرها، واتهموهم بعبادة رأس صنم، يكلمهم ويسجدون له، فينثر لهم من فيه الدنانير[1].

وعندما لم تتوصل الدولتان إلى تسوية أو تهادن، أقدم الأمويون مؤخراً على لعن الفاطميين على المنابر، وإلى التشكيك بصحة نسبهم[2].

وكان الحدث الذي أزعج الفاطميين كثيراً وضايقهم أشد المضايقة، هو إعلان عبد الرحمن الثالث عن نفسه خليفة للمسلمين وإماماً للأمة[3]، فإلى ذلك الحين كان المعز يُعدّ نفسه إمام المسلمين وخليفتهم، ولم يكن غيره يحمل هذا اللقب في الغرب الإسلامي، وكان ذلك في وقت كانت فيه الخلافة العباسية مستضعفة، يتحكم بالخلفاء ويحكم عليهم أمراء بني بوية الشيعة، وحين أعلن الناصر عن خلافته شكل تحدياً خطيراً للوجود الفاطمي، فالفاطميون كانوا يتحكمون بأهل المغرب الكبير، الذي كان جل سكانه من المالكية السنة، فالآن امتلك هؤلاء المالكية خليفة لهم، موقعه قريب منهم، ويمتلك قوة كبيرة، وأعلنت الخلافة الجديدة في قرطبة عن نفسها حامية للمالكية، وصار المذهب المالكي المذهب الرسمي للدولة الأموية، وصار الخليفة الناصر ومن بعده ابنه الحكم المستنصر لا يعترفان بفقيه ويسمحان له بالتعمم وارتداء ثياب الفقهاء، ما لم يكن حافظاً لمتن مدونة الإمام سحنون، ويحكى بأن «المستنصر بالله أمر ونادى في أزقة قرطبة، ألا يعتم رجل لا يحمل جامع المدونة حفظاً وفقهاً»[4].

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٤١٦ ـ ٤١٧.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٢٨٥، وبهذا سبق الأمويون الدولة العباسية فيما لجأت إليه في نشر أكثر من سجل طعن بنسب الفاطميين حيث نعتهم بالعبيديين، بعد تصغير اسم عبد الله المهدي إلى عبيد الله، ومعروف أن في التصغير تحقيراً بالتصغير تحقير.

(٣) المجالس والمسايرات ص ١٦٨.

(٤) قضاة قرطبة للخشني ص ١٧٢ ـ ١٧٥. كتاب الجغرافيا للزهري ص ٨٨ ـ ترتيب المدارك للقاضي عياض ج ٣ ص ٣٢٠.

واشترطت خلافة قرطبة على أمراء القبائل المغربية المتعاملين معها الالتزام المطلق بمذهب الإمام مالك، وأعلن الخليفة الحكم المستنصر أنه لن يتقبل أياً من أمراء العدوة المغربية إذا لم يكن ملتزماً بمذهب الإمام مالك، لأن «كل من زاغ عن مذهب مالك، فإنه ممن رين على قلبه، وزين له سوء عمله»(1).

ومن الممكن أن نرى مدى نجاح السياسة الدينية المالكية هذه، واتساع انتشارها، وإيمان علماء المالكية بتكفير الإسماعيلية، وردات فعل المعز العنيفة على ذلك في حكاية أبي بكر النابلسي ـ محمد بن أحمد بن سهل، فقد كان هذا الفقيه المالكي مقيماً في مصر أيام كافور الأخشيدي، وقد غادر مصر بعد سقوطها في يد الصقلبي، وسكن بعض الوقت في الرملة، ثم غادرها إلى دمشق، وأثناء حملة جعفر بن فلاح على الشام، وما تلاها من صراع مع أهل دمشق ثم مع القرامطة، حرض أبو بكر الناس على قتال الجيوش الفاطمية، لأنها كافرة، وأفتى أنه لو كان لديه عشرة أسهم لرمى بتسعة منها في وجه الفاطميين، وبواحد في وجه الروم، وبعد إخفاق الحسن الأعصم في احتلال مصر، وهزيمته بعد قدوم المعز لدين الله إلى القاهرة، تمكنت القوات الفاطمية من اعتقال هذا الفقيه، وجرى حمله إلى القاهرة حيث جرى التشهير به، ثم أجري تحقيق معه، وسئل «أنت الذي قلت: لو أن معي عشرة أسهم لرميت تسعة في وجه المغاربة، وواحداً في الروم؟ فاعترف بذلك، وقال: قد قلته، فأمر أبو تميم ـ يعني المعز لدين الله ـ بسلخه حياً، فسلخ وحشي تبناً وصلب... ونصبت جثته وجلده على الخشب عند المنظر»(2).

---

(1) عياض المدارك ج 1 ص 22.

(2) زكار الجامع في أخبار القرامطة ص 178، 329، 607 ـ 609.

وتجسس الفريقان الفاطمي والأموي على بعضهما، واستخدما العملاء، وحاولا إثارة القلاقل كل منهما في بلد الآخر، وراقب كل منهما الغرباء في مملكته، ولم يعد من الصعب توجيه التهمة لأي واحد هنا وهناك بمجرد الشبهة.

وروي حكي بأن الخليفة عبد الرحمن الناصر «كانت له عيون على ما قرب، وبعد وصغر وكبر»، وكان له بالمغرب عميل اسمه محمد بن كليب علم عن طريقه بوفاة الخليفة الفاطمي القائم قبل الإعلان الرسمي عن ذلك، ذلك أن المنصور إسماعيل أخفى خبر الوفاة خشية من استفحال ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري، وقد زود ابن كليب الناصر بصفات المنصور إسماعيل[1].

وفي المسيلة أثناء ولاية جعفر بن علي بن حمدون لها نشط واحد من عملاء الأمويين اسمه عثمان بن أمين، فقد كان «يكاتب بني أمية، وأنهم يرعون ذمامه هناك، ويقضون حوائجه، وأنه يقدح في الدولة، ولم يكن جعفر بن علي أخذ على يده ولا حجزه عن أمر يوجب الإشارة إليه بذلك»، وبلغ هذا الأمر إلى القائد جوذر، فرفع الخبر إلى الخليفة المعز لدين الله، فأجابه برسالة أكد فيها معرفته بالأمر، وقال له: «وهذا الرجل الذي ذكرت يوصف لنا مثل ما بلغك، ويقال إن له من جعفر أوكد حرمة، وإن ابن رماحة لا يقف له في حاجة، ويعني بأسبابه ورباعه، وأملاكه العناية الوكيدة» وبين المعز لدين الله لجوذر أنه يجتهد في مداراة الأمر ومعالجته بالسياسة، ربما خشية منه من أن يثور جعفر بن علي بن حمدون، ولهذا طلب من جوذر أن يكاتب والي المسيلة وقال له في رسالته: «فاكتب أنت

---

(١) المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١٩٥. الحلة السيراء ج ١ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١. البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣. اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٨٢. عيون الأخبار للداعي إدريس ج ٥ ص ١٦.

إلى جعفر كأنك تسأله عن أمره وخبره، وأن ذلك الذي يبلغك من الوقيعة فيه من غير أن تشرح له ما الذي بلغك، ليذكر لك هو صورة أمره عنده، فتستدل بقوله على ما عنده، إنشاء الله»، وقد تطور الأمر بعد ذلك وأدى إلى فرار جعفر وأهله إلى الأندلس(١).

وفي الحرب الدعائية الدينية الشرسة هذه بين الطرفين الأموي والفاطمي، أعلن عبد الرحمن الناصر أن المعز لدين الله منع أهل الأندلس من الحج إلى بيت الله الحرام، وحال بينهم وبينه، وعندما بلغ المعز ذلك قال وهو مغضب: «أفرأيتم أشنع من هذا الفاسق كذباً أو أقبح منه قولاً، ومتى منعنا نحن أهل الأندلس، أهل بلده من الحج، أو من السفر حيث أحبوا؟ بل هو الذي منعهم وغيرهم ممن كان من أهل البلدان ببلده من الخروج لئلا يؤدوا بزعمه أخباره إلينا، فرد ذلك علينا.... قبح الله هذا الفاسق وترحه، فما أشنع شناعته، وأقبح كذبه، والعيان يدفعه، والمشاهدة تبطله»(٢).

وتزعم المعز لدين الله حملة تشهير لا تعرف الضوابط أو الحدود ضد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وضد أهل الأندلس أيضاً، وقد أتينا على ذكر بعض هذا من قبل، كما أن الخلافة الفاطمية امتلكت بعض العملاء في الأندلس، وشجعت أيضاً بعض الثورات والفتن، وكان أخطر ما تبنته وربما خططت له حركة أبي الخير الداعي، وكان هذا الداعي الإسماعيلي من سكان العاصمة الأموية قرطبة، وقد نبزه أهل الأندلس باسم «أبي الشر»، ويبدو أنه نشط في قرطبة منذ أيام عبد الرحمن

---

(١) سيرة جوذر ص ١٢٣ ـ ١٢٤، ١٧٥ ـ الحاشية ٨٢. المقتبس لابن حيان ـ الجزء الذي حققه عبد الرحمن الحجي ـ ص ٣٢ ـ ٤٤.

(٢) المجالس والمسايرات ص ١٩٣.

الناصر وأذاع أفكاره التي تماشت مع أفكار الدعوة الإسماعيلية، لاسيما فيما يتعلق بالإمامة، والصحابة وخلفاء بني أمية، واستفحلت هذه الحركة بعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر، في أيام ابنه وخليفته الحكم المستنصر، وقبل انتقال المعز لدين الله إلى مصر، ويبدو أن أبا الخير نجح في تكوين جزيرة دعوية إسماعيلية في الأندلس، أو أكثر من جزيرة، وكان المركز في قرطبة وكان هناك دعاة انتشروا في مناطق الأندلس الرئيسية وكورها، وبعد وفاة الخليفة الناصر، وفي ظل أجواء الاهتمامات الثقافية أيام الحكم المستنصر جهر هذا الداعي بأفكاره[1]، وكان صريحاً يدعو إلى الغلو، لا بل أكثر من ذلك دعا إلى إسقاط الحكم الأموي، وعزي إليه قوله: «ما كان أملي من الدنيا إلاّ خمسة آلاف فارس، أدخل بهم الزهراء وأقتل من بها، وأقوم بدعوة أبي تميم»، وفي هذه الجرأة إشارات إلى خلل أصاب الحكم الأموي في الأندلس في أيام الحكم المستنصر، وفي هذا المقام علينا التعامل بجدية تجاه ما قدمه ابن حوقل النصيبي من وصف للسلطة في الأندلس، مع أننا سنعود إلى الحديث عن دوره الذي وصف بالإسماعيلي في الأندلس، ومن جملة ما قاله ابن حوقل في حديثه عن الأندلس: «ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ـ ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها، ومقدار جباياتها، ومواقع نعمها ولذاتها... وسمعت غير محصل ثقة ممن يستبطن جبايات البلد، وحاصل عبد الرحمن بن محمد، أن لديه مما اتجه له جمعه من الأموال إلى سنة أربعين وثلاثمائة، ما لم ينقص من عشرين

(١) انظر كتاب المسلمون في الأندلس لدوزي ج ٢ ص ٦٧ ـ ٦٨.

ألف ألف دينار إلاّ القليل، دون ما في خزائنه من المتاع والحلي المصوغ وآلة المراكب، وما يتجمل به الملوك من القنية المصوغة.

ولما توفي عبد الرحمن بن محمد سنة خمسين وثلاثمائة، صار الأمر إلى ابنه أبي العاصي الحكم بن عبد الرحمن، فصادر رجال أبيه، وقبض نعم خدمه والوزراء الذين لم يزالوا في صحبته، فكان الحاصل منهم عشرين ألف ألف دينار.... وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها، وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة، وما رأيت، ولا رأى غيري بها إنساناً قط، جرى على فرس فاره، أو برذون هجين، ورجلاه في الركابين، ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم، لخوفهم السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم، وهم يفرسون على الأعراء من الخيل، وما أطبقت قط جريدة عبد الرحمن بن محمد، ولا من سبقه من آله وآبائه على خمسة آلاف فارس، ممن يقبض رزقه، ويختم عليه ديوانه، لأنه مكفي المؤونة بأهل الثغور من أهل جزيرته ما ينوبه من كيد العدو»[1].

وإذا صح وكان ابن حوقل الذي عاش طويلاً في قرطبة جاسوساً إسماعيلياً، كانت المعلومات التي أودعها في كتابه، قد رفع ما يشابهها، أو أكثر دقة وتفاصيلاً إلى السلطات الفاطمية[2]، وبناء على ذلك نشط أبو الخير الداعي بشكل علني، فكان يعلن بأن قتال بني أمية ومعهم فقهاء المالكية أفضل من قتال المشركين، وأعلن صراحة بأن «جراية الشيعي عليه وعلى أصحابه جارية» وأنه لو امتلك الإمكانات لحرب بني أمية لما تهاون، ولقتل معهم أنصارهم، وسبى نسائهم وذراريهم، وعلى قاعدة أبي

(١) صورة الأرض ص ١٠٤ ـ ١٠٩.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي لأغناطيوس كراتشكوفسكي ج ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٥.

بكر النابلسي قال: «لو كانت تسعة ـ ضد بني أمية ـ لكان سيفي العاشر، ثم أضع سيفي في باب القنطرة فلا نبقي أحداً».

ولم يخف تعاطفه مع نجاحات الجيوش الفاطمية في المغرب الأقصى، وعدّ نجاح جوهر في حملته المغربية الكبيرة، مقدمة للاستيلاء على الأندلس، والتقى بواحد من أهل القيروان قد خرج منها والتحق بالأندلس، فأنكر عليه فعلته، لأن الفاطميين «هم أهل الحق والسنة، ولا ينجي منهم الفرار»، وكان بالوقت نفسه يأمل باستيلاء الشيعة على جميع عالم الإسلام، وقد سأل واحداً من القادمين من المشرق عن أوضاعه، وعن أحوال الفرق فيه، فأجابه بغلبة التشيع وانتشاره، وهنا علق عليه بقوله: «هذا هو الحق، كأنك ترى الألوية خارجة من داري».

وعزي إلى أبي الخير آراء كثيرة فيها غلو، بشأن القرآن الكريم، والخلفاء الراشدين، وعائشة أم المؤمنين، كما بات سلوكه سلوك إسماعيلي نال الترخيص بالاستعداد لإعلان نوع من أنواع القيامة، فقد تهتك في سلوكه، وترك الفرائض، ومارس الانحلال الخلقي، وأنكر الحساب والعقاب، وعدّ الملائكة بنات الله، وسخر من الذين يصلون ويرتادون المساجد، وشبههم بالبقر، وكذلك تناول الذين يحجون إلى بيت الله الحرام، وقال بأنهم «يتعبون أبدانهم، ويقصدون حجارة صماء»، وعزي إليه أنه يتمنى قلع الحجر الأسود من مكانه، مثلما فعل أبو طاهر القرمطي سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م[١].

ويتساءل الإنسان هل نوى المعز لدين الله غزو الأندلس والاستيلاء عليها، وأن عبد الرحمن الناصر كان بالفعل يخشى من ذلك، ولذلك أقدم

---

(١) الاعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير القضاة والحكام لأبي الأصبغ عيسى بن سهل ص ٦١ـ ٧٥.

على احتلال سبتة، واهتم بالبحرية لديه، ولم يتوقف عن مراسلة المعز لدين الله يعرض عليه الصلح أو المهادنة، لكن المعز لدين الله رفض كل العروض، وأرسل تهديداته الشديدة، وقال مرة لواحد من رسل عبد الرحمن الناصر: «ونحن بعد فما رأى منا إليه حركة فما هذا القلق وهذه العجلة»[1]؟، وقال مرة أخرى لرسول آخر: «إن الصدق ينبئ عنك لا الوعيد.... وإذا نطق السيف سكت القلم»[2]، ومرة أخرى وصل إلى المعز لدين الله رسول من عبد الرحمن الناصر، فصرفه من دون جواب، وألمح له القاضي النعمان بأنه ويعض رجالات الدولة ودوا لو أنه ردّ عليه ونقض كلامه فقال له المعز: «وما في الرد عليه من فائدة؟ أتراه إن بصرناه الحق يرجع عن باطله، أو هو على شك من سوء حاله، فنبين له ذلك لنرجو به صلاحه؟ والله ما كان ينبغي أن يكون جواب هذا الكتاب لمن فهم الصواب إلاّ أن يدرج ويرد إلى كاتبه، ففيه جوابه والحجة عليه من قوله، وإنما أراد هذا الفاسق أن يقطع الزمان بهذه المراسلة والمكاتبة بيننا وبينه، وانصراف رسوله إليه بغير جواب أنكى لقلبه وأخزى وأتعس، ولو قد أتاه منا جواب لاستراح إليه»[3].

والمهم أن المعز لم ينفذ تهديداته بغزو الأندلس، وكانت حملة جوهر الكبيرة ثم نشاطاته العسكرية التالية في المغرب تمهيداً لمشروع الاستيلاء على مصر، ومع هذا لاشك أن هذه الحملة كان لها أثرها على الأندلس وعلى حركة أبي الخير الداعي، فقد شهد عند صاحب الشرطة في قرطبة ضد أبي الخير أربعة وأربعون شاهداً، فقبل شهادة بعضهم لمعرفته إياهم، واستشار بعض الفقهاء والقضاة فأفتوا بوجوب قتله على الفور دون

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٦٨.

(٢) المجالس والمسايرات ص ١٧٠.

(٣) المجالس والمسايرات ص ١٧٢. سياسة الفاطميين الخارجية لجمال الدين سرور ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

محاكمة، واستشار صاحب الشرطة الحكم المستنصر، فوافق على قتله دون تأخر، كما طالب رجال دولته بملاحقة كل متشيع، وزيادة الاهتمام بمذهب الإمام مالك والتمسك به، وتم إعدام الداعية الإسماعيلي أبي الخير، ولاقى ذلك استحساناً من الفقهاء وسواهم، ومع ذلك تابع الناس الجدل حول قتله بدون محاكمة، وأصدر الحكم المستنصر سجلاً حول هذا الموضوع سوغ فيه إعدام أبي الخير، وبين أن الفقهاء أجمعوا على ذلك وقال: «لم تجر بيني وبين أصحابي فيما سألتهم عند المذاكرة، أكثر من اجتماعنا على وجوب قتله بغير أعذار» ذلك أنه أثار الفتنة، وطعن بالخليفة وتهدد الناس بالقتل والسبي، وطلب منهم إعداد أنفسهم وأزواجهم إلى السبي والقتل القريب، ولذلك على النساء أن «يطلقن الجمم، ويتخذن الظفائر، ويستعددن بها، فإنهن عن قريب يمتحن بالسبي من الشيعي، وأنه مقدمته إليهن»[1].

وصحيح أن الفاطميين لم يهاجموا الأندلس لاحتلالها، ولم تقم حرب كبرى بين الطرفين، واكتفيا بالصراع غير المباشر بوساطة القوى القبلية المحلية، ومع هذا وجدت بعض الاشتباكات بين القوتين، وكانت جلها بحرية، لكن على مستويات متدنية إلى حد ما، وقد أتى القاضي النعمان، في المجالس والمسايرات على ذكر هذه الاشتباكات، وعلى الرغم من الانتماء المذهبي والسياسي للقاضي النعمان، فإن الذي حكاه بالنسبة للوقائع فيه تفاصيل ودقة ليست متوفرة في مصدر آخر، لم يقلل من شأنها تعاطفه مع المعز لدين الله وتأييده لموقفه السياسي والجدلي أثناء

---

(١) ابن سهل ص ٧٠ ـ ٧٨. ولم يتوقف الصراع الفاطمي الأموي بعد انتقال المعز إلى مصر، واستقرار الخلافة الفاطمية هناك، ومثلما استخدم الطرفان أثناء صراعهما في المرحلة المغربية الأدارسة، تابعوا ذلك فيما بعد. انظر: سرور ص: ٢٢٢ ـ ٢٢٤. دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية لموسى لقبال ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧. الخلافة الفاطمية بالمغرب لفرحات الدشراوي ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

المراسلات بين قرطبة والمهدية، أو بالأصح أثناء إرسال الخليفة عبد الرحمن الناصر رسالة تلو الأخرى إلى المعز لدين الله.

وحدثت الاشتباكات البحرية بين الفاطميين والأمويين للمرة الأولى قبيل سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م، أثناء ولاية علي بن الحسن الكلبي على صقلية، وجاءت دون سابق إعداد أو تخطيط، فقد كانت إحدى سفن بني أمية قادمة من المشرق، فلما صارت بين صقلية وتونس، صدفت سفينة فاطمية قادمة من صقلية، تحمل بريد والي صقلية إلى دار الخلافة، وقد خشي الأندلسيون «أن ينذروا بهم» فانتزعوا من السفينة الصقلية دفتها، وبعض أمتعة الذين كانوا فيها «وأخذوا فيما أخذوا الخريطة التي فيها كتاب عامل صقلية»، ثم مرّ بالصقليين سفينة فاطمية حملتهم إلى إفريقية، حيث أبلغوا بما حدث معهم[1].

وجاءت ردة الفعل الفاطمية سريعة وحاسمة، فقد أمر المعز المغضب «بإخراج مراكب حربية وأدخل فيها رجالاً من رجال البر والبحر، وأمر عليهم حسن بن علي، عامل صقلية، وأمره بطلب المركب حيث أخذ، وإن وصل إلى الأندلس فلا ينصرف عنه حتى يحرقه، فلم يلحق المركب إلا وقد أرسى بألمرية، مرسى الأندلس، ومجتمع مراكبها، وأساطيل الأموي المتغلب عليها، ودار صناعة مراكبه وبها عدته.

واتصل الخبر به أن الأسطول قد نفذ إليه، وسبقت مراكبه راءة [استطلاع] في البحر بخبره، فأعدّ عساكره وعمر مراكبه بالعدة والسلاح والرجال.

وجاء حسن بن علي في مراكبه، وكانت قليلة العدد، إنما أخرجت

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

في طلب مركب واحد، فوهب الله لوليه الظفر، فاستولى أسطوله على أساطيل الأموي، فأضرمها ناراً، وغادرها بأسرها رماداً، ونزل من بالأسطول من رجال البحر، واستولوا على ألمرية، وانهزم عنها جمع الأموي، فأحرقوا ما بها من المراكب والخزائن والعود، والعدد، وانتهبوا جميع ذخائرها، وهرب من استطاع الهرب من أهلها، ولم يعرضوا لمن بقي ممن استسلم بها بمكروه، وقتلوا من ناصبهم أولاً، وأحرقوا المركب الذي صنع أهله ما صنعوه فيما أحرقوا، ولم يكن أمير المؤمنين أمرهم بغير ذلك، فانصرفوا سالمين غانمين لم يرزأ منهم أحد بسوء»[1].

ولابد هنا من سؤال عن السبب الذي مكن الحملة الفاطمية من النجاح، علماً أنه لم يتوفر هناك عامل للمفاجأة؛ لسببين أولهما: توفر الإنذار المبكر لأهل ألمرية، ووجوب توقعهم لعمل انتقامي، وثانياً وجود عمل استطلاعي قاموا به يدل على توقع هجوم، هذا من جانب ومن جانب آخر، نتفق مع القاضي النعمان ونصدق روايته في أن عدد السفن الفاطمية لم يكن كبيراً، وهنا يتوجب علينا افتراض تفوق السفن الفاطمية بالنوعية والتسليح، مع مستوى دربة رجال الأسطول وشجاعتهم، ويؤيد هذا خبر معركة المجاز التي أتينا على ذكرها من قبل، ومصادمات أخرى جرت مع الأسطول البيزنطي، ولابد أن هذه الواقعة قد أخافت عبد الرحمن الناصر، فلجأ إلى مراسلة المعز لدين الله أكثر من مرة طلباً للصلح أو المهادنة، كما دفعه إلى التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، لكن مادامت الخلافة الفاطمية قد امتلكت كل هذه الإمكانات لم لم يبادر المعز لدين الله بإرسال أساطيله لإنقاذ كريت المسلمة، وتعلل بطلب التحالف مع كافور الأخشيدي؟ إنه سؤال محير، لا نكاد نجد له غير جواب واحد: هو أن

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٦٤ ـ ١٦٥. الدشراوي ص ٢٥٩.

الخليفة المعز لدين الله، كان مثله مثل سلفه من الخلفاء الفاطميين يريد السيطرة على مصر، والانتقال إلى المشرق، ويؤيد هذا أن جميع المعارك التي خاضتها القوات الفاطمية في الغرب الإسلامي في أيام المعز لدين الله كانت ذات منشأ دفاعي أمني سلطوي، لا بل وغايات دفاعية عن الوجود السلطوي الفاطمي، باستثناء حملة جوهر للاستيلاء على مصر، حيث كانت ذات غايات هجومية، وقد حققت ذلك.

وتحدث القاضي النعمان عن ردات فعل الخليفة عبد الرحمن الناصر على ما حدث في ألمرية، فبعدما عرف بانسحاب القوات الفاطمية، وأنها لم تحاول البقاء في ألمرية للقيام بعمل أوسع داخل بلاد الأندلس فقال: «وحل بالأموي الداهية، واضطرب عليه البلد وخاف خوفاً شديداً، فألف المراكب وجمع جميع رجاله، ومن يوصف بالنكاية ببلده، وأخرج أسطولاً في العام المقبل [٣٤٥/٩٥٦] بعد أن كتب إلى طاغية الروم يسأله النصرة... وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ومراكب بني أمية بالأندلس».

وراسلت بيزنطة في الوقت نفسه المعز لدين الله تعرض عليه إبرام هدنة، واستشار المعز لدين الله أركان دولته، فأشاروا عليه بمهادنة الروم للتفرغ للأندلسيين، لكنه رفض هذه المشورة وأصر على خوض الحرب: «وخرج عليه السلام إلى المهدية، وأنفذ أساطيله، وفيها عساكر البر إلى جهة الروم، وأقام بالمهدية، وأمر أن تكون العساكر في كل مرسى بطريق الأندلس».

«وأقبل أسطول الروم، فلقي أسطول أمير المؤمنين دون صقلية، وأقبل أسطول بني أمية لميعاد المشركين، ففتح الله لوليه على الروم فهزمهم في البحر، وقتل رجاله منهم خلقاً عظيماً، وولوا هاربين بين يدي

أسطوله إلى مجاز رية (Reggio di calabira) ليحموا بلدهم، واتبعهم إلى ما هناك، فلقوه في البحر أيضاً فهزمهم، فنزل عسكر البر بأرضهم فأنكى بالقتل فيهم، فأحرق مدائنهم، وأخرب كنائسهم، وبلغ غاية الأمل فيهم من النكاية».

«وانتهى أسطول بني أمية إلى بعض مراسي المغرب الخالية، القليلة العدد، فنزلوا بها يريدون أن يؤثروا أثراً يرجعون بعده إلى بلدهم ليسكنوا به من خلفهم، فخرج إليهم أهل تلك الناحية، فقتلوا منهم بشراً كثيراً، فهزموهم، فمات في البحر أكثر مما قتلوه، وغنموا ما كان معهم من السلاح، ووجهوا برؤوس من قتلوه وبما غنموا، واتصل بهم خبر الروم، فانصرفوا منكوبين خاسرين»[1].

ومن خلال التمعن في نص القاضي النعمان هذا ندرك، أنه كان لدى البيزنطيين والأمويين خطة واضحة للتنسيق بين الطرفين، وقضت هذه الخطة بقيام الأسطول البيزنطي بنشاطه ضد صقلية، لما كانت تدعيه بيزنطة من حقوق في صقلية، ولوجود أعداد كبيرة من الصقليين المسيحيين المستقلين في الجزيرة، والذين لم يكن المسلمون قد احتلوا مناطقهم، فهؤلاء كانوا على استعداد للتعاون مع البيزنطيين، هذا من جانب ومن جانب آخر قضت الخطة بأن ينشط الأسطول الأندلسي ضد منطقة محددة من السواحل المغربية، ربما ممن كان أهلها على استعداد للتعاون مع الأمويين، أو أنه استهدف الوصول إلى المهدية، والإيقاع بها وبدار صناعتها، انتقاماً لما حدث في ألمرية، فهذا ما توحي به مناقشات

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ١٦٦ ـ ١٦٧. العرب والروم لفازلييف ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠. الدشراوي ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠. سيرة جوذر ص ١٢٥. أماري: ٢/٢٠٤.
.Camb ridge medievol His tory, Vol 4, part I, PP 152-153

الخليفة المعز مع واحد من الرسل الذين بعثهم الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى المعز لدين الله[1].

وعلى هذا نفترض أن الخليفة المعز لدين الله كان يعرف تفاصيل الخطة البيزنطية ـ الأموية، ولذلك أرسل بقواته البحرية كلها إلى صقلية لتتصدى للأسطول البيزنطي في منطقة مضيق مسينا، وقام بالوقت نفسه بشحن سواحل المغرب بقوات كافية أحبطت محاولة الإنزال التي قام بها الأسطول الأموي، ومفيدة هنا عبارة القاضي النعمان: «واتصل بهم ـ الأندلسيون ـ خبر الروم، فانصرفوا منكوبين خاسرين»، وهذا الاستنتاج المتقدم مبني على أن الجاسوسية الفاطمية بالأندلس كانت نشطة وفعالة جداً، وأنها كانت تزود المعز لدين الدين بأوفى المعلومات، بسرعة وكفاءة.

وكانت هذه آخر مواجهة عسكرية بحرية بين قوات الأمويين بالأندلس وجيوش الفاطميين، إذ تلا ذلك مراسلات بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية، انتهت بإبرام هدنة بين الطرفين سوف نتعرض لها، لدى الحديث عن العلاقات الفاطمية ـ البيزنطية أيام المعز لدين الله، وراسل عبد الرحمن الناصر الخليفة المعز لدين الله بشكل مباشر وغير مباشر، وسعى إلى التهادن أو التصالح معه، وأخفق عبد الرحمن الناصر ولم يتوصل إلى اتفاق ما مع المعز، لكنه بالمراسلات دافع الأيام، وفرض هدنة واقعية غير معلنة، بسبب مداومته المراسلة، ولابد أن الناصر قد عرف عن طريق رسله وجواسيسه بتوجهات السياسة الفاطمية، ومشاريعها نحو مصر، ولسنا بحاجة هنا لمعاودة الحديث عن مراسلات

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٧٥ ـ ١٧٧.

الخليفة الناصر للمعز لدين الله، لأننا تعرضنا لذلك في أكثر من مكان ومناسبة[1].

العلاقات مع بيزنطة:

ما من دولة إسلامية مشرقية أو مغربية، امتلكت سواحل على شواطئ البحر المتوسط إلاّ وكانت لها نشاطاتها في هذا البحر، ومنذ قيام الإسلام، ولقرون تالية عديدة كانت الإمبراطورية البيزنطية تعد أكبر قوة بحرية متوسطة، وفي العصر الأموي تفوق العرب بحرياً على البيزنطيين، ولم يكتفوا بإلحاق الهزائم أكثر من مرة بالأساطيل البيزنطية، بل حاصروا القسطنطينية نفسها، لكن بعد سقوط الدولة الأموية ضعف الاهتمام المشرقي بشؤون البحر، ذلك أن الدولة العباسية كانت دولة قارية، وهنا تحول النشاط البحري الإسلامي المتوسطي إلى سواحل المغرب الكبير، والأندلس، وهكذا انتزع المسلمون من الإمبراطورية البيزنطية كل من جزيرتي صقلية وكريت، وتمكنوا بالوقت نفسه من السيطرة على أجزاء كبيرة من أوربا الغربية في إيطاليا وفرنسا، وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد مرت بأزمات ومراحل اضطراب سياسي وعسكري حتى قيام الأسرة المقدونية، وتعد المرحلة الأولى من حكم الأسرة المقدونية (٨٦٧ ـ ١٠٢٥م) من أزهى عصور تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وأكثرها أهمية من حيث الوجود السياسي في الشرق وفي حوض البحر المتوسط والشمال الأوربي، ففي أيام حكم كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيكمس ابتسم الحظ للإمبراطورية البيزنطية في آسية الصغرى وبلاد البلغار وأرمينية وسورية، فقد عجز سيف الدولة الحمداني عن الوقوف في وجه

---

(١) انظر تفاصيل المراسلات والحرب الدعائية وحملات التشهير في المجالس والمسايرات ص ١٦٧ ـ ١٩٦.

البيزنطيين، ودخلت جيوش نقفور فوقاس مدينة حلب حيث أحدثت فيها دماراً مروعاً، ولم يستطع سيف الدولة الدفاع عن عاصمة ملكه، وبعد ذلك بوقت ليس طويل أصيب بالشلل ومات، كما تمكن نقفور من الاستيلاء على جزيرة كريت وانتزع سيطرتها من المسلمين[1]، وحاول فعل الشيء نفسه بالنسبة إلى صقلية، واهتم المعز لدين الله الفاطمي بالنشاط البيزنطي المتوسطي، كما أنه تابع أخبار ما كان يحدث في المشرق، واغتبط بأخبار ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن التصدي لبيزنطة.

والدولة الفاطمية كانت دولة متوسطية عظمى، ذات برامج عالمية إسلامية وغير إسلامية، واهتمت بأحداث البحر المتوسط دفاعاً عن صقلية، وعن مصالحها التجارية، وامتلكت في المهدية وسواها دور صناعة للسفن، ويبدو أن الأسطول الفاطمي كان قد غدا قوة لابأس بها، فقد رأينا هذا، في الصراع مع الأندلس، ومع بيزنطة قبل معركة المجاز، وخلالها، وبعدها.

وكان الصراع حول صقلية، يشبه من بعض الجوانب الصراع القديم الذي قام بين قرطاج وروما حولها، فقد ادعت الإمبراطورية البيزنطية وراثتها للإمبراطورية الرومانية، وكانت صقلية وأجزاء من جنوب إيطاليا من أملاكها، قبل الفتح الإسلامي لصقلية ونشاط المسلمين في الجنوب الإيطالي، ومعروف أن الخلافة الفاطمية قامت في إفريقية، حيث كانت دولة قرطاج من قبل.

وعلى هذا تمحورت العلاقات البيزنطية ـ الفاطمية حول البحر المتوسط، ولاسيما حول صقلية ومحاولات استرداد جزيرة كريت، وطبعاً

---

(١) الموسوعة الشامية ج ٢ ص ٢٣٣ ـ ١٣٤، ج ٣ ص ٢١٠ ـ ٢١١. البحريون الأندلسيون والوجود الإسلامي في إقليم بروفانس لعبادة كحيلة ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد ١٩٩٥/٣٨ ص ٥٠٢ ـ ٥٢٤. الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية لإسمت غنيم ص ١٦٩ ـ ٢١٨.

حاولت بيزنطة الإفادة من الصراع الفاطمي الأندلسي لكنها أخفقت، ذلك انه أثناء الصراع سعت بيزنطة لإيجاد حلفاء لها، فوجدت الحكم الأموي بالأندلس، وفتش المعز عمن يحالفه لاسترداد جزيرة كريت، فاتجه نحو كافور الأخشيدي، فلم يحالفه النجاح، ولو وجدت «لو» في التاريخ، لتمنى الإنسان العربي الآن، لو قام تحالف فيما بين المهدية وقرطبة والفسطاط، لكان بالإمكان استرداد جزيرة كريت، ولتبدل تاريخ حوض البحر المتوسط، وأوربا بشطريها الغربي والشرقي، ومادام الإنسان يتعامل مع ما حدث لا مع الأماني لنشرع الآن في عرض أخبار العلاقات الفاطمية البيزنطية أيام المعز لدين الله:

بعد إخفاق التحالف البيزنطي ـ الأموي، رأينا عبد الرحمن الناصر يلجأ إلى مراسلة الخليفة المعز لدين الله وكذلك فعلت الإمبراطورية البيزنطية، وحدثنا عن ذلك القاضي النعمان بقوله: «وأرسل ملك الروم إلى أمير المؤمنين بأموال عظيمة وهدايا جليلة، ورغب في التوقف عمن بقي من الروم بأرض قلورية على مال قطعه على نفسه يؤديه عنهم، وأسرى من أسارى أهل المشرق، ليطلقهم في كل عام لمدة يسيرة سأل الهدنة فيها، ورأى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام صلاحاً للدين وللمسلمين بعد أن أقدره الله عز وجل وأمكنه، وشفى صدره وصدور المؤمنين به»[1]، وسوغ المعز لدين الله قبوله بالتهادن، حتى تستجم دولته في وقت الهدنة، فضلاً عن هذا، قال بأنه وادع الإمبراطور البيزنطي «على أموال ألزمها نفسه لنا ملكهم، وهو لا يلزم نفسه ذلك لأحد غيرنا بمشرق الأرض ولا مغربها، جزية يؤديها إلينا، وإطلاق أسارى أهل المشرق الذين في يديه لنا»[2].

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٦٧.

(٢) المجالس والمسايرات ص ١٧٥.

وكان إمبراطور بيزنطة آنـذاك هـو قسطنطين السـابع، ويبـدو أن هـذا الإمـبراطور بعدمـا رأى قبـول المعـز بالتهـادن، أراد أن يحـول الهدنـة إلـى تحالف دائم، أي أن يقوم بإلغاء التحالف مع أمويـي الأندلـس، ويسـتبدله بحلف جديد مع المعز لدين الله، يتـم بموجبه تقاسـم منـاطق النفوذ فـي البحـر المتوسـط، بحيـث تطلـق يـد بيزنطـة فـي المشـرق وفـــي المنــاطق المتوسطية القريبة منها ويترك للمعز لديـن اللـه حريـة النشـاط فـي الجـزء الغربي من شواطئ المتوسط، أي صقلية وما جاورها والأندلس.

وقـدم لنـا القـاضي النعمـان وصفاً مفصـلاً لاسـتقبال المعـز لرسـول بـيزنطي قـدم إليـه كمـا يرجـح سـنة ٣٤٦هـ/٩٥٧ ـ ٩٥٨م لتـأكيد الهدنـة وتأييدها والاتفاق على أمـور أخـرى، وقـال القـاضي النعمـان: «وقـدم إليـه (صـع) بطريـق مـن بطارقـة الـروم وأشـرافهم رسـولاً عـن طـاغيتهم صــاحب القسطنطينية بما أوجبه على نفسه من مغرم الجزية عن أرض قلوريـة، كمـا يبعث بذلك لكل سنة، وجاء منه بهدايا كثيرة.... وبكتاب من مرسله يخضـع فيه إليه، ويرغب ويسأل ويطلب الكف عن حربه ويسأل الموادعـة.... وكـان أكثر ما أدى إليه الرسول عن طاغية الروم، وما جاء في كتابـه إليـه سـؤاله الهدنة مؤبدة... وبأن يرسل رسولاً من قبله ليسر بذلك».

وأجابه المعز بأن الدين لا يجيز الهدنة المؤبدة و«الموادعة إنما تجوز لمدة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صلاحــاً لهـم وللديـن، ولـو كـانت مؤبدة لبطل الجهاد المفروض على العباد، وانقطعت دعوة الإسلام وخولـف حكم الكتاب»، ورفض المعز فكرة بعث رسول من عنده إلى القسطنطينية وقال: «إن أحداً من الناس لا يرسل رسولاً إلى أحـد إلاّ لحاجـة لـه، ولأمـر يجب له عليه»، ثم بين أنه علـى استعداد لإرسـال رسـول مـن عنـده إلـى القسـطنطينية إذا كان الإمـبراطور علـى اسـتعداد لدخـول الإسلام، وأكـثر المعز لدين اللـه فـي سـؤال المبعـوث البيزنطي عـن أوضـاع طرسـوس أم

الثغور الشامية، وعن أحوال سيف الدولة الحمداني، واستغرب الحضور من رجالات المعز أسئلته، ولم يفقهوا ما دار بين المعز والمبعوث البيزنطي، وبعدما صرف المعز لدين الله الرسول البيزنطي «عطف على من كان في المجلس كأنه اطّلع على ما كان في قلوبهم، فقال: لعل بعضكم أنكر ما أطلنا سؤاله عنه عن أمرهم مع أهل المشرق»، ثم علل ذلك[1] ببراعة سلطوية تأويلية.

وكانت الإمبراطورية البيزنطية تخوض أنذاك في المشرق ما يعرف باسم معارك صليبية القرن العاشر، فقد عاشت هذه الإمبراطورية في القرن العاشر في ظل حكم الأسرة المقدونية حقبة قوة عسكرية لم تعرف لها مثيلاً منذ قيام الإسلام، وتوالى على عرش القسطنطينية عدد من القادة العسكريين الكبار، كان من أوسعهم شهرة نقفور فوقاس.

فبعدما كفت بيزنطة نفسها المخاطر في جنوب إيطاليا وصقلية، واطمأنت من جانب الأساطيل الفاطمية، لأنها لاشك ـ بالإضافة إلى الهدنة ـ كانت تعرف الخطط الفاطمية تجاه مصر، ركز نقفور جهوده كلها ضد الثغور الشامية، واستطاع أن يجتاحها وأن يدمرها، لأن سيف الدولة الحمداني عجز عن الدفاع وانشغل بمشاكل غلمانه وخروجهم عليه، ولأن سلاطين المشرق تثاقلوا عن نصرة أهل الثغور، وكان «النائب في مصر وما ينسب إليها براً وبحراً من أقاصي الصعيد إلى حدود جوسية راض بمدافعة الأيام وسلامة الشهور والأعوام من صولة ملك المغرب»[2].

وعندما فرغ نقفور من أمر الثغور التفت نحو مدينة حلب التي لم يستطع سيف الدولة الدفاع عنها، واقتحمها الجند البيزنطيون وأحدثوا

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠. الدشراوي ص ٣٦٠ ـ ٣٦٢.
(٢) ابن العديم بغية الطلب في تاريخ حلب ج ١ ص ١٨٠ ـ ١٩٣.

فيها دماراً مروعاً، ثم نهبها، وبعد قرابة العشرة أيام غادرها ومعه قطار من الأسرى فيه ما لا يقل عن عشرين ألف فتـى وفتـاة، وكـان هـذا كلـه سـنة ٣٥١هـ/٩٦٢م[١].

وقبل سقوط حلب بسنة ونيف كان نقفور، قد استغل أيضاً ضعف المسلمين، فقام بحملة كبيرة جداً ضـد جزيـرة (أقريطـش) واسـتطاع (سـنة ٣٥٠/٩٦١) الاستيلاء عليها بعدما واجه مقاومـة هائلـة، وعندمـا وصل خبر سقوطها إلى القسطنطينية، تقبله شعبها بسرور عـارم، وعلـى العكس شـعر المسلمون بحزن عميق، وأسـى كبير، وكـان حكـامهم وإن امتلكـوا مـا كـان يكفي لاستردادها، عالجوا المسألة بمنطق إعلام الدسائس، حيث بعث المعز برسالة تهديد إلى بيزنطة، وتقريع إلى كافور الأخشيدي، وعرض عليه حلفاً استهدف مصر وليس إنقاذ كريت، فرفض كافور، وضاعت الجزيرة.

وتحتاج معالجة المعـز لديـن اللـه لقضيـة كريـت استعراضاً فيـه مـا يكفي من تفاصيل:

فلقد تقدم معنا خبر عقد الموادعة بين المعز لديـن اللـه والإمـبراطور البيزنطي قسطنطين السابع وذلك لمدة خمس سنوات، وأن ذلك كان سـنة ٣٤٦هـ/٩٥٧، وعندما وصل رومانوس الثاني بعد قسـطنطين إلـى السـلطة الإمبراطورية، خرق الموادعة، وأرسل «الدمستق ـ نقفور ـ الـذي هـو أقـرب رجاله درجة إليه، وأخصهم به، في عدة من السفن كثيرة، وجيوش ثقيلة، حتى أناخ بها على جزيرة أقريطش»، وعندما علـم المعـز لديـن اللـه بذلـك «رأى أن ينبذ إلى المشرك عهده»، وعلم بالوقت نفسه بـأن هنـاك جماعـة من أهل كريت قادمين إليه للاستغاثة به، مع أنهم كـانوا «فـي دعـوة بنـي

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ج ١ ص ١٢٩ ـ ١٣٨، بغية الطلب ج ١ ص ١٩٤ ـ ١٩٧، تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ٩٥ ـ ٩٧.

العباس» لكنهم عندما «علموا أنه ليس عند بني العباس نهضة، ولا لهم لديهم نصرة، أرسلوا مركباً فيه رجال من قبلهم مع وجه من وجوههم إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله يستغيثون به، ويسألونه استنقاذهم وإغاثتهم»[1].

وقبل أن يقدم المعز لدين الله على إلغاء الموادعة مع بيزنطة، كتب رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي خيره فيها «بين أن يقلع عن حرب أهل أقريطش وبين أن ينبذ إليه عهده»، وقال له في خاتمة رسالته: «وعهدك إن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ إليك، فانظر لنفسك ولأهل ملتك، فانا مناجزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده»[2].

وكان أهل كريت قد استغاثوا بكافور «صاحب مصر، وهم من أهل دعوته، تجمعهم دعوة آل عباس، ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتها تمير أهل مصر، وهداياهم تصل إلى عمالها، فعجز عن نصرتهم»، وتمنى لو يقدم المعز لدين الله على إغاثتهم، وألمح أنه مستعد للتعاون، وبلغ المعز لدين الله ذلك فتصرف ببراعة واستهدف استغلال المناسبة دعائياً لصالح مطامحه في مصر والمشرق، لكن دون أي إجراء فعال.

وكتب المعز إلى كافور الأخشيدي، يعرض عليه التعاون لنجدة أهل كريت، وطلب منه أن يرسل أسطوله «إلى مرسى طبنة من أرض برقة لقرب هذا المرسى من جزيرة أقريطش»وحدد له تاريخاً هو أول ربيع الآخر لاجتماع هذا الأسطول بأساطيله، وقدم له تعهدات، وطلب منه عدم الخشية على من يبعث به من رجال ومراكب وقال له: «فلك عهد الله وميثاقه أنا لا نكون معهم إلاّ بسبيل خير، وأنا نحلهم محل رجالنا، ونجعل

---

(١) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٤٤٤.

أيديهم مع أيدينا، ونشركهم فيما أفاء الله علينا، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا، ومراكبك مقام أساطيلنا حتى يفتح لنا إن شاء الله»[1].

هذا ولم يأت القاضي النعمان على ذكر غير تفاصيل التحركات الدعائية الدبلوماسية، ولم يتحدث عن أي عمل عسكري، لأنه ربما لم يكن هناك أي عمل عسكري، علماً بأنه قد توفر الوقت لدى المسلمين للتحرك، ذلك أن غزو جزيرة كريت بدأ في منتصف جمادى الأولى لعام ٣٤٩هـ/ منتصف يوليو ٩٦٠م، حين قاد نقفور فوقاس حملة عملاقة بلغ عدد الجند فيها أكثر من سبعين ألف مقاتل فيهم خمسة آلاف فارس، وبلغت أعداد مختلف أنواع السفن البيزنطية ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستين سفينة، وقد أحاط الأسطول البيزنطي بالجزيرة من جميع الجوانب، وقاوم أهل الجزيرة الغزاة بكل بسالة وثبات، واستمرت المقاومة سنة، أي حتى مارس ٩٦١ حين سقطت بلدة الخندق حاضرة العرب في الجزيرة، وبسقوطها استسلمت باقي الجزيرة، وطار خبر ذلك بالآفاق.

ويبدو أنه خلال هذا الوقت لم يتخذ لا المعز لدين الله إجراءً سريعاً لإنقاذ الجزيرة ولا غيره، ذلك أن كافور المحرج لم يثق بتعهدات المعز، مع أنه تعرض لضغط شعبي، حيث ثار العامة عليه يطالبون بنجدة أهل كريت، فما كان منه إلا التظاهر بالعمل على النصرة «ورمى بعض مراكب في البحر»[2]، وكان في هذا كفاية وامتصاصاً للنقمة.

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٤٥.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٤٤٥. تاريخ يحيى بن سعيد - ط. باريس - ص ٨٤. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٣ ص ٢٩١ - ٢٩٢. خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٧. الدشراوي ص ٣٦٢ - ٣٦٧. الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ص ١٨٢ - ٢٠٢. الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣. مصر في عصر الأخشيديين ص ١٢٥ - ١٢٧.

وهكذا ضاعت جزيرة كريت، فكان ذلك مقدمة لنجاحات صليبية أخرى، في حوض البحر المتوسط، لاسيما لدى تفجر أحداث الحروب الصليبية الحقيقية في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، لقد ضاعت لأن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، كان لا يريد المغامرة بأسطوله بعيداً عن شواطئ المغرب، فهو كان يعده لغزو مصر، ويجمع القوات البرية للغاية نفسها، وصحيح أن المعز نال ملك مصر، غير أن أحداث الحروب الصليبية هي التي أزالت هذا الملك من مصر ومن الوجود كلياً، وللانصاف يتحمل وزر ضياع كريت مع المعز الخلافة الأموية في الأندلس، وكذلك الدولة الأخشيدية في مصر، لأنها كانت تمتلك مصر مع الشام الجنوبي، أما الخلافة العباسية فقد كانت مغيبة تحت الاستبداد البويهي.

المغرب العربى من خلال خلافة المُعّز لدين اللهً الفاطمي

(341-362 هـ / 952-971م)

الجزء الثاني

تأليف

د. صالح عمّار الحاج

الناشر

المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

(طباعة . نشر . تصدير كتب)

الموضـــوع	المحـــتويات	صفحة

الموضـــــوع	صفحة

الفصل السادس

العلاقات مع بلدان المشرق

1- القرامطة ـ الاسرة الجنابية.

2- الحمدانيون.

3- الدولة البويهية .

الفصل السادس

العلاقات مع بلدان المشرق

يجد الباحث في تاريخ الخلافة الفاطمية، خير شاهد على تداخل أحداث تاريخ الوطن العربي وتفاعلها، فالدعوة الإسماعيلية قد تكون تأصلت أولاً في العراق ثم انتقلت بعد ذلك إلى بلاد الشام، ومن هناك انتقلت قيادتها إلى مصر، فالشمال الأفريقي، وكنا قد رأينا أخبار تأسيس الخلافة الفاطمية وبسطها سيطرتها على مختلف أرجاء المغرب، ومن المغرب حاول الفاطميون الاستيلاء على مصر، ولم يتحقق لهم النجاح إلا أيام المعز، وهذا ما سوف نتناوله في هذا الفصل، وبعد الاستيلاء على مصر حاول الفاطميون السيطرة على بلاد الشام، وكذلك على الحجاز، ولسوف نفصّل كيف جرت الأمور في الشام بعد مصر، وبصرف النظر عن بعض الانتكاسات العسكرية التي واجهتها القوات التي صحبت جوهرا، لاسيما ما أرسله للاستيلاء على بلاد الشام، لابد من الإقرار أن منابر مصر والشام الجنوبي، بما في ذلك دمشق خطبت للمعز لدين الله الفاطمي، وهكذا كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ الذي تبعت فيه

مصر والشام الجنوبي رسمياً لحاكم مقره في أحواز القيروان في تونس، كما أنها كانت المرة الأولى في التاريخ الذي تمكنت فيه قوات قبلية مغربية زحفت من إفريقية، من احتلال مصر والشام الجنوبي.

وصحيح أن الاحتلال الفاطمي لم يكن احتلالاً عسكرياً محضاً، بل كان عملاً دوافعه المعلنة عقائدية، أي أنه كان مستوفياً لشروط الاستمرار مع إمكانية النجاح الدائم، لكن هذا النجاح الدائم لم يتحقق لا لأسباب عسكرية، بل للأسباب العقائدية، فقد كانت العقيدة الإسماعيلية ارتدادية لا تمتلك أسباب القبول العام، شابهت في ذلك من بعض الجوانب الدعوة العباسية في بداياتها، لكن الذي حدث مع الدعوة العباسية هو أن خلفاء بني العباس نجحوا إلى ابعد الحدود في سياستهم الدينية، فقمعوا التطرف، وسايروا التيارات العامة المرتبطة بوضوح بالقرآن والسنة بلا تأويل، واحتضن خلفاء بني العباس رجال الدين ورعوهم، لكنهم لم يتدخلوا بشكل مباشر في نشاطاتهم وآرائهم، وصحيح أن أبا جعفر المنصور قد أعلن عن نفسه خليفة الله في الأرض، لكن ذلك كان من باب السلطة لا من باب التشريع في حين جعلت الدعوة الإسماعيلية من الإمام لديها مصدر التشريع والتأويل، ومن هذا الباب عرفت الدعوة الإسماعيلية؛ باسم «التعليمية».

وفي أيام المعز لدين الله ـ كما كان الحال من قبل ـ انتشرت أعداد كبيرة من الذين آمنوا بالعقيدة الإسماعيلية في بعض أجزاء بلاد الشام والعراق وبلدان المشرق.

وكانت هناك أيضاً دولة القرامطة في الأحساء والبحرين، وكانت ما تزال يانعة لديها طاقاتها العسكرية الفعالة، وكانت الخلافة الفاطمية تأمل أنها ما أن تستولي على مصر والشام، حتى ستعلن القوى الإسماعيلية

والقرمطية والشيعية الولاء لها، مما كان سيقود إلى دمار الخلافة العباسية، لاسيما أن هذه الخلافة كانت تحت حكم أسرة آل بوية الشيعية.

وحين تحدث ابن سعيد عن القاهرة قال: «هذه مدينة اسمها أعظم منها، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته، لأنها مدينة من بناء المعز أعظم خلفاء العبيديين، وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط، وخطب له في البحرين من جزيرة العرب عند القرامطة، وفي مكة وفي المدينة وبلاد اليمن وما جاورها، وعلت كلمته.

وسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر»[1]

وفي الحقيقة إذا أردنا الإسهاب في الحديث عن إخفاق المشروع الفاطمي، وتوقفه عند جنوب الشام، ونجاحه السياسي المحدود، وإخفاقه العقائدي الكامل، فإن هذا يحتاج إلى مكان رحب، قد لا يقل عن حجم أطروحة، وقد يرى بعضهم في ذلك خروجاً عن الإطار المرسوم لهذه الرسالة، ولهذا تكفي الإشارات، مع زيادة الاهتمام بشؤون مصر وجنوب الشام في أواخر العصر الإخشيدي، لاسيما وأن مصر وجنوب الشام، كانا يدينان بالطاعة للإخشيديين.

ولا يعنينا البحث في تاريخ الدولة الإخشيدية[2]، لكن حاولت الخلافة الفاطمية الاستيلاء على مصر مع تأسيس حكم الأسرة الإخشيدية على يد محمد طغج بن جف، الإخشيد، وأخفق الفاطميون في مسعاهم، وانشغل القائم الفاطمي بثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ومع هذا لم يهمل شأن

---

(١) ابن سعيد النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ط. القاهرة ١٩٧ ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) خير من كتب عنها الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف كتاباً بعنوان «مصر في عصر الأخشيديين» ط. القاهرة ١٩٨٩.

مصر، وراسل الإخشيد، وحاول كسب مودته، وكتب إليه رسالة ليقرأها أمام الناس، وأرفقها برقعة بخط يده قال فيها: «قد خاطبتك أعزك الله في كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد الدين، وما جرى به الرسم في سياسة أنصار يستجلبون، وضمنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتابي وذوي المكانة عندي، وأرجو أن تزدك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلي إليك وإيثاري لك، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني، واحتوى عليه ملكي، وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي لأنك قد استفرغت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون إحسانك، ولا يشكرون إخلاصك، يخلفون وعدك، ويخفرون ذمتك، لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة، وليس ينبغي لك أن تعدل عن منهج من نصحك، وإيثار من آثرك إلى من يجهل موضعك، ويضيع حسن سعيك، وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كرّه إليك العدول عنهم، فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق، ولزوم الصدق فإنني أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك، تسكن إليه في أمرك، وتعول عليه بمثل ذلك، وإذا تدبرت هذا الأمر علمت أن الذي يحملني على التطأطي لك، وقبول الميسور منك، إنما هو الرغبة فيك، وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته، والله يريك حسن الاختيار في جميع أمرك، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[1].

وتخلص الأخشيد من الإحراج بادعاء أنه لا يقرأ ولا يكتب، وقال لرسول القائم بأنه سيتدبر الأمر فيما بعد، وسيسلك مع القائم «من حسن الموالاة ما لم يكن غيره يسلكه»[2].

---

(١) ابن سعيد المغرب في حلى المغرب ـ السفر الرابع ط. ليدن ١٨٩٩، ص ٢٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦ ـ ٢٧.

ويبدو أن الخلافة الفاطمية قد اقتنعت بتأجيل موضوع مصر، نظراً لمشاغلها المغربية، كما أن الدولة الأخشيدية تغاضت بعض الشيء عن النشاط الإسماعيلي في مصر وعبرها، لأن الخلافة الفاطمية أعلنت عن مصر دار هجرة، وهكذا أخذ بعض الدعاة والشخصيات الإسماعيلية الكبيرة بالورود إلى مصر، وكان من هؤلاء الشاعر المشهور المتنبي، فقد جاء في ترجمته في بغية الطلب لابن العديم: «قدم الشام في صباه وجال في أقطارها، وصعد بعد ذلك إلى الديار المصرية، وكان بها في سنة خمس وثلاثين ثلاثمائة» أي بعيد وفاة الأخشيد، وتسلم ابنه أنوجور للحكم.

فقد نقل ابن العديم عن تاريخ المسبحي «قصيدة لأبي الطيب يرثي بها أبا بكر بن طغج الأخشيد ويعزي ابنه أنوجور بمصر سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، والقصيدة ليست في ديوان شعره، فقد كان أبو الطيب صعد إلى مصر مرة أخرى قبل هذه المرة التي ذكرناها، وأول القصيدة:

هو الزمان مشت بالذي جمعا	في كل يوم ترى من صرفه بدعا
إن شئت مت أسفا أو فابق مصطبرا	قد حل ما كنت تخشاه وقد وقعا
لو كان ممتنع تغنيه منعته	لم يصنع الدهر بالإخشيد ما صنعا

وهي طويلة».

وبعدما عاد المتنبي إلى الشام أعلن ثورته في البادية وألقي عليه القبض، ثم أطلق سراحه، فالتحق بسيف الدولة الحمداني صاحب حلب، وهنا طارت شهرته، وفي ذروة نشاطه وسمو مكانته لدى سيف الدولة، هجر حلب، وقصد مصر حيث كانت السلطة بيد كافور الأخشيدي، هو لم يعد إلى مسقط رأسه في الكوفة، ولم يقصد العراق حيث حظي بالشهرة، بل ذهب إلى مصر، والتحق بكافور العبد النوبي الخصي.

ويرجح أن المتنبي كان مكلفاً من قبل الدعوة الإسماعيلية بالعمل على كسب سيف الدولة الشيعي الإمامي، لكن الحمداني تأثر بالداعية النصيري الخصيبي، وهكذا تأزمت الأمور بين المتنبي وسيف الدولة، فما كان منه إلاّ الذهاب إلى مصر[1].

وفي مصر ألح المتنبي على كافور إسناد ولاية له قرب الصحراء الغربية، وكان كافور يدرك مراميه، لذلك سوفه ولم يستجب لطلبه، واتصل المتنبي بواحد من كبار قادة جيش كافور، فمات هذا في ظروف غامضة، وهنا قرر المتنبي، أو بالحري صدرت الأوامر إليه من قيادة اسماعيلية ما بالخروج من مصر والالتحاق بعضد الدولة البويهي، وعند عضد الدولة لاقى المتنبي حتفه، وحيكت حكاية هجائه لواحد من الأعراب، وفي الحقيقة لولا امتلاك الإسماعيلية لجهاز قوي في مصر والشام لما استطاع المتنبي النجاة من كافور والوصول سالماً إلى العراق، وروى ابن العديم عن ذيل تاريخ ابن يونس للحضرمي: «أبو الطيب، يعرف بالمتنبي، رحل من مصر سراً من السلطان، ليلة النحر سنة خمسين وثلاثمائة، ووجه الأستاذ كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى، فلم يلحق»[2]، وإثر خروج المتنبي أذاع الإسماعيلية أن مصر لن تسقط لهم «حتى يزول الحجر الأسود من مكانه»، وقصد بالحجر الأسود كافور الأخشيذي وبالفعل مات كافور سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م[3].

ولقد كان كافور سياسياً بارعاً، وببراعة حال دون سقوط الحكم الأخشيدي وحافظ على استقلال مصر، وقد ذكر أبو المحاسن بن تغري

---

(١) ابن العديم بغية الطلب في تاريخ حلب ص ٦٣٩، ٦٥٦، ٦٧٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٧٥، ٦٨٢.

(٣) زكار الجامع في أخبار القرامطة ص ٩٠. السيد كاشف مصر في عصر الأخشيديين ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

بردي أن كافوراً كان: «خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً، جيد العقل، داهية، كان يهادي المعز صاحب المغرب، ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء»[1].

هذا ونقلت سيدة إسماعيل كاشف خبر وجود قطعة قماش من نسيج مصر كتب عليها: «بسم الملك الرحمن الرحيم، نصر من الله وفتح قريب، لعبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة»، وربطت ما جاء على هذه القطعة برواية أوردها ابن الزيات في كتابه «الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة»، حيث قال: «وكان المعز قد جاء قبل ذلك في زمن كافور إلى مصر، فخرج إليه هو وعبد الله بن طباطبا، فقال عبد الله: ما نسبك، ما حسبك، فرجع المعز، وهذه هي المرة الأولى، فلما دخل إلى المغرب، بعث جوهراً القائد، فملك مصر، ثم بعث جوهر يقول: قد ملكت مصر، فركب من المغرب وأتى إلى مصر».

وعقبت على ذلك بقولها: «والراجح عندنا أن من المحتمل أن يكون المعز قد قدم إلى مكان ما على الحدود المصرية، وأن يكون كافور قد خرج للقائه، ومعه ابن طباطبا للمفاوضة في مصير البلاد[2].

وهذا الترجيح بعيد الاحتمال، لعدم ذكره من قبل أي من المؤرخين المشارقة أو المغاربة، ولأن ابن الزيات كان متأخراً من أهل القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، ويستبعد أن يأمر كافور بصنع ثوب للمعز عليه ألقابه ليهديه له أثناء اللقاء به، وكل ما في الأمر أن هذا الثوب ربما صنع في مصر أيام كافور، وحمل إلى المعز، الذي بدوره جلبه معه لدى

---

(١) ابن سعيد النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦.

(٢) ابن الزيات ـ الكواكب السيارة ص ١٧٥. مصر في عصر الأخشيديين ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

قدومه إلى مصر للاستقرار بها، متذكرين أن الإسماعيلية في مصر نشطوا أيام كافور بشكل مكشوف، فقد شيد أبو جعفر أحمد بن نصر «داراً كبيرة كانت تؤخذ فيها البيعة لصاحب المغرب»(١).

وقبل وفاة كافور الأخشيدي، كان المعز لدين الله الفاطمي قد شرع في إعداد الخطط للاستيلاء على مصر، وما حملة جوهر الكبيرة للسيطرة على بلدان المغرب إلاّ كانت ضمن مخطط الزحف نحو المشرق، بوساطة جمع الأموال والرجال، وتهدين أرجاء المغرب حتى يكون التفرغ لمشروع مصر كاملاً، ففي سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م «أمر المعز بحفر الأبار في طريق مصر، وأن يبنى في كل منزلة قصر، ففعل ذلك»(٢)، ولم يكتف بذلك بل جمع الأموال العظيمة ورصدها لمشروع مصر، فقد استدعى المعز في أحد الأيام إليه صاحب بيت المال، «فوجده في وسط القصر جالساً على صندوق، وبين يديه ألوف صناديق مبددة في صحن القصر، فقال له: هذه صناديق مال، وقد شذ عني ترتيبها، فانظرها ورتبها»، ورتب الرجل الصناديق، وختمها بخاتم المعز ورفعها، وكان جملة ما فيها: «أربعة وعشرين ألف ألف دينار، وذلك في سنة سبع وخمسين وثلاثمائة فأنفقها أجمع على العساكر التي سيرها إلى مصر»(٣).

وبعد ما مات كافور الأخشيدي، اضطربت الأحوال كثيراً في مصر وفي بلاد الشام، فقد استبد بالسلطة الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات، واستقل بالوزارة وتدبير شؤون المملكة باسم أحمد بن علي بن الإخشيد، وعجز ابن الفرات عن ضبط الأمور، وقبض على عدد من أركان السلطة

---

(١) كاشف مصر في عصر الأخشيديين نقلاً عن أخبار سيبويه المصري لابن زولاق ص ٣٦٣.

(٢) المقريزي ـ اتعاظ الحنفا ص ٩٦.

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٦ ـ ٩٧. النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٤١.

أيام كافور، وصادر أملاكهم، وكان من بينهم يعقوب بن كلس، وأودعهم السجن، ثم أطلق سراح ابن كلس، الذي انتهز فرصته، فهرب من مصر، والتحق بالمعز لدين الله في إفريقية، ولسوف يشغل ابن كلس دوراً فيصلاً في تزويد المعز بما احتاجه من معلومات للاستيلاء على مصر، وكان دوره بعد الاستيلاء على مصر أعظم في مجالات إدارة الدولة وفي مجالات العمل الدعوي الإسماعيلي، ولهذا سوف نفرد له حديثاً خاصاً[1].

وتردت الأوضاع المالية كثيراً في مصر، وقصر النيل، وانتشرت المجاعة، واضطرب الأمن، وفقدت حكومة ابن الفرات هيبتها وعجزت عن دفع أعطيات الجند، واستغلت الدعاية الفاطمية تدهور الأوضاع، وقد استفاد المعز من ذلك لتشجيع شيوخ كتامه، ودفعهم للموافقة على حملة مصر، فقد روى المقريزي، أن زوجة المعز بعثت «من المغرب بصبية ربتها لتباع في مصر، فطلب الوكيل فيه ألف دينار، فجاءت امرأة شابة على حمار، فلم تزل حتى اشترتها منه بستمائة دينار، وقيل له: يا مغربي هذه بنت الأخشيد اشترت الجارية تتمتع بها»[2].

وقام المعز بحركة مؤثرة، فاستدعى شيوخ كتامة في يوم بارد شات فوجدوه «في مجلس مربع كبير مفروش باللبود على مطارح، وحوله كساء، وعليه جبة، وحواليه أبواب مفتحة تفضي إلى خزائن كتب، وبين يديه مرفع ودواة»، وقال للشيوخ انظروا إلى حالي وانشغالي بأموركم، وقال: «إني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطي، وإني لا اشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلاّ بما صان أرواحكم وعمر بلادكم، وأذل أعداءكم وقمع أضدادكم»، وطلب منهم تقليده في أعماله،

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ١٣٧، جـ ٢ ص ٤٤٠. مصر من عصر الأخشيديين ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.
(٢) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠٠.

والالتزام بزوجة واحدة، والحفاظ على أبدانهم وقال لهم: «وما علموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق»، ولعله حكى لهم قصة السيدة الأخشيدية والجارية ثم قال: «يا أخواننا انهضوا إليهم، فلن يحول بينكم وبينهم شيء، وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها، فقد ضعفت نفس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم»[1].

واستكمل المعز إعداداته لغزو مصر، وأصدر أوامره إلى أتباعه في تلك البلاد بالنشاط وإعداد العدة لعملية الاستيلاء، قال المقريزي: «وكانت بمصر للمعز دعاة استدعوا خلقاً في البلد، وكانوا يقولون: إذا زال الحجر الأسود، ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها، وبيننا وبينكم الحجر الأسود ـ يعنون كافور الأخشيدي ـ فلما مات كافور، انفذ المعز إلى دعاته بنوداً، وقال لهم: فرقوها على من يبايع من الجند، وأمرهم إذا قربت العساكر ينشرونها»[2].

وأجمل المقريزي وصف الأوضاع المتردية وقتها في مصر سياسياً وأمنياً قبيل تسيير جيوش المعز لدين الله الفاطمي إليها بقوله: «وكان في عامة أرض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء أمر لم يعهد قبله مثله، بحيث أنه أحصي من مات في أيام يسيرة فكانوا ستمائة ألف إنسان، وكانوا يلقون الغرباء في النيل، وبلغ الفروج ديناراً، والبيضة درهماً، وبيع الأردب القمح بثمانين ديناراً، مع كثرة الفتن، وتغلب كل واحد من العمال وغيرهم على ما يليه، واختلاف أهل الدولة بمصر من

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٥ ـ ١٠٠. النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٢، نقلاً عن الحسن بن زولاق (٣٠٦ ـ ٣٨٧/٩١٩ ـ ٩٩٧) صاحب كتاب «إتمام أخبار أمراء مصر للكندي». ترجمة جوهر من المقفى للمقريزي ـ في مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٢٦. مصر في عصر الأخشيديين ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

الإخشيدية والكافورية وكثرة تحاسدهم، وعظم الخوف من هجوم القرامطة، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام، فاختلت من أجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر، واتضعت أمور الناس، وتغيرت نياتهم، وساءت معاملاتهم، وفسدت أكثر أوضاعهم، وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها، وقلة أموالها، وتعذر وجود الأقوات، وكثرة الخوف»[1].

وكان في سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م قد بدأ المعز لدين الله الإجراءات الفعلية الأخيرة للإعداد لحملة مصر، ففي هذه السنة أخرج جوهراً «ليحشد كتامة الذين ينهض بهم إلى المشرق، ويجبي من البربر خمسمائة ألف دينار، وقدم يوم الأحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بعساكر عظمة من كتامة والجند والبربر، فأقام خارج المنصورة لتجتمع إليه الحشود والعساكر، وفتح المعز بيت المال، وأعطى الأموال من ألف دينار إلى عشرين ديناراً.

ثم دخل في يوم السبت لأربع عشرة مضت من ربيع الأول بالعساكر، ومعه زيادة على مائة ألف فارس، وبين يديه أكثر من ألف ومائتي صندوق فيها المال فنزل برقادة، وخرج إلى المعز وخلابه، وأطلق يده ليتصرف في بيوت أمواله كيف شاء، ويأخذ منها زيادة على ما معه ما أحب واختار.

فقال المعز، وجوهر قائم بين يديه، والعساكر مجتمعة، والله لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر، وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولون، ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»[2].

---

(١) ترجمة جوهر في مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) ترجمة جوهر ـ المدخل ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٧. النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٢.

وأجرى المعز وداعاً حافلاً لجوهر، «وأنشد أبو القاسم محمد بن هانئ قصيدة بديعة في يوم رحيل جوهر، وكان من أيام الله العظيمة المهولة، منها:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع — وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كان الأفق سد بمثله — فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع — ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له — غرار الكرى جفن ولايات يهجع
إذا حل في أرض بناها مدائنا — وإن سار على أرض ثوت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث يحله — وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا — وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الضخم حوله — وزف كما زف الصباح الملمع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة — بأيمن فال بالذي أنت تجمع
فإن يك في مصر ظماء لورد — فقد جاءهم نيل سوى النيل يهمع
ويممهم من لا يغار بنعمة — فيسلبهم لكن يزيد فيوسع»

وما أن تحرك الجيش حتى هرب منه خمسمائة فارس، فخرج جوهر في طلبهم ففاتوه، فقال المعز: «الله أكرم من أن ينصرنا بأراذل البربر، وإني لأرجو أن يكون بزوالهم زوال النحس عن عسكرنا»[1].

ووصلت إلى مصر أنباء الحملة الفاطمية العملاقة، وهنا نشطت العناصر الإسماعيلية فيها بشكل مكثف ومثلث ما يعرف بأيامنا باسم «الطابور الخامس»، ولم تمتلك السلطات المصرية لا النية بالمقاومة ولا القدرة على فعل ذلك، ولهذا عندما «قرب جوهر من أرض الإسكندرية،

---

(١) ديوان ابن هانئ ـ ط. دار صادر ص ١٩٢ ـ ١٩٨. المدخل ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

جمع الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، المعروف بابن حِنْزَابة، الناس بداره من مصر، واتفقوا على مراسلة جوهر، وأن يشترطوا عليه أن يقرهم على ما بأيديهم من الضياع والأعمال التي يتولوها»، وجرى اختيار وفد من أشراف الفسطاط للاجتماع بجوهر، وقد لقوه، «فوافقهم وأجابهم إلى ما التمسوه وكتب لهم كتاباً نصه بعد البسملة:

«هذا كتاب جوهر الكاتب، عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرها:

إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم: أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه، وأبو إسماعيل الرسي أيده الله، وأبو الطيب الهاشمي أيده الله، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله، والقاضي أبو طاهر أعزه الله، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله (عليه) وحسن نظره إليكم.

فاحمدوا الله على ما أولاكم، وأشكروه على ما آتاكم، وادأبوا فيما يلزمكم، وسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسعادة عليكم والعصمة الشاملة لكم، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة، والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم، والجهاد عنكم، إذ قد تخطفتكم الأيدي، واستطال عليكم المستذل، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة، والتغلب عليه، وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق، وتأكد عزمه، واشتد طلبه، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة لمقاتلته دونكم، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق، الذين عمهم الخزي، وشملتهم الذلة،

واكتنفتهم المصائب، وتتابعت لديهم الرزايا، واتصل عندهم الخوف، وكثرت استغاثتهم، وعظم ضجيجهم، وعلا صراخهم، فلم يغثهم إلا من أومضه امرهم، ومضه حالهم، وأبكى عينه ما نالهم، وأسهرها ما حل بهم، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فرجاً بفضل (الله) وإحسانه لديه، وما عوده وأجراه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم، وعذاب أليم، وأن يؤمن من استولى عليه الوجل، ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل، وآثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه من الخوف المستولي عليهم، وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى، فسفكت دماؤهم، وابتزت أموالهم، مع اعتماد ما هي عادته من إصلاح الطرقات وقطع عيث العائثين فيها ليتطرق الناس آمنين، ويمشوا مطمئنين، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها، إذ لا زاجر للمعتدين، ولا دافع للظالمين.

ثم تجديد السكة وضربها على العيار الذي (عليه) السكة الميمونة المنصورة المباركة، وقطع الغش منها، إذ كانت هذه الثلاث خصال ما يسع من ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها.

وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق، وحسم الظلم، وقطع العدوان، ونفي الأذى، ورفع المؤن، والمناداة في الحق، وإعانة المظلوم، والتقريب والاشفاق والاحسان، وجميل النظر، وكريم الصحبة، ولطف العشرة، وافتقاد الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم في أوان ابتغائهم معايشهم، حتى لا تجري أمورهم إلا على ما لم شعثهم، وأقام

أودهم، وأصلح بالهم، وجمع قلوبهم، وألف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي صلوات الله عليه باتباعها عليكم.

وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال عن غير وصية من المتوفى بها، فإنه لا استحقاق لتصييرها ببيت المال.

وأن أتقدم في رم مساجدكم، وتزيينها بالفرش والايقاد، وأعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم، وأدرها عليهم، فلا أقطعها عنهم، ولا أدفعها إلا من بيت المال، لا بإحالة على من يقبض منهم.

وأما غير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما نصه من ترسل عنكم أيدهم الله أنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم، وإن لم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذاهبكم وأن تتركوا على (ما) أنتم عليه من أداء الفروض في الاشتغال بالعلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأئمة من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجري فرض الأذان والصلاة وقيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله به، ونصه نبيه ﷺ في سنته، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه.

ولكم علي أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد والمتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم

ونعمكم وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض، ولا يجتني عليكم مجتني ولا يتعقب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ويذب عنكم، ويمنع منكم، فلا يتعرض إلى أذاكم، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم، ولا في الاستطالة على قويكم فضلاً عن ضعيفكم، وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه، ويشملكم نفعه، ويصل إليكم خيره، وتتعرفون بركته، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

ولكم علي الوفاء بما ألزمته نفسي، وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها، وتخرجون وتسلمون علي، وتكونون بين يدي إلى أن أعبر الجسر، وأنزل في المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة، وتثابرون عليها، وتسارعون إلى فروضها. ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وتلزمون ما أمرتم به، وفقكم الله وأرشدكم أجمعين.

وكتب جوهر القائد الأمان بخطه في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار.

وفي آخره قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين: كتبت هذا الأمان على ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وعلى الوفاء بجميعه لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم على ما شرطت فيه، والحمد لله رب العالمين، وحسبي الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين، وكتب جوهر بخطه وأشهد جوهر على نفسه جماعة الحاضرين

وهم: أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني، وابو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الرسي الحسني، وأبو الطيب العباسي بن أحمد الهاشمي، والقاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد وابنه أبو يعلى محمد بن محمد، ومحمد بن مهذب بن محمد، وعمرو بن الحارث بن محمد»[1].

وأخذ منه أبو جعفر مسلم كتاباً إلى جماعة منهم: الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، وأجاز جوهر الجماعة، وحملهم، فلم يقبل أبو جعفر مسلم منه شيئاً، وطعم الجماعة عنده معه وودعوه وانصرفوا.

ولكن ما كاد الوفد يشرع بالعودة نحو الفسطاط، حتى بلغه أن بقايا قادة الأخشيدية والكافورية رفضوا الاستسلام، وقرروا المقاومة والقتال، وعرف القائد جوهر بذلك، فراسل الوفد بالعودة إليه وطلب رد أمانه إليه، فرفقوا به فقال للقاضي أبي طاهر: «يا قاضي ما تقول في هذه المسألة؟ فقال: ما هي؟ قال: ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضي إلى الجهاد ويقاتل الروم، فمنع، أليس له قتالهم؟ فقال القاضي نعم، فقال جوهر: وحلال قتالهم؟ قال: نعم».

وتجمعت العناصر الرافضة للاستسلام، وحاول الوزير ابن الفرات ووفد الأشراف ثنيهم عن مواقفهم، وقرأوا عليهم الأمان الذي بعثه القائد جوهر، وأصر هؤلاء على موقفهم وقال أحدهم لأحد الأشراف: «لو جاء يا شريف جدك محمد ﷺ بهذا ضربنا وجهه بالسيف»، ووقع اختيار هؤلاء على واحد من القادة اسمه نحرير شويزان، فاختاروه أميراً، وتجاهلوا حين فعلوا ذلك الوزير ابن الفرات، وأحمد بن علي بن الأخشيد، الذي كان صاحب السلطة الرسمية.

---

(١) زكار ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمة جوهر نقلاً عن المقريزي ص ٣٢٤ ـ ٣٤٠.

ولقد كانت الحملة الفاطمية برية بحرية، حيث ما لبثت سفن الأسطول الفاطمي أن دخلت من تنيس ومن دمياط دونما مقاومة، وأبحرت باتجاه الفسطاط دون أدنى مقاومة، وحاولت بقايا الأخشيدية منع الجيش الفاطمي من العبور من منطقة الجيزة، وجرت اشتباكات، قتل خلالها أعداد كبيرة من قادة الأخشيدية والكافورية، وهرب الباقون، كما قتل أثناء ذلك عدد كبير جداً من المصريين.

ومن جديد التجأ أعيان الفسطاط إلى الشريف أبي جعفر مسلم «وسألوه أن يكتب إلى جوهر في إعادة الأمان»، وفي الوقت نفسه أخذت بعض العناصر المؤيدة للفاطميين تتجول في أرجاء الفسطاط، ومعها راية كتب عليها اسم المعز لدين الله، وكانت هذه الجماعة تقرع الأجراس وتنادي بالأمان، وانتشرت الأعلام الفاطمية في دروب المدينة، وباتت مستسلمة، ذلك أنها خلت من قادة المقاومة، فقد فرّ جل هؤلاء نحو بلاد الشام، واستجاب القائد جوهر إلى التماس الشريف أبي جعفر مسلم، وأعاد الأمان.

وفي «يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان، خرج الشريف أبو جعفر مسلم، والوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات، وسائر الأشراف والقضاة وأهل العلم والشهود، ووجوه التجار والرعية إلى الجيزة، فلما تكامل الناس أقبل القائد جوهر في عساكره، فصاح بعض حجابه: الأرض إلاّ الشريف والوزير، وتقدم الناس، وأبو جعفر أحمد بن نصر التاجر يعرفه بالناس واحداً واحداً، فلما فرغوا من السلام عليه، مضى إلى فسطاطه، فأقام إلى أن زالت الشمس، فسارت العساكر، وعبرت الجسر أفواجاً أفواجاً، ومعهم صناديق بيت المال على البغال، واقبلت القباب، ثم جاء القائد جوهر في حلة مذهبة، مثقل يحف به فرسانه ورجالته، ومد العسكر بأسره إلى المناخ الذي رسم به المعز، وهو موضع القاهرة».

وتحرك جوهر بسرعة وتدبر فضبـط أمـور الفسـطاط، ووزع الأمـوال والصدقات على الفقراء، وأمن الدقيـق والخبز، وألقـى القبـض علـى بقايـا الأخشيدية والكافورية، فأرسل بعضهم إلـى المعز، وقتـل بعضهـم الآخـر، وسرح البقية من الخدمة، وأمر بتغير الأذان، وخطب خطيب الجمعة الخطبة في الجامع العتيق، وهو يرتدي البياض شعار أهل البيت، وقـرأ فـي نهايـة الخطبة من رقعة مكتوبة مـا نصّـه: «اللهـم صـلِّ علـى عبـدك ووليـك ثمـرة النبوة، وسليل السادة المهدية، عبدك معد ابي تميم المعز لديـن اللـه أمـير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين، وأسلافه الأئمة الراشدين.

اللهم ارفع درجته، وأعلي كلمته، وأوضح حجته، واجمـع الأمـة علـى طاعته، والقلوب على موالاته ومحبته، واجعل الرشاد في موافقتـه، وورثـه مشارق الأرض ومغاربها، واحمده مبادئ الأمور وعواقبها، فإنك تقول قول الحق: ﴿ولقد كتبنا بالزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فقد امتعض لدينـك، ولمـا انتهـك مـن حرمتك، ودرس من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحج إلى بيتـك، وزيـارة قـبر رسـولك ﷺ، فـأعدَّ للجهـاد عدتـه، وأخـذ لكـل خطـب أهبتـه، فسـير الجيوش لنصرتك، وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في مرضاتك، فارتدع الجاهل، وقصر المتطاول، وظهر الحق، وزهق الباطل.

فـانصر اللهـم جيوشـه التـي سيرها، وسـراياه التـي انتدبها لقتـال المشـركين، وجهـاد الملحديـن، والـذب عـن المسـلمين، وعمـارة الثغـور والحرمين، وإزالة الباطل، وبسط العدل في الأمم، اللهم فاجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبة منصورة، وأصلح به وعلى يديه».

وبعد ذلك ألغى جوهـر التعـامل بـالنقود العباسية، «وضـرب السـكة الحمراء ونقشها:

دعا الامام معد لتوحيد الإله الصمد ـ في سطر.

وفي السطر الآخر: المعز لدين الله أمير المؤمنين.

وفي السطر الثالث: ضرب هذا الدينار بمصر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وفي الوجه الآخر: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون. علي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين».

وبدأت بعض قوات الدولة الاخشيدية المنهارة في أطراف مصر والشام تستسلم وتطلب الأمان لتعود إلى مصر، وباتت الظروف واعدة بإمكانية الاستيلاء على بلاد الشام.

وشرع جوهر ببناء مدينة القاهرة لتكون معسكراً اسماعيلياً كتامياً، فبنى أولاً القصر، ومصلى العيد، كما بدأ يضفي الطابع الاسماعيلي الرسمي على مصر، فقد أفطر «جوهر في عيد الفطر على عدد بغير رؤية»، ومنع التماس الهلال حسب العادة، وأمر بأن يزاد في خطبة الجمعة: «اللهم صل على النبي محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين».

وهكذا صار عنوان الدولة في مصر رسمياً التشيع الاسماعيلي، لكن ذلك كان مجرد عمل رسمي لم يتغلغل إلى أعماق أوساط الشعب، ولعل من أسباب ذلك ليس فقط تجذر الفكر السني في مصر، بل لأن السلطة الجديدة عزلت نفسها عن شعب مصر باتخاذ مقر لها اختصت به هو معسكر القاهرة، وترك الفسطاط لأهل مصر ثم إن السلطة الجديدة اعتمدت

عسكرياً على عناصر قبلية مغربية، كانت أدنى من أهل الفسطاط حضارياً واجتماعياً، يضاف إلى هذا أن هذه العناصر سوف تواجه في بلاد الشام الإخفاق تلو الإخفاق، مما سيجبر المعز في أواخر أيامه، وابنه العزيز بشكل واضح، على تجنيد عناصر شرقية وسودانية كثيرة، فضلاً عن هذا، صحيح أن القائد جوهر بنى الأزهر ليكون مسؤولاً عن الدعوة الاسماعيلية لكن الأزهر الفاطمي انشغل بإعداد الدعاة لبلدان المشرق واليمن وسواها، وعانى دوماً ما عانته الدعوة الاسماعيلية من انتكاسات وانشقاقات بعد المعز، آخذين بعين التقدير أن المعز كان آخر خلفاء الدولة الفاطمية الأكفاء، والذين جاؤوا من بعده كانوا سجناء القصر، ضعفاء، شغلتهم الأمور الدينية والمؤامرات والدسائس المحلية، ولسوف نرى أن الخلافة الفاطمية قدّر لها البقاء في مصر، بالدرجة الأولى، بفضل الترتيبات التي أرساها الوزير اليهودي يعقوب بن كلس، وذلك في المجالات الادارية والمالية والسياسية والعقائدية[1].

وشجعت النجاحات التي حققها في مصر، واستسلام بعض بقايا القوى الاخشيدية جوهراً، على ارسال جعفر بن فلاح، على رأس قوات كبيرة للاستيلاء على بلاد الشام، وأزالت هذه الخطوة جميع الألق والمجد الذي حققه جوهر حتى الآن، كما أفقدت الزعيم الكتامي جعفر بن فلاح حياته، وتعرضت المؤسسة الفاطمية في مصر إلى خطر الزوال، مما دفع المعز لدين الله لمغادرة إفريقية، والقدوم مسرعاً إلى مصر لتدارك

---

(١) زكار المدخل ص ٣٢٤ ـ ٣٤٠. المقريزي اتعاظ الحنفا ١٠٣ ـ ١٣٩. ابن سعيد للنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢١ ، ٤١ ـ ٤٥. الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣٠ ـ ٣١. صلة عريب ص ٤٢٩. سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ـ ط. بغداد ١٩٩٠ ص ١٥٩ ـ ١٦٠. البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ٢٦٦. المنتظم لابن الجوزي ـ ط. دار الفكر بيروت ج ٨ ص ٤٠٧٧. كاشف مصر في عصر الاخشيديين ص ٣٦٤ ـ ٣٧٠.

الأوضاع، وقبل الحديث عن حملة جعفر بن فلاح لا بد من وقفة للحديث عن أوضاع بلاد الشام، وكذلك عن الأوضاع في بغداد، وفي الأحساء والبحرين، وكذلك في الجزيرة الفراتية، فجملة هذه الأوضاع، مع تدني السوية القتالية لدى المغاربة أمام المشارقة، وسوء الإدارة المالية الفاطمية، ومشاكل الفوارق الاجتماعية، والمذهبية، وانعدام الكفاءة السياسية لدى ابن فلاح والذين خلفوه، ودور الامبراطورية البيزنطية أحبطت المشروع الفاطمي، وحصرت السلطة الفاطمية في مصر، وهكذا أخفق الفاطميون في السيطرة على العالم أو علي دار الإسلام، ولم يعرف حكمهم الاستقرار في الشام، وحين سعوا مؤخراً إلى تحويل أنفسهم إلى أسرة مصرية محلية، أخفقوا، وفقدوا المغرب وساروا نحو درب النهاية.

وكان الوضع في بلاد الشام، هو أن هذه البلاد كانت مقسمة بشكل عام: شمالي حاضرته حلب، وجنوبي حاضرته دمشق، وأخفق الفاطميون في الاستيلاء على القسم الشمالي الذي كان يحكمهم من قبل الدولة الحمدانية، وكانت القوى الفاعلة في حلب بالاضافة إلى الدولة الحمدانية، هي قبائل الأرياف الشامية والجزرية، وأهم هذه القبائل انحدرت من قبائل عامر بن صعصعة هي: كلاب، وعقيل، ونمير، وقشير، وخفاجة، وبسبب حركات القرامطة في شبه جزيرة العرب والشام والعراق والجزيرة مع أسباب أخرى، وصل إلى الشام الشمالي والجزيرة موجة كبيرة من مهاجري هذه القبائل، وكان ذلك مع نهاية الربع الأول للقرن الرابع للهجرة، ومع الأيام اتخذت كل قبيلة دياراً، أو بالحري دويلة لها، فقد استقرت عقيل حول الموصل لترث بعد أمد الدولة الحمدانية هناك، واستقرت كلاب حول حلب، لتتمكن هي بدورها بعد مدة من الزمن من وراثة الدولة الحمدانية في حلب، واستقرت قشير حول قلعة جعبر قرب الفرات في منطقة الرقة،

واتخذت نمير من حران حاضرة لهـا، وكـانت هـذه القبـائل تديـن بالتشـيع الإمامي وليس الإسماعيلي[1].

ومع نفوذ القبائل المؤثر، كانت الامبراطوريـة البيزنطيـة نشـطة جـداً في هذه الآونة. فقد انهار نظام الثغور والعواصم، واقتحم الامبراطور نقفـور فوقاس مدينة حلب سنة ٣١٥هـ/٩٦١م أيام سيف الدولة بالذات، ووصلـت القوات البيزنطية إلى طرابلس وإلـى مشـارف الشـام، ودخلـت حلـب تحـت الحماية البيزنطية[2].

وعلى الرغم من هـذا كلـه رسـت السـلطة الفعليـة داخـل مـدن الشـام الرئيسية بيد تنظيم شعبي اسمه «الأحداث»، وكـان المستشـرق الفرنسـي كلود كاهن من أوائل من تناول بالبحث تاريخ هذه المنظمة، التـي عرفتهـا مدن الشام منذ القـرن الثـالث للهجرة أو قبـل ذلـك، وقـد اقـترح بـأن مـن الممكن أن تكون منظمة أحداث الشـام ذات صلـة مـن حيـث الأصـول، أو بالحري هي امتداد لما عرفته بيزنطة من تنظيمات قبل الاسلام وبعده، أي أنها انبثقت عن جماعات الخضر والزرق.

هذا وليس هناك شواهد مادية موثقة تؤيد هـذا الاقـتراح، ويرجـح أن منظمة الأحداث قد ولدت في بلاد الشام، مثلما ولدت في العـراق منظمـات الشطار والعيارين، وطبعاً اختلف الأحداث عن الشـطار والعيـارين بالشـكل والمضمون والوظائف والأدوار، وفي بلاد الشـام نمـت منظمـات الأحـداث، وتأثرت دوماً بمشاكل الشام الخاصة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، ولـم

(١) صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٠٥. جمهرة النسب لابن حزم ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥. بغية الطلب ج ١ ص ٥٤٣ ـ ٥٥٩. صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣.

(٢) زبدة الحلب لابن العديم ـ ط. دمشق ١٩٩٧ ج ١ ص ١٢٨ ـ ١٥٣. بغية الطلب ج ١ ص ١٥٣ ـ ٢٠٥. ابن القلانسي ـ ط. دمشق ١٩٨٣ ص ١ ـ ٦.

يكن للأحداث أية علاقة أو قاسم مشترك مع منظمات الامبراطورية البيزنطية، وأكثر ما نشط الأحداث بشكل فعال في دمشق وحلب وكانت هاتان المدينتان ـ وخاصة حلب ـ في العصر البيزنطي، مدناً من الدرجة الثانية، لأن القدس وأنطاكية احتلتا آنذاك مكان الصدارة، ولقد قلل الفتح الإسلامي من مكانة القدس وأنطاكية سياسياً، وزاد من أهمية دمشق وحلب، ثم أنه ليس من الضرورة مطلقاً أنه عندما تتحكم امبراطورية أجنبية بأمة من الأمم، أن تنجح في فرض عاداتها وأحزابها ومنظماتها على الأمة المحكومة، يضاف إلى هذا أن بلاد الشام كانت دوماً المؤثرة في بيزنطة من كافة النواحي، ولا سيما النواحي الاجتماعية والدينية، زد على هذا كانت بلاد الشام قبل الفتح العربي الاسلامي ساحة للصراعات الساسانية البيزنطية، وللصراعات الداخلية التي نجمت عن الانقسامات الكنسية، ويبقى العامل الحاسم هو أنه لم يرد في أي مصدر من المصادر إشارة إلى وجود منظمات شبه عسكرية داخل مدن الشام الكبرى أثناء الفتح العربي الاسلامي.

وبعد سقوط الخلافة الأموية، أهمل العباسيون بلاد الشام، وكان ظل حكمهم ضعيفاً بشكل دائم، ومع الأيام ازداد هذا الحكم ضعفاً، وتعرض العديد من المدن الشامية إلى المخاطر الخارجية، وربما عندما وجد أهالي المدن، ولاسيما في منطقة الثغور، أن العباسيين مشغولين بسواهم، قام بعضهم بإنشاء بعض التنظيمات الدفاعية ومن الأمثلة الموضحة لهذا أنه في سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م، أخفق جيش عباسي قوامه عشرة آلاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار مدينة حلب، ولما رأى الحلبيون اخفاق الجيش العباسي، ووقوع مدينتهم تحت الحصار، شكلوا قوة محلية، نجحت في الدفاع عن المدينة، وقامت بالهجوم على القرامطة بشكل مفاجئ وأنزلت الهزيمة بهم.

وحين نطالع كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، نجد أن هذا المؤرخ العظيم قدم لنا مادة عظيمة عن منطقة الثغور، من جملة ذلك معظم نص كتاب اسمه «سير الثغور»، لأبي عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوسي المتوفى حوالي سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، وقدم الطرسوسي في كتابه هذا وصفاً لا نظير له للحياة العسكرية في الثغور، أهمه ما تعلق بمدينة طرسوس، التي كانت أهم مدن الثغور، وأكثرها شهرة، ولقد حدثنا الطرسوسي أن فتيان طرسوس كانوا يدفعون قبل بلوغهم إلى بعض الشيوخ الأساتذة الثقات من أهل المدينة لتدريبهم، واعتاد الشيوخ على تقسيم الفتيان إلى فئات وإبقائهم تحت التدريب حتى وصولهم إلى سن الرجولة، حيث يلتحق هؤلاء بما عرف باسم سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر[1].

ونحن لا نستهدف هنا التأريخ لأصول منظمات الأحداث وما قامت به من أدوار، بل المقصود تبيان انتشار القوى المسلحة في المدن الشامية، وهذه القوى هي التي ناصبت القوات الفاطمية العداء بلا هوادة، وبالفعل أعاقت التوسع الفاطمي في دمشق أيام المعز وكذلك أيام العزيز ابنه من بعده.

ولنبق مع أيام المعز، ففي سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م توجه جيش فاطمي بقيادة جعفر بن فلاح نحو بلاد الشام، ووصل هذا الجيش إلى الرملة، فاصطدم هناك ببعض بقايا القوات الاخشيدية مع بعض بقايا القوات البدوية، ومن ثم تابعت زحفها تريد دمشق، وعسكرت هذه القوات في طبرية أولاً، وإلى طبرية وصل وفد يمثل أهل دمشق للتباحث مع جعفر بن فلاح حول دخوله إلى مدينتهم، واستقبلهم جند المغاربة أسوأ استقبال،

---

(١) بغية الطالب ج ١ ص ١٨٨ ـ ١٩١. معجم الأدباء ـ ترجمة عثمان بن عبد الله الطرسوسي. الجامع في أخبار القرامطة ج ٢ ص ٤٢٣ ـ ٤٣٦.

حيث قصدوهم «فأخذوهم وجردوهم من ثيابهم وسبوهم وتوعدوهم وقالوا لهم: أو ذا نحن سائرون إليكم، فصاروا في أسوأ حال قد أخذت أثقالهم، وثيابهم، فلقوا جعفر بن فلاح وعادوا إلى دمشق، فأخبروا الناس بما جرى عليهم من الوعيد، وأنهم لقوا قوماً جفاة، قباح المنظر والزي والكلام، ناقصين العقول، فاستوحشت قلوب أهل دمشق من المغاربة..... وخلت مدينة دمشق من السلطان، فطمع الطامع، وكثر الذعار وحمال السلاح»، وفي منطقة حوران اصطدمت قوات ابن فلاح بالقبائل البدوية هناك، وعلى رأسها قبيلة عقيل، وإثر هذا وصلت هذه القوات إلى الغوطة، وكذلك إلى منطقة المزة حيث نزلوا على نهر يزيد، «فثار عليهم أهل دمشق وقاتلوهم... وهزموهم عن دمشق» واستمر القتال عدة أيام «وصاح الناس في جامع دمشق بعد الصلاة النفير، فخرج النفير، واشتد القتال إلى آخر النهار» وحل موعد عيد الأضحى والقتال مستمر «ولم يصل الناس يومئذ صلاة العيد» وفقد أهل دمشق عدداً كبيراً من القتلى، «وقام بأمر البلد أبو اسحق محمد بن عصودا ـ مقدم الأحداث ـ وأغلق الأبواب وأوقف الرماة على شرفات السور، فرموا المغاربة بالنشاب»، ولجأت القوات الفاطمية إلى محاولة احراق دمشق، فنجحت بعض النجاح، «فقتل خلق، ودخلت فرقة من المغاربة باب الجابية، فتكاثر الناس عليهم، وأخرجوهم وأغلقوا الباب، وأحاط العسكر بالبلد من كل ناحية ووقعت المضاربات، وارتفع ضجيج الرجال والنساء بالبكاء والنفير، وظنوا ان القوم يدخلون البلد بالسيف، وكان قد قرب غروب الشمس، فأمسك العسكر عن القتال، وتقدم رجل من العسكر، وأشار إلى من فوق الأسوار، وحدثهم فأمسكوا عن الرمي، وبات أهل دمشق ليلة الأحد ـ ثاني يوم عيد الأضحى ـ في سد الأبواب وتضييق الدروب، وكسر القني في الأسواق ـ وحفر الخنادق ـ وعزموا على القتال، وباتوا على خوف، فلما أصبحوا خرج المشايخ إلى جعفر بن فلاح

ليتحدثوا معه في الصلح، فما هو إلاّ أن ساروا عن البلد قليلاً، خرج عليهم فرسان من المغاربة أخذوا ما عليهم من الثياب، وقتلوا منهم رجلين، فلما رأى من كان فوق المآذن والأسطحة ذلك، صاحوا: اضبطوا الأبواب، فقد شلحوا المشايخ، فظن الناس أن العسكر يريد الركوب، ودخل المشايخ عرياً، فارتاع أهل البلد، واشتد خوفهم وتحيروا، ثم جرت بينهم مراسلة فخرجوا إلى جعفر، فرعب عليهم، ووعد البلد بالنار والسيف، فعادوا خائفين وجلين، وبلغوا أهل البلد ما أقلقهم، فاشتد اضطرابهم، وعاد المشايخ ثانياً إلى جعفر فاشتد عليهم، وأرعد فأبرق، فسألوه العفو، فقال: ما أعفوا عنكم حتى تخرجوا إلي ومعكم النساء فيتضرعن ويكشفن شعورهن ويمرغنها في التراب بين يدي، فقالوا: نفعل ما يقول القائد، ورجعوا إلى البلد، وخرجوا إليه بما طلب من تضرع النساء وكشفهن الشعور بين يديه، وهو مع ذلك يرهبهم، ثم باسطهم وقال: أريد أن أدخل يوم الجمعة إلى الصلاة، فانصرفوا عنه، وركب يوم الجمعة في عسكره ودخل البلد، فلما خرجوا من الجامع وضع جماعة من العسكر أيديهم في السوق ونهبوه، ثم أرادوا أن يدخلوا إلى الأزقة، فثار بهم الناس، وقتلوا كثيراً من الرجال، فاشتد جعفر على المشايخ، ووعدوهم بكل مكروه، وقال لهم: دخل رجال أمير المؤمنين إلى الصلاة فقتلتوهم، لأسوين بهذا البلد الأرض، فلطفوا به وداروه فقال: أريد دية من قتل من رجال أمير المؤمنين، فأذعنوا لذلك..... ودخلوا البلد وقسطوا المال على الناس، وشرع العسكر في البناء فوق نهر يزيد عند الدكة «منطقة قصر تشرين الحالية» وعملوا مساكن وأسواقاً حتى صارت تشبه المدينة، وبنوا قصراً عظيماً شاهقاً في الهواء غريب البنيان.

فلما استقر في الدكة طلب حمال السلاح، وضرب أعناق كثير منهم، وصلب جثثهم، وعلق رؤوسهم على أبواب المدينة، منها رأس اسحق بن عصودا».

وهرب محمد بن عصمودا، مقدم الأحداث ومعه ظالم بن مرهوب العقيلي إلى الأحساء «وحثا القرامطة على المسير إلى الشام، فوافق ذلك منهم الغرض، لأن الاخشيدية كانت تحمل في كل سنة إلى القرامطة مالاً، فلما أخذ جوهر مصر، انقطع المال - ثلاثمائة ألف دينار - عن القرامطة، فأخذوا في الجهاز للمسير إلى الشام»[1].

وخيل إلى جعفر بن فلاح أن الأمور استقرت له في دمشق والشام الجنوبي، فجهز قوة من جيشه بعثها إلى أنطاكية لاستخلاصها من البيزنطيين، ولاسترداد منطقة الثغور وقد تعاون في سبيل ذلك مع بعض زعماء الثغريين، وحاصرت القوات الفاطمية أنطاكية وفي تلك الأثناء توجهت سرية فاطمية نحو «مرج اسكندرونة، وفيه مضارب الروم الديباج، فتسرع إليها رجالها تنهبها، فحمل عليهم الروم فانهزموا، وأخذهم السيف... فكثرت الأخبار بمسير القرامطة إلى الشام، وأنهم نزلوا على الكوفة، وكتبوا إلى الخليفة ببغداد فأنفذ إليهم خزانة سلاح، وكتب لهم بأربعمائة ألف درهم على أبي تغلب عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان من مال الرحبة، وأنهم ساروا من الكوفة إلى الرحبة، وأخذوا من ابن حمدان المبلغ»[2].

وقبل متابعة البحث حول ما فعله القرامطة نحتاج إلى وقفة للحديث

(١) تارخ ابن القلانسي ص ١ - ٤. بغية الطلب لابن العديم ج ١ ص ١٨٨ - ١٩٢. الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣٦٠. اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٢٠ - ١٢٦. زكار - الجامع في أخبار القرامطة ص ٥٠٧ - ٥٠٨. الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٣٠٧ - ٣١٠. وعالج كلود كاهن موضوع الأحداث مطولاً، وترجم بحثه إلى العربية - انظره في مجلة الاجتهاد - العدد السادس ص ١٠٥ - ٢٠٦. وعالج شاكر مصطفى الموضوع نفسه بإسهاب - مجلة كلية آداب جامعة الكويت - العددان الثالث والرابع ص ١٧٤ - ٢١٣.

(٢) ابن القلانسي ص ١ - ٦ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٥ - ١٢٦. الموسوعة الشامية جـ١ ص ٣١٠ - ٣١١. الجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٠٨ - ٥٠٩. الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ٤٢. فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب ص ٣٨٩ - ٣٩٢. عيون الأخبار للداعي ادريس جـ ٦ ص ١٣٥ - ١٧٢.

فيها بشكل موجز عن العلاقة القرمطية الفاطمية، وعن تاريخ الأسرة الجنابية في الأحساء والبحرين حتى أيام الحسن الأعصم، وكذلك الحديث عن الدولة الحمدانية في الموصل في ظل حكم ابي تغلب بن ناصر الدولة، وكذلك حول الدولة البويهية في بغداد، وموقفها من الخلافة الفاطمية.

١ - القرامطة - الأسرة الجنابية:

هناك إجماع على أن حركات القرامطة قد انتمت من حيث النشأة والعقيدة إلى الحركة الإسماعيلية، وتبين أن معنى كلمة «قرمطي» هو «باطني»، وكان للقرامطة حركاتهم في العراق والشام واليمن، والأحساء والبحرين، وعبر التاريخ شهدت الحركة الإسماعيلية تمزقات عنيفة، كان من أهمها خروج قرامطة الشام على القيادة الإسماعيلية، واتخاذها قيادة خاصة بها، ومهاجمة السلمية، وتهديمها، وقبيل ذلك بوقت كان المهدي أول خلفاء الفاطميين مع القائم، قد نجيا، ووصلا إلى الرملة ومن هناك ذهبا إلى مصر على نية التوجه الى اليمن[1]، ومن جديد حدث نزاع عنيف بين قرامطة اليمن بزعامة علي بن الفضل، وإسماعيلية عدن أبين بزعامة متصور اليمن، مما عطل مشروع توجه المهدي مع القائم إلى اليمن، ومن ثم ذهابهما إلى المغرب حتى[2] سجلماسة.

وعلى هذا إن نشوب خلاف بين الخلافة الفاطمية وقرامطة الأحساء والبحرين لم يكن في سواد الكوفة، حيث جاء من العراق سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤م داعية اسمه أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي، ولحقه بعد أمد قصير أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، وقام الجنابي بقتل الطمامي،

---

(١) الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ١٠٩ ـ ١٤١.

(٢) زكار الجامع في أخبار القرامطة ص ١٤١ ـ ١٤٦.

فجاء عمله هذا بمثابة تمرد على قيادة العراق ونزوع نحو الاستقلال، واتخذ أبو سعيد من بلدة هجر مقراً له، وتحالف مع عشيرة قوية هناك هي بني سنبر، وهكذا أسس دولة ذات نظام وصف بأنه «نظام اشتراكي» أو «دولة مقاتلين عقائديين»[1]، ونشط قرامطة الأحساء والبحرين ضد قوافل الحجاج وضد قوى الخلافة العباسية، وأشهر غارات القرامطة وأفظعها تلك التي تمت سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، ضد مكة في موسم الحج، حيث جرى قتل الحجاج وانتزاع الحجر الأسود من الكعبة الشريفة ونقله إلى الأحساء، وبقي الحجر الأسود لدى القرامطة حتى ٣٣٩/٩٥٠م ففي هذه السنة ردوه، حيث حملوه أولاً إلى الكوفة «فنصبوه في المسجد الجامع على الاسطوانة السابعة في القبلة مما يلي صحن المسجد حتى يراه الناس، ثم حملوه إلى مكة شرفها الله تعالى، وقالوا: أخذناه بأمر ورددناه بأمر»[2].

وحكى ابن الأثير أن عبد الله المهدي كتب إلى أبي طاهر الجنابي ابن أبي سعيد ينكر عليه فعلته، وتهدده، وأمره أن يرده إلى الكعبة المشرفة مع كسوة الكعبة[3]، ويمكن أن نضيف إلى التدخل الفاطمي عاملاً آخر، هو أن الحركة القرمطية في الأحساء والبحرين أخذت شكل دولة لها نظامها الخاص ومكانتها أيام أبي طاهر، وهكذا خفت حدة نشاط القرامطة ضد الحجاج وسواهم، واتصلت السلطات العباسية به سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤م، وطلبت منه عدم التعرض لقوافل الحجاج، ورد الحجر الأسود، وذلك مقابل اعتراف الخلافة العباسية به أميراً على البلاد التي يحكمها مع دفع مبلغ كبير من المال له سنوياً، وقبل أبو طاهر بالعرض العباسي، ولعله فعل

---

(١) المقدسي أحسن التقاسيم ص ٩٣ - ٩٤. ابن حوقل ص ٣٣ - ٣٤. الآثار الباقية ص ٢١٢ - ٢١٣. الجامع في أخبار القرامطة ص ١٤٦ - ١٥١.

(٢) الجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٠٨.

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ٢٠٤.

ذلك لتدهور أوضاع الخلافة الفاطمية بعد وفاة المهدي، ولأن الدول تتعامل بالسياسة حسبما تمليه المصالح، وغالبا ما يعني انشاء الدولة توقف الحركة الثورية، وقد تضعف المشاعر العقائدية لدى رجل السلطة، ويصير همه الحفاظ على سلطانه واستقلاله، وكل صاحب حكم دائم هو اقل الناس ميلاً إلى الاندماج مع غيرة والتخلي عن ذاتيته، ومات ابو طاهر سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤م، وبعد نزاع على السلطة بين أولاده، استبد بها حتى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م ابنه سابور حيث قتل وآلت الزعامة إلى ابن أخيه الحسن بن أحمد الذي عرف بلقب الأعصم لقصره[1].

وكان لسقوط الحكم الأخشيدي وتأسيس القاهرة أبعد الآثار على الحسن الأعصم، فهو كان قد استولى على الشام الجنوبي في سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م، واتفق مع الاخشيدية على أن يدفعوا مبلغاً كبيراً من المال سنوياً، ثم عاد الى الإحساء سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م بعد استيلاء جوهر علي مصر، وفي الإحساء يبدو أن سابور بن ابي طاهر وأتباعه كان مؤيدا للفاطميين، في حين كان موقف الحسن الأعصم على العكس، فهذا ما يمكن استخلاصه من ابن حوقل، ويؤيده الرسالة التي بعث بها المعز إلى الأعصم أثناء حصاره القاهرة، لاسيما قوله: «فأما أنت ايها الغادر الخائن، الناكث المباين عن هدى آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم أغفل أمرك، ولاخفي عني خبرك، ولااستتر دوني اثرك، وإنك مني لمنظر ومسمع. فعرفنا على أي رأي أصلت، وأي طريق سلكت، أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما نظرت في كتبهم

---

(١) ابن حوقل ص ٢٣ ـ ٢٤. دي خويه ص ١٥٠ ـ ١٥١. الجامع في أخبار القرامطة ص ١٥٦، ٥٩٤ـ٥٩٥ (نقلا عن مخطوط مرآة الزمان).

وأخبارهم، ولاقرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم وما كـان من آثارهم، ألم تعلم أنهم كانوا ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ وعزم سـديد، وأمر رشيد، وفعل حميد، تفيض إليهم موادنا، تنشر عليهم بركاتنا، حتـى ظهروا علي الأعمال، ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة، فسادوا منـح منا واسماً من أسمائنا»[1].

وصحيح أن أهل دمشق قاوموا جعفر بن فلاح، لكنه اسـتولى عليهـا وبعث قواته إلى ضد أنطاكية ومنطقة الثغور، ولعله كان يخطط للاسـتيلاء على حلب ومن ثم الزحف نحو العراق، ولعل القيادة الفاطمية كـانت تتوقـع عون القرامطة، ومهاجمة العراق من الجنوب، في الوقـت الـذي تهاجم فيـه القوات الفاطمية من الشمال، متذكرين الأعداد الكبيرة من الإسماعيلية فـي المشرق وكون الديلم مع قبائل الشام والجزيرة والعراق من الشيعة.

وأحبط القرامطة هـذه الخطـط، وآثـر الحسـن الأعصـم الحفـاظ علـى مصالح دولته المستقلة وكذلك فعل آل بويه، وأمير الموصل أبو تغلـب بـن ناصر الدولة، متذكرين رغبة بيزنطة بالحفاظ علـى اسـتقلال حلـب لتكـون دولة حاجزة بينهـم وبيـن الخلافـة الفاطميـة، وأدى الاخفـاق الفـاطمي إلـى تعديل السياسة الخارجية، وهذا ما يمكن رؤيته في وصية يعقوب بن كلس للخليفة العزيز: «سـالم الـروم مـا سـالموك، واقنـع مـن الحمدانيـة بـالدعوة والسكة، ولاتبق على دغفل بن جراح - أمير طيء فـي فلسطين - إن عرضت لك فيه فرصة»[2].

---

(١) ابن حول ص ٣٣ - ٣٤. انظر رسالة المعز بالملاحق.

(٢) الصيرفي الاشارة الى من نـال الوزارة ص ١٩ - ٢٣. الـوزارة والـوزراء فـي العصـر الفـاطمي لمحمد حمدي المناوي ص ٣٦. يهـود فـي الحيـاة الاقتصاديـة والسياسـة الإسـلامية فـي العصـور الوسـطى لفيشل - ط. بيروت ١٩٨٨ ص٧٠ - ٩٨.

٢ ـ الحمدانيون:

ويبدو أن المعز لدين الله كان على دراية بتقلب الأوضاع في المشرق، وأنه لايمكن الاعتماد على بعض رجالات السلطة هناك، لذلك كانت المراسلات متواصلة بينه وبين جوهر في مصر، وقد كتب مرة إلى جوهر يقول: «واما ما ذكرت يا جوهر من أن جماعة من بني حمدان وصلت إليك كتبهم يبذلون الطاعة ويعدون بالمسارعة في السير إليك، وأن ذلك لما كثر منهم دعاء المنعوت بسعد الدولة ـ ابن سيف الدولة ـ إن كتب إليك يبذل الخدمة بين يديك فاسمع لما أذكره لك: احذر أن تبتدئ أحداً من آل حمدان بمكاتبة ترهيباً له ولاترغيباً، ومن كتب إليك منهم فأجبه بالحسن الجميل، ولاتستدعيه إليك، ومن ورد إليك منهم فأحسن إليه، ولاتمكن أحداً منهم من قيادة جيش ولاملك طرف، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم، وليس لهم فيها نصيب:

يتظاهرون بالدين، وليس لهم فيه نصيب. ويتظاهرون بالكرم، وليس لواحد منهم كرم في الله. ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة.

فاحذر كل الحذر من الاستنامة الى أحد منهم»[1].

وإذا كان المعز لدين الله الفاطمي قد نظر هكذا إلى الحمدانيين فإن الثعالبي صاحب اليتيمة كان منصفاً أكثر منه فقال: «كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء، أوجههم للصباحة وأكفهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وألسنتهم للفصاحة»[2].

---

(١) ابن سعيد النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة ص ٤٣.

(٢) الثعالبي يتيمة الدهر ـ ط. مطبعة السعادة ـ القاهرة جـ١ ص٢٧. أخبار الدولة الحمدانية لعلي بن ظافر الأزدي ـ ط. دمشق ١٩٨٥ ص١١.

ويعود الحمدانيون في أصلهم إلى قبيلة تغلب، التي كانت من أشهر قبائل عرب ما قبل الإسلام، وكانت منتشرة وقتذاك في أعالي ريف الجزيرة الشامية، وكانت تدين بالنصرانية وقد رفضت هذه القبيلة دفع الجزية بعد الفتح، وعالج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القضية فضاعف الصدقة عليها، وحافظت تغلب على مكانتها بصعوبة بالغة في العصر الأموي، واصطدمت بعد معركة صفين بقبائل عامر بن صعصعة وسواها من القبائل العدنانية، كما تأثرت بأحداث الجزيرة لاسيما حركات الخوارج، فآنذاك ظهرت أسرة بني حمدان، وقامت الصلات بين هذه الأسرة والخلافة العباسية منذ أيام المعتضد، ونشط الحمدانيون ضد القرامطة، فآنذاك تكونت شخصية الأسرة الحمدانية، بحيث باتت تمتلك قدرات عسكرية فعالة، واستفادت الخلافة العباسية من إمكانات الحمدانيين في عدة مناسبات وأماكن، وتمركزت الأسرة الحمدانية أولاً في ميافارقين ومن هناك تطلعت نحو الموصل ومن ثم للتحكم ببغداد، وفي سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م عين الخليفة المكتفي أبا الهيجاء الحمداني والياً على الموصل، واهتم أبو الهيجاء بقضايا الصراعات في بغداد، وأناب عنه ابنه الأكبر الحسن ـ ناصر الدولة فيما بعد ـ في حكم الموصل، وبعد وفاة أبي الهيجاء صار الحسن أميراً على الموصل، وهو المؤسس الفعلي لحكم الدولة الحمدانية، ومع ذلك انشغل ـ مثله مثل أبيه ـ بمشاكل بغداد، يساعده أخوه الأصغر علي ـ سيف الدولة ـ، وقد تسلم لوقت قصير إمرة الأمراء في بغداد، ثم ارغم على ترك بغداد والعودة إلى الموصل، وذلك من قبل الأسرة البويهية، لابل أكثر من هذا انتزع البويهيون منه الموصل لمدة قصيرة، فلجأ الى حلب، التي كانت قد صارت قاعدة حكم أسرة حمدانية أخرى اسسها سيف الدولة، وفي سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م عزل معز الدولة البويهي ناصر الدولة من إمرة الموصل، وعين مكانه ابنه أبو تغلب فضل الله، وضيق

أبو تغلب على أبيه، وسجنه سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م في إحدى القلاع، وظل ناصر الدولة في السجن حتى تاريخ وفاته سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م.

وكان أبو تغلب قد لقب نفسه بالغضنفر، وبعد وفاة ناصر الدولة قام صراع حاد بين أولاده، أضعف قوة الأسرة الحمدانية، الأمر الذي استغلته الدولة البويهية حيث احتلت الموصل سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م، وفي الوقت نفسه كان الأكراد قد تحركوا في شمالي الجزيرة بقيادة زعيم لهم اسمه باذ، وتطلع باذ إلى احتلال الجزيرة ومن ثم الزحف على بغداد، غير أنه أخفق، فقد تصدت له قبائل عقيل وسواها، وبالفعل ورث العقيليون أملاك الحمدانيين في الموصل، كما ورث المروانيون ابناء أخت باذ ميافارقين وآمد حيث أسسوا الدولة المروانية[1].

ونظراً للارتباط العضوي ما بين مصر وبلاد الشام، فإنه عندما تأسس الحكم الاخشيدي في مصر، مدّ الاخشيد سلطانه على بلاد الشام، وفي سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م دخلت حلب في حوزة الدولة الاخشيدية، وعين الاخشيد أحمد بن سعيد بن عباس الكلابي والياً على حلب، وفي هذه الأونة وصلت حشود جديدة من بداة شبه جزيرة العرب، مما نجم عنه فوضى شديدة، واضطربت أمور حلب، ففوض الخليفة الراضي حكم حلب لمحمد ابن رائق، وهكذا قام نزاع بين ابن رائق والاخشيد، والتجأ ابن رائق إلى ناصر الدولة الحمداني في الموصل ففقد حياته، وفوض ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة حكم حلب، فدخلها سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م.

ومن جديد تفجر الصراع بين الاخشيد وسيف الدولة على حلب

---

(١) أبو شجاع ـ ذيل تجارب الأمم ص ١٧٦ ـ ١٨٠. تاريخ الفارقي ص ٤٩ ـ ٥٨. الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ١٢١ ـ ١٢٢، ١٤٢ ـ ١٤٣.

وأرض الشام كلها، وأخيراً عقد اتفاق بين الطرفين في سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م، سلم بموجبه الاخشيد حكم الشام الشمالي إلى سيف الدولة.

وأرسى سيف الدولة قواعد حكمه في حلب، وأقام بلاطاً رائعاً ضم كبار العلماء والشعراء، والتفت إلى الجهاد ضد الامبراطورية البيزنطية التي كانت تعيش حقبة استفاقة وقدرة عسكرية هائلة، ولم يكن لدى سيف الدولة قاعدة قبلية تغلبية كبيرة فلجأ إلى شراء الغلمان وتجنيد بعض المرتزقة من الديلم والأتراك وسواهم، لهذا كانت السياسة المالية لسيف الدولة ثقيلة جداً، لكثرة نفقاته، ولذلك اضطربت أموره، وعجز عن الوقوف في وجه القوات البيزنطية سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م، فاحتلت هذه القوات مدينة حلب، وألحقت بها دماراً مروعاً، الأمر الذي سبب مرضاً شديداً لسيف الدولة، فتوفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م في حلب، وحمل تابوته إلى ميافارقين فدفن فيها.

وآلت السلطة رسمياً في حلب إلى سعد الدولة شريف بن سيف الدولة، ورست فعلياً بيد حاجب أبيه قرعويه، وظلت الأمور مضطربة جداً، ودخلت حلب في ظل الحماية البيزنطية، وتمكنت هذه الامبراطورية من الاستيلاء على أنطاكية، وظلت حلب تتقلب بين أيدي غلمان سيف الدولة وأولادهم حتى زال حكم الدولة الحمدانية من الوجود رسمياً، وآلت السلطة هناك إلى صالح بن مرداس، مؤسس الدولة المرداسية(١).

---

(١) ابن ظافر الأزدي من ١١ ـ ٦٠ بغية الطلب ص ٧٦٠ ـ ٧٦١ ـ ٢٣٢٩ ـ ٢٣٣٢ ـ ٢٤٣٣ ـ ٢٤٣٧. زبدة الحلب جـ ١ من ١١١ ـ ١٨٧. العيون والحدائق جـ ٤ (ط. دمشق ١٩٧٣) ص ٤٨٤ ـ ٥٠٧. مسكويه جـ ٢ ص ١٦٢ ـ ٢١٤. الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ١٥٠ ـ ١٨٣ ـ ٢٠٨ ـ ٢٤٨ ـ ٢٧٣ ـ ٢٨٠ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩١ ـ ٣١٢ ـ ٣١٨ ـ ٣٣٤ ـ ٣٥١ ـ ٣٥٥. تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ـ ط. طرابلس ١٩٩٠ ص ٣٨ ـ ٤٥ ـ ٧٣ ـ ٧٥ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٨٣ ـ ٩٠ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ـ ١٠٣ ـ ١٠٦ ـ ١١٧ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ ١٨٧ ـ ١٨٩ ـ ١٩١ ـ ٢٢١ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٧ ـ ٣٩١ ـ ٣٩٥. تاريخ ابن الأزرق الفارقي ص ٤٩ ـ ٥٣. المنتظم جـ ٨ ص ٣٩٧٩ ـ ٤٠٠٧ ـ ٤٠٢٨ ـ ٤٠٦٧، وفي ديواني المتنبي وأبي فراس مادة جيدة، كذلك في يتيمة الدهر، كما جمع موريس كنار أخبار سيف الدولة، وكتب فيصل السامر اطروحة في جزئين عن الدولة الحمدانية. وعالج د. أحمد عدوان تاريخها في مجلد واحد ـ ط. طرابلس ليبيا ١٩٨١.

الدولة البويهية:

عرفت المنطقة المرتفعة التي وقعت إلى شمال الهضبة الإيرانية باسم بلاد الديلم وقد اتسم سكانها بالقسوة وحب القتال وبعد قيام الإسلام لم يفلح العرب في اقتحام هذه البلاد عسكرياً، ويحكي بأن الحجاج بن يوسف الثقفي خطط لفتح بلاد الديلم، فأمر بتصوير هذه البلاد، وزاره آنذاك وفد ديلمي، فعرض الحجاج الصورة عليه، ودعا الشعب الديلمي إلى الاستسلام قبل أن يجرد الجيوش ضدهم، ويدمرهم وأراضيهم، فنظر رجال الوفد الديلمي إلى الصورة وقالوا: «قد صدقوك عن بلادنا، هذه صورتها، غير أنهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال، وستعلم ذلك لو تكلفته»[1].

ومع مرور الوقت اعتنق الشعب الديلمي الإسلام سلميا، وبذلك كان هذا الشعب بين أواخر شعوب المشرق التي دخلت في الإسلام، وفي الوقت نفسه بين أوائل الذين أعادوا تأكيد هويتهم الذاتية ضمن الإسلام سياسياً وعقائدياً: سياسياً بظهور أسر حاكمة مستقلة بين صفوفه، وعقائدياً من خلال تبني المذهب الزيدي الشيعي، فمنذ القرن الثامن التجأ عدد من أفراد البيت العلوي إلى جبال الديلم، وحافظ شعب الديلم على استقلاله، وفي القرن العاشر تمكن من مدّ نفوذه على العراق وايران، وذلك حين ظهرت الأسرة البويهية بين صفوفه.

وتنسب الأسرة البويهية إلى صياد فقير كان يعمل على شواطئ بحر قزوين، دخل أولاده: علي والحسن وأحمد في خدمة الدولة الزيارية

---

(١) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ص ٢٨٣.

الديلمية، وقد علا نجمهم بعد مقتل مرداويج ابن زيار مؤسس هذه الدولة سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م[١].

وحقق أولاد بوية نجاحات كبيرة، واستفادوا من تردي أوضاع الخلافة العباسية، فتحرك سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م أحمد بن بويه نحو بغداد واستولى عليها، وإثر ذلك استقبله الخليفة المستكفي [٣٣٣ - ٣٣٤هـ/٩٤٤ - ٩٤٦م] فمنحه لقب معز الدولة، كما منح أخاه عليا لقب عماد الدولة، ولقب الحسن بركن الدولة، وبعد أيام من ذلك، خلع معز الدولة الخليفة المستكفي واستبدله بخليفة جديد[٢].

وكان معز الدولة شيعياً يستهدف إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وقد حكي عن اتصالات قامت بين البويهيين وبين الخلافة الفاطمية، والأخبار في مصادرنا غير كافية التفاصيل حول هذا الموضوع، هذا وانفرد كتاب اسمه «الحرز والمنعة في بيان أمر المهدي والمتعة» لأبي منصور عبد الله بن محمد بن الوليد البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م بإيراد أخبار حول هذا الموضوع، حيث تحدث عن رجل اسمه محمد بن القاسم بن الحسن من أبناء الإمام علي بن أبي طالب، عرف بلقب الشجري «كان معز الدولة كثير الإكرام له، وأقطعه ضياعاً كثيرة، وكان يحصّل له منها أموالاً كثيرة، وكان نازلاً على شاطئ دجلة بباب الشعير، وبلغ مبلغاً عظيماً في الرفعة، وكان يظهر من مخالفة الخلافة العباسية أمراً عظيماً... وكان معز الدولة يتخذه إماماً»[٣]، وأراد أن يبايعه بالخلافة، لكن بعض الأمور حالت دون ذلك، منها أن أصحابه

---

(١) المنتظم جـ ٨ ص ١٤٥ - ١٤٨. البويهيون والخلافة العباسية لابراهيم الكروي ص ٨١ - ١٠٥.

(٢) مسكوية جـ ٢ ص ٨١ - ٨٧. الكروي ص ١٧٨ - ١٨٣.

.The buwayhid Dynasty of Baghdad, b M. Kabir, calwtta 1964, PP 1-9

(٣) الحرز والمنعة ط. بيروت ١٩٨٨ ص ٣٣ - ٣٧.

حذروه من ردات فعل المسلمين في أقطار الأرض وقالوا له: «ليس هذا برأي، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه»[1].

وهكذا وقعت الخلافة العباسية السنية لأول مرة تحت تحكم شيعي، سيم خلاله الخلفاء سوء العذاب، وذاقوا مرارة المهانة، وفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م توفي معز الدولة وقبل وفاته كان قد عين ابنه عز الدولة بختيار ليخلفه في منصبه، وهذا يعني أن معز الدولة أسس أسرة وراثية حاكمة شاركت العباسيين السلطة، وتحكمت فيهم حتى مجيء السلاجقة وإزالتهم من السلطة وإحلال أنفسهم محلهم، ونحن لا يعنينا متابعة الحديث عن الدولة البويهية، أو بالحري الدول البويهية، ولعل الذي قدمناه يكفي للمعرفة[2].

ونعود الآن إلى سياق موضوعنا، فلدى سماع جعفر بن فلاح بالتحرك القرمطي مع حلفائه ضده، استدعى قواته من منطقة أنطاكية، وكان قائد هذه القوات غلام لجعفر اسمه فتوح، وكان عندما وافاه كتاب مولاه بالعودة إليه «شرع في شد أحماله، ونظر الناس إليه فجفلوا ورموا خيمهم، وأراقوا طعامهم، وأخذوا في السير مجدين إلى دمشق، فلما وافوا

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٩: الكروي ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) مسكوية جـ ٢ ص ٨٧ ـ ٤١٧. ذيل تجارب الأمم جـ ٣ ص ٥٣ ـ ١٧٥. المنتظم جـ ٨ ص ٢٢٩ ـ ٤٩١، جـ ٩ ص ٧ ـ ٣٤٧. حيث أوفى التفاصيل عن الحياة في بغداد في العصر البويهي. ابن خلدون جـ ٤ ص ٩٨٣ ـ ١٠٤٤. الكروي ص ١٨١ ـ ٢٠٦. Kabir PP 186-213.

جعفراً أراد أن يقاتل بهم القرامطة، فلم يقفوا، وطلب كل قوم موضعهم ولم يبالوا بالموكلين على الطرق»[1].

وقد يفيد هذا النص أن جعفر بن فلاح قد جند بعض القوات المحلية واستعان بها في حملته ضد أنطاكية، فلماذا فعل ذلك، وهل كانت قواته الكتامية غير كافية؟ وفوق هذا، من الواضح أن التحرك القرمطي احتاج إلى وقت طويل، أي ما يكفي لمراسلة جوهر في مصر وطلب مساعدته، فهل كان هناك شيئاً من هذا القبيل، أم أن القائد جوهر كان يؤثر التخلص من جعفر بن فلاحٍ؟

ونقل ابن سعيد أن جعفر بن فلاح بعدما «صارت الشام بأسرها له، شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر، فأنفذ كتبه من دمشق إلى المعز بالمغرب سراً من جوهر، يذكر طاعته ويقع في جوهر، ويصف ما فتح اللّه للمعز على يده، فغضب المعز، ورأى من طريق السياسة ألا يستفسد جوهراً، ورد كتب ابن فلاح كما هي مختومة لم يفتحها، وكتب إليه: قد أخطأت الرأي لنفسك، نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر، فاكتب إليه، فما وصل منك إلينا على يده قرأناه، ولا تتجاوزه بعد، فلسنا نفعل لك ذلك الوجه الذي أردته، وإن كنت أهله عندنا، ولا كنا لنستفسد جوهراً مع طاعته لنا.

فزاد غضب ابن فلاح، وانكشف ذلك لجوهر، وكان أكبر الأسباب أن لم يكتب جعفر بن فلاح يستدعي زيادة العساكر من جوهر بمصر، لأنه علم أنه لو كتب لما أنجده، فأقام جعفر على مكانه وحاله غير مكاتب لجوهر بشيء من أمره، حتى كان من أمره ما كان، وذلك أن عسكر القرمطي ـ

---

(١) الموسوعة الشامية جـ ١ ص ٣١١. الداعي إدريس جـ ٦ ص ١٦٧ ـ ١٦٨. تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٤٥ ـ ١٤٦. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٦. ابن القلانسي ص ٢ ـ ٥. النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق لجمال الدين سرور ص ١٨ ـ ٢٨. الدشراوي ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

الحسن بن أحمد ضيق على دمشق، فخـرج جعفر وهـو عليـل، فلما أيقـن بالغلبة، أمر غلامه بأن يذبحه ويغيب رأسه في النهر، ففعل ذلك»[1].

وقبل الحديث عن مصير ابن فلاح، في الحقيقة يعدّ جوهر مسؤولاً ـ بحكم موقعة ـ ومتهماً بالتقصير لعدم مبادرته لنجدة ابن فلاح، وسنرى أن هذا التقصير قد كلفه الكثير في أيام كل من المعز وابنه العزيز من بعده.

وقدمت قوات جند القرامطة إلى الرحبة على الفرات ـ قـرب الميـادين حالياً في سورية ـ «فأكرمهم أبو تغلب، وبعث إلىَ الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي، المعروف بالأعصم كبيرهم يقـول لـه: هـذا شـيء أردت أن أسير أنا فيه بنفسي، لكنني مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إلي خـبرك، فإن احتجت إلى مسيري سرت إليك، ونادى في عسكره من أراد إلسير من الجند الأخشيدية وغيرهم إلى الشام مع الحسن بن أحمد فـلا اعـتراض لنـا عليه، وقد أذنا له في المسير، والعسكران واحد، فخرج إلى القرامطة كثـير من الأخشيدية الذي كانوا بمصر وفلسطين ممن فر من جوهـر ومـن جعفـر ابن فلاح»[2].

وزحف الحسن بن أحمد الأعصم مع القوات التي اجتمعت إليه ومعه، مـن الرحبـة يريـد دمشـق، وبلـغ ذلـك جعفـر بـن فـلاح، فجمــع «خواصــه واستشارهم فاتفقوا على أن يكون لقاء القرامطة في طرق البريـة قبـل أن يتمكنوا من العمارة، فخرج إليهم، ولقيهم فقاتلهم قتالاً كبيراً، فـانهزم عنـه عدة من أصحابه، فولى في عدة ممن معه، وركـب القرامطـة أقفيتهـم وقـد

---

(١) ابن سعيد ـ النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ١٠٤ ـ الخطط للمقريزي جـ ١ ص ٣٧٨. سرور ص ٢٧.

(٢) ابن القلانسي ص ١ ـ ٣. المقريزي اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٤. زكار ـ الموسوعة الشامية جـ ٢ ص ٣١٠ ـ ٣١٢. تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٤٦. الداعي ادريس عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٧٢. سرور ص ٢٧. الدشراوي ص ٣٩٤.

تكاثرت العربانِ من كل ناحية، وصعد الغبار، فلم يعرف كبير من صغير ووجد جعفر قتيلاً لا يعرف له قاتل، وكانت هذه الوقعة في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة، فامتلأت أيدي القرامطة بما احتووا عليه من المال والسلاح وغيره، وخرج محمد بن عصودا إلى جثة جعفر بن فلاح وهي مطروحة في الطريق، فأخذ رأسه وصلبه على حائط داره، وأراد بذلك أخذ ثأر أخيه اسحق بن عصودا، وملك القرامطة دمشق، وورد الخبر بذلك على جوهر القائد، فاستعد لحرب القرامطة»[1].

وكان الحسن بن أحمد الأعصم ماضي العزم، قوي الإرادة يقول الشعر، ولقصره كان «له كرسي من خشب يصعد عليه حتى يركب، وكان لا يركب من الخيل إلاّ أقواها وقال يرد على من عيّره بالقصر:

زعموا أنني قصير لعمري	ما تكال الرجال بالقفزان
إنما المرء باللسان والقلـ	ـب وهذا قلبي وهذا لساني»

وكان قد كتب إلى جعفر بن فلاح، وهو في طريقه إليه إلى دمشق:

الكتب معذرة والرسل مخبرة	والحق متبع والخير موجود
والحرب ساكنة والخيل صافنة	والسلم مبتذل والظل ممدود
فإن أنبتم فمقبول إنابتكم	وإن أبيتم فهذا الكور مشدود
على ظهور المطايا أو يردن بنا	دمشق والباب مهدم ومردود
إني امرؤ ليس من شأني ولا أربي	طبل يرن ولا ناي ولا عود
ولا اعتكاف على خمر ومجمرة	وذات دل لها دل وتفنيد

(١) مصادر الحاشية أعلاه والجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٦٥، ٥٩٦.

ولا أبيت بطين البطن من شبع | ولي رفيق خميص البطن مجهود
ولا تسامت بي الدنيا إلى طمع | يوماً ولا غرني فيها المواعيد

وعلى الرغم من جميع هذا الفخر، كان هذا الزعيم القرمطي يتعشق الغلمان، وكان أيضاً «يعشق أبا الدواد المفرج بن دغفل بن الجراح» زعيم قبائل طيء في فلسطين، وقد شغل المفرج هذا ومعه ابنه حسان دوراً حاسماً في محاولات القرمطي للاستيلاء على مصر، ويروي أن دغفل دخل يوماً على الحسن الأعصم «وفي وجهه أثر، فسأله عنه فقال: قبلتني الحمى، فأنشد:

قبلته الحمى ولي أتمنى | قبلة منه من زمان طويل
حاجة طالما ترددت فيها | قضيت للغريب قبل الخليل

وفيه يقول:

هل لنا فرجة إليك | أيا ابن مفرج
لا مني فيك معشر | هم إلى اللوم أحوج
كيف لم يسبهم | عذارك وهو المدرج»[1]

ومن المرجح أن جعفر بن فلاح لاقى حتفه أثناء القتال، لا كما روى ابن سعيد، وأن القتال جرى في صحراء المزة خارج دمشق، أي على مقربة من الدكة حيث عسكر ابن فلاح مع رجاله.

وبعدما فرغ القرمطي من أمر دمشق، وبذلك وجه ضربة قاتلة إلى مشروع التوسع الفاطمي، قرر التوجه نحو فلسطين بقصد الزحف نحو مصر، ويفيد هذا أن الفاطميين فقدوا الآن بلاد الشام، وبات عليهم الدفاع

---

(١) زكار الجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٩٨ ـ ٦٠١.

عن وجودهم في مصر، ولعل مرد خسارة الفاطميين إلى إهمال جوهر، وأكثر من ذلك لسمات جعفر بن فلاح حيث كان «أحمقاً هذاراً، كثير الكلام، أكثر كلامه بغير طائل»[1].

وحين أوقع القرامطة بجعفر بن فلاح وقواته لم يوفروا دمشق، بل «نصبوا على أسوارها السلالم، وتعلقوا بها، وفتحوها قصداً، وأوقعوا بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وشنعوا بأهلها»[2].

وبعدما فرغ القرامطة من أمر دمشق وملكوها «أمنوا من بقي من أهلها، وعزموا المسير إلى الرملة، واستولوا على جميع ما بينهما، فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا منها إلى يافا، فتحصنوا بها، وملك القرامطة الرملة بعد قتال شديد، وخسائر جمة، وبعد استتباب الأمر لهم قصدوا المسير إلى مصر، وتركوا على يافا من يحصرها».

وكان اسم القائد الفاطمي الذي حوصر في يافا سعادة بن حيان، وقد عهد القرمطي بحصاره إلى ظالم بن مرهوب العقيلي، ومعه أبي المنجا عبد الله بن علي بن منجا القرمطي، وزحف، يريد مصر، «ونزل خارج القاهرة بعين شمس لعشر بقين من صفر سنة إحدى وستين [نوفمبر ٩٧٢م]، ومعه خمسة عشر ألف جمل وبغل تحمل صناديق الأموال، وأواني الذهب والفضة، سوى التي تحمل الخيم والمضارب والبنود، وغير ذلك من الأثقال، وقد استعد جوهر لحربه، فالتحم القتال في يوم الجمعة أول ربيع الأول على باب القاهرة، وقتل من الفريقين وأسر جماعة، وباتوا ليلة السبت وأصبحوا متكافين، وغدوا يوم الأحد للقتال على باب الخندق،

---

(١) زكار الموسوعة الشامية جـ ١ ص ٣١٢ نقلاً عن المقفى للمقريزي.

(٢) ابن القلانسي ص ١. زكار الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩. زكار الموسوعة الشامية جـ١ ص ٢٣٠.

فكانت وقائع شديدة قتل فيها من الفريقين عدد كبير، وانهزم الحسن، ونهب سواده ببركة الحاج، وأخذت صناديقه وكتبه، ومضى في الليل على طريق القلزم [السويس]، ونهبت بنو عقيل وبنو طيء كثيراً من سواده، وهو مشغول بالقتال فسار إلى الأحساء»[1].

ولم تطل إقامة الحسن الأعصم في الأحساء، بل عاد مسرعاً إلى بلاد الشام، وكانت دمشق والرملة قد بقيت بأيدي أصحابه يتقدمهم ظالم بن مرهوب العقيلي وعبد الله بن علي بن منجا القرمطي، وحين عاد جلب معه قوة بحرية، ليس من الواضح من أين حصل عليها ولا مقدارها، ومن المحتمل أنه حصل عليها من السواحل الشامية، وكانت هذه فاعلة إلى حد أن القائد جوهر بعث بنجدة بحرية لإمداد يافا وللتفريج عن المحاصرين فيها، وكان عدد مراكب جوهر خمسة عشر مركباً «فأرسل القرامطة مراكبهم إليها فأخذوا مراكب جوهر، ولم ينج منها غير مركبين، فغنمهما مراكب الروم»[2].

ونظراً لخطورة الأوضاع في مصر، وتزايد التهديد القادم من الشام، من أن القرمطي قد عزم على معاودة مهاجمة مصر براً وبحراً، أمام هذا الواقع قرر المعز لدين الله الفاطمي القدوم شخصياً إلى مصر ومباشرة الأعمال فيها، وكان قد فرغ من الإجراءات التي اتخذها لإسناد السلطة في إفريقية إلى زعيم صنهاجة، الأمر الذي تقدم الحديث عنه، ويفيد هذا أن المعز كان يعتقد أن خسارة مصر ستشكل تهديداً خطيراً لدولته

---

(١) ابن القلانسي ص ٣ ـ ٤. تاريخ الأنطاكي ص ١٤٦ ـ ١٤٧. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٨ ـ ١٣٠. الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، جـ ٢ ص ٥٦٦، ٥٩٥ ـ ٥٩٧. الموسوعة الشامية جـ١ ص ٣٣٠. سرور ص ٢٩ ـ ٣٠. الدشراوي ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥. عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٨٢ ـ ١٨٤.

(٢) ابن القلانسي ص ٤. الجامع في أخبار القرامطة جـ ٢ ص ٥٦٦. الموسوعة الشامية جـ ١ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١. الأنطاكي ص ١٤٧. الدشراوي ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨.

ومستقبلها، ولهذا حشد أكبر عدد من الرجال أمكنه حشده، واهتم أكثر بالأموال، فقد حمل معه من الأموال الكثير الكثير، مما يعتقد أنه أثر كثيراً على أوضاع المغرب، فقد ذكر الداعي أدريس القرشي: «وكان خروجه من المنصورية يوم الاثنين لثمان بقيت من شهر شعبان من سنة إحدى وستين وثلاثمائة، بعد أن جمع من الأموال ما لم يسمع بملك جمع مثلها، ورحلها صحبته، وسار في هيبة عظيمة، وعدة وجنود جمة، وجيوش مستعدة، وقد أمر بالدنانير من الذهب فسبكت بسبائك، وطبع اسمه عليها، وجعل حمل كل جمل سبيكتين،..... وهاجر مع المعز لدين الله ع.م أولاد المهدي ع.م: أبو علي أحمد، وأبو طالب موسى ابنا عبد الله المهدي بالله، وأربع نسوة من بنات الإمام المهدي بالله، وكانت وفاتهم جميعاً في مصر، ومن أولاد الإمام القائم بأمر الله ع.م: جعفر، وعبد الجبار، ابنا محمد القائم بأمر الله ع.م، وأربع نسوة من بنات القائم بأمر الله، وكانت وفاتهم جميعاً بمصر، وأخوة المعز لدين الله ع.م: حيدرة، وهاشم ابنا إسماعيل المنصور بالله، وخمس بنات لهم، وبمصر كانت وفاتهم جميعاً، ومن أولاد أمير المؤمنين المعز لدين الله ع.م: عبد الله رضي الله عنه، وتميم الشاعر، والإمام نزار العزيز بالله، وعقيل أبناء الإمام معد المعز لدين الله، وهاجر معه كثير من أمرائه ودعاته، وأعيان دولته، وكان في الهجرة معه القاضي النعمان بن محمد (رضي) وجميع أولاده» كما كان بين المهاجرين الأستاذ جؤذر.

وسار الموكب مرحلة تلو أخرى، حتى إذا كان على مقربة من برقة توفي جؤذر ودفن هناك، ولم تقتصر خسارة المعز على جؤذر، بل إنه خسر شاعره الأثير لديه ابن هانئ الأندلسي، فعندما قصد المعز مصر شيعه ابن هانئ، ثم رجع إلى المغرب فتجهز وحمل معه عياله ولحق به، ولما وصل إلى برقة أكرمه أهلها، فأقام عندهم عدة أيام، وجد في نهايتها

ميتاً، وقد اختلف في سبب موته وكيفيته، ومهما يكن كان ابن هانئ ما يزال شاباً لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره، وكان يلقب بمتنبي المغرب، وعندما بلغ المعز خبر وفاته حزن لذلك وقال: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك».

ولدى إلقاء نظرة على عدد أفراد الأسرة الفاطمية الذي ورد ذكرهم أعلاه، نجد أن هذه الأسرة كانت صغيرة جداً، قياساً على أي أسرة حاكمة أخرى مضى على وجودها في السلطة أكثر من نصف قرن من الزمان.

المهم وصل المعز وموكبه إلى الاسكندرية، فجلس قرب منارتها، وهناك استقبل من قبل الأشراف والقضاة والأعيان، ثم استأنف سفره نحو القاهرة، وكان أهل الفسطاط قد أعدوا له استقبالاً حافلاً، فلم يدخل إلى مدينتهم، وتوجه مباشرة إلى مدينته الجديدة[1]، وكان ذلك في شعبان من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ٩٧٣م.

وبدخول المعز إلى القاهرة انتهت المرحلة المغربية من حياة الخلافة الفاطمية، وعادت مصر من جديد، وبعد قرون مديدة لتكون قاعدة ملك عريض، ومن جديد لم تعد مصر ولا بلدان المشرق تابعة لإفريقية، بل عادت إفريقية ولاية، تابعة الآن للإدارة المركزية في مصر، يضاف إلى هذا أنه لأول مرة في التاريخ صارت جزيرة صقلية تابعة أيضاً لمصر.

ولا يعنينا هنا مباشرة الحديث عن الترتيبات التي أجراها المعز في مقر ملكه الجديد، ومع هذا ربما سوف نشير إلى بعض ذلك لدى الحديث

---

(١) عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٨٤ ـ ١٩٤، ديوان ابن هانئ ص ٦ ـ ٧. ابن القلانسي ص ٥. اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٢ ـ ١٣٦. تاريخ الأنطاكي ص ١٤٨. سيرة جوذر ص ١٤٢ ـ ١٤٧. سرور ص ٣٠ ـ ٣١. الدشراوي ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

عن يعقوب ابن كلس وبعض المسائل الإدارية، ولاشك أن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر أحدث دوياً كبيراً في أرجاء المشرق الإسلامي، وهز أركان الخلافة العباسية بعنف شديد، ويكفينا أن نستشهد هنا بما قاله الشاعر الكبير الشريف الرضي آنذاك، وفي بغداد بالذات:

ما مقامي على الهوان وعندي	مقول صارم وأنف حمي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي	وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا	ي إذا ضامني البعيد القصي
لفّ عرقي بعرقه سيدا النا	س جميعاً محمد وعلي[1]

ومع أن الخلافة العباسية لم يكن بإمكانها القيام بأي عمل مباشر ضد الفاطميين، فإنها كانت قد تبنت سياسة جديدة تجاه القرامطة، اعتمدت على التهاون معهم، ومن ثم تقديم الدعم والتأييد لجهود زعيم القرامطة الحسن الأعصم، ففي سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م باتت استعدادات الأعصم كافية للتوجه نحو مصر، وقد راسله المعز برسالة طويلة محكمة الصياغة، قوية البيان[2]، لكن الأعصم لم يتأثر بها، وزحف بقواته حتى عين شمس، وشرع بحصار القاهرة، وانضمت إليه أعداد كبيرة من البداة العرب وسواهم، وكان أهم مسانديه حسان بن المفرج بن دغفل زعيم قبائل طيء في فلسطين، «ونظر المعز في أمره فإذا ليس له به طاقة، فأعمل فكرته ورويته في أمره، وشاور أهل الرأي من خاصته وجنده في أمره، فقالوا ليس فيه حيلة غير فلّ عسكره، وليس يقدر على فلّه إلا بابن جراح، فبذلوا له مائة ألف دينار على أن يفل لهم عسكره

(١) ديوان الشريف الرضي ط. دار صادر، بيروت جـ ٢ ص ٥٧٦.
(٢) نص هذه الرسالة في ملاحق هذه الرسالة.

فأجابهم إلى ذلك، ثم نظروا في كثرة المال فاستعظموه، فضربوا دنانير من صفر، وطلوها بالذهب وجعلوها في أكياس، وجعلوا في رأس كل كيس منها يسيراً من دنانير الذهب الخلاص، وحملوها إلى ثقة ابن جراح، وقد كانوا توثقوا منه وعاهدوه على الوفاء وترك الغدر إذا وصل المال إليه، فلما عرف وصول المال إليه عمل في فلّ عسكر القرمطي، وتقدم إلى أكثر أصحابه أن يتبعوه إذا تواقف العسكران، ونشبت الحرب.

فلما اشتد القتال ولى ابن جراح منهزماً وتبعه أصحابه، فكان في جمع كثيف، فلما نظر إليه القرمطي قد انهزم في عسكره بعد الاستظهار والقوة، تحير في أمره، ولزمه الثبات والمحاربة بعسكره، وأجهد نفسه في القتال حتى يتخلص، ولم يكن له بهم طاقة، وكانوا قد أرهقوه بالحملات من كل جانب، وقد قويت نفوس المغاربة بانفلال ابن جراح، فخاف القرمطي على نفسه فانهزم، فأتبعوا أثره وطلبوا معسكره، فظفروا بمن فيه، وأسروا تقدير ألف وخمسمائة رجل، وانتهبوا سواده وما فيه، وذلك في شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة [٩٧٤].

ثم جردوا في طلب القرمطي القائد أبا محمود إبراهيم بن جعفر [بن فلاح] في عشرة آلاف رجل، فاتبعه وتثاقل في سيره خوفاً من رجوعه عليه، وتمّ القرمطي على حاله في انهزامه حتى نزل على أذرعات [درعا السورية] وأنفذ أبا المنجا في طائفة من الجند إلى دمشق، ونيته العود» حيث أنشد:

زعمت رجال الغرب أني هبتها فدمي إذا ما بينهم مطلول

يا مصر أن لم أسق أرضك من دم   يروي ثراك فلا سقاني النيل[1]

وبهزيمة القرمطي هذا طويت صفحة ثانية من صفحات الصراع القرمطي الفاطمي، وبقيت صفحة أخرى أشد قسوة سوف تطوى في أيام العزيز نزار بن المعز لدين الله وبعد وفاته، ذلك أن إبراهيم بن جعفر بن فلاح لم يحالفه التوفيق في الاستيلاء على دمشق، مثلما لم يحالف والده من قبل، وتدخلت قوى جديدة في الصراع، هذا الصراع الذي كان السبب الرئيسي لانتكاسة المشروع الفاطمي في المشرق، ومن ثم لبقاء الخلافة العباسية.

وقامت هذه الخلافة بشن حرب إعلامية مؤثرة ضد الفاطميين وطعنت بأنسابهم، وتناولت عقائدهم، ومما يثير الانتباه، أن الدعوة الإسماعيلية لم تحقق قفزة جديدة بعد التمركز في مصر، وبناء القاهرة، وتشييد الأزهر، وتظل هذه قضية جديرة بالاهتمام، والمقصود بذلك دور الأزهر في العصر الفاطمي وتاريخ الفكر الإسماعيلي في هذه المرحلة المديدة، آخذين بعين التقدير أن الذين نشطوا في الأزهر وفي ميادين الدعوة الإسماعيلية كانوا من غير المصريين، وفدوا إلى القاهرة من مختلف أصقاع العالم الإسلامي، وبشكل خاص من العالم الإيراني منه، الذي كانت خلفياته الدينية زرادشتية ومانوية ومزدكية وغير ذلك كثير...، وهي خلفيات غريبة على أرض مصر، يضاف إلى هذا أن القاهرة ظلت دار ملك السلطان فيها لغير المصريين، فجل الوزراء

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ص ٦ ـ ٨. تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٥٢. المقريزي اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٤٢ ـ ١٥٠، ١٨٨ ـ ٢٠٦. الداعي ادريس ـ عيون الأخبار جـ ٦ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠. زكار الجامع في أخبار القرامطة جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٣١، جـ ٢ ص ٥٦٦ ـ ٥٩٨. زكار الموسوعة الشامية جـ ١ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢. سرور ص ٣٠ ـ ٣٧.

والكتاب والقادة الذين صنعوا التاريخ الفاطمي لم يكونوا من المصريين، وفقط عندما بنى صلاح الدين قلعة القاهرة وجعلها دار الملك والسلطان، وكانت الفسطاط قد تعرضت قبيل ذلك بوقت قصير لحريق شبه كامل، صارت القاهرة مصرية السكان، وتحول الأزهر إلى مؤسسة مصرية، وقتذاك شغل دوره الفعال في تاريخ الإسلام.

الفصل السابع

مؤسسات الدولة وأبرز العاملين فيها

1- توطئة حول مفهوم سياسة الحكم والإدارة عند الفاطمين .
2- العمال وتعيينهم .
3- ادوار المعز لدين الله الادارية والدعوية
4- دور قبائل كتامة.
5- الصقالبة .
6- القضاء.
7- السياسة الضرائبية والمالية.
8- ابرز رجالات دولة المعز لدين الله .
9- القائد جوهر.
10- الاستاذ جوذر.
11- القاضي النعمان.
12- يعقوب بن كلس.

الفصل السابع

مؤسسات الدولة
وأبرز العاملين فيها

توطئة حول مفهوم سياسة الحكم والادارة عند الفاطميين:

ليس من السهل البحث في الحياة الإدارية للخلافة الفاطمية في عهد الخليفة المعز لدين الله من المرحلة الإفريقية، ذلك أن المكتبة الإسماعيلية لم تعرف آنذاك من تحدث عن تنظيم الدولة وإدارتها، ومع هذا من الممكن استخلاص بعض المادة من كتابات القاضي النعمان، وأيضاً من سيرة جوذر، ومن كتب الأخبار العامة.

وكانت الخلافة الفاطمية أيام المعز، بشكل واضح، أكثر من ذي قبل دولة ثيوقراطية من جميع الجوانب، تدور الحياة فيها، وتتمركز سياستها وإدارتها، وعقيدتها حول شخصية الخليفة، الذي عدّ نفسه الإمام الشرعي الوحيد للمسلمين، والإمام عند الإسماعيلية شخصية مقدسة، تتمتع بالعصمة، وتفاوت الإعلان عن درجة القداسة بين مرحلة وأخرى، لكن على

العموم وصلت القداسة إلى حد التأليـه، ولقـد تقـدم بنـا الحديث عـن هـذا الجانب في العقيدة الإسماعيلية، وأيضاً لدى الحديث عـن شخصية المعز، وللمزيد يمكن العودة إلى الفصل الأول الذي انتزعناه من الرسالة المذهبـة، وأودعناه بين الملاحق.

ولم تحقق الدعوة الإسماعيلية أيام الحكم الفاطمي نجاحـات عقائدية كبيرة بيـن صفـوف المغاربة، ليس فقـط بسبب ترسـخ العقيـدة السنية المرتبطة بمذهب الإمـام مـالك ومقاومـة علمـاء هـذا المذهـب لهـم، بـل لأن حصر السلطات في شخص مقدس واحد يتنافى مـع النظـام القبلـي الـذي ساد بلدان المغرب، ولقد رأينا أن القبائل التي كانت مغرقة بالبداوة، كانت هي الأكثر رفضاً للحكم الفاطمي. يضـاف إلى هــذا طـرق الإكـراه والعسـف التي اعتمدها الفاطميون لفرض عقيدتهم ولتخصيص أنصارهم بالامتيازات الهائلة على حساب شقاء الآخرين.

والإمـام كـان شـخصية دينيـة دنيوية، تولـى بذاتـه تسـيير أمــور الدولة، وارتبطت به بـالوقت نفسـه شـؤون الدعـوة والدعـاة، ولـم يعـاون الإمام المعز في المرحلة الإفريقية وزير أو كاتب أو حاجب يتولى تســيير الشؤون اليومية والحكومية، مثلما حدث فيما بعد في المرحلة المصريـة، وبالوقت نفسه لم يساعده أو ينب عنـه داعـي دعـاة، أيضاً مثلمـا بـات عليه الحال في المرحلة المصرية؛ هذا ولم يكن لدى المعز كـاتب مفـوض قد عهد إليه ببعض الصلاحيات، فلقد اسـتقطب حـول ذاتـه كـل شـؤون السلطة، ففي كثير من الأحيان كان يتولى بذاته قراءة المراسـلات والـرد عليهـا، إمـا بخطـه مباشرة أو بـالإملاء، والإمـلاء كـان هـو الأقـل، ومـن الممكـن التعـرف إلـى هـذا مـن محتويـات كتـابي المجـالس والمسـايرات، وسيرة جوذر.

العمال وتعيينهم:

لقد كان الخليفة المعز لدين الله يعين العمال والولاة ويتولى توجيههم ومراقبتهم، وتعيين أعطياتهم، وكان المعز لدين الله يسوغ ذلك بقوله: «والله ما ننال من الدنيا إلاّ دون ما يناله كثير من الناس فيها، وإن أكثرهم ليأكل ويشرب منها فوق ما نأكل ونشرب، وإنا لنلبس ويلبسون ونركب ويركبون، وننكح وينكحون، وإنا مع ذلك نتعب لصلاح أحوالهم، ودفع الضراء عنهم وهم وادعون، وقليل من يعرف لنا ذلك منهم فيشكره، بل أكثرهم يجهل ذلك ويكفره، ولو كان ذلك منا لهم لتركناه ولكنه شيء افترضه الله عز وجل علينا وألزمناه»[1].

وكان العمال أيام المعز لدين الله، ممن يتولى إدارة الأقاليم على نوعين: نوع يخرج من الحضرة، وله عطاء مقرر، ونوع آخر، عمال محليون بدون جراية. فهكذا كانت القاعدة «في قديم الزمان لمن ولي حكومة من أهل البلدان»[2]، ويفيد هذا الخبر أن الإدارة الفاطمية حافظت على قواعد الإدارة كما كانت أيام الأغالبة، لكن الآن أراد المعز لدين الله أن يحكم قبضته على المحليين وعلى المعينين من قبله سواء، فأصدر أمره إلى القاضي النعمان «لا تدع حاكماً من الحكام إلاّ قبضت له ما يصلح لمثله، فمن كان كما وصفته موسراً قائماً بنفسه. راغباً في ثواب عمله، فنحن في ثواب الله أرغب، وما أحب أن يتقلد لنا أحد عملاً إلاّ تبين له أثر فضلنا عليه، فلا تدع أحداً إلاّ عممته به»، ويفيد هذا أن المعز قضى إدارياً: إن لكل موظف أجرة على وظيفته، حتى وإن كان موسراً، أو توظف في مسقط رأسه، والمثير للانتباه هنا إصدار المعز لدين الله هذا

---

(١) المجالس والمسايرات ص ١٣٧.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٣٩٥.

الأمر إلى القاضي النعمان، وليس إلى ديوان مختص، ويبـدو أنـه لـم تكـن هناك دواوين، بل كل أمر كان بيد المعز وحده.

وعلى هذا كان يتولى مباشرة تتبع أخبار عماله، فمن أدى الأمانـة زاده، ومن قصر انتقصه، أو عزله، وكان ينزعج من الناس عندما يشـكون إليه أمر عامل من العمال فيقول: «عجباً لهؤلاء يـرون أنـا فـي غفلـة عنهـم وعن غيرهم، وما شغلنا ـ إذا اشتغل ملـوك الدنيـا بلذاتهـم ـ إلا النظر فـي أمور من قلدنا الله (عج) أمره واسترعانا إيّاه»[1].

ونواجه هنا سؤالاً: إذا لم يكن لدى المعز لدين الله دواويـن وأجهـزة تجسس وبريد ترفع إليه أخبار العمال، فمـن الـذي كـان يفعـل ذلـك؟ لعـل الذي كان يرفع الأخبار كانوا من جهاز الدعوة، ويبدو أن المعز اعتمـد هـذا الأسـلوب إمعانـاً منـه فـي المركزيـة، ودعايـة لطاقاتـه ـــ كإمـام ـــ غـير الاعتيادية، حتى راج بين الناس أنه يعلم الغيب[2]، وكان هو شخصياً يلـح على امتلاكه لطاقات استثنائية ولحكمة موروثة جاءت منحـة مـن الله[3]، كما أن علمه كان علماً فطرياً[4].

أدوار المعز لدين الله الادارية والدعوية:

ومع هذا نسأل مرة أخرى لمـاذا لـم يمتلـك المعـز لديـن اللـه دواويـن خاصة لدولته، أو لم يحدث مثل هذه الدواوين؟ ولعل أسباب هذا، انشـغال المعز لدين الله والذين تقدموه بشؤون السياسة والحرب، أو أن المعز لديـن الله شعر بأن مكوثه وأسرته في المغرب، آنياً مؤقتاً.

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) المجالس والمسايرات ٤١٨ ـ ٤٢٠

(٣) المجالس والمسايرات ص ١٢٧.

(٤) المجالس والمسايرات ص ١٤٧.

واهتم المعز لدين الله بشؤون الدعوة والدعـاة، والجيـش الـذي كـانت عصبته كتامة، أكثر من اهتمامه بأي أمر آخر، واهتم بالوقت نفسه بـأمور قصور الخلافة، وكانت موكولة إلى جوذر.

لقد كان المعز لدين اللـه يتولـى شـخصياً تعليـم الدعـاة وتوجيههـم، ويراسل الذين كانوا في المشرق بجديد الإنجازات وغير ذلك، فقد كتب إلـى أحدهم يخبره بالإستيلاء على سجلماسـة، واعتقـال ابـن واسـول[1]، وكـان دعاة الجزر في المشرق يجبون الأموال من الإسماعيلية ويرسـلون بها إلـى المعز لديـن اللـه[2]، وكـان بعـض الدعـاة يسـتغل بعـده عـن دار الخلافـة، فيتصرف حسب هـواه، فيحـل بعـض المحـارم، ولذلـك كـان المعـز يعمـل الحيلة بالتخلص من أمثال هؤلاء، واهتم المعز كثيراً بتطرف بعض الدعـاة فكرياً، لاسيما لدى التعامل مع الأفكار الفلسفية وسواها[3].

وعلى العموم ركز المعز جهوده علـى السيطرة علـى أفكـار الدعـاة، وضبطهم ما أمكن، لاسيما وأن العقيـدة الإسـماعيلية تسـهل الانـزلاق نحـو الغلو والتطرف، ولم يكن الوصـول إلـى هـذه الغايـة سهلاً، لأن كثـيراً مـن الدعاة كانوا خارج منـاطق السـيطرة السياسـية الفاطميـة، فبعض الدعـاة تطرف وجرى تحذيره وإنذاره أكثر مـن مـرة خـلال الخلفـاء الثلاثـة الذيـن تقدموا على المعز، ومع ذلك لم يقلع عن غلوه «وكان هذا الرجـل قـد ألحـد في أولياء الله وغلا في دينه، فناله بسبب ذلك من سخط الأئمـة مـا نعـوذ بالله» وحذر المعز رجال الدعوة الذين اجتمعوا إليـه مـن مثـل سـلوك هـذا الداعي، وبين أنه قد أصابته «لعنة ثلاثة أئمة، وإن لعنـة الإمـام مـن أشـد عذاب الله لا تخطئ فيمـن قصدتـه، ولا ينجـو مـن أصابتـه»، وواضـح أن

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٠٥.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٤٠٧.

(٣) المجالس والمسايرات ص ٤٠٨ ـ ٤١٠.

المعز لدين الله قد عالج غلو الداعي بغلو صدر عنه، ولعل غلو الداعي كان فيه تأليه للأئمة ومع ذلك أراد المعز لدين الله ومن قبله والده المنصور إسماعيل عدم إنكار المكانة العلية للإمام، لكن دون ادعاء الألوهية مباشرة، فذلك سيكون في مستقبل الأيام مع الحاكم بأمر الله، حفيد المعز، وقال المنصور إسماعيل وروى ما قاله المعز لدين الله وأكده: «عندنا من حكمة الله وعلمه ما نزيل به الجبال، ونخرق به البحار»[1].

ولدى استعراضنا لتاريخ المرحلة الإفريقية من حياة الخلافة الفاطمية، نلاحظ أن هذه الخلافة لم تتخذ لنفسها عاصمة ثابتة دائمة، ولعله لهذا السبب ولأسباب أخرى لم تكن هناك دار للدعوة لتدريب الدعاة وتخريجهم مثلما صار عليه الحال في القاهرة، لدى إنشاء الأزهر، ويستفاد من مواد كتاب المجالس والمسايرات أن المعز كان يجتمع بالدعاة في دار الخلافة، وطبعاً توفرت هناك مكتبة إسماعيلية جيدة، وكانت الأسئلة توجه إلى الإمام المعز لدين الله، وقد يجيب عليها مباشرة، أو كان يوعز إلى القاضي النعمان بالإجابة، وبعد عرض الإجابة عليه كان يسمح بنشرها على الدعاة فقط، وهذا واضح من الرسالة المذهبة، التي نشرنا الفصل الأول منها في الملاحق[2]، ويفيد هذا أن القاضي النعمان شغل إلى جانب القضاء، ما يعرف، بشكل عملي، منصب داعي الدعاة أيضاً، ومن هذا المنطلق علينا أن نتعامل مع كتاب المجالس والمسايرات، على أنه سجل لمجالس الدعوة أيام المعز لدين الله، برئاسته المباشرة، وقد حفلت المكتبة الإسماعيلية بعد المعز بمثل هذا النوع من الكتب الوثائقية.

لقد استغل المعز لدين الله حشود الدعاة لجمع المعلومات، ولبث الدعاية، ولتأمين كميات كبيرة من الأموال، وكانت رسل الدعاة من مختلف

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤١٨ ـ ٤٢٠.

(٢) انظر أيضاً المجالس والمسايرات ص ١٥٧، ٣٠٣.

الجزر يتوالى قدومها عليه. فقد حكى القاضي النعمان: «وقدم على الإمام المعز لدين الله ـ صلوات الله عليه ـ رسل جماعة من الدعاة من جزائر شتى بعيدة، فوافوا بالحضرة في يوم واحد، فأدخلهم إليه، فقبلوا الأرض بين يديه، ومرغوا خدودهم عليها، وأكثروا من حمد الله وشكره إذ أبلغهم إليه، وأراهم وجهه، وأوصلوا كتب الدعاة الذين أرسلوهم وما حملوهم من أعمال المؤمنين قبلهم.

وسألهم (صلع) عن الأحوال ممن خلفوه من الدعاة والمؤمنين، وما تجري الأمور بهم لديهم، فذكروا من صلاحِ الأحوال في ذلك واستقامة الأمور والعلو والظهور ما حمد الله عليه، وأكثر (عم) من شكره بما وهب به، وذكروا ظهورهم إلى من يجتازون به من الولاة المتغلبين في البلدان وإكرامهم إياهم وبرهم بهم إكراماً لأمر وليّ الله، وإعظاماً له.

فقال بعض من حضر: ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق، ولا يحول دونه إلاّ أنه لم يرم العزم في أمره، فأما لو عزم على ذلك لما حال دونه حائل.

فقال (ص): إنا لم نتخلف عن ذلك إلاّ انتظاراً للمدة التي وعدنا الله الظهور فيها، ولو حضرت ما تخلفنا عن إقامة أمر الله (تع) الذي نصبنا للقيام به»[1].

وعلى الرغم من إقدام بعض الدعاة على العمل العلني، ظل الخليفة المعز لدين الله يؤثر التكتم، ويستخدم المعمى في المراسلات والتكاليف[2]، وستظل أوضاع الدعاة هكذا في المرحلة الإفريقية، حتى ما بعد الاستيلاء على مصر، وبناء القاهرة، وكان الذي تولى تنظيم الإدارة

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٢) المجالس والمسايرات ص ١٣٠، ٣٤٣، ٤٧٧ ـ ٤٧٩، ٤٩٩، ٥١٥.

هناك وأعاد تنظيم الدعوة هو يعقوب بن كلس، ولسوف نولي هذه الشخصية الهامة عناية مستقبلية خاصة، ولنتابع الآن وصف مجمل الأوضاع الإدارية كما باشرها المعز لدين الله شخصيا، مفترضين أن إدارة الأقاليم كانت حسب المواريث الأغلبية، متذكرين بالوقت نفسه انعدام الاستقرار والثبات في أي منطقة من مناطق المغرب، ولدى معالجتنا للنشاطات العسكرية للقائد جوهر في مناطق المغرب، رأيناها حملات جباية وجمع أموال، وقضاء على متمردين، إنما لم نسمع أن هذه الحملات ترافقت بإصلاحات إدارية أو جبائية، هذا ويكاد كتاب المجالس والمسايرات أن يخلو من أية إشارات أو أحاديث تتعلق بهاتين المسألتين الهامتين.

وأشرنا من قبل إلى أن المعز لدين الله كان يباشر شخصياً أعمال الإدارة، فيستقبل الدعاة والموظفين والرسل، ولكي يحافظ على سمو مكانته وحرمته، كان على الذين يمثلون في حضرة الخليفة السجود له، وتقبيل الأرض بين يديه، وتقبيل يده بالوقت نفسه، وإظهار آيات التقديس والاجلال له[1].

ولدى حديثنا المتقدم عن العلاقات مع كل من الأندلس وبيزنطة، رأينا المعز لدين الله، كان يقوم شخصياً باستقبال الرسل والتباحث معهم بشكل مطول، وإبرام الاتفاقات معهم[2]، ورأيناه هو الذي كان يتولى الإشراف علي بيت المال، وإحصاء ما فيه، فهو الذي فعل ذلك لدى الإعداد لحملة جوهر، وعندما تعب من عمله استدعى أحد موظفيه وكلفه بمتابعة المهمة[3].

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٥٧ ـ ٥٩.

(٢) المجالس والمسايرات ص ١٥، ١٦٧، ٣٦٧.

(٣) انظر ما تقدم ص.

وبما أن الخلافة الفاطمية قامت على أكتاف رجال قبائل كتامة، فقد أشرف المعز مباشرة على مسائل التعامل مع كتامة ورعاية شؤون زعمائها ومقدميها.

وقد أورد صاحب كتاب سيرة الأستاذ جوذر عدداً من نصوص الرسائل المتبادلة بين الخليفة المعز لدين الله وبين جوذر، وواضح من أخبار أسباب كل مراسلة ومن النص المعزي، أن المعز لدين الله كان يتناول شخصياً الرسالة الواردة إليه فيقرأها، ثم يتولى الإجابة عليها مباشرة بخط يده على الورقة ذاتها، ولدى قرآءة أجوبة المعز لدين الله نلاحظ أنه كان سريع البديهة متمكناً، لديه قدرة كتابية راقية ولغة رفيعة سليمة فصيحة[1]، ويؤكد هذا مجدداً ما ذهبنا إليه أن المعز لدين الله، أو بالحري الخلافة الفاطمية، لم تمتلك في المرحلة الإفريقية ديوان إنشاء، مثلما سيكون عليه الحال في المرحلة المصرية، وانعدام وجود ديوان إنشاء، يعني انعدام وجود كتاب اختصاصيين.

دور قبائل كتامة:

ومع أن الخلافة الفاطمية كانت دولة عقائدية، لكنها قامت على سواعد رجالات قبائل كتامة وتاريخها في المرحلة الإفريقية - وإلى حد ما في المرحلة المصرية - وثيق الارتباط برجالات قبائل كتامة، ولذلك حرص الخلفاء الفاطميون على رعاية كتامة، لأنها عصبية خلافتهم، وعماد قوتهم وبقائهم، ومرت العلاقات بين الخلفاء وبعض زعماء كتامة بأزمات، إنما أمكن تجاوزها، من ذلك إقدام الخليفة المهدي على قتل أبي عبد الله الداعي، والاعتماد على كتامة جعل الخلافة الفاطمية في المرحلة الإفريقية - على الرغم من تطلعاتها المشرقية وصلاتها - خلافة مغربية حققت استقلال

---

(١) جوذر ص ٧٢ - ١٤٣.

الشمال الأفريقي السياسي الفعلي، وألغت تبعيته لدولة المشرق المركزية، وشكل هذا سابقة خطيرة جداً، سوف تأخذ أبعادها المطلقة بقيام الدولة الموحدية في المستقبل، التي كانت خلافة مغربية كاملة من حيث الأسرة الحاكمة، والشعوب المحكومة.

وفي عهد المعز لدين الله الفاطمي تعاظم اهتمام هذا الخليفة بكتامة لبسط سيطرته على بلدان المغرب، ولانجاح مشروع السيطرة على مصر، ولقد رأينا أهم الولايات الفاطمية، خاصة صقلية، قد عهد بها المعز لدين الله لرجال من كتامة، وطبعاً كان الجيل الكتامي الذي عاصر المعز لدين الله غير الجيل الأول الذي أسس الخلافة الفاطمية.

فالجيل الجديد لم يربّه أبو عبد الله الداعي، ونشأ وسط الاضطرابات التي هزت أركان الخلافة الفاطمية، لذلك كانت تصدر عن بعض أفراده تصرفات كانت تخل بأمن الخلافة، ففي إحدى المسايرات وقف للمعز «جماعة من الأولياء من كتامة، بلغه عنهم فساد في ناحية، فأمر بإشخاصهم إليه لذلك، فجعلوا يعتذرون منه ويحلفون عليه، فقال لهم: قد صدقتم فيما قلتموه عن أنفسكم، ولكن قد فعل ذلك أحداثكم وعبيدكم ومن لا خير فيه ممن ينسب إليكم، وأنتم تعلمون ذلك فلم تغيروه، فأنتم بمنزلة من فعل ذلك، وإن تتلافوا أمركم وتأخذوا على أيدي سفهائكم، وإلاّ كنتم وهم في العقوبة سواء»[1].

وعلى الرغم من هذا التهديد حرص الخليفة المعز على عدم إنزال العقوبات بأي من أفراد قبيلة كتامة، حتى لا يزلزل أركان دولته، لذلك أعلن: «ولو أشاء لعاقبت المذنب عقوبة مثله، ولقتلت من يجب في صلاح

---

(١) المجالس ص ٢٣٩.

الدولة قتله، وأبقيت من يُنتفع فيها به، ولكنني حملت الأمر على ما أوجبه الزمان لي وجرت به عادة الله الجميلة عندي»[1].

وحرص المعز في مجالسه العامة وفي الأعياد على إظهار محبته الكبرى وعنايته العظمى لرجال كتامة، ذلك أنهم أولياء الدولة، فعندما قرب موعد عيد الأضحى في إحدى السنوات، سأل المعز «عن مجيء كتامة من الأعمال لشهود العيد، فقيل له: يا أمير المؤمنين يتساربون وقد غص القصر بهم.

فقال: بارك الله فيهم فما أسرني بهم وباحتفالهم، وما أحب إليّ أشخاصهم، وأزين في عيني مناظرهم.

ثم نظر إلى [القاضي النعمان] فقال: أرأيت مثلهم في بهائهم وجمال مراكبهم وحسن مناظرهم، أما إني ربما أقول في نفسي إذا أعجبني ذلك منهم: إن ذلك لفرط محبتي لهم»[2].

ويدل بهاء شكل رجال كتامة، وجمال مراكبهم وحسن مناظرهم، على أن أوضاعهم المالية والاقتصادية كانت جيدة، ذلك أنهم عصبة الدولة، ذلك أن الفقر والعوز كانا منتشرين في ديار الخلافة، لأن هذه الخلافة لم تنفذ أيا من برامجها الاقتصادية لأيام الدعوة الإسماعيلية، ففي احتفال ختان جماعي كبير أجراه المعز لدين الله، صرف عليه «من الأموال والخلع والنفقات ما لا يحصيه إلا من وقف عليه» وبعد ما وزع هذا الخليفة الخلع والأعطيات على عامة الناس وخاصتهم قال: «والله لقد ساءني من رأيته يمر بي من أهل الفقر والمسكنة»[3]، ولم يطالب بالعدالة لهؤلاء بل أوصى

---

(١) المجالس ص ٥٦١ ـ ٥٦٢.

(٢) المجالس ص ٢٤٥.

(٣) المجالس ص ٥٥٨ ـ ٥٦٢.

الأغنياء أن ينعشوا بأموالهم الفقراء، علماً بأن ذلك كان واجبه وهو الإمام الذي لديه الأموال الكثيرة، لكنه كان قد قرر صرف هذه الأموال على مشروع الاستيلاء على مصر، وعلى شراء رضى الزعماء.

ولم يضيع المعز فرصة من الفرص لم يظهر فيها تودده لكتامة، فقد روى القاضي النعمان أنه سمعه يقول: «إنه ليتداخلني من السرور وأجد من الفرح، وأبتهج بما يتصل بي ويبلغني وأراه من الخير والصلاح في أوليائنا ما لو كان مثل ذلك في الولد ما بلغ مني أكثر منه، وما يفوق من كانت هذه حالهم منهم عندي إلا من خصه الله من الولد، بالفضل الذي ينقله عني»[1].

وفي أحد الأعياد دخل على المعز لدين الله «رجال من كتامة أتوا من النواحي لشهود العيد»، فسألهم عن أحوالهم، وعن أحوال الذين خلفوهم، «فذكروا جميل أحوالهم وهدوء نواحيهم، واستقامة الأمور قبلهم، وشكروا عمال بلدانهم.

فابتهج لذلك صلوات الله عليه وسره وتهلل وجهه وتبسم، ثم... قال: هؤلاء أولياؤنا وخالصتنا، هؤلاء حزبنا وزمرتنا، هؤلاء أتباعنا وعمدتنا، هؤلاء خاصتنا وأهل مودتنا، هؤلاء الذين يكونون في الجنة معنا كما كانوا معنا في الدنيا، ما أسرني بهم وأبهجني برؤيتهم، وأحسن في عيني منظرهم»[2].

ومع ذلك كان المعز لدين الله يثير التنافس بين أجيال كتامة، وكان لا يعهد بالقيادات العسكرية العامة إلى أحد منهم، بل كان يعهد بذلك إلى عبيده المحررين من الصقالبة، كحال جوهر القائد.

---

(١) المجالس ص ٢٤٨.

(٢) المجالس ص ٣٢١.

وأثناء ندب المعز العساكر للخروج للقتال ضد ابن واسول صاحب سجلماسة، تقاعس الشيوخ، وسارع إلى الاستجابة الشباب من كتامة طائعين، وبعد ذلك حضر الشيوخ لديه فتجنب توجيه النقد إليهم، وجعل المسألة تمر بشكل طبيعي، وذكر أسلاف رجالات كتامة بكل خير وقال: «ما نصر الله ولياً من أوليائه قبلنا بمثل نصرتكم لنا، على ذلك مضى أولكم، وعليه أنتم، على محبتنا ونصرتنا وموالاتنا تتناسلون وتنشأون، وبها غذيتم، وعليها فطرتم، فأبشروا بما قسم الله (عج) من الفضل لكم، فأنتم حزب الله وأنصاره وجنده وأحباؤه»[1].

وكان دوماً يحث رجالات كتامة على التماسك والوحدة، ومع هذا كان يشجع الجيل الجديد من الكتاميين ويقول لهم: «ولقد سبق من آبائكم مع الآباء، وأجدادكم مع الأجداد من يقول الناس إنهم بسبقهم أفضل منكم، وما أقول أنا إلاّ أنكم أفضل ممن تقدمكم بما فضلكم الله به في أيامي، ورحمتي وحياتي، وإن كان من تقدم من الآباء (صلعم) لم يألوا إحساناً وفضلا لما كان في عصرهم، وإن كان ما كان منهم إليهم من التأدب لما فيه صلاح جميعهم، فلكل زمان رجال، وليهلكن بسيرتي اليوم غداً خلق كثير ممن يظن أن الأمر لا يعدو ما أنا اليوم عليه، فاعرفوا قدر ما منّ الله عليكم به، واشكروه يزدكم من فضله»[2].

الصقالبة:

وتقدمت بنا الإشارة إلى سوء العلاقة ما بين القائد جوهر الصقلبي والقائد الكتامي جعفر بن فلاح، وشكل الصقالبة (السلاف) العنصر الأساسي للرقيق الأبيض في الأندلس ثم في المغرب، وكان جلهم خصياناً

---

(١) المجالس ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ٤٨٦ ـ ٤٨٧. جونز ص ٥٩.

(٢) المجالس ص ٥٦١ ـ ٥٦٢.

وبعضهم غير خصيان، وشغل الصقالبة أدواراً شابهت ما شغله الرقيق من الأتراك في المشرق، وعلى العموم لم يشكل الصقالبة في الدولة الفاطمية عصبية، وقد ورث الفاطميون بعضهم عن الأغالبة، وأسندوا إليهم وظائف سنية، وكلفوهم بمهام قيادية عالية، وبذلك احتكروا الوظائف الكبرى في القصور ومراكز الدولة، وكثيراً ما أسند الخلفاء إلى بعضهم مهام قيادة قوات برية أو بحرية كان جلّ جنودها من كتامة، ولهذا وجد تنافس بين كتامة والصقالبة، وحرص المعز لدين الله على إحلال الوئام بين كتامة والصقالبة، فعندما أعد المعز جيشه للزحف ضد سجلماسة، أوكل قيادته إلى جوهر الصقلبي، فاحتج شيوخ كتامة على ذلك، فسوغ المعز لدين الله هذا التعيين بقوله مخاطباً شيوخ كتامة: «لولا السنة التي أمر الله عز وجل باتباعها، التي لا يصلح العباد إلاّ بها، ما قدمت عليكم أحداً منكم ولا من غيركم، إذ كل واحد منكم عندي يستحق أن يكون المقدم، لكن لا يصلح الناس إلاّ برئيس، وقد قدمت عليكم من قد علمتموه، وقد أمرت لكم بأجزل عطاء أعطيته... كونوا عند ما رجوتكم له من الغناء والكفاية، وصلاح الحال بينكم، أحسنوا عشرة بعضكم لبعض، وعشرة من تصحبونه من غيركم، وأنزلوا من ينفذ معكم من عبيدي منازل إخوانكم، واجمعوا معهم كلمتكم، فهم لكم عضد ولحمة، وموالاتي تجمعكم وإياهم، فلا تجعلوا بينكم وبينهم فرقاً»[1].

هذا من جانبه ولاحظ المعز وجود بعض الشطط في التصرفات لدى الصقالبة تجاه رجال كتامة، فانفرد بهم وأوصاهم بحسن السلوك، وأمرهم أن يكونوا للكتاميين «أخوة ومعهم ألفة»[2].

---

(١) المجالس ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧. جوذر ص ١٣ ـ ١٥.

(٢) المجالس ص ٢٥٨.

وكان المعز قد أثنى كثيراً على الكتامين، وذكر بالفضل دورهم في القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، وعلى أتباعه حيث قال: «هم والله الذين أذاقوهم طعم الموت، وأحلوهم محل الذلة وأخرجوهم قسرا بظبى السيوف، وحد الرماح، حتى ألحقوهم بقنن الجبال في أطراف البلاد، ثم استنزلوهم منها قسراً، وأبادوهم قتلاً»، وهنا اعترض واحد من العبيد الصقالية قائلاً: «فنحن يا أمير المؤمنين، فما ترى أنا قصرنا، وقد كان لنا من العناء والجهاد كمثل ما كان لغيرنا فمن نازعنا ذلك فليعدّ مشاهدنا ووقائعنا، ومقاماتنا ومن استشهد منا.

فقال (عم): لا سواء إنّا بهم ملكناكم، ولم نملكهم بكم، أرأيت لو تُركت أنت وأمثالك في بلدانكم، أكنتم تأتوننا؟! قال: لا، قال: فهؤلاء أتونا طائعين، وبذلوا لنا أنفسهم راغبين، ومضى على ذلك أسلافهم، وثبت عليه أخلاقهم، للسلف منا وللخلف، قرنا فقرنا، وجيلاً فجيلاً،... وهؤلاء أجدادهم مع أجدادنا، وآباؤهم مع آبائنا، وهم معنا، وكذلك يكون أعقابهم مع أعقابنا إلى يوم الدين إن شاء الله»[1].

وعلى الرغم من جهود المعز استمر التنافس بين الصقالبة والكتاميين حتى في المرحلة المصرية، ولعله كان هذا واحداً من الدوافع للعزيز - خليفة المعز - بتجنيد عناصر سودانية وأخرى مشرقية من ترك وديلم وسواهم.

القضاء:

ومن المقرر أن كل دولة من الدول احتاجت إلى السيطرة على المجتمع لديها بضبط الأمن ويفض الخلافات بين الناس، وفي العادة كان

---

(١) المجالس ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

يتولى في البلدان الاسلامية أعمال فض الخلافات بين الناس قضاه تعينهم السلطة العليا، أو أن الناس كانوا يلجؤون إلى الفقهاء أو رجال المعرفة والدراية والزعامة بين القبائل أو في الأرياف.

ومع القضاة كان لابد من وجود شرطة، وأصحاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من رجال الحسبة وأصحاب السوق، ومن المفترض أن هذه الوظائف التي وجدت في المغرب قبل قيام الخلافة الفاطمية، قد استمر وجودها، لكن ليس هناك ما يوثق ذلك، وتبقى مسألة القضاء أكثر أهمية، فنحن نعرف من خلال المجالس والمسايرات، أن النعمان قد مارس أعمال القضاء حتى شهر بلقب القاضي، غير أن النعمان كان قاضي الحضرة، وأقام وعمل حيث كان الخليفة الفاطمي مقيماً، لكن والنعمان كان قاضياً إسماعيليا، إلى من التجأ المغاربة الذين كانوا من أهل السنة للتقاضي، وهل كان للنعمان نواب في المدن والأقاليم؟[1] هناك إشارة فريدة في المجالس والمسايرات[2] إلى إرسال قضاة إلى الأقاليم، فقد قال القاضي النعمان موصياً بعض «القضاة الخارجين إلى بعض الأعمال: إن أحق ما نظرتم فيه وعملتم له، الوفاء بالعهد، وأداء الأمانة فيما قلدتموه، وامتثال ما عهد أمير المؤمنين عليه السلام إليكم فيه، لما يجب لله وله عليكم في ذلك، ولا أقل من أن تنظروا فيما تدوم لكم به النعمة»، وحذرهم من الرشوة وخيانة الأمانة، فهل يا ترى كان عامة الناس يلجؤون بشكل عام إلى التقاضي أمام رجالات أهل السنة، لكن الذين كانوا يرغبون

(١) النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى - ترجمة عربية ص ١٩٥ - ٢٢٢.

(٢) المجالس ص ٥٣.

بكسب القضايا كانوا يلجؤون إلى قضاه الدولة الرسميين الذين كانوا يتعاونون مع الولاة والعمال[1].

والحديث عن القضاء الفاطمي هو في الحقيقة حديث عن القاضي النعمان، لكن قبل أن نشرع بذلك، لابد من التذكير بأن الإمام الفاطمي كان مصدر التشريع والقضاء، وغالباً ما مارس ذلك شخصياً، وفي المجالس والمسايرات إلحاح على أن المعز لدين الله قد أوتي فهما استثنائيا في القدرة على استنباط الأحكام والفض بين الخصوم، وكان في هذا الميدان أفقه من أبيه المنصور، وقال القاضي النعمان عنه: «والله ما ضاق عليّ أمر رأيته واشتبه عندي وجه الحق فيه فرفعته إليه إلاّ أجابني عنه قبل استيفائه آخره، أو عندما يستوفيه، بجواب ما خطر ببالي بعد الروية له والفكر فيه الأيام الكثيرة والليالي العديدة، وبما لا أشك فيه أنه الحق الذي لا وجه له غيره[2]».

ويبدو أنه قد توفرت حاجة ملحة لإنصاف الناس وفض نزاعاتهم، أي كان هناك عجز بالقضاء، ولم تكن هناك محكمة مظالم، كما عرف العصر العباسي وسواه، وانعدمت الثقة بالقضاء، فقد ذكر القاضي النعمان أن المعز لدين الله «قد خرج يوماً إلى خارج المنصورية في بعض ما يخرج له، فازدحم الناس علي ركابه، وأحاطوا به من كل جهة يسألونه حوائجهم ويرفعون إليه قصصهم، وقد أقام لذلك من يتولاه فأبوا إلا مواجهته به، وهو في ذلك يقبل عليهم ويسمع منهم، ويأمر بقضاء حوائجهم، إلى أن جاء من ذلك ما لم يمكنه معه المشي، ونفر به الفرس تحته، ودار به، فأمرهم بالانصراف، وأمر من بين يديه من المشاة

(١) المجالس والمسايرات ص ٧٧ ـ ٣٩٦.

(٢) المجالس ص ٦٠ ـ ٦٣.

بصرفهم، فألحقوا عليه ولم ينصرفوا عنه، وقصر المشاة عنهم في دفعهم، فتناول رمحاً من يد بعضهم، وقال: ما جزاء أحدكم إلاّ ضربة بهذا»[1].

والذي أورده القاضي النعمان في المجالس والمسايرات في باب القضاء، هو سيرته في هذا العمل وعلاقته بالخلفاء منذ أيام المهدي، ولم يكن النعمان قاضياً فقط، بل كان لسان الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وكاتبها في المرحلة الإفريقية، ذلك أن المسؤولية عن الدعوة انتقلت مع الانتقال إلى مصر إلى يعقوب بن كلس، الذي كان أبرز رجالات تاريخ الدولة الفاطمية؛ فقد نقل يعقوب الخلافة الفاطمية من دولة تعتمد على شخصية الخليفة، إلى دولة تعتمد على المؤسسة الإدارية والعقائدية، فقد نظم الإدارة المالية والتجارية للخلافة، كما أعاد تنظيم الدعوة وشؤون الدعاة، والمستعرض للتاريخ الفاطمي في مصر يجد أنه لم يكن بين الأحد عشر خليفة الذين حكموا في تلك المرحلة من تميز في أي جانب من الجوانب، فالكل كانوا ضعفاء أو تولوا الحكم وهم صغار السن، وكانت هناك حروب دائمة ودسائس في البلاط، ومع ذلك كانت مصر مزدهرة بشكل عام، مرهوبة الجانب في حوض البحر المتوسط براً وبحراً، ومرد ذلك إلى أن ابن كلس أمن للدولة موارد مالية ثابتة تقريباً من إيجارات القاهرة بيوتاً وحوانيتاً، حيث كانت الدولة هي المالك لكل عقار في القاهرة، ومع موارد العقارات حصلت الدولة على موارد ممتازة من التجارات على أنواعها، ودعم هذا كله جهاز الدعوة الإسماعيلية المنظم، والذي تولى الأزهر تخريج دعاته وتوجيههم[2]، وفي الحقيقة ليس لنا رغبة بالاستطراد

---

(١) المجالس ص ٢١١ ـ ٢١٢ ـ ٢٥٩.

(٢) A Mediterranean Society, by S.D.Goitein, vol I, PP 29 - 36. وينبغي أن نذكر أن هذا الكتاب اعتمد على وثائق الجنيزا، التي تم العثور عليها في كنيس الفسطاط القديم.

بهذا الميدان، والأحسن أن نقف أولاً عند السياسة الضرائبية والمالية في المرحلة المغربية، وسوف يكون الحديث له اللون العام، حيث من الصعب الالتزام بالحديث عن أيام المعز لدين الله تحديداً.

السياسة الضرائبية والمالية:

كان المعز لدين الله يعتقد أن جميع الأراضي في دولته ملكاً له مع مواردها من ماء وسواه ففي أيام أبيه تقاضى إليه رجلان اختلفا حول سقاية أرضيهما، وعندما حاولا عرض قضيتها عليه قال لهما: «اسكتا أكفيكما ونفسي، ثم... قال: أليس هذا الوادي وما يجري فيه من الماء، وما يسقي من الأراضي لنا؟ قال: نعم، قال: وإنما تنازعتما في هذا السقي ليطلب كل واحد منكما به توفير ما يجري لنا على يديه؟ قالا: نعم[1]».

وفق هذه القاعدة سارت السياسة المالية للفاطميين في أيام المعز، وكان هذا الخليفة يتطلع إلى السيطرة على مصر وإلى ادخار الأموال بعد جمعها لهذا المشروع بشتى السبل، يضاف إلى هذا أن عهد المعز شهد ـ كما رأينا ـ حملات عسكرية عملاقة في شتى أنحاء المغرب، ولا شك أن نفقات هذه الحملات كانت كبيرة جداً، مع أنها كانت حملات جباية ومصادرات، يضاف إلى هذا كان لدى دولة المعز اسطولها الخاص بها، ولاشك أن نفقات بناء الأسطول كانت كبيرة.

وكنا لدى الحديث عن توجيه حملة جوهر إلى مصر، قد أتينا على وصف كميات الأموال الهائلة التي وضعت تحت تصرف هذا القائد، ويبدو أن المعز لدين الله شعر بالحاجة إلى مزيد من الأموال ليحملها معه إلى

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٦١ ـ ٦٢.

مصر، حتى أن هذا دعاه إلى محاولة مصادرة أموال المتبقين من كتامة، وبالفعل عندما توجه المعز لدين الله إلى مصر حمل معه من الذهب ما جمع له، وهو «ما لم يسمع بملك جمع مثلها، ورحلها صحبته، وسار في هيبة عظيمة، وعدة وجنود جمه، وجيوش مستعدة، وقد أمر بالدنانير من الذهب فسكت بسبائك، وطبع اسمه عليها، وجعل حمل كل جمل سبيكتين»[1].

وكان الجغرافي الإسماعيلي ابن حوقل قد وصف في كتابه «صورة الأرض» أوضاع بلدان المغرب في أيام المعز لدين الله، وأوضح أن جل مدن الشمال الأفريقي قد عرفت حركة تجارية داخلية وخارجية برية وبحرية نشطة، وفي كل مدينة كان هناك عامل أو أكثر وظيفته جمع الصدقات والخراج والعشور وجبايات أخرى «ما يجب على القوافل المجتازة» وكان لدى العامل «جميع مجاري أمر البلد والنظر فيه، وفيما ورد إليه، وصدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه، واعتبار السجلات والمناشير بمواجب ما على الأمتعة وتصفحها خوف الحيلة».

واعترف ابن حوقل بفرض جبايات جديدة لم تكن من قبل، فقد قال مثلاً: «وكان من صبرة ـ وهي منزل من اطرابلس على يوم ـ وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا، ولم أعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من اطرابلس إلى القيروان، وعلى القادم من القيروان إلى اطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل اطرابلس من كل جمل ومحمل، وحمل، وذلك كالذي بلبدة، وهي أيضاً قرية بينها وبين طرابلس إلى جهة المشرق مرحلتان، من الضريبة على الجمال، والأحمال والمحامل، والبغال، والرقيق، والغنم، والحمير، إلى ما عدا ذلك من الأسباب الواردة»[2].

---

(١) عيون الأخبار ـ السبع السادس ص ١٨٤.

(٢) صورة الأرض ص ٦٩ ـ ٧١.

وواضح من كلام ابن حوقل هذا أن عمال المعز لدين الله كانوا يجبون من المسافرين والتجار ما بين بلدة وأخرى، ثم يزيدون فيجبون من الأسواق، وهذا ما لم يعرفه بلد اسلامي قط ولاشك أن نسبة الجبايات كانت عالية جداً، حيث كان لدى العمال جداول ومناشير رسمية بالتعرفات المتوجب جبايتها. ولاشك أن السياسة المالية الفاطمية أفقرت الشمال الأفريقي وأضرته كثيراً.

ولتأخذ هنا نموذجاً مدنية تيهرت التي تحدثنا من قبل عن ازدهارها، اقتصادياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً، قبل تأسيس الدولة الفاطمية، فقد تحدث عنها ابن حوقل بقوله: «وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم، ودوام القحط، وكثرة القتل والموت»[1].

وذكر ابن حوقل أنه سمع «من زيادة الله أبي نصر بن عبد الله بن القديم في سنة ستين.. وكان صاحب الخراج بافريقية والمغرب». يقول: «دخل المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه عن: خراج، وعشر، وصدقات، ومراع، وجوال، ومراصد، وما يؤخذ عما يرد من بلد الروم والأندلس فيعشر على سواحل البحر، وما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر، ويلزم ما يرد منها من الورق، والمقوم بقيمة العين، والعين المجتبي من هذه الوجوه، فيكون من سبعمائة ألف دينار إلى ثمانمائة ألف دينار»، وبين ابن حوقل أن عامل الخراج لو سمح له لجبى ضعف هذا المبلغ، ومع ذلك شكك ابن حوقل بهذا الرقم ورأى أن الجباية كانت أكبر بكثير، يضاف إلى ذلك «ما يدخل فيه من ارتفاق أصحاب

---

(١) صورة الأرض ص ٩٣.

الأعمال واستئثارهم بما يزيد على القوانين في أيديهم»[1].

ومبلغ الجباية هذا كبير جداً، وينبغي أن نضيف إليه ما كان يصل إلى الإمام الإسماعيلي من أموال الخمس من الإسماعيليين، ذلك أن الدعوة الإسماعيلية أوّلت بعض الآيات القرآنية تأويلاً خاصاً، خالفت به جمهور المسلمين، فقد قالوا بالنسبة لقوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩] بأن أولي الأمر هم الأئمة الإسماعيليين الذين طاعتهم مفروضة في كل جانب، كما تعاطوا بالطريقة التأويلية نفسها مع قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ٦٠]، فمن المعروف أن المسلمين لم يتوقفوا عن دفع أموال الصدقة إلى رجال السلطة منذ قيام الدولة الأموية، ورأى الإسماعيليون وجوب دفعها إلى أئمتهم، لأنهم أولي الأمر، وزادوا فطالبوا بخمس دخل كلّ مسلم على أساس تأويل قوله تعالى: ﴿واعلموا أن ماغنمتم من شيء فان الله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ [الأنفال: ٤١].

فهم قالوا بأن كل ما يكسبه الإنسان هو غنيمة، وقالوا أيضاً أنهم خلفاء الله وورثة النبي (صلع) وهم أيضاً ذوي القربى، وزادوا على ذلك بأن عزوا إلى الإمام جعفر الصادق أنه قال: «أوجب الله تعالى لنا الخمس في أموال عباده المؤمنين، وجعله لنا حق عليهم، فمن منعنا حقنا ونصيبنا في ماله لم يكن له عند الله من حق ولا نصيب»[2].

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٤.

(٢) القاضي النعمان ـ الهمة في اتباع الأئمة ص ٨٠. الجامع في أخبار القرامطة ص ٤٣٣.

وقبل قيـام الخلافـة الفاطميـة كـان الدعـاة مـن الإسـماعيلية يجبـون الخمس من أتباعهم ويرسلونه إلى الإمام، ومثل هذا فعل القرامطة[1]، وكنـا رأينا أن المهدي عندما كان في السلمية كان ثرياً جداً وأنه عندما قدم إلى مصر ثم إلى سجلماسة قدمها بصفة تاجر كثير الأموال.

وبعد قيام الخلافة الفاطمية تابع الدعاة في جزر الدعوة جمع الأموال وإرسالها عيناً أو بضاعة أو أشياء للرفاهية إلى الأئمة، فقد سمع القـاضي النعمان المعز لدين الله يترحم على واحد من الدعـاة بعدمـا مـات لمـا كـان عليه من الصحة والأمانة والولاية، ذلك أنه «كان يشتري لنا فيما يبعث به إلينا مما نأمره ببعثه المسك، فيفرغه على ثوبه ليزنه ويودعه في الوعاء، فتعلق رائحته بثوبه، فيخرج من ماله لتلك الرائحة ثمناً يضعه في يديه من أموالنا، تحرزاً من الخيانة»[2].

وكـان الإسـماعيليون مـن الأثريـاء والفقراء يرسـلون بـالخمس إلـى أمامهم، ولم يتعفف هذا الإمام عن تسلم مال الفقراء بل أثنى على ما كانوا يقومون به، قال القاضي النعمان: «ذكرت للإمام المعز لديـن اللـه (صلـع) أعمال قوم من المؤمنين ذوي إقـلال، غـير معروفيـن، يـأتون بـالقليل مـن المال مواظبين على ذلك دائمين عليه، فقال (ص) والله للقليل الذي يـأتي به هـؤلاء وأمثـالهم مـن كسـب أيديهـم علـى ضيـق معايشـهم وغبـاوتهم لا يريدون بذلك سمعة ولا رياء، ولا يبتغون به نيـل منزلـة مـن منـازل الدنيـا الأزكى عند الله (تع) وعندنا من كثـير ممـا يـأتي بـه أهـل السـعة والغنـى والجدة ممن نعرفه، ونرى أن ما يأتي به نقف عليه ونعلمه لأن القليـل مـن المقل ينقص من معاشه ويخل به، والكثير من أهل الكثـير لا ينقصهـم ولا

(١) زكار ـ الجامع في أخبار القرامطة ص ٤٣٢.

(٢) القاضي النعمان ـ المجالس والمسايرات ص ٩٠.

يخل بهم، كذلك ولا يؤثر في معايشهم، ولذلك قال رسول الله (صلـم): «أفضل الصدقة جهد من مقل»[1].

ورأى المعز لدين الله أن كل مال يكسبه الإنسان هو عطاء من الإمام وتوسعه من فضله لذلك عليه أن يخرج من حق الله إلى الإمام، وأن يبعث به إليه عن طريق الدعاة، ليتصرف به كيف شاء[2].

والمستعرض لأخبار المعز لدين الله، يلاحظ أنه عاش حياة أقرب إلى التقشف، وليس في أخباره أحاديث أعطيات ضخمة لأعوان أو شعراء أو كتاب، مثلما كان الحال في أيام بني أمية وبني العباس وغيرهم كثير، فلقد اهتم بالجباية والجباية فقط، وهذا النهم كاد أن يورطه بمشاكل كثيرة حتى مع زعماء كتامة نفسها، فبعدما جرى إرسال جوهر إلى مصر «بعث [المعز] خفيفا الصقلبي ـ صاحب الستر ـ إلى شيوخ كتامة يقول: يا إخواننا، قد رأينا أن ننفذ رجالا من قبلنا إلى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم، ويحفظونها علينا في بلادهم، فإذا احتجنا إليها أنفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله، فقال بعض شيوخهم لخفيف، وقد بلغهم ذلك: قل لمولانا: والله لافعلنا هذا أبداً، كيف تؤدي كتامة الجزية، ويصير عليها في الديوان ضريبة، وقد أعزها الله قديما بالإسلام، وحديثاً معكم بالإيمان، وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب؟.

فعاد خفيف بذلك إلى المعز، فأمر بإحضار جماعة كتامة، فدخلوا عليه وهو راكب فرسه، فقال: ما هذا الجواب الذي صدر عنكم؟ فقالوا: نعم

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٥١٩.

(٢) المجالس والمسايرات ص ٥٢٠.

هو جواب جماعتنا، ما كنا يا مولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا، فقام [المعز] في ركابه، وقال بارك الله فيكم، فهكذا أريد أن تكونوا، وإنما أردت أن أجربكم، فانظروا كيف أنتم بعدي إذا سرنا عنكم إلى مصر، هل تقبلون هذا أو تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم، والآن سررتموني بار ك الله فيكم».

وواضح من هذه الرواية أن المعز لدين الله كان جاداً في طلب الجباية، لكنه تراجع وتظاهر بما تظاهر به، فهو عندما كان على قصد مغادرة المغرب إلى مصر، أوصى نائبه بلكين بقوله: «إن نسيت ما وصيناك به فلا تنسى ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تولّ أحداً من أخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيراً»[1].

ويبدو أن بلكين نفذ هذه الوصية، فكانت قبائل كتامة أول ضحاياه، فبعدما تحدث ابن حوقل عن تدهور أحوال تيهرت قال: «وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط، وكثرة القتل والموت، وكذلك كتامة في حالها من جهة خليفة أهل المغرب بالمغرب، وهو بلكين يوسف بن زيري، وقد استباح الجميع»[2].

وكنا لدي الحديث عن حفلات الاعذار الجماعي التي أقامها المعز لدين الله قد أشرنا إلى انتشار الفقر بين أوساط أهل المغرب الكبير، كما أشرنا إلى عمل بعض رجالات الدولة الكبار بالتجارة، وضربنا مثلاً بالأستاذ جوذر، ولهذا جمع هذا ثروة هائلة من العين والبضائع، ومرّ بنا أنه أمدّ

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ١ ص ١٠١.

(٢) صورة الأرض ص ٩٣.

المعز لدين الله بالأخشاب من عنده لصناعة سفن الأسطول، وتجهيزها، فضلاً عن هذا عندما جهز المعز لدين الجيوش بقيادة جوهر الصقلبي ليرسلها إلى مصر «واحتاج إلى الإنفاق في ذلك، فاقتضت الاستاذ نفسه وديانته إلى ذكر ما توفر عنده، من حسن نظره، في شيء باعه من الحزائن، واستخرج بقايا الأموال على ما أضاف إلى ذلك من مال نفسه عملاً وتقرباً، وكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار، واثنين وعشرين ألف درهم، بعث بذلك إلى مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه»، وابتهج المعز لدين الله بما بعثه إليه الأستاذ جوذر، فكتب إليه يقول: «يا جوذر وقفنا على ما ذكرته، فاسأل الله أن يهبك من رضاه وحنانه ومغفرته ما يستغرق أملك، وأن يحسن إليك عنا جزاءك، ويكشف ضرك حتى تشاهد معنا حج بيت الله الحرام ظاهراً كما حججته باطناً، وترى في مخازننا من الأموال الحلال. ما يكون لنا في جمعة الأجر عند الله، وخزي لأعدائنا في الدنيا، فما يعبد الناس غير الجماد، والذي يلزمنا من الإخراج فهو والله شيء لو كان من ماء البحر لكان عجباً، ولاموفّر لدينا، بل الكل أعوان على التمزيق والإخراج، وقد تدخلنا فيما لا يمكننا التقصيي عن بلوغ الغاية فيه، فاسأل الله أن يتقبل ذلك منا، ويجعله لوجهه خالصاً»[1].

ولمكانة جوذر ولاسهاماته المالية وغيرها، تمتع بالإعفاء من دفع الضرائب، وهذه حالة نادرة في التاريخ الفاطمي، وفي أيام المعز لدين الله بالذات فقد أهدى أفلح الناشب عامل برقة «إلى الأستاذ جوذر هدية زهاء عشرين بعيراً»، فكتب إلى المعز لدين الله يخبره بذلك، فأعفاه من دفع الضريبة عنها، وزاده بأن جعل رعايتها والنفقة عليها على حساب

---

(١) سيرة جوذر ص ٩٢ ـ ٩٣. عيون الأخبار ـ السبع السادس ص ٣٨.

الدولة[1]، لأن جوذر كان خصياً لاوارث له غير الدولة.

وحالة جوذر هذه كانت بالفعل شاذه، لم يعامل بها سواه، فقد طلب الأستاذ جوذر من المعز لدين الله التساهل مع صقلبي آخر من رجال الدولة اسمه شفيع بشأن إيجار بعض المنازل في تونس فكتب المعز إليه يقول: «اقبل منه ما أعطى فيها، على أنه ينزل لكل سنة واجبها، ولا يترك له مال سنة إلى غيرها، فإن ذلك معنى من الحيل قد انتبهنا له، وأمرنا أصحاب الدواوين أن لايقبلوا من العمال إلا اتصال ما لكل سنة عند لنقضائها، فمن عجز عن الوفاء في أول سنة كان عنه في التي تليها أعجز، وتلافي النظر في الأول أحق من النظر في أدبار الأمور»[2].

وتركزت جهود جوذر على العمل التجاري، ومع هذا امتلك بعض المنازل مع ضيعة، واستغل ذلك، وقد حاول أحد عمال المعز لدين الله واسمه حمزة بن صلوك أن يفرض عليه، أو بالحري أن يحصل منه بعض الضرائب، فكتب جوذر بهذا إلى المعز، فأصدر تعليماته بالتأكيد على إعفاء جوذر وأمر بكتابة منشور له بهذا الاعفاء[3].

أبرز رجالات دولة المعز لدين الله:

ومن الواضح أن جوذر كان من أبرز رجالات الدولة الفاطمية أيام المعز، ويمكن أن نذكر إلى جانبه جوهر القائد من الصقالبة، والقاضي النعمان، ويعقوب بن كلس، وقد وقع الأختيار على هؤلاء من شخصيات الدولة دون سواهم، لأن كل واحد منهم شغل من جانبه دوراً هاماً جداً،

---

(١) سيرة جوذر ص ٩٥.

(٢) سيرة جوذر ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) سيرة جوذر ص ٩٩.

فجوذر من الجانب الإداري في المهدية وسواها، وجوهر من الجانب العسكري في المغرب ومصر والشام، وكان القاضي النعمان لسان الدعوة والدولة وفقيهها وكاتبها وقاضيها، أما يعقوب فقد فهم مكانه المسألة المالية لدى المعز، مع مسألة الدعوة، فأبدع ـ وهو المختص ـ للخلافة والدعوة الإسماعيلية نظاماً إدارياً ودعوياً مكن فيه الخلافة من العيش في مصر لمدة قرنين من الزمان.

واثنان من هؤلاء الأربعة، وهما: جوهر الصقلبي والقاضي النعمان، قد أسسا أسرتين بارزتين، عاشتا ردحاً طويلاً من تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر، وشغلتا أدواراً سياسية وعسكرية وقضائية هامة في حياة الخلافة والخلفاء، هذا وقد تردد ذكر جوذر وجوهر والنعمان مراراً وتكراراً في أرجاء هذه الدراسة، ولتجنب التكرار، سوف نذكر ترجمة كل واحد منهم باختصار، هذا من جانب، ومن جانب آخر سوف نتوسع بالحديث عن يعقوب بن كلس، حتى وإن تداخل ذلك مع الحقبة المصرية حتى يبان دوره ولا يكون هناك انقطاع في استيفاء المهم من أخباره.

القائد جوهر:

سوف يكون من الصعب كثيراً الحديث عن القائد جوهر الصقلبي دون الوقوع بالتكرار، ولعله يكفي القول بأن الرقيق الأبيض قد كثر تداوله في الأندلس وفي المغرب، وكان جل الرقيق البيض من الصقالبة، وكان كثير من الغلمان يتعرضون لعمليات الخصي، للعمل في قصور الحكام ولعدم التحرج بوجودهم بين أوساط الحريم، وبعضهم الآخر كانوا يتعرضون لفنون التدريبات والتعليم، فإذا نجح أحدهم التحق بصفوف أحد الحكام، وقد يتدرج بالمناصب إلى أعلاها كما كان حال جوهر، أما من

فئة الخصيان فلدينا الأستاذ جوذر، ومع تجارة الرقيق من الذكور راجت تجارة الإناث رواجاً عظيماً، لأن المرأة السلافية تمتعت بالجمال والبياض وامتلاء الجسم ورشاقته، وقد قال ابن حوقل: «فأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان الروقة كاللاتي استولدهن بنو العباس وغيرهم، وأكابر رجالهم، وولدن غير سلطان عظيم»[1].

وكان الذي اشترى جوهر واحد من عبيد الدولة الفاطمية اسمه صابر، ثم انتقلت ملكيته إلى خادم آخر اسمه خيران، وبعده إلى ثالث اسمه خفيف «وحمله خفيف إلى الإمام المنصور بالله ع.م، فعلا ذكره معه، وسايره في غزواته وكان كاتبه، وكاتب أمير المؤمنين المعز لدين الله ع.م، ثم انتهى به الحال إلى أن بلغ مع المعز لدين الله، سلام الله عليه، الرتبة الجليلة، والمنزلة السنية، وآخى بينه وبين جوذر، وقرن بينهما لفضلهما، ودينهما، وأمانتهما، ومودتهما للأئمة ع.م، ونصيحتها، وجعل جوهر قائد القواد، وسيره في عساكره، وأمراء جنوده، واستفتح البلاد...»[2].

هذا وترجم المقريزي في كتابه المقفى الكبير لجوهر فقال: «جوهر بن عبد الله، القائد، أبو الحسن الصقلبي الرومي الكاتب، مولى المعز لدين الله أبي تميم معد، ولد سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة، وصار إلى ملك غلام لهم يقال له صابر، ثم انتقل إلى خادم لهم يقال له خيران، ثم إلى خادم يقال له خفيف، فأهداه خفيف إلى الإمام المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل، فحمله إلى ابنه الامام المعز لدين الله وهو صغير، فرباه حتى بلغ مبالغ

---

(١) صورة الأرض ص ٩٥.

(٢) عيون الأخبار ـ السبع السادس ص ٨٣.

الرجال في خدمته، وكناه بأبي الحسن، ورقاه في الخدم إلى أن قام في الخلافة بعد أبيه»[1].

هذا والفوارق بين ضبط الأسماء في نص الداعي ادريس والمقريزي، مرده إلى ضعف محقق كتاب الداعي ادريس وعجزه في كل ما نشره عن ضبط النصوص التي تعامل معها، وبعد هذا التعريف الذي قدمه المقريزي لجوهر، ذكر أدواره العسكرية ومهامه في بلدان المغرب ثم تحدث عن حملة مصر ونجاحه بها، وتأسيسه لمدينة القاهرة، وارساله جعفر بن فلاح إلى الشام، ثم صدامه مع القرامطة، وقدوم المعز لدين الله إلى مصر، ثم بعد وفاة المعز ندبه من قبل الخليفة العزيز لإعادة الاستيلاء على الشام، واخفاقه بشكل مهين، مما دعا إلى عزله واعفائه من مناصبه، وبعد هذا «لم يزل جوهر بالقاهرة إلى أن مات يوم الخميس لاحدى عشرة بقيت، وقيل بل مات لسبع بقين من ذي الحجة سنة احدى وثمانين وثلاثمائة، فبعث العزيز بالله إليه بالحنوط والكفن، وبعث إليه الأمير المنصور بن العزيز، وبعثت إليه السيدة العزيزة أيضاً، فكفن في سبعين ثوباً ما بين مثقل، ووشي مذهب، وصلى عليه العزيز.

وكان له من الولد: حسين، وحسن، وأبو أحمد جعفر، فأما الحسين بن جوهر فإن العزيز خلع عليه وجعله في مرتبة أبيه... وأما حسن فإنه مات بالمغرب، وصلى عليه المعز لدين الله في سنة ستين وثلاثمائة، وأما أبو جعفر فبعثه أبوه من القاهرة إلى المغرب بهديه»[2].

---

(١) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٢١.

(٢) زكار ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٢١ ـ ٣٤٤.

الأستاذ جوذر:

لحسن الحظ أن ذكر هذه الشخصية الهامة قد حفظ لنا من خلال سيرة شخصية له كتبها أحد المقربين منه، وهذه السيرة كتاب وثائقي هام جداً، عرفنا من خلالها أنَّ الأستاذ جوذر كان من العبيد الخصيان الصقالبة، دخل في خدمة الخليفة المهدي، ثم منحه المهدي إلى القائم، فأخلص للقائم اخلاصاً عظيماً ولأسرته، ووقف على جانبها ضد أفراد أسرة المهدي، وفي ظل القائم ظهرت إمكاناته وقدراته وإخلاصه، فأسند إليه مهام إدارية عالية، ووثق به كثيراً، وبرهن جوذر أنه جدير بالثقة، حافظ للأسرار، ولهذا عندما حضرت المنية القائم أوصى ابنه المنصور إسماعيل حيث قال له: «وديعتي عندك جوذر المسكين ولايذل بعدي»[1].

واعتمد المنصور إسماعيل على جوذر كثيراً، وكان وقت استلامه للسلطة عصيباً بحكم استعار أوارثورة، صاحب الأتان - أبي يزيد مخلد بن كيداد، ووصل اعتماد المنصور عليه إلى درجة أننا نشعر من خلال سيرته أنه صار بمثابة «الحاكم العام على البلاد كلها نيابة عن الإمام»، وبعد القضاء على ثورة صاحب الأتان منحه المنصور إسماعيل لقب «مولى أمير المؤمنين»، وأمر باثبات اسمه على الطرز والبسط، وصار يحمل على فرس من مراكب الإمام، كما سمح له بالجلوس الي مائدة المنصور إسماعيل[2].

وبعد انتقال المنصور إسماعيل إلى صبرة المنصورية خارج

---

(١) سيرة جوذر ص ٤٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣.

القيروان، بقي جوذر في المهدية مشرفاً على قصورها، مع صلاحيات واسعة جداً[1].

وإثر وفاة المنصور وتسلم المعز للخلافة ترسخت أكثر مكانة جوذر، ونقرأ في سيرته عدداً كبيراً من المراسلات بين المعز لدين الله وجوذر، وهذه المراسلات هامة جداً ووثائق من الدرجة الأولى، وكنا قد عرضنا لأدوار جوذر في أيام المعز لدين الله، ولدى اتخاذ المعز قراره بالذهاب إلى مصر، طلب منه جوذر، وكان قد تقدمت به السن كثيراً، أن يسمح له باصطحابه، فسمح وسط رعاية خاصة، وقبل الوصول إلى مصر توفي جوذر، وبذلك فقد المعز لدين الله، وفقدت الخلافة الفاطمية واحداً[2] من أركانها.

القاضي النعمان:

يرتبط تاريخ الفكر الإسماعيلي الفاطمي في المرحلة الإفريقية بشخصية القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي، الذي كان من أهل القيروان، وقيل كان في البداية مالكياً ثم التحق بالمذهب الإسماعيلي، وقيل لابل كان شيعياً إمامياً ثم تحوّل إلى الإسماعيلية وعلى هذا الأساس قال عنه ابن العماد الحنبلي لدى ذكره له بين وفيات سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م: «وبها النعمان بن محمد بن منصور القيرواني، القاضي أبو حنيفة الشيعي ظاهراً، الزنديق باطناً، قاضي قضاة الدولة العبيدية... مات بمصر في رجب، وولي بعده ابنه[3]».

وقبل ابن العماد، ذكره ابن خلكان بقوله: «أحد الأئمة الفضلاء،

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٢-١٤٨.

(٣) شذرات الذهب ج٢ ص٤٧.

المشار إليهم وكان مالكي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية»[1]، ومثل ابن خلكان قال عنه ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني: «كان مالكياً، ثم تحول إماميا، وولي القضاء للمعز العبيدي، صاحب مصر، وصنف لهم التصانيف على مذهبهم، وفي تصانيفه ما يدل على انحلاله»[2].

وتعليلاً لتلقبه بابي حنيفة، ولتسميه بالنعمان، وهو اسم ولقب إمام مدرسة أهل العراق الفقهية نجد ابن تغري بردي يقول: «قاضي مملكة المعز، وكان حنفي المذهب، لأن المغرب كان يومذاك غالبه حنفية، إلى أن حمل الناس على مذهب مالك فقط؛ المعز بن باديس[3]».

هذا وتاريخ ميلاد القاضي النعمان غير معروف، وسنحاول استخراجه تقديرا، آخذين بعين التقدير أن الرجل قد عمر، وتوفي عن سن عالية، ثم إنه على الرغم من كثرة الذين ترجموا له وكتبوا عنه[4]، يبقى أفضل مصدر عن حياته في ظل الفاطميين، لاسيما أيام المعز لدين الله، كتابه المجالس والمسايرات:

فقد ذكر القاضي النعمان أنه دخل أوّل ما دخل في خدمة الخلفاء الفاطميين، كان في أيام المهدي المتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م حيث قال: «وخدمت المهدي بالله من أواخر عمره تسع سنين وشهوراً وأياماً»[5]. وعلى هذا دخل في خدمة المهدي في سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م، ونفترض أن سنة كان آنذاك في حدود العشرين، فعلى هذا كان تاريخ ولادته سنة

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص٤١٥.

(٢) لسان الميزان ج٦ ص١٦٧.

(٣) النجوم الزاهرة ج٤ ص١٠٦.

(٤) أصدرت دار الكتب الوطنية في تونس سنة١٩٧٥ كتيباً فيه أسماء ما كتب عن القاضي النعمان.

(٥) المجالس والمسايرات ص٦٩.

٢٩٢هـ/٩٠٥م، أو لنقل: ولد القاضي النعمان في العشر الأخير من سنوات القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وبعد وفاة المهدي تابع القاضي النعمان عمله في ظل الخليفة القائم بأمر الله أبي القاسم محمد المتوفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، وقال واصفاً عمله لدى كل من المهدي و«القائم بأمر الله من بعده (ﷺ) أيام حياته في إنهاء أخبار الحضرة إليهما في كل يوم طوال تلك المدة إلاّ أقل الأيام، وكان لهما صلوات الله عليهما من النعم والفضل عليّ في ذلك ما لا أحصيه عدداً»[١].

وليس من الواضح تماماً مقصده «بالحضرة»، لكن ذكر النعمان أنه في أيام المهدي ثم القائم كان يورق لابنه المنصور إسماعيل حيث قال: «وكانت خدمتي إياه في جمع الكتب له وانتساخها فلما قبض القائم صلوات الله عليه استقضاني قبل أن يُظهر أمره، وكنت أول من استقضاه من قضاته وأعلى ذكري»[٢].

وعلى هذا تسلم النعمان أعمال القضاء في الخلافة الفاطمية منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، وفي أيام المنصور إسماعيل نفسه استقضاه على مدينة طرابلس، ولاندري كم من المدة أمضى في طرابلس، إنما من المعروف أن المنصور إسماعيل ترك المهدية، وابتنى نفسه صبرة المنصورية خارج القيروان، وكان ذلك سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م، ولدى سكناه في المقر الجديد أصدر أمره إلى النعمان للقدوم من طرابلس، وتحدث النعمان عن قدومه إلى المنصورية بقوله: «فلما أشرفت على المنصورية واجهت المعز لدين الله صلوات الله عليه خارجاً لبعض ما كان يخرج إليه في موكب ضخم»، وسلم النعمان على المعز وقبل يده بعد تقبيل الأرض

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٩.

(٢) المصدر نفسه ص٨٠-٨١.

بين يديه، فخاطبه المعز بقوله: «قدمت خير مقدم، وبارك الله فيك، وجزاك خيراً عن نفسك، فقد انتهى إلينا خبرك، سر راشداً إلى باب أمير المؤمنين»، وعندما مثل بحضرة المنصور إسماعيل رحب به بحرارة[1]، وخلع عليه، وأمره ـ وكان اليوم يوم جمعة ـ «بالسير من يومي إلى المسجد الجامع بالقيروان، وإقامة صلاة الجمعة فيه والخطبة، إذا لم يكن يومئذ بالمنصورية جامع، وأمر بجماعة من خاصة بوابي القصر الأعظم بالمشي، بين يدي بالسلاح إلى أن صليت فانصرفت.

ثم خرج توقيعه من غد إلى ديوان الرسائل بأن يكتب لي عهد بالقضاء بمدن: المنصورية، والمهدية، والقيروان، وسائر مدن إفريقية وأعمالها»[2].

وفي أيام المنصور إسماعيل قويت علاقة النعمان بالمعز لدين الله وتمتنت كثيراً، مما مهد لدوره العظيم أيام هذا الخليفة، وقال القاضي متحدثاً عن علاقته بالمعز لدين الله أيام المنصور إسماعيل: «وكان اعتمادي أيام المنصور بالله (صع) فيما أحاوله عنده وأرفعه إليه، وأطالعه فيه، على المعز لدين الله (صع) فما أردته من ذلك بدأته به، ورفعته إليه، وسألته حسن رأيه فيه، فما أمرني أن أفعله من ذلك، فعلته، وما كرهه لي، تركته، فكان لي في ذلك رفد عظيم، وفرح كبير، ولم أكن أعمل على رأيه إلاّ ظهرت لي بركته والسعادة فيه، ولم ينهني عن شيء فتركته، إلاّ تبين لي بعد ذلك عيبه[3]».

وارتقت مكانة القاضي كثيراً بعد ما تسلم المعز لدين الله الخلافة:

---

(1) المجالس والمسايرات ص ٥١ ـ ٥٢.

(2) المصدر نفسه ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(3) المصدر نفسه ص ٣٥١.

«وازداد في أوان المعز لدين الله ع.م سمواً وعلواً، وقرباً منه، ودنواً، وجعله ع.م: قاضي القضاة، وأضاف إليه الدعوة، مأسماه في مراتب الدعاة إلى أسمى ذروة، وجعل إليه إزالة المظالم وأمضى حكمه على قول كل حاكم، وأمره بقراءة ما كتبه الأئمة من آبائه، ونشر علومهم على أتباعه وأوليائه، وأن يرتبهم على مراتبهم، ويوليهم من منن ولي الله بحسب علومهم، وما هو واجبهم»[1].

وارتبط سجل حياة وأعمال القاضي النعمان في أيام المعز لدين الله بإمامه، ومن خلال ما كتبه القاضي في المجالس والمسايرات أمكن الوصول إلى تصور وثائقي لعصر المعز لدين الله ولما حدث في أيامه، هذا وصنف النعمان كثيراً من الكتب الهامة جداً، وكتبه يمكن تصنيفها إلى نوعين: صنف في تاريخ الدعوة الإسماعيلية والخلافة الفاطمية، وقسم أوسع في بنيان الدعوة وفقهها وعقائدها ظاهراً وباطناً، وهو «إنما ألف ما ألف، وجمع ما جمع، وصنف مما أخذه عن أئمته الذين عاصرهم، مما ألقاه إليهم آباؤهم الطاهرون، صلوات الله عليهم أجمعين، ولم يؤلف تأليفاً ولاجمع كتاباً حتى عرضه عليهم شيئاً فشيئاً، فأثبتوا الثابت منه والصحيح، وقوموا الأود بالتصحيح، ومن بحرهم اغترف، وبهم عرف ما عرف، وبفضلهم فيما ألف وصنف اعترف»[2].

وذكر القاضي النعمان أنه ألف: مائتين وعشرين كتاباً، وصل إلينا جلها وأهمها[3]، وقد نشر معظم ما وصلنا من كتبه، وقبل الحديث عن المهم بالنسبة لنا من كتبه علينا أن نذكر أن النعمان نظم بعض مؤلفاته

---

(١) عيون الأخبار ـ السفر السادس ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) عيون الأخبار ـ السفر السادس ص ٤١ ـ ٤٢.

(٣) عيون الأخبار ـ السفر السادس ص ٤٢ ـ ٤٩.

رجزاً، مثلما فعل بالأرجوزة المختارة التي حوت عرضاً لتسلسل الأئمة واحداً إثر آخر حتى المهدي وتأسيس الخلافة الفاطمية.

ويأتي على رأس كتبه التاريخية كتاب «رسالة افتتاح الدعوة وانشاء الدولة»، وقد أرخ فيه من وجهة نظر رسمية للدعوة الإسماعيلية حتى أيام المهدي، وعلى الرغم من رسميته هو مصدر هام جداً لايمكن لأي باحث في التاريخ الإسلامي الاستغناء عنه[1].

هذا بالنسبة لتاريخ الحركة الإسماعيلية حتى تأسيس الخلافة الفاطمية، أما بالنسبة للمرحلة الإفريقية بشكل عام وأيام المعز بشكل خاص، فأهم مصدر على الاطلاق هو المجالس والمسايرات، ويبدو أن المؤلف جعله في جزأين، غير أنه نشر في مجلد واحد[2]، وحكى النعمان ملابسات تصنيفه لهذا الكتاب ودوافعه، مما يبين أهميته الوثائقية حيث قال: «ولقد كنت جمعت عن المهدى بالله، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله، صلوات الله عليهم ورحمته وبركاته، وفيهم وفي فضائلهم، من الكتب ما يطول ذكرها، وألفت سيرة المعز لدين الله صلوات الله عليه، من الوقت الذي أفضى الله عز وجل بأمر الإمامة إليه إلى اليوم، وأنا دائب في ذلك إلى أن ينقضي عمري، إن شاء الله تعالى، ويصلها من بعدي من عقبي، وأعقابهم بتوفيق الله إياهم، بطول بقاء وليه، ودوام عزه وسلطانه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

ثم رأيت وجوهاً من الحكم والعلم والآداب والمعرفة تنفجر من منطقة، وتندفع من ألفاظه، وتشير عن رمزه وإشارته، ولا تجري مجرى السير التي

---

(١) نشر أولاً في بيروت بتحقيق وداد القاضي سنة ١٩٧٠ ثم في تونس سنة ١٩٧٥ بعناية فرحات الدشراوي.
(٢) نشر محققا في تونس سنة ١٩٧٨.

صنفتها، ولا تدخل في أبوابها التي ألفتها، على ما في تلك السير من الحكمة والعلم والمعجزات والبراهين والدلائل والآيات، فرأيت إفراد هذه في كتب تشبهها، وتليق بها، وأن أفرد السير في كتابها مع ما شاكلها وكان من معناها، وأن أذكر في هذا الكتاب ما سمعته من المعز صلوات الله عليه من حكمة وفائدة وعلم ومعرفة، عن مذاكرة في مجلس، أو مقام أو مسايرة، وما تأدى إليّ من ذلك عن بلاغ أو توقيع أو مكاتبة، على تأدية المعنى دون اللفظ حقيقة بلا زيادة ولا نقص، بعد بسط العذر في التخلف عن تأدية حقيقة لفظة بحسبه، إذ هو الجوهر الذي لا يتعاطى البشر صنعته»[1].

وأرخ القاضي النعمان للتشيع بشكل عام حتى أيام الامام السادس جعفر بن محمد بكتاب نشر في ثلاثة أجزاء[2] بعنوان: «شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار». هذا وأهم كتب النعمان الفقهية هو كتاب «دعائم الإسلام»، صنفه باسلوب جيد في الفقه الإسماعيلي، وجعله في سبعة دعائم هي: الولاية، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، وهو بذلك ألغى من أركان الإسلام: الشهادة، وأضاف: الولاية، والطهارة، والجهاد، ثم ألف لهذا الكتاب الظاهري الشكل تأويلاً، وأتبع التأويل بتأويل آخر للتأويل[3]، وما دمنا بصدد التأويل، إن أهم كتاب في هذا الباب هو الرسالة المذهبة في الحكمة والتأويل»، التي نشرنا بعضها للمرة الأولى في ملاحق دراستنا هذه، وما نشره عارف تامر سنة ١٩٥٦ باسم الرسالة المذهبية ضمن خمس رسائل إسماعيلية، عمل آخر، ليس له الأهمية ذاتها.

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) نشر بقم في ايران سنة ١٤٠٩ هـ.ق.

(٣) نشر في القاهرة من قبل دار المعارف.

وفي الحقيقة في كل واحد من كتب القاضي النعمان ما يفيد الباحث في التاريخ الإسماعيلي والفاطمي، والتعمق فيها يحتاج إلى أكثر من مؤلف، ولعله يكفي ونحن نختم حديثنا عن القاضي النعمان ومؤلفاته العقائدية، أن ننوه بأهمية كتابه «الهمة في آداب أتباع الأئمة». وعنوانه يدلل على محتوياته[1].

يعقوب بن كلس:

شغل اليهود أدواراً هامة في الحياة الاقتصادية والإدارية المالية لبعض الدول الإسلامية، وكانت أدوار أهل الذمة من يهود ونصارى هي الحاسمة والأساسية في حياة الخلافة الفاطمية في مصر من النواحي الادارية المالية مع شغل منصب الوزارة، الذي استحدث للمرة الأولى في مصر، وشغله واحد من أصل يهوديٍ أعلن عن دخوله في الإسلام لكن قيل بأنه حافظ على يهوديته وظل مبطنا لها.

واسم هذا اليهودي: أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كِلّس، ترجم له علي بن منجب الصيرفي المصري الذي تولى ديوان الإنشاء على عهد الآمر بأحكام الله من سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م حتى سنة ٥٣٦هـ/١٤٤١م بعد الآمر فقال: «كان يهودياً كاتباً صائناً لنفسه، محافظاً على دينه، جميل المعاملة مع التجار فيما يتولاه، واتصل بخدمة كافور الأخشيدي، فحمد خدمته ورد إليه زمام ديوانه بالشام ومصر فضبطه على حسب إرادته.. أظهر إسلامه وبلغ خبره إلى كافور» فخلع عليه خلعة الوزاره «وسار إلى الغرب، وخدم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلى الله عليه، وخص

(١) طبعه محققاً محمد كامل حسين في القاهرة.

بخدمته، وتولى أموره»[1].

هذا من جانب، وترجم له من جانب آخر ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال: «كان يهوديا من أهل بغداد خبيثا، ذا مكر ودهاء، وفيه فطنة وذكاء، وكان في قديم أمره خرج إلى الشام، فنزل الرملة، وصار بها وكيلاً، وكسر أموال التجار، وهرب إلى مصر، فرأى منه كافور الأخشيدي فطنة وسياسة، ومعرفة بأمر الضياع بمصر، فقال: لو كان مسلما يصلح أن يكون وزيراً.

وطمع في الوزارة فأسلم يوم جمعة في جامع مصر، فلما عرف الوزير ابن حنزابة (جعفر بن الفضل ابن الفرات) أمره، قصده، فهرب إلى المغرب، واتصل بيهود كانوا مع الملقب بالمعز، فلما هلك الملقب بالمعز وقام ابنه الملقب بالعزيز استوزر ابن كلس في سنة خمس وستين وثلاثمائة، فلم يزل مدبراً أمره إلى أن هلك في ذي الحجة سنة ثمانين وثلاثمائة»[2].

كما ترجم ابن خلكان له في كتابه وفيات الأعيان[3] حيث جمع بين ما أورده ابن الصيرفي وابن عساكر، هذا وهناك مواد مباشرة وغير مباشرة حوله في وثائق الجنيزا، كما اتى الداعي إدريس القرشي على ذكره في السبع السادي من عيون الأخبار[4] وفنون الآثار، فكان مما قاله حوله: «وكان هذا الوزير يعقوب في ابتداء أمره، على ما ذكره الرواة، من أهل ملة موسى ودين اليهودية، وهو من أولاد هرون بن عمران، ثم أسلم

---

(١) الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٩٢ ـ ٩٤.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٥٣.

(٣) وفيات الأعيال ج٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٤) عيون الأخبار ج٦ ص ٢٢٨ ـ ٢٤٢.

أيام كافور الأخشيدي، فحسن إسلامه، وكان ذا فطنة وذكيا، وكان له تفنن في علم التوراة وغيرها من العلوم.. ثم هاجر إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله ع.م إلى أرض المغرب، ولم يزل يسمو صعدا، ويزدلف علوا مع أولياء الله أهل الهدى، وعاد مع المعز لدين الله ع.م حين قدومة إلى مصر، فارتفع عنده في الفضل والقدر، حتى جعل المعز لدين الله ع.م له النظر في الوزارة مع عسلوج ابن الحسن في بقية أيام المعز لدين الله ع.م... وجعل المعز لدين الله ع.م أيضاً إلى هذا الوزير يعقوب بن يوسف النظر في الأموال، والافتقاد لها والانتقاد»[1].

وقال الداعي إدريس في مكان آخر بعد ايراده لقصيدة نظمها تميم بن المعز لدين الله مدح فيها ابن كلس وأشاد به في أكثر من بيت منها: «وكان يعقوب الوزير عند إمامه مقرباً مكرماً معززاً مقدماً، ولم أخلاق سنية وسيرة صالحة، وأعمال رضية، وحسن سياسة وعدل، ومكارم ظاهرة، وفضل وعلو همة، مقتفياً في فعله لآثار الأئمة، متأدباً بآدابهم، مجهداً نفسه في سلوك منهجهم، واقتفاء آثارهم، محباً للعلم، مؤثراً لأهله، مقدماً لهم في قوله وفعله»[2].

وزادنا الداعي إدريس معرفة بيعقوب وأدواره الجديد في حياة الخلافة الفاطمية عقائدياً أيضاً: «وللوزير يعقوب مصنف في الفقه يسمى «مصنف الوزير» ابتدأ فيه بذكر الطهارة ثم الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، وسائر أبواب الفقه، الواجبات على مذهب الأئمة من آل رسول الله عليهم أفضل السلام، وأسنى الصلاة، اقتفى فيه فعل القاضي النعمان»[3].

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

(٢) عيون الأخبار ج٦ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٢.

وذكر حتى الآن الداعي إدريس الدورين المالي والعقائدي ليعقوب بن كلس، ثم زاد فقال: «وعمل الوزير يعقوب بن يوسف على شراء العبيد الأتراك والسودان، وأسكنهم خلف دار الوزارة. ويسمى به الموضع الذي أسكنهم فيه حافة الوزارة، وأضاف إليهم كثيراً من العسكرية، وقال: إن تغيرت الكتامية فمن ذا الذي يكسر شوكتهم، ويفل حدهم؟»[1].

وفي الحقيقة إن كثرة المواد الاخبارية حول هذه الشخصية، مع ما حملته مواد الجنيزا من إشارات واضحة إلى احتفاظه بيهوديته، تستحق أن تكون موضوع بحث خاص، ويعجب الإنسان كيف تمكن هذا اليهودي المتفنن «في علم التوراة» خلال وقت قياسي قصير أن يصير الفقيه المعتمد للعقيدة الإسماعيلية؟!

ويجد الباحث جواباً لهذا السؤال في التركيبة التي نشأ عليها اليهود في العصور الوسطى في أوربا، وأيضاً في التاريخ الإسلامي منذ استيلاء الفاطميين على مصر حتى نهاية حكم الأسرة الإيلخانية المغولية في تبريز[2].

ومما لا شك فيه أننا نواجه في يعقوب بن كلس واحداً من الشخصيات الاستثنائية، فبعد ما ولد في وسط يهودي ونشأ فيه، برهن وهو يهودي عن إمكانات بالتلون والانتهازية غير عادية، أوصلته أخيراً إلى إعادة تأسيس الخلافة الفاطمية في مصر إدارياً، ومالياً وعسكرياً ودعوياً عقائدياً.

فهو قد ولد من أبوين يهوديين في بغداد سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م[3]، وبعدما تعلم في بغداد وتدرب غادر العراق برفقة والده حيث استقر

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤١.

(٢) انظر بابوات من الحي اليهودي ليواكيم برنز ـ ط. دمشق ١٩٨٣. يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية لوترفيشل ـ ط. بيروت ١٩٨٨.

(٣) ابن خلكان ج٢ ص ٤٤٣.

بالرملة، وهناك ربما شرع يعقوب بالعمل للمرة الأولى في حياته، ويرجح أنه شغل نفسه في السمسرة والوكالة للتجارة، وأن الحظ خانه فعجز عن الوفاء بالتزاماته، فهرب من الرملة إلى مصر الإخشيدية في ظل كافور، ولكي يأمن على نفسه ويحول دون الملاحقة القانونية له كتب «إلى كافور رقعة فيها: إن بالرملة عشرين ألف دينار مدفونة في موضع أعرفه، وأنا أخرج أحملها، فأجابه إلى ذلك، وأنفذ معه البغال لحملها، وورد الخبر بموت بكير بن هرون التاجر، فجعل إليه النزر في تركته، واتفق موت يهودي بالفرما ومعه أحمال كتان، فأخذها وفتحها فوجد فيها عشرين ألف دينار، فباع الكتان، وحمل الجميع وسار إلى الرملة، فحفر الدار، وأخرج المال وهو عشرون ألف دينار، ووجد ثلاثين ألف دينار.

فازداد محله في قلبه، وتصوره بالثقة، ونظر في تركه ابن هرون، واستقصى وحمل منها مالاً كثيراً، ثم وافى وقد زاد حاله عنده فأرسل إليه صلة كبيرة، فأخذ منها ألف درهم، وردّ الباقي، وقال كفايتي، فزاد أمره عنده حتى أنه كان يشاوره في أكثر أموره، وكلما رفع إليه حساب، أمر بدفعه إليه يتأمله»[1].

ونتيجة لوضعه الجديد لدى كافور لم يعد هناك من يخشى يعقوب منه من بين التجار، وأهم من هذا كله حصل على تصور كامل بالوضع الاقتصادي والضرائبي لمصر، ويرجح أنه قام بزيارات إلى المناطق المصرية والأرياف فعرفها عن قرب، فصار بذلك الخبير الأول بأحوال مصر، مما كان له الأثر الحاسم على نجاح جوهر في مهامه التأسيسية، وبعد ذلك في سرعة تمكن المعز لدين الله من توطيد أركان حكم أسرته

---

(١) الاشارة إلى من نال الوزارة: ص ٩٣ ـ ٩٤. وفيات الأعيان ج٢ ص ٤٤٢.

الغربية من جميع الجوانب، في مصر.

وقبل الاستطراد أكثر لنبق معه في ظل كافور، فقد علا شأنه كثيراً لدى كافور، وعرف أن حاكم مصر يريد أن يستوزره حيث قال: «أي وزير بين جنبيه»، وتاقت نفس ابن كلس إلى السلطان «وتطلعت للوزارة»، لذلك بادر «فنزل الجامع وصلى الغداة جماعة» وكان ذلك في سنة ٣٥٠هـ/٩٦٢م «وبلغ خبره إلى كافور فسره ذلك، وعاد من الجامع إلى دار كافور فخلع عليه غلاله، ومبطنه ودراعة وعمامة»، وجعله وزيراً[١].

وعلى الرغم من نجاح هذه المسرحية، فإن ابن كلس كسب عداوة الوزير ابن الفرات، الذي كان يتطلع إلى الوزارة، ومات كافور، وتمكن ابن الفرات من السلطة، وكان مدعوماً من الجند ومن رجال الإدارة، لذلك هرب ابن كلس، والتحق بالمعز لدين الله ليزوده بكل ما احتاج إليه من معلومات عن مصر، مما ساعد على نجاح حملة جوهر، والاستيلاء على الفسطاط[٢] وبناء القاهرة. ويرجح أن ابن كلس بقي في المغرب خمس سنوات، ومع أنه «عندما أصبح يعيش في ظل الحكم الفاطمي، لم يكن لعقيدته أدنى مشكلة، ذلك أنه من المشهور تسامح الفاطميين مع أهل الذمة، الأمر الذي مكن عدداً من اليهود من شغل أعلى المناصب في الدولة»[٣]، مع هذا لم يكن بإمكان يعقوب بن كلس إعلان عودته إلى اليهودية، فذلك يجعله مرتداً عن الإسلام، ويضيع عليه فرصة، لهذا احتفظ بعقيدته المعلنة، وغامر

(١) الاشارة إلى من نال الوزارة: ص ٩٤ ـ ٩٥. فيشل ص ٧٥ ـ ٧٧. ابن خلكان ج٢ ص ٤٤١ ـ ٤٤٢. ابن تغري بردى ـ النجوم الزاهرة ج٢ ص ٤٥. أهل الذمة في مصر لسلام شافعي محمود. ط.القاهرة ١٩٩٥ ص ٤٣ ـ ٤٥. الوزارة والوزارة في العصر الفاطمي ـ ط. القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٥ ـ ٣٧ ـ ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) الاشارة إلى من نال الوزارة: ص ٩٢. فيشل ص ٧٦ ـ ٧٨. ابن تغري بردي ج ص ٢٩٦.

(٣) فيشل ص ٧٨ ـ ٧٩. أهل الذمة في مصر ص ٢٧ ـ ٣٥.

بالدخول إلى الإسماعيلية فتعرف إليها ظاهراً وباطناً، وساعد المعز لدين الله على اتخاذ قراره الحاسم بإرسال حملته بقيادة جوهر إلى مصر[1].

وجاء ابن كلس مع المعز لدين الله إلى مصر، بعد غياب خمس سنوات، فعهد إليه المعز لدين الله بترتيب الإدارة المالية لمصر، وأعاد النظر بما كان جوهر الصقلبي قد اتخذه من إجراءات، فقد ألغى يعقوب بن كلس التعامل بالنقود العباسية، وضرب الدينار المغربي، وتعاون الصرافون اليهود في مصر معه، ونجم عن الإجراء الذي اتخذه خسائر كبيرة لعامة الناس، ولكن جاء ذلك لصالح الدولة وخزانتها، فقد كان المعز لدين الله قد انفق كثيراً من الأموال على حملة مصر، وكان يتوقع أن يجد خزائن سلطات مصر مليئة، فوجدها فارغة، كما أن نفقات الاستيلاء على بلاد الشام والحروب ضد القرامطة كانت كبيرة جداً، وعلى العموم تمكن المعز لدين الله بوساطة يعقوب بن كلس من ملء بيت ماله[2].

ولن نستطرد أكثر في الحديث عن يعقوب بن كلس في مصر بعد وفاة المعز لدين الله، ويكفي أن ننقل عن الداعي إدريس، أنه صار في أيام العزيز بن المعز لدين الله: «سيد الوزراء، ورأس العلماء، وحكيم الحكماء»، وقد خدم العزيز مدة اثنتي عشرة سنة أي حتى تاريخ وفاته سنة ٣٨٠هـ/٩٩١م، وكان ابن كلس قد استعان بإدارته في مصر والشام بموظفين يهود، حتى أن الطابع اليهودي ظل مسيطراً على الحياة الإدارية والمالية للخلافة الفاطمية مما دفع واحداً من الشعراء المصريين إلى القول:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا

---

(١) ابن تغري بردي ج٢ ص ٣٩٦. فيشل ص ٧٩.

(٢) عيون الأخبار ج٦ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١. فيشل ص ٨١ ـ ٨٣.

العـز فيهـم والمـال عندهـم ومنهـم المستشـار والملـك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهـودوا قـد تهـود الفلـك[1]

وقد ورد في تاريخ يهودي اسم مصنفه أحمأز بن بلطيل ذكر حاخام يهودي اسمه بلطيل بن شفاطيا، كان مقرباً من المعز لدين الله وحائزاً على ثقته، واتفق الباحثون الذين تعرضوا للبحث في مواد تاريخ أحمأز بن بلطيل، على أن شخصية الحاخام بلطيل بن شفاطيا شخصية تاريخية عرفت بالمصادر العربية باسم آخر، ونحن في البحث عن شخصية يهودية كانت مقربة من المعز لدين الله لانجد غير شخصية يعقوب بن كلس، وقد دعم هذا وثيقة يهودية جرى نشرها من قبل يهودي اسمه ماركس، أشارت «عرضا إلى ابن لبلطيل اسمه يعقوب» مما دفع ماركس نفسه إلى القول: «إنني أرى بلا تردد أن يعقوب بن بلطيل هو الوزير يعقوب بن كلس..».

ونظراً للمسحة شبه الاسطورية المسيطرة على تاريخ «أحمأز بن بلطيل»، واعتماداً على بعض الإشارات التي جاءت في وثائق الجنيزا إلى ابن كلس تحت اسم «الأخ يعقوب»، ولأنه لا فرق إن كان اسمه غير العربي بلطيل أو يعقوب بن بلطيل[2]، الذي يعنينا حمله للقب حاخام، فهل يا ترى حافظ يعقوب بن كلس على يهوديته طوال عمله في ظل كافور ثم في ظل المعز لدين الله ومن بعده ابنه العزيز، وهو متظاهر بالإسلام؟ هذا ما يزيد في تعزيزه أن ابن كلس لم يغير اسمه ولا كنيته بعدما أعلن عن دخوله بالإسلام، وهي قاعدة اتبعت فيما مضى وما زالت متبعة حتى يوم الناس هذا! يضاف إلي هذا تذكرنا ما قيل عن أنه كان من أبناء هرون، وأبناء هرون كانوا دوماً رجالات الدين (الحاخامات) لدى اليهود.

---

(١) المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر. ط. المعهد الفرنسي بالقاهرة ص ٥. فيشل ص ٨٨ ـ ٩٤. أهل الذمة في مصر ص ٤٦ ـ ٥٩.

(٢) فيشل ص ٩٠ ـ ٩٨.

الخـــاتمة

الخاتمة

كانت الدعوة الاسماعيلية دعوة عقائدية ذات برامج سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية، وقد تمحور العمل فيها حول شخصة الامام، الذي كان شخصية دينية مقدسة، والامام وحده امتلك حق تفسير الشريعة وتقريرها، وكان لكل امام دوره المرسوم وتكاليفه، ترجم عنه اللقب الذي حمله، والإمام هو المثل الأعلى والرمز، ومن خلال هذا الوضع تعاملنا مع عهد المعز لدين الله، ومن خلال اللقب الذي حمله ومدى التطابق بين اللقب والواقع أو لنقل بين النظرية والتطبيق يمكن أن نبني خاتمة بحثنا الذي تقدم.

والمعز لدين الله هو رابع خلفاء الدولة الفاطمية في المغرب، وهو أولهم في مصر، وحمل الخلفاء الذين تقدموه ألقاب: المهدي، والقائم، والمنصور، وقد حكموا لمدة أربع وأربعين سنة، أما هو فحكم لمدة أربع وعشرين سنة، والمهدي هو الشخصية الأسمى عند الشيعة بشكل عام، وهو عند الاسماعيلية الذي «يهدي إلى الأمر الخفي، وهو القائم بالحق،

عند حلول الوقت، بعد انقضاء عهد غيبة الأئمة، بعد استبداد أهل الظلم والعسف والجور بمقاليد الأمور، وهو حين يخرج، يخرج مغضباً تؤيده ملائكة الرحمن، وتسير أمامه، وتواكبه أينما تحرك، على رأسها جبريل، على فرس أبلق بسرج من نور، وعليه سرج من ذهب، وعلى جبرائيل تجافيف من نور، ومغفر من حديد، وبيده حربة من نور، وهو واقف على العقبة، في سنان الحربة النصر، وفي وسطها الرعب، وفي زجها الظفر» ولذلك «لا تتوالى للمهدي راية إلى بلد إلاّ قدمه الرعب بين يديه مسيرة شهر، ولا يهدي بالدلالة أهل بلد إلاّ وهداهم الله، ومن أبى ذلك رماهم الله بحجارة الكبريت حتى يردهم أجمعين إلى هداه، يستسلمون بأجمعهم إليه، ويكسر الصليب، ويهدم البيع، ويقتل الخنزير، وتنقضي دعوة الشرك، وتظهر دعوة الفرج، وتقوم الدعوة بالدين لله خالصاً، وأنئذ يشرب الثور والسبع من حوض واحد، ويخلف الراعي الذئب على غنمه»[1].

وطبعاً لم يحقق المهدي الفاطمي أياً من هذه الوعود، ففي أيامه لم تنقض دعوة الشرك، بل ظهرت دعوة للشرك جديدة تصدى لها فقهاء المالكية وسواهم، ولم يكن هناك فرج بالمغرب الكبير بل كانت هناك محن ومعاناة، ولم تكن الدعوة بالدين لله خالصة، بل للإمام ولأفكار دخيلة على الإسلام، ولم يشرب الثور والسبع في حوض واحد، بل حاول السبع ـ وهو الآن أداة الجباية الفاطمية ـ أن يأكل الثور وأصحاب الثور، وطبعاً خلف الذئب الراعي على غنمه وتمثل الذئب الآن بالجابي الفاطمي والجندي المصادر لأرزاق الناس.

ومعروف أن كل إمام من أئمة الاسماعيلية كان مهدي زمانه، إنما مع تخصص اقتضته مرحلة حكمه، فبعد وفاة أول خلفاء الفاطميين، خلفه القائم

---

(١) الكشف لمنصور اليمن ص ٤٨ ـ ٤٩.

محمد، الذي لم يتمكن من إعلان أية نوع من أنواع القيامة، لانشغاله بثورة أبي يزيد ـ مخلد بن كيداد، وبعد القائم حمل الامام بعده لقب المنصور، لأنه حقق النصر على أبي يزيد مخلد بن كيداد، وخصوم الدولة الآخرين، وبعد المنصور جاء دور المعز لدين الله، فهل يا ترى أعز دين الله؟.

وقد يقول قائل: ما لنا ولهذا؟ المطلوب منا محصلة التأريخ لعهد المعز لدين الله، وليس اصدار الأحكام عليه، لأن اصدار الأحكام تعني خروج المؤرخ عن حياديته، وفي الحقيقة نحن هنا لا نستهدف مطلقا اصدار حكم ما علي المعز لدين الله، وكل ما نريده هو الوصول إلي أقرب النقاط من حقيقة ما حصل، وحين قلنا: فهل يا ترى أعز دين الله؟ أردنا تسجيل الحقيقة، لأننا نتعامل مع خليفة عقائدي جاء ليطبق برنامجا عقائديا، ولتحقيق غاية حملها لقبه وهي إعزاز دين الله.

فالذي شهدناه من خلال الدراسة أن الخلافة الفاطمية كانت أعظم دولة شيعية في التاريخ الاسلامي، وقد بلغت هذه الدولة الأوج في أيام المعز لدين الله، فهي قد حققت استقلال بلدان المغرب الكبير، وحققت بالوقت نفسه وحدته، وحاولت ادخال عناصر سياسية وعقائدية جديدة وبالتالي ادارية إلى بلدان المغرب، وقد اعتمدت على قوة مجموعة قبلية أساسية واحدة هي كتامة، لكن لم تعهد بالقيادات العليا للكتاميين بل للعبيد الصقالبة، وهنا بات الكتاميون أشبه بالمرتزقة الذين يقودهم قائد له أغراضه وأهدافه، ولكي لا يظهر التناقض بين أغراضة وأهدافه وطبائع وحاجات ومصالح كتامة، أغدق على الكتاميين المال، وغلف أهدافه وأغراضه بغلاف عقائدي وقداسة لا تقبل الجدل، لأن الإمام معصوم ومقدس وهو مصدر تأويل الشريعة وتفسيرها.

وأخفق المعز لدين الله ومن تقدمه ـ على الرغم من القداسة والعصمة ـ

وبعد مضي قرابة السبعة عقود من الزمن، وجد أن لابقاء له في المغرب الكبير، وأن عليه الرحيل، وهذا ما حدث، فهل هي يا ترى فقط ارتبطت القضية بالعمران البشري والطبائع الموروثة، أي أن بلدان المغرب الكبير حددت هويتها وربطتها بالاسلام السني الذي مثلته مدرسة أهل المدينة، أم أن المسألة تعدت ذلك؟ لقد استخدم المعز لدين الله مثل الذين تقدموه من أهل بيته السيف وصندوق الجباية، ولم نقرأ في أخباره أحاديث عن اجتذاب ودعوة لعلماء الأمة في المغرب وشعرائها، بل الذي كان هو خلوات للامام مع دعاة الدعوة الإسماعيلية الذين كان جلهم غرباء، والذي كان يتداوله مع هؤلاء هو العلم الباطني والتأويل للشريعة، ومقرر أن التأويل الإسماعيلي استهدف تعطيل الشريعة وإلغاء القرآن، وإلغاء فكرة النبوة الخاتمة وكمال الدين، ومن الممكن التعرف إلى هذا من خلال بعض فقرات الرسالة المذهبة للقاضي النعمان، ثم من خلال كتاب الهمة في اتباع الأئمة، وكذلك من خلال كتابه دعائم الاسلام، وتأويل الدعائم، وتأويل التأويل، ونجد بعد النعمان وإمامه المعز لدين الله الجواب الواضح في التراث الدرزي، حيث حل محل المصحف الشريف، «المصحف المنفرد بذاته»، الذي جاء في فاتحته: «بأمر مولانا، وبارادته العلي الأعلى... مولانا الحاكم... مولانا بك آمنا ولك أقررنا أن مصحفك هذا، نور الصراط المستقيم»[1].

وعلى هذا لم تشهد بلدان المغرب خلال العصر الفاطمي كله، وعهد المعز بالذات لا نهضة فكرية ولا عقائدية ولا عمرانية، وكما تقدم بنا القول، كان الذين نشطوا فكرياً، نشطوا في اطار الدعوة، وكانوا كلهم غرباء ـ باستثناء القاضي النعمان ـ حتى أن شاعر المعز جاء من الأندلس، وسعى الفاطميون إلى تطبيق عقيدتهم بالعنف والتنكيل، وليس بالاقناع والموعظة الحسنة، لأنهم افتقروا إلى قوة الاقناع، وعلى كل حال

---

(١) طبع هذا الكتاب من قبل المرحوم كمال جنبلاط، طبعة خاصة ص ٤ ـ ٦.

شهدت بلدان المغرب آنذاك محنة العلماء المالكية وسواهم، ولا شك أن الموقف الصلب لهؤلاء العلماء، مع تضحياتهم العظيمة، كانت من أعظم الأسباب في ترسيخ عقيدة أهل السنة في بلدان المغرب عامة، وهنا لم تكن القضية طبائع عمران بشري، بل مسألة قناعات توفرت لها الأسباب المتعددة لترسيخها.

والخلاصة أن العقيدة الاسماعيلية أخفقت في المغرب الكبير اخفاقاً عقائدياً شاملاً، وصحيح أنها حققت بعض الانتصارات السياسية نتيجة لأعمالٍ عسكرية كبيرة، لكن ذلك كله لم يكتب له الديمومة وانتهى كله تقريباً مع رحيل المعز لدين الله إلى مصر، وعلى هذا أخفق المعز لدين الله في تحقيق برنامج عهده، فهو لم يعز دين الله حسب التصور الاسماعيلي، كذلك لم يعز دين الله حسب التصور الإسماعيلي، فقد عجز عن انقاذ كريت، وتعنت تجاه الأندلس وتجاه التهادن معها.

ومن المعروف أن إفريقية قد عاشت في العصر الأغلبي حقبة من الإزدهار الفكري، وكان للعلماء مكانتهم وتقديرهم حتى أن أحدهم وهو أسد بن الفرات تولى قيادة الحملة التي فتحت صقلية، وكان للرباطات المتوسطة وقتها دوراً ثقافياً وجهادياً عظيماً، لكن الآن مع وصول الفاطميين إلى السلطة تعطل دور العلماء، حيث انصرفوا إلى الجهاد معارضة للعقيدة الاسماعيلية، كما ألغي دور الرباطات المتوسطة، أو أن هذه الرباطات قد أرغمت على الانتقال إلى السواحل الأطلسية وسواها ليكون لها هناك أعظم الأدوار وأهمها.

ولا شك أن الحكم الفاطمي أيام المعز لدين الله وصل بالمؤثرات الاقتصادية على بلدان المغرب إلى الذروة، فقد أفقرت هذه البلدان بالمكوس وبحملات المصادرة والجباية، مع رأسمالية الدولة، يضاف إلى

هذا أن الحملات العسكرية الكبيرة ضد قبائل زناته، وضد كل من سجلماسة وتيهرت قد أضرت بحركة التجارة لاسيما مع بلدان السودان الغربي، ويضاف إلى هذا أيضاً أن الحروب أضرت بمدينة فا س وسواها، وأثرت على وتيرة الانتاج، واستهلكت أموالاً كثيرة، وبددت الطاقات البشرية المنتجة للمغاربة، وبناء عليه عاش المغرب كله في محنة استمرت حوالي السبعة عقود من الزمن، وبدأت بالزوال مع رحلة المعز لدين الله وأسرته إلى مصر.

ولا شك أن الآثار الاجتماعية للحروب والقضاء على زناته، ولارتحال جلّ قبائل كتامة إلى المشرق، كان عميقاً، احتاج كل من المغربين الأدنى والأوسط إلى سنين طويلة حتى تمكنا من اعادة البناء الاجتماعي الراسخ، آخذين بعين التقدير أن إفريقية عندما حاولت الاستقلال كلياً عن الدولة الفاطمية، أرسلت السلطات الفاطمية ضدها قبائل هلال وسليم، مما أحدث زلزالاً اجتماعياً جديداً في المغربين الأدنى والأوسط وأطراف الأقصى.

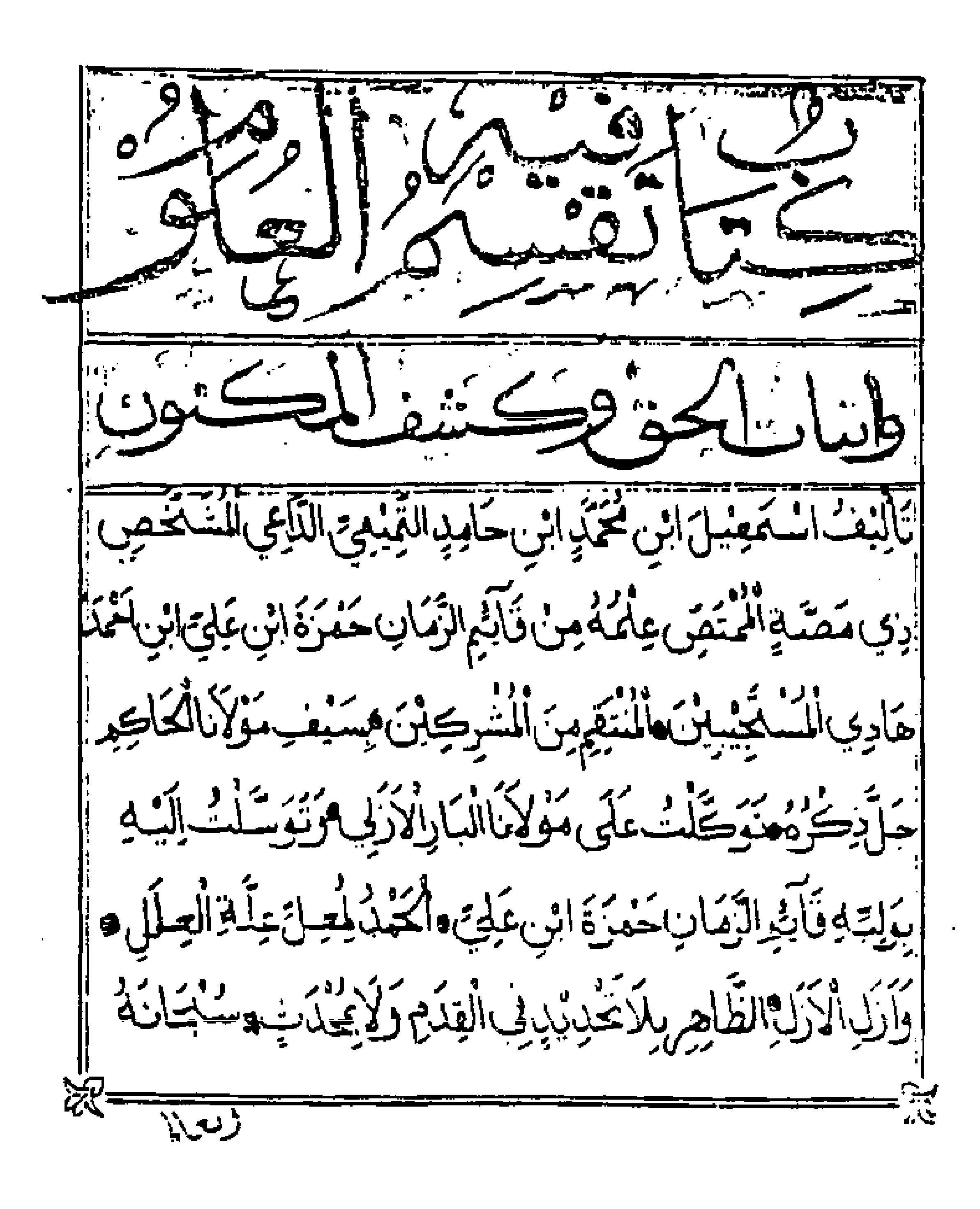
وصحيح أن وحدة بلدان المغرب الكبير التي تحققت أيام المعز لدين الله لم تعش طويلاً، لكنها ضربت المثل، وقدمت السابقة لكل من المرابطين والموحدين، وليست الوحدة المغربية هي وحدها التي لم تعمر أيام المعز لدين الله، بل ضاعت في أيامه فرص التعاون مع الأندلس ضد أوربا براً وبحراً، كما أن المعز لدين الله، بدد الفرص التي تهيأت بعد معركة المجاز للبقاء في الجنوب الإيطالي، فضياع هذا الجنوب من أيدي المسلمين، شكل نقطة البداية لضياع صقلية، وطبعاً مع رحيل المعز لدين الله إلى مصر، كانت الأندلس تمر بعصر التحولات الكبرى من الاستبداد العامري، إلى دول الطوائف، واستشراء حركة الاستغلاب الصليبية في الأندلس، والتحضير الفكري والعقائدي والسياسي في أوربا الغربية للاقلاع بالحروب الصليبية الكبرى ضد بلاد الشام.

ومحزن جداً ضياع الفرص التاريخية، لاسيما من أيدي الرجال ذوي المؤهلات الكبيرة، فلاشك أن المعز لدين الله كان رجلاً هو الأعظم في تاريخ الفاطميين في المغرب والمشرق، لكن الشعور بالقداسة والعصمة، والتربية المذهبية الشاذة، جعلته يصرف مؤهلاته بالاتجاه المعاكس، ومثير للانتباه أن الدعوة الإسماعيلية، التي اتسمت بالعالمية، لم تنشط في بلدان أفريقيا، لاسيما القريبة من حدودها، وركزت جهودها فقط على دار الإسلام، وذلك على عكس المرابطين في المستقبل، حيث وزعوا نشاطهم على المغرب والأندلس، وعلى السودان الغربي، مما كان له نتائج هامة على مستقبل انتشار الإسلام في أفريقيا، ومرجح أن يكون المعز لدين الله قد عرف بتوفر الذهب في السودان الغربي، لكننا لا نعلم أنه اهتم بالعمل الأفريقي، ولعله وجد في الذهب المغربي كفايته للذهاب إلى مصر، التي خيل إليه أن خزائنها مليئة بالذهب، أو أن يعقوب بن كلس أخبره بذلك، فقد تعاون المعز لدين الله مع هذا اليهودي المخضرم، الذي أعاد له في مصر تنظيم الدولة الفاطمية إدارياً وعقائدياً وجبائياً، وبفضل هذه التنظيمات عاش الحكم الفاطمي في القاهرة لمدة تجاوزت القرنين، إنما برعاية وإشراف وزراء جلهم من أهل الذمة، وأكثريتهم من اليهود.

وفي عهد المعز لدين الله، انتقل المغرب إلى المشرق، وفي أيامه أيضاً جرى بناء القاهرة، وحدث في أيامه أنه للمرة الأولى في التاريخ أديرت بلدان المغرب كلها مع مصر والشام الجنوبي من قبل حاكم مقره في أحواز القيروان (قرطاج)، ولهذا السبب جاء البحث عن عهد المعز لدين الله بحثاً في التاريخ الإسلامي في المغرب والمشرق والأندلس، وحوض البحر المتوسط، والعلاقات مع كل من أوربا الغربية والشرقية، فأمتنا أمة واحدة، امتلكت تاريخاً واحداً، وإن تعددت الكيانات السياسية فيها وتعادت.

الملاحق

المجلد الاول



كتاب تقسيم العلوم

وإثبات الحق وكشف المكنون

تأليف اسمعيل ابن محمد ابن حامد التميمي الداعي المستخلص
ذي مصة المختص علمه من قائم الزمان حمزة ابن علي ابن احمد
هادي المستجيبين المنتقم من المشركين بسيف مولانا الحاكم
جل ذكره متوكلت على مولانا البار الازلي وتوسلت اليه
بوليه قائم الزمان حمزة ابن علي • الحمد لمعل علة العلل
وازل الازل • الظاهر بلا تحديد في القدم ولا محدث • سبحانه

الصفحة الأولى من كتاب تقسيم العلوم وإثبات الحق وكشف المكنون

الملحق الثاني

الملاحق

أنساب الفاطميين من كتاب فيه تقسيم العلوم واثبات الحق وكشف المكنون (نسخة درزية خاصة)

تأليف إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي الداعي المشخص ذي مصة الممتص علمه من قائم الزمان حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره.

توكلت على مولانا البار الأزلي، وتوسلت إليه بوليه قائم الزمان حمزة بن علي: الحمد لمعل علة العلل، وأزل الأزل، الظاهر بلا تحديد في القدم ولا بمحدث سبحانه.... هم الأئمة المستورين فأولهم سماء الدنيا، وهو إسماعيل بن محمد، والسماء الثانية، وهو محمد بن إسماعيل، وظهر السماء الثالثة وهو أحمد بن محمد، وكان في وقته قد قرب الفرج بقرب السماء الثالثة من السماء الرابعة، فظهر المولى جل وعز في وقت أحمد بن

محمد في صورة بشرية، ولم يكن لذلك الصورة ملك في الدنيا لأنه ظهر في صورة أسماها أبا زكريا، وظهر العقل الكلي بين يديه في صورة أسماها المولى سبحانه قارون، وكان عجمياً كبيراً في الدعوة، ولم يشرك في التوحيد، وفي آخر وقته وهو شيخ، أرسل بالمهدي بديار اليمن، وأظهر المولى حجته وهي النفس الكلية بأبي سعيد الملطي، فلما أنشئت السماء الرابعة وهو قيام عبد الله بن أحمد، وهو من ولد القداح ظهر المولى سبحانه في صورة أسماها عليا، وكان اسم الصورة الظاهرة قبلها المكنى بأبي زكريا طالب، فصار علي بن أبي طالب، وهو عليّ الأعلى الذي إليه الإشارات، وظهر السماء الخامسة وهو محمد بن عبد الله، وسمّي أيضاً المهدي سترة، وهو أيضاً من ولد القداح، وكان من ولد الحسين، وظهر المولى جل ذكره بصورة أسماها المعل، وكان ظهوره جل وعز بديار تدمر وديار الشرق في زي تاجر في ذلك الوقت، غير أن كانت الصورة الظاهرة لها هيبة في قلوب العالم يتظاهر بالجدة والايسار، حكمة بالغة، وظهر السماء السادسة وهو الحسين بن محمد وهو من ولد ميمون القداح أيضاً، وبقيت صورة التوحيد باقية على حال ظهورها، وظهر السماء السابعة وهو قيام عبد الله بالأمر أبي المهدي، وصورة التوحيد باقية على حال ظهورها، وكان عبد الله قد تسمى أحمد فلذلك تسمى سعيد بن أحمد، وهو المهدي الذي تسمى باسمه تمهيداً له واستيناساً للعالم باسمه، وكان الكرسي، فهو الذي استودعه المولى المعل جل اسمه الوديعة، وأمره بخدمة مولانا القائم جل اسمه، وكان أول ظهور المولى للعالم بصورةٍ أسماها القائم، وأول ما ظهر بمملكة الدنيا في ذلك الوقت....

هذه صورة مكتوب الدعوة الذي كتبه
الإمام أبو القاسم الداعي إلى نفسه
بالديار اليمنية سلمها الله عن البلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل

المنصور بالله تعالى

الحمد لله الذي جعل الجهاد سنام الدين
والأمر بالمعروف شد الظهور المؤمنين
والنهي عن المنكر رغاماً لأنوف الفاسقين
وطاعة أئمة الهدى من مهمات فرائض
الدين وأشهد أن لا إله إلا هو شهادة
إيمان المخلصين وإيقان المتقين وإخلاص
الخاشعين وإذعان السعداء الفائزين
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله
بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون صلى الله عليه وعلى آله
الطيبين الطاهرين صلاة ترقيهم إلى أعلى
عليين ورضي الله عن الصحابة أهل المنة
والعهود والوفا أجمعين وتابعيهم في طر

صفحة المخطوط الأولى

الملحق الرابع

نصرتك والإبطاء عن إعزاز دينك
ثم إنا نستشهدك عليه وما أكثر
الشاهدين ونستشهد عليه جميع من
أسكنتهم أرضك وسماءك ثم أنت بعد
الغني عن نصره والآخذ له بذنبه
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم

تمت الرسالة الإمامية إلى أهالي الممالك
اليمانية بعناية الله وتوفيقه على يد كاتبها
الفقير الحقير كات علوان بن عبد النبي علوان
القرماني الحنفي المذكور حي بدنو أرض المحمية
وكاتب الأحكام الهمايونية بالأبواب العالية
عفا الله عنه وعن والديه وعن جميع المسلمين
والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات أجمعين
في رابع عشر شهر صفر المظفر ختم بالخير
والظفر المنخرط في سلك شهور سنة تسع بعد الألف
ختمت بالخير والشرف ومزيد الرحمة والرأف

الصفحة الأخيرة من المخطوط

الملحق الخامس

هذه صورة مكتوب الدعوة الذي كتبه الإمام أبو القاسم الداعي إلى نفسه، بالديار اليمنية، صانها الله عن البلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل

المنصور بالله تعالى

الحمد لله الذي جعل الجهاد سنام الدين، والأمر بالمعروف شداً لظهور المؤمنين، والنهي عن المنكر ارغاماً لأنوف الفاسقين، وطاعة أئمة الهدى من مهمات فرائض الدين، وأشهد أن لا إله إلاّ هو، شهادة إيمان المخلصين، وإيقان المتقين، وإخلاص الخاشعين، وإذعان السعداء الفائزين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله ﴿**بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾[1]، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، صلاة ترقيهم إلى أعلى عليين، ورضي الله

---

(١) سورة التوبة ـ الآية: ٣٣.

عن الصحابة أهل التقى والعهود والوفاء أجمعين، وتابعيهم في طاعة رب العالمين، وتابعي التابعين إلى يوم الدين.

أما بعد: فكتابنا هذا إلى جميع هذه البرية، وسكان هذه المدحية، اقاصيها وأدانيها، وحزونها وسهولها، وأغوارها ونجودها، بأن يستيقظوا من رقدتهم، ويتنبهوا من غفلتهم، ويلتفتوا إلى أديانهم، ويعتادوا لإيمانهم، ويرغبوا إلى الله، ويخافوا من الله، ويجاهدوا في سبيل الله، ويمتثلوا لأمر الله، في طاعته، وطاعة رسوله صلى الله وعلى آله وسلم، وطاعة الأئمة السابقين، من عترته، سفن النجا، ومصابيح الدجي، ومعالم الاهتداء وأن يستضيئوا بنورهم، ويهتدوا بهديهم، ويسلكوا سبيلهم، ويتبعوا آثارهم، ويوالوا وليهم، ويعادوا عدوهم، ويجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

﴿يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾[1].

أيها الناس إن رسوم الدين قد عفت، وأعلام الهدى قد طمست، وأحكام الشريعة قد عطلت، والفرائض قد رفضت، والمحارم قد انتهكت، والخمور قد شربت، والذكور قد نكحت، والمكافيف والزمناء قد انتهبت، والضعفاء والأيتام قد ظلمت، والأرامل قد احتجفت، والدماء قد سفكت، والشرور قد كثرت، والفتنة قد عظمت، حتى لبس الاسلام في هذا الزمان لُبس الفرو مقلوباً، وصار كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بدأ الدين غريباً، وسيعود غريباً»، فجعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وقُرِّب فيه الماجن، وبُعِّد فيه الفاضل، واستكمل فيه الفاجر، واستنقص فيه

(١) سورة الأحقاف ـ الأيتان: ٣١ ـ ٣٢.

الطاهر، وكذّب الصادق، وصُدّق الكاذب، واستؤمن الخائن، واستخين الأمين الناصح، وهاجت الدهماء، وكثر الضلال والعماء، فلم يبق من الاسلام إلاّ اسمه، ولامن الدين إلاّ رسمه.

وأنتم عباد الله، غير معذورين من الله بتغيير ذلك، ولامتروكين عن مؤاخذة الله عن ذلك، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة، ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير**﴾[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: «لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليستعملن الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم فلايستجاب لهم» وعنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله أوحى إلى نبي من أنبيائه: إني معذب من قومك مائة ألف، اربعين الفاً من شرارهم، وستين الفاً من خيارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فقال: داهنوا أهل المعاصي، فلم يغضبوا لغضبي».

البدار البدار ـ رحكم الله ـ إلى ما افترض الله عليكم من جهاد عدوكم، وإلى الحكم بكتاب الله، وإلى إحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإلى إنصاف المظلوم، والتفريج عن المكظوم، وإلى أخذ الحقوق ووضعها في مواضعها، التي أمر الله أن توضع فيها، وإلى العدل في الرعية، وإلى القسمة بالسوية، وإلى العمل بالسنة، وإلى إماتة البدعة، وإلى إصلاح العباد، وإلى تطهير البلاد من أهل الجور والفساد، ألا وإن الذي قد دعوتكم إليه أسنى الفرائض واشرفها، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعم الأرض، وينتصف من الأعداء، ألا إن الجهاد في سبيل الله سنام الدين، وسبيل الأنبياء والصالحين، وعمود تقوى رب العالمين، به يرحمكم الله، وينظر إليكم،

(١) الأنفال ـ الآية: ٣٩.

فيدرّ لكم الأمطار، ويرخص لكم الأسعار، ويتابع لكم الخيرات، ويدفع عنكم النقمات، ويعزّ المسلمون، ويذل الظالمون، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿**ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾[1]، وقال صلى الله وعلى آله وسلم: «مُرُوا بالمعروف تخصبوا وانهوا عن المنكر تُنصروا».

أيها الناس امتثلوا لله في قوله تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[2]، فإن أولي الأمر الذين فرض الله طاعتهم، هم أئمة الهدى، من ذرية النبي المصطفى، صلى الله عليه، وعلى آله وسلم، الذين عقلوا عن الله كتابه وتدبروه، وعملوا به وحكّموه، وتفهموا سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فاعملوا بمقتضى قوله تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[3]، تشهد بذلك البراهين الباهرة التي يطول شرحها، منها قوله تعالى: ﴿**أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع امن لايهدى إلاّ أن يهدي فمالكم كيف تحكمون**﴾[4]، وأئمة الهدى من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا وإني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مثل أهل بيتي فيكم

---

(١) الأعراف ـ الآية: ٩٦.
(٢) النساء ـ الآية: ٥٩
(٣) الحشر ـ الآية: ٧.
(٤) يونس ـ الآية: ٣٥.

كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى، ومن قاتلها آخر الزمان، فكأنما قاتل مع الدجال»، وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن عند كل بدعة تكون من بعدي يكاد بها الاسلام ولياً من أهل بيتي يُعلن الحق وينوِّره ويرد كيد الكائدين»، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وها أنا من عترة نبيكم، وبيني وبينكم كتاب الله آية آية، وما تواتر من سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما اتفق مشاهير علماء الفرق الاسلامية على صحته، وما وافق كتاب الله خبراً خبراً، فإن لم أحكم فيكم بما أنزل الله، فلاطاعة لي عليكم.

أيها الناس: إنه لاطاعة لمن لم يحكم بما أنزل الله من أهل الهوى والبدع، وارباب الجور والفساد، لأن الله سبحانه يقول: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[2]، والظالم لاتحل طاعته، لقوله تعالى لخليله ابراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين﴾[3].

هذه حجج الله تعالى قد بينتها لكم، فالعمل قد لزمكم، فإنكم تعلمون جور هذه الدولة الظالمة، وسفكها للدماء المحرمة، وشربها للخمور، وإيتانها للذكور، وإثارتها للشرور، فنحن ندعوكم إلى الهجرة أولاً، وإلى المعاونة لإزالته ثانيا، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان﴾[4].

---

(١) الكهف ـ الآية: ٥١.

(٢) المائدة ـ الآية: ٤٥.

(٣) البقرة ـ الآية: ١٢٤.

(٤) المائدة ـ الاية: ٢.

أيها الناس: ألا ترون، إن مظلومكم لاينصف، وعزيزكم ذليل لا يعرف، لاترد لكم مظلمة، ولاتقبل منكم شكية، وأنتم لهم خدم لاتؤجرون، وأعوان لاتشكرون، تحرثون وتتعبون، وتسعون في صلاحهم، ويسعون في اهلاككم.

الا ترون أنهم ينقضون العقود، ولايوفون لكم بالعهود، ولايتم معهم أمان لأمين ولا خوان، ولله در القائل ـ شعر:

إن صالحوا نقضوا أو عاهدوا نكثوا   أو ناصحوا خدعوا أو عاملوا ظلموا

وجملة القول: إن القوم ليس لهم   على الحقيقة لاعهد ولا ذمم

إن استرحموا لم يرحموا   وإن استنصفوا لم ينصفوا

يعتكفوا على اللهو والطنابير   وضرب المعازف والمزامير

قد اتخذوا دين الله دغلا   وعباده خولاً وماله دولا

بما تقوونهم من تسليم الأموال الجليلة إليهم، ثم تقولون إنكم مستضعفون حتى خضعت لهم رقابكم، وذلت لهم ضعائكم، وصيروكم كالرعية السائمة، لاتمنعون منهم نفوسكم، ولا أموالكم ولاحريمكم، مع أن الله قد جعل عليكم وزراً عظيماً، وأعدّ لكم عليه إن لم ترجعوا عذاباً أليماً، قال الله تعالى: ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد**

---

(١) النساء ـ الآية: ٩٧.

الله حق فلاتغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[1]، وقال تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾[3].

اللهم أيما عبد من عبيدك سمع مقالتنا العادلة غير الجائرة، والمصلحة في الدين غير المفسدة، فأبى سمعه لها إلاّ النكوص عن نصرتك، والإبطاء عن إعزاز دينك، فإنا نستشهدك عليه، يا أكبر الشاهدين، ونستشهد عليه جميع من أسكنتهم أرضك وسماءك، ثم أنت بَعْدُ الغني عن نصره، والآخذ له بذنبه، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمت الرسالة الإمامية، إلى أهالي الممالك اليمانية، بعناية الله وتوفيقه، على يد كاتبها الفقير، الحقير، كاتب علوان بن عبد النبي بن علوان القرماني الحنفي، التذكرة جي بديوان مصر المحمية، وكاتب الأحكام الهمايونية، بالأبواب العلية، عفا الله عنه وعن والديه، وعن جميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات أجمعين، في رابع عشر شهر صفر المظفر، ختم بالخير والظفر، المنخرط في سلك شهور سنة تسع بعد الألف، ختمت بالخير والشرف، ومزيد الرحمة والرأف، بمدينة مصر المحروسة، لازالت بالأمن مأنوسة، بمحمد وآله وصحبه أجمعين.

تم وبالخير عم

---

(١) لقمان ـ الآية: ٣٣.

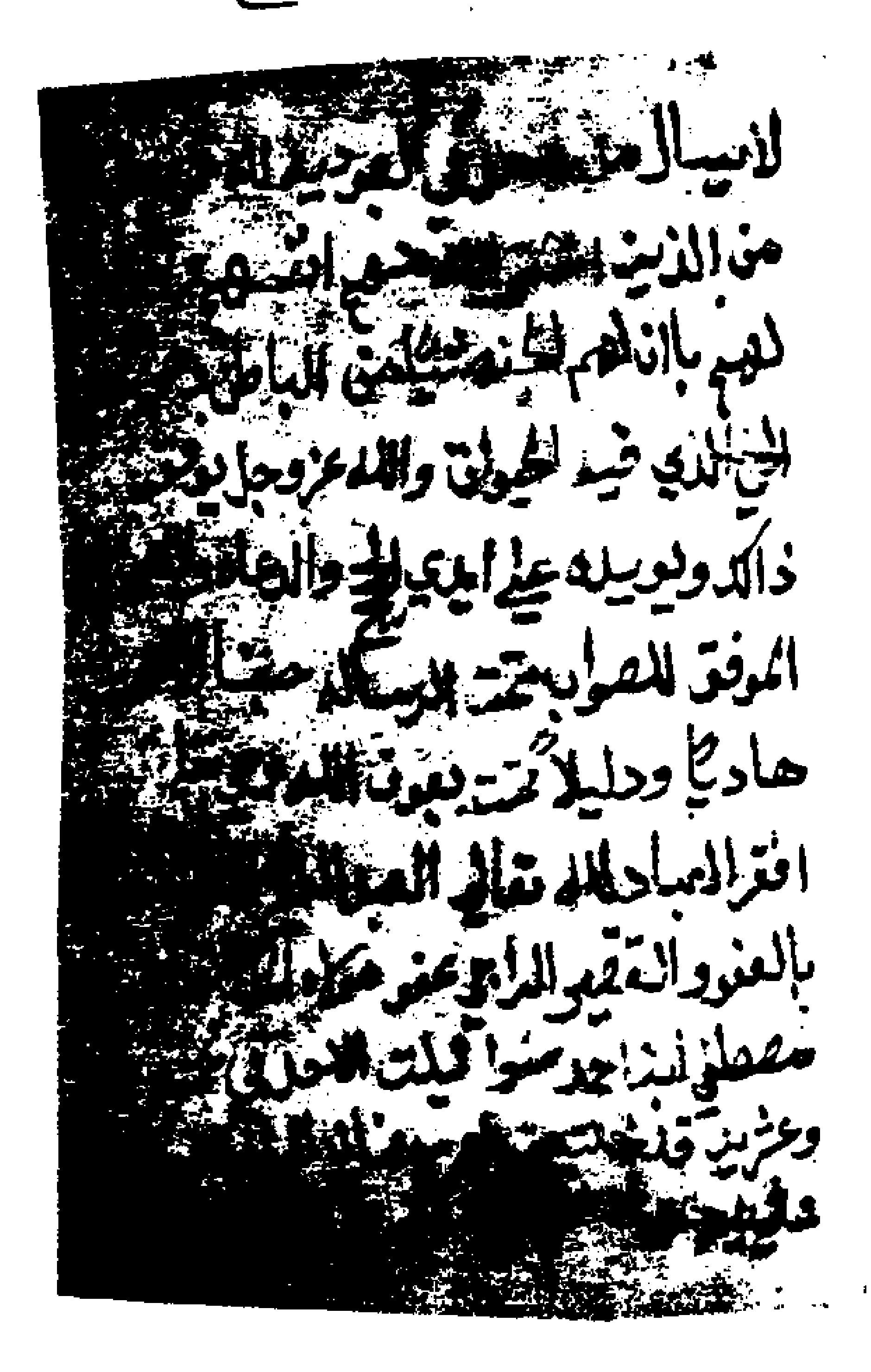
(٢) التوبة ـ الآية: ٤١.

(٣) الصف ـ الآية: ١٢.

الملحق السادس

هاذا كتاب الرسالة المذهبة في
فنون الحكمة وغرايب التاويل جوا
با عن مسايل وردة عن بعض الحدود
اجاب عنها القاضي النعمان محمد قدس
الله روحه بعد ان اعرضها على مولانا
سيدنا الامام المعز لدين الله
امير المومنين صلوات الله عليه وعلى اله
الطيبين الطاهرين بسم
الله الرحمن الرحيم
الحمد لله العلي القاهر العزيز القادر

الصفحة الأولى من المخطوط


لا[illegible] [illegible] [illegible]
من الذين [illegible] [illegible]
لهم بانهم [illegible] الباطل
الذي فيه [illegible] والله عز وجل [illegible]
ذلك ويزيله على ايدي [illegible] [illegible]
الموفق للصواب تمت الرسالة [illegible]
هاديا ودليلا تمت بعون الله [illegible]
[illegible] لله تعالى [illegible]
بالعفو [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible]
وعشرين [illegible]
[illegible]

الصفحة الأخيرة من المخطوط

الملحق الثامن

هذا كتاب الرسالة المُذْهِبة في فنون الحكمة وغرائب التأويل[1]

جواباً عن مسائل وردت عن بعض الحدود ـ أجاب عنها القاضي النعمان محمد، قدس الله روحه، بعد أن عرضها على مولانا وسيدنا الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين أمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي القاهر، العزيز، القادر، القوي، الظاهر، الحكيم، الغافر، الذي أثاب المؤمن، وعاقب الكافر، وقرب الطائع، وأبعد النافر، ومنح أهل الحق بالآخر، وأنعم عليهم بالجزيل الوافر، وهداهم إلى الإمام الناطق بعلم البواطن والظواهر، فلقطوا من بحار عذبه اشرف الجواهر،

(١) الفصل الأول من الرسالة، اعتماداً على نسخة خاصة موجودة في مصياف، وهي متعبة بخطها وضبطها.

وفازوا بأربح المتاجر، وادَّرعوا بمحبته ملابس الفضل والمفاخر.

وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأوائل والأواخر، وعلى آله الأنوار البواهر، والأقمار الزواهر.

أما بعد:

فهذه رسالة تروق أهل البصائر، وتكشف أكنة السرائر، وهي كالبارد العذب الزلال على كبد اللبيب الماهر، أو كالملح الأجاج الزعاف يقطع أمعاء المعاند الفاجر، ويمتع أهل دعوته بأربح المتاجر والفضائل، ويمددهم بمدد دعاته وأوليائه، بكل علم قاهر، وفوائدهم الشاملة للأوائل والأواخر.

وأما بعد: فقد أودعنا بيان ما سألت عنه في فصول هذه الرسالة، وسميتها المُذْهِبة، لأنها تُذهب وساوس الشيطان، وتنور قلوب العارفين بالإيمان، وتوفق ألباب المهتدين بالرشد والإيقان، وهي تشتمل على ثلاثة فصول، كل فصل منها يقتضي بيان ما سألت عنه بما صح، والله الموفق للصواب.

المحور التاسع

الفصل الأول

ما سألت عنه من تفسير أسماء الله الحسنى، ومعنى الشرك بالله جل ذكره، وبيان رتبة القائم صلوات الله عليه، وعن أبواب الصلاة، ومناسك الحج.

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أنه قال: من عبد الاسم دون المعنى[1] فقد كفر، ومن تحيل على الله كمّل

---

(١) المقصود بالمعنى «علي» وبالاسم «محمد» وبالباب سلمان
والمراتب النورانية والروحانية تتسلسل على الشكل التالي:
المعنى ـ الاسم أو الحجاب ـ الباب ـ الأيتام ـ النقباء ـ النجباء ـ المخلصون ـ المختصون ـ الممتحنون ـ المقرّبون ـ الكروبيون ـ السامعون ـ اللاحقون...... حتى العارفين
وهناك العالم الكبير النوراني والعالم الصغير الروحاني، ولقد تجلى المعنى للبشر سبع مرات منذ بدء الخليقة (هابيل ـ شيث ـ يوسف ـ يوشع ـ آصف ـ شمعون ـ علي).
وهذه تسمى القبة العربية، وهناك قباب أخرى يونانية وهندية ولجميع هذه المراتب أسماء معلومة.
وهناك خمسة أيتام واثنا عشر نقيباً وثمانية وعشرون نجيباً فمثلاً يوسف (المعنى) وأبوه يعقوب الحجاب ـ وأخوة يوسف النقباء وهم اثنا عشر، ومن أسماء الأيتام في أيام النبي محمد ﷺ (أبو ذر الغفاري وعبد الله ابن رواحة الأنصاري، وقنبر بن كادان الدوسي وعثمان بن مظعون النجاشي).
فعند النصيرية مثلاً: أبو شعيب محمد بن نصير مثلاً يعد باباً وحجاباً للحسن الأخير العسكري.

المعاصي، فقد تجري عليه، أعاذنا الله وإياك وإخواننا جميعاً من الفجور في الدين، ومن وساوس الشيطان، سلمنا وإياك من الوقوع في شبكات اللعين، إنه جواد كريم.

واعلم علمك الله الخيرات أن الله جل ذكره تسمى بأسماء عرفها قوم، وجهلها آخرون ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة[1]﴾، وقال جل وعلا: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[2]، فمن دعاه بها سمع دعاءه، وأجاب نداءه، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها وعرف معناها دخل الجنة».

وقد ترى المسلمين، والنصارى، واليهود، والمجوس، والصابئين يدعونه بها، ويحصونها، أفترى هؤلاء كلاً داخلين الجنة، وكيف يكون ذلك كذلك، وقد قنعوا بالظاهر دون الباطن، وغنوا بالمثل عن الممثول، وعبدوا الاسم دون المعنى، فرحم الله امرءاً أخذ من نفسه لنفسه، ولم يغتر بالأماني، ولم يعبد الله بالظنون، تشوف وأيقن بكتاب الله، وعبده من

والحسين بن حمدان الخصيبي من مرتبة الكروبيين (من العالم الصغير الروحاني) وسيِّد النجباء: محمد بن سنان الزاهري ثم يليه أبو الهيثم مالك بن التيهان الأشهلي والبراء بن معرور الأنصاري وعبادة الصامت النوفلي...

وهناك تسع مقامات ذاتية متمثّلة بآدم ونوح وإبراهيم ويعقوب وسليمان ـ عيسى ـ موسى ـ محمد ـ القائم.

والكل واحد فهابيل هو علي وآدم هو محمد والأبواب أيضاً في شخص واحد وإن اختلفت التسميات.

لله تسعة وتسعون اسماً هي (أربع وخمسون أزليات مثلية غيّبها الله وظهر تحت تلألؤ نور ذاته، والأيتام الخمسة والنقباء الاثنا عشر، والنجباء الثمانية والعشرون.

(١) الأنفال: ٤٢.

(٢) الأعراف: ١٨٠.

بابه، وسلم أمره لوليه ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله﴾[1]، فيقول: ﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾[2]، أو يقول: ﴿لو أن الله هداني لكنت من المتقين[3]﴾، فيكون الرد عليه: ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾، الآية.

فتفهم رحمك الله هذه الآيات التي جاءت العباد فتكبروا عنها، وجحدوها حتى ألحقهم الله بالكافرين، لتنجو مع الناجين وتكون مع الفائزين، مع الذين ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[4]، فقد جعلها آيات بينات، ونجوماً في سمائه نيرات، وفلكاً في بحاره جاريات، دلّ عليها بدلالة، فعرفها قوم، وأنكرها آخرون، وعرفها العارفون، واطمأنت إليها نفوس العالمين، وسكنت إليها قلوب المؤمنين، فهم ﴿في جنات وعيون﴾[5] ﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾[6] ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة﴾ فتقول لهم: ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾[7]، وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أنه قال في بعض خطبه: أنا نجم الله الثاقب، أنا حبل الله المتين، وعروته الوثقى التي لا انفصام لها، ﴿والله سميع عليم﴾[8]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا علي أنت في قومي كسفينة نوح من

---

(١) الروم: ٤٣.

(٢) الزمر: ٥٦.

(٣) الزمر: ٥٧.

(٤) يونس: ٦٢.

(٥) الذاريات: ١٥.

(٦) الأنبياء: ١٠٣.

(٧) الواقعة:٢٠.

(٨) البقرة: ٢٢٤.

ركبها نجا، ومن تخلف عنها ضل وهوى»، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام﴾[1] ولم يرد بها الفلك المعمولة من الألواح والجسور والقير، وإنما أراد ما قاله سيدنا جعفر بن محمد صلوات الله عليه: نحن الفلك الجارية في البحار الغامرة، لن يقبض الله منا سلفاً حتى يبعث الله منا لأمره خلفا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين[2]، وعنه صلوات الله عليه أنه قال: نحن آيات الله الكبرى، وأسماؤه الحسنى، والمسألة العليا، وكلماته صدقاً وعدلاً، فمن توسل بغيرنا لم يعط، ومن دعا بغيرنا لم يجب، وقال عليه السلام: «نحن آيات الله في بلاده، وحججه على عباده، من أطاعنا فقد أطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله».

وقد بين الله في كتابه المنزل أن طاعتهم طاعته، وقال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[3] وقال: ﴿فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[4]؛ وأعلم أنهم أسماؤه الحسنى، وهو قوله جل ذكره: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة﴾[5] إلى آخر الآية، وقال ﴿يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم﴾[6]، أمرهم بالسجود لآدم عليه السلام[7]، وذكر علماء العامة، أهل العماء والتيه أنه علمه اسم كل شيء حتى علمه اسم عصا

---

(١) الرحمن: ٢٤.

(٢) انظر سورة مريم: ٤٠، والقصص: ٥٨.

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) التغابن: ١٢.

(٥) البقرة: ٣١.

(٦) البقرة: ٣٣.

(٧) انظر البقرة: ٣٤.

وعصيه، فتعالى الله ﴿عما يقولون علواً كبيراً﴾[1]، وقال بعض علماء الشيعة: إنه علمه أسماء أئمة الحق، وأسماء أئمة الجور، وليس كذلك، وإنما علمه الله أسماء من اختص من عباده ليقيم عليهم الحجة البالغة بهم، فلا يكون لأحد على الله حجة، وليكون ﴿لله الحجة البالغة﴾[2]، جعلنا الله وإياكم ممن علم فعمل، وممن أمر فائتمر، ونهى فانتهى، لأن الله جل ذكره مدح العاملين بعلم وقال: ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[3]، وقال: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٍ ماهم﴾[4]، وقال: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعملِ الصالح يرفعه﴾[5] فإنما أراد بالكلم الطيب الطائفة الراجعة إلى عالمها، فإن كان لها عمل راجعت به، وإن لم يكن عمل وقفت، لأن الله عز وجل قال: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾[6]، وروي عَن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قيل له: ما الاستطاعة، أهي التأييد؟[7]. فقال: الزاد والراحلة، والبيت دليل على الإمام، والاستطاعة هي التأييد، والسبيل دليل على العلم، وقال الله جل ذكره: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله﴾[8] فتفهم رحمك الله ما هذا الإيمان الثاني الذي دلهم

---

(١) الاسراء: ٤٣.
(٢) الأنعام: ١٤٩.
(٣) التوبة: ١٠٥.
(٤) ص: ٢٤.
(٥) فاطر: ١٠.
(٦) آل عمران: ٩٧.
(٧) أي التوفيق من الله.
(٨) الصف: ١٠.

إليه، وحرضهم عليه، بعد أن سماهم مؤمنين، ودعاهم بإسمائهم به، ثم ندبهم إلى إيمان آخر؛ ثم قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟**﴾[1] فهل يكون الإيمان محموداً ومذموماً، ﴿**وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم**﴾[2]، ولكن ليكونوا من ﴿**عباد الله المخلصين**﴾[3]، كما قال سليمان صلوات الله عليه في قصة النملة، لما قالت نملة: ﴿**يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون**﴾[4] إلى آخر الآية، فتبين مرتبة الإيمان إن شاء الله، ثم ذم آخر من العالمين بغير بصيرة، والناكثين بعدما علموا فقال عز وجل: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ۞ ولو شئنا لرفعناه بها ولكن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**﴾[5].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يقبلَ عملاً بغير علم، ومن علم بغير عمل كان فساد علمه أكثر من صلاحه»، وقال جعفر ابن محمد صلوات الله عليه: إن العامل بغير بصيرة مثله كمثل بغل في طاحون يمشي طول نهاره، ولا يروح من مكانه، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿**كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من**

---

(١) الصف: ٢.

(٢) التوبة: ١١٥.

(٣) الصافات: ١٢٨.

(٤) النمل: ١٨، وانظر الآية التالية.

(٥) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

النار﴾[1]، وقال: ﴿عاملة ناصبة ۞ تصلى نارا حامية﴾[2] وقال: ﴿أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمئان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾[3] ومثل هذا كثير في كتاب الله.

واعلم أن أكثر الأعمال وأزكاها عند الله الصلاة لقوله عز وجل: ﴿والذين على صلواتهم يحافظون ۞ أولئك هم الوارثون﴾[4] وقال: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا الله قانتين﴾[5] وقال: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾[6] وقال: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[7] والبغي، وما رأينا صلاة، لا تأمر، ولا تنهى، وقال رسول الله ﷺ: «الصلاة عمود الدين، ومن لا صلاة له لا دين له».

واعلم أن للصلاة حدوداً تجتمع عليها، وأنها في ذاتها إحدى وخمسون ركعة في كل يوم وليلة، وهي خمس صلوات[8] أولهن: الظهر، وهي دليل على محمد ﷺ، وهو صاحب الشريعة، فسميت بثلاثة أسماء: الأولى، والظهر، والزوال.

---

(١) البقرة: ١٦٧.

(٢) الغاشية: ٣ ـ ٤.

(٣) النور: ٣٩.

(٤) المؤمنون: ٩ ـ ١٠.

(٥) البقرة: ٢٣٨.

(٦) النساء: ١٠٣.

(٧) العنكبوت: ٤٥.

(٨) أوقات الصلاة لها أشخاص هم: «محمد ـ الحسن ـ الحسين فاطمة ـ محسن ـ الخفي».

فمعنى الأولى أنها أول صلاة صلاها وابتدأ بها في يوم الجمعة، لأنه يومه من بين الأيام، فصلى فيه ركعتين، وسنبيّن حد الركعتي، وجملة ركعات الظهر، أربع عشرة ركعة: الجبلتين[1]، والوسطى اثنتا عشرة ركعة، فمعنى اثنتا عشرة أنها تصلى أربع ركعات قبل الفرض بتسليمتين، ثم تأتي بأربع ركعات، وهي الفرض بتسليمه واحدة، وأربع بعد الفرض، دليل على أن قبله دعوة وبعده دعوة.

وأما صلاة العصر فقبلها دعوة وليس بعدها دعوة، وهي دليل على القائم المنتظر صاحب سيف التأويل، وفي وجه آخر أنها عشر ركعات، وذلك أن تصلى، ستة قبل الفرض، دليل على أن قبله ستة نطقاء أصحاب شرائع وأحكام، وحلال وحرام، وليس بعد صلاة العصر صلاة إلى بعد غروب الشمس، دليل على أن ليس بعد دعوته دعوة، وذل أن جميع الصلوات فيها تغفير واجب، إلا في صلاة العصر فلا تغفير لها، وذلك دليل على أنه إذا ظهر زالت التقية، وزال الخضوع عن المؤمنين.

ثم صلاة العشاء الأول تسمى باسمين: الغشاء والمغرب، دليل على آدم أبو البشر، ومعنى الغشاء، أنه منه غشيتنا الرحمة والحكمة، ومعنى المغرب الذي شرق من السابق غرب في التالي، وما شرق في التالي غرب في آدم صلوات الله عليه، وهي تسع ركعات، الأذان والإقامة في وقت واحد، ثم يبتدأ بالفرض بثلاث ركعات وتسليمه واحدة، لا صلاة قبلها لأن آدم عليه السلام لم يكن قبله شريعة، وما بعد فإن الله تعالى بما كان قبله أعلم، ثم تصلى ست ركعات بثلاث تسليمات دليل على أن بعده ستة نطقاء، فما تقدم في العصر تأخر في المغرب.

---

(١) يرجح أنه أراد بهذا ركعتي فرض الجمعة.

ثم صلاة العتمة، وهي تسمى باسمين [العتمة وعشاء الآخر] فمعنى العتمة ما غاب عن الأمة، لأن العرب تقول: أعتم القمر، إذا لم يطلع، ومعنى عشاء الآخر أنه إبراهيم عليه السلام، وأن دعوته كان لها ناطق ظهر به محمد ﷺ، لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾[1] وإسماعيل واسحق ويعقوب ﴿وهو سماكم المسلمين من قبل﴾[1] إسماعيل واسحق ويعقوب.

وهي سبع عشرة ركعة، منها اثنتا عشرة على مثال الظهر على ما جاء به محمد ﷺ، ثم اثنتان من جلوس مقام واحد، وثلاثة الوتر والشفع قياما، فالإثنتان من جلوس فمثل على مرتبتي الداعيين: داعي الحلال، وداعي الحرام، وسماهما الرسول ﷺ المؤنستين، لأن قلوب المؤمنين أنست إليهما، واطمأنت إليهما قلوب العارفين.

ومعنى أنهما ركعتان مقام واحد، لأنهما تتفقان في اللفظ وتختلفان في المعنى، فقد جمعتهما الدعوة في وقت المرتبة.

ثم صلاة الشفع والوتر، وهي ثلاث ركعات، دليل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، وفيهما التحميد والقنوت، قال رسول الله ﷺ: «زادكم الله صلاة وسماها الوتر»، إيقاناً لإقامته صلى الله عليه وعلى آله الأئمة من نسله، فالنوم دليل على الغفلة، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الغفلة عن دعوته، والقنوت فيها بمعنى الابتهال إلى الله، إذ كان هو أساس الأسس صلوات الله عليهم أجمعين.

ثم صلاة الفجر أربع ركعات، ركعتان منها سنة، والأخرتين منها

---

(١) الحج: ٧٨، وانظر أيضاً سورة يوسف: ٣٨.

فريضة، والسنة دليل على الإمام والحجة في كل عصر وزمان، لأنه لا سبيل إلى معرفة الحدود العلوية إلا من الجسمانية، إذ كانوا هم الوسائط بين الله وبين عباده، فصلاتها بعد الأذان وقبل الإقامة، وركعتين للفرض دليل على الحدين العلويين، وهما: السابق والتالي، اللذين أشرقت منهما الحكم، وذلك أنها لا تصلي في غسق الليل ولا عند طلوع الشمس، وهي الصلاة الوسطى.

وفي وجه آخر [هي] التي أوصى الله عليها بالمحافظة لعباده كما قال عز وجل: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾[1] وأعلمك أنها متوسطة بين الليل والنهار، لأنها صلاتان بالليل وصلاتان بالنهار، وهم سبع عشرة ركعة فريضة في كل يوم وليلة، ومن أجل ذلك قيل إنها لا من صلاة الليل، ولا من صلاة النهار، لا من الحجج، ولا من النطقاء، وكذلك ضرب به مثل القائم صلى الله عليه وسلم، لأن مادته من الحدين العلويين من غير واسطة.

فمعنى السبع عشرة ركعة قوله جل ذكره لنبينا محمد ﷺ: ﴿**ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم**﴾[2]، الذين أقرنت إليهم جميع الشرائع والأحكام، والحجج، حججه في كل عصر وزمان، وذلك سبع عشرة، فإذا جمعت تكبيرات السبع عشرة ركعة وجدتها أربعاً وتسعين تكبيرة، وخمس تسليمات، فذلك تسعة وتسعون، وهي عدة أسماء الله الحسنى.

ثم نعود إلى ما ذكرناه في أمر الركعتين، وإبانة حدودهما:

---

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) الحجر: ٨٧.

إعلم أن الله جل ذكره قد بين في الركعتين جميع ما يحتاج العباد إليه، وكذلك قال رسول الله ﷺ: «إن صلاة ركعتين بحدها وحدودها من عالم خير من خمسين ألف صلاة من غير عالم»، وقال رسول الله ﷺ: «من دخل المسجد ولم يعتقد على ست خصال، كانت صلاته خداعا»، ففسر القوم أن الست خصال هي: التكبير، والقراءة، والركوع، والسجود، والتحميد، والتسليم، وسابعها النية، وهو كذلك، والمعني فيها ما خفي عنهم:

إن التكبير بمعنى الدخول إلى الدعوة، والقراءة بمعنى تلاوة العلم، ومعنى الركوع حد الأساس، ومعنى السجود حد الناطق، لأن الأساس بمنزلة الإنثى، والناطق بمنزلة الذكر، لأن ﴿للذكر مثل حظ الإنثيين﴾[1]، إذ كان الركوع مرة واحدة، والسجود مرتين، والتحميد بمعنى الحدود العلوية، لأنه تمجيد الإنسان وهو جالس، والتسليم هو درجة الإجلال، وهو تسليم المرء بنفسه وماله إلى إمام عصره وزمانه، قال الله تبارك وتعال: ﴿النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم واولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله﴾[2] فأراد به أنه صلى الله عليه وسلم أولى بنا من أنفسنا، إذ كان الحاكم في أموالنا ودمائنا، وأراد بأزواجه حججه لأنهن أمهات المؤمنين في الدين، وأراد بأولي الأرحام، أرحام الدين لا أرحام الدم والقرابات.

ثم إنا بيناهم من وجه آخر، وهو أنه كانت الأرواح في العالم العلوي في صورة الملائكة صافين ومسبحين كمقام العباد في صلواتهم، فلما أراد الله عز وجل ما أراد من إحداث هذا العالم، ألهم العالم العلوي أن

---

(١) النساء: ١١.

(٢) الأحزاب: ٦.

يطلع على العالم السفلي، فاطلع كالراكع في صلاته، ثم رجع إلى ربه قائماً كقيامه في أول الصلاة، قائلاً: «سمع الله لمن حمده»، فعلم الله ما في ضمائرهم من طلبهم المزاوجة، فأمره بالهبوط، وهو جسد روحاني، فخر ساجداً، فصارت سجدتين واحدة للروحاني والأخرى للجسماني الذي زاوجه[1]، وقد بيناه في كتابنا من باب المواليد، فتفهم هذه الإشارة لتعرف حدود الصلاة علوي وسفلي وتثبتها عقلي وحسي، ولا تضرب عنها الذكر صفحاً، جعلنا الله وإياك من العاملين بها والمتكلمين عليها.

ثم نعود إلى ما كنا فيه من تمام تفسير الأسماء، إن الله تعالى بيَّنها في الأشهر المعلومات وهو قوله عز وجل: ﴿**الحج اشهر معلومات**﴾[2]، إلى آخر الآية، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يوم صومكم يوم نحركم»، وقد بينوا أن من يوم الصوم إلى يوم النحر تسعة وتسعين يوماً، لا تنقص يوماً ولا تزيد يوماً على مرِّ الشهور والأيام والسنين، ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يوقنون**﴾[3] ﴿**ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾[4].

فاعلم علمك الله الخير وجعلك من أهله أن هذه الأسماء التي لله عز وجل جمع فيها الحدود العلوية والسفلية، ولو أراد أكثر من هذه الأسماء لكان قادراً أن يتسمى بمائتين أو ثلاثمائة، أو بما لا نهاية له، وكان ذلك قليلاً في قدرته، وإنما جعل هذه الأسماء ليقيم بها الحجة على عباده، فقال: ﴿**خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن**

---

(١) انظر ما سيقدم ص: ٢٢٣.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) انظر الجاثية: ٤.

(٤) يونس: ٥.

لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علما﴾[1]، وقال: ﴿فالمدبرات أمراً﴾[2] فذهبت أوهام المنجمين أن هذه الكواكب الظاهرة هي المدبِرة، وكيف يجعل الله تدبير خلقه إلى جماد لم يعطه عقلاً، ولم يكسبه لباً، ولم يأمره ولم ينهه، وإنما احتجوا بقوله: ﴿فلا اقسم بمواقع النجوم ۞ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[3] فعرفوا المثل ولم يعرفوا الممثول، ولو أراد بقوله هذه النجوم لقال: فلا أقسم بالنجوم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لا اقسم بهذا البلد﴾[4] وكما قال: ﴿لا اقسم بيوم القيامة﴾[5]، وإنما قال: ﴿لا اقسم بمواقع النجوم﴾، أراد به مواقعها التي هي أدلة عليها، وهي ملائكة كروبية مأمورين منهن، وهي السبعة الكروبية، ثم خلق من بعدهم الإثني عشر الروحانية، فقال: ﴿عليها تسعة عشر ۞ وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة وما جعلنا عدتهم إلاّ فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾[6]، وهذه الآية تفترق على معنيين: سفلي، وعلوي.

ثم إنه تبارك وتعالى كوّن الأكوان، وأبدع الأعيان، ومكّن الزمان، وخلق الأنس والجان، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلاّ ليعبدون ۞ ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون﴾[7] ثم

---

(١) الطلاق: ١٢.

(٢) النازعات: ٥.

(٣) الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦.

(٤) البلد: ١.

(٥) القيامة: ١.

(٦) المدثر: ٣٠ ـ ٣١. عند النصيرية: الحسين بن حمدان الخصيبي كان من مرتبة الكروبيين.

(٧) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧.

اصطفى منهم الأخيار وجعلهم أمناء أبراراً، أنحلهم حكمته، وإئتمنهم على وحيه، وجعلهم سفراء بينه وبين خلقه، من عبده من قبلهم شكر سعيه، وزكي عمله، ونمت تجارته، ومن تكبر عليهم، وعلى الدخول تحت طاعتهم، أخزاه وأذله وجعل كيده في تباب، وعمله في ضلال ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾[1]، ولم يعجل على من عصاهم بالانتقام فيظلمهم لكن يؤخرهم إلى يوم معلوم وأجل محتوم، فقال عز وجل: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ۞ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾[2] فجعل صفوة الصفوة من العالم الجسماني النطقاء السبعة: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، والقائم صلوات الله عليهم، وجعلهم أصحاب شرائع وأحكام، وحلال وحرام، ثم جعل بين هؤلاء النطقاء الستة ثلاثين نبياً مرسلين مبشرين ومنذرين، وما شرعوا شريعة، ولا حولوا قبلة، ولا بدلوا أحكاماً، غير أنهم متبعون لما جاءت به النطقاء الستة عليهم السلام، وعلى الأئمة من ذريتهم، ثم جعل بين الناطق السادس، وبين القائم السابع عليهما السلام أئمة ظاهرين ميامين، عاملين في شريعته، لم يبدلوا ولم يغيروا، ولم يحولوا قبلة، كما تقدمهم من الأنبياء بين النطقاء الخمسة وبين السادس، سنة الله جارية في عباده، ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾[3]، وخص محمداً ﷺ فقال: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾[4] فقال النبي ﷺ: «لم يؤتهن أحد قبلي».

---

(١) مريم: ٣٧.

(٢) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) فاطر: ٤٣.

(٤) الحجر: ٨٧.

ثم جعل للنطقاء والأنبياء والأئمة في كل عصر وزمان أربعة وعشرين حجة، منها إثنتا عشرة حجة ظاهرة، ومثلها إثنتا عشرة حجة باطنة، ثم مراتب الإيمان وهي: المؤمن المحرم، والمؤمن المحل، والمأذون، والجناح، والحجة، فذلك تسعة وتسعون حداً، عدة تفسير أسماء الله الحسنى، جعلنا الله وإياك ممن عرف حدودها، وأدى حقوقها، واتكل عليها، واطمأن لما فيها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وبعد فالواجب يستحق على العاقل أن يأخذ نفسه بنفسه، ويطلبها بما لها وعليها، ولا يوبقها بمعصية من خلقها، فيدخلها في عالم البوار في هذه الدار، وهو العالم المنجوس المنكوس، ويحرقها في معادها في النار التي ﴿وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾[1]، ألا وإن المنافقين والناكسين والمارقين والجاحدين لأولياء الله في الدرك الأسفل من النار، وهي النار التي ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[2]، فبادروا رحمكم الله قبل طلوع نجم مشرقها، فقد طلعت الشمس من مغربها، فإذا طلع فحينئذ لا يقبل الله توبة، ولا يقبل عثرة، ولا يرحم غربة، وتراهم ﴿سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[3]، وأنت سالم من قبل ﴿أن يكشف عن ساق﴾[4]، ويدعى ﴿إلى السجود﴾[2] الذين خالفوا وتكبروا على أولياء الله وجحدوا آياته، ﴿فلا يستطيعون﴾[2] فتراهم ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾[2] فاستدرجهم الله ﴿من حيث لا يعلمون ۝

---

(١) البقرة: ٢٤.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) الحج: ٢.

(٤) القلم: ٤٢ ـ ٤٣.

وأملي لهم إن كيدي متين﴾[1] ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ وجعلهم ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين﴾[2]، وهذا شيء رأيناه عيانا في أيام إمام عصرنا المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتجبين، فاعتبروا يا أهل البصائر والألباب، وانظروا إلى ما صنع الله بدولة الجهل وأعوانها وكيف أخرجهم ﴿من صياصيهم﴾[3] فـ ﴿كم تركوا من جنات وعيون ۞ وزروع ومقام كريم ۞ ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾[4] فأورثها الله لقوم آخرين، كانوا مستضعفين في الأرض، فتمم الله لهم ما وعدهم به حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾[5].

واعلم يا أخي أن مكر الله عظيم، ﴿فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿افامنوا ان تاتيهم غاشية من عذاب الله﴾[6] فتبهتهم ﴿او تاتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾[7]، وقد بين الله أمر التدبير فقال: ﴿قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين﴾[8].

---

(١) الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) الحشر: ٢.

(٣) الأحزاب: ٢٦.

(٤) الدخان: ٢٥ ـ ٢٧، ولنظر أيضاً آية: ٢٨.

(٥) النور: ٥٥.

(٦) الأعراف: ٩٩.

(٧) يوسف: ١٠٧.

(٨) يوسف: ١٠٨.

اعلم علمك الله الخير، أن للشرك على وجوه شتى:

باب الشرك بالله:

نعوذ بالله من الشرك، وقد روي عن النبي ﷺ وعلى آله أنه قال: الشرك بالله أخفى من دبيب النملة السوداء على الصفا في الليلة المظلمة على المسح الأسود، **فأكبر درجات الشرك:** من جعل لله شريكاً في ملكه أو معيناً على قدرته، أو مشيرا في أمره، لأنه **﴿إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**[1]، وقال: **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**[2] وقال: **﴿قل هو الله أحد ۝ الله الصمد ۝ لم يلد ولم يولد ۝ ولم يكن له كفوا أحد﴾**[3].

والدرجة الثانية: أن تجعل الملائكة كلهم سواء، وكيف ذلك وقد بين الله مراتبهم فقال: **﴿وقالوا اتخذ الرحمنٍ ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ۝ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**[4]، فهؤلاء القائلون بهم: خلق الله ما يرى ودرى في السموات العلى، وفي الأرضين السفلى، وجعل ملائكة عالين عن العمل، فقال في قصة إبليس لعنه الله لما قال له: اسجد لآدم فـ **﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾**[5]، فقال له: **﴿استكبرت أم كنت من العالين﴾**[6]، فأخبرك أن من الملائكة من علا عن العمل.

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) الإخلاص: ١ ـ ٤.

(٤) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

(٥) الحجر: ٣١.

(٦) ص: ٧٥.

ثم الدرجة الثالثة: مرتبة الإمام صلى الله عليه وسلم، إن من جعل له نداً أو عديلاً فقد أشرك، وكذلك روي عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه قال: لم يشرك بالله طرفة عين، لأنه ما اتصل بغير دعوة رسول الله ﷺ، ولم يداخله فيها شك ولا إرتياب.

وبيان ذلك أن مصعب بن الوليد لعنه الله لعناً وبيلاً ـ وهو فرعون موسى ﷺ، أنه وقع بالإثم، لأنه فرغ من العلوم، فرأى أنه في أعلى الدرجات، فلما ورد عليه موسى صلى الله عليه وسلم وأراد مخاطبته جمع أهل مملكته من بني إسرائيل، وهم ألف ألف وستمائة ألف وأربعة وعشرون ألف، وهم الذين استنقذهم موسى عليه السلام من الظلمات إلى النور، وذكرهم بأيام الله، ولم يدخل في هذا العدد من جاوز الخمسين ولا من نقص عن العشرين، وإنما وقع العدد على الرجال والشباب والكهول، وذلك أن فرعون لما بهره موسى عليه السلام قال له من كان حوله: ﴿ارجه وأخاه وارسل في المدائن حاشرين ۞ يأتوك بكل ساحر عليم﴾[1]، وكان علماء الأمة في ذلك الوقت أربعمائة وعشرين حكيماً، فحاججهم موسى عليه السلام فقطعهم وبهرهم، كقطعه لفرعون، فجعل العلم لموسى وحده، ولم يكن مثله في عصره وزمانه، وجعل الناس كلهم له تبعاً، وكذلك الإمام في كل عصر وزمان، هو الأوحد المؤيد من قبل الله، فكل من جعل له نداً أو عديلاً، فقد أشرك كشركه بالله العظيم، وذلك أنه لما عاين السحرة ما عاينوا، وعرفوا حقيقة ما أنكروا، ألقوا بأنفسهم ساجدين،[2]، وإنما أراد بالسجود التسليم، ﴿قالوا آمنا برب

---

(١) الأعراف: ١١١ ـ ١١٢.

(٢) انظر الأعراف: ١٢٠، وطه: ٧٠.

العالمين ۞ رب موسى وهرون ۞﴾[1]﴿قال آمنتم له قبل ان آذن لكم﴾ ﴿لأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾[2]، وهوى أن يردهم تحت أمر الدعاة الذين كانوا له، فآثر القوم دار البقاء على دار الفناء، وقالوا له: ﴿اقض ما انت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾[3]، وثابوا إلى عفو الله وغفرانه، والدخول تحت أمر وليه، فظفروا بالبغية، وقد تكلمنا بما سنح في هذا الوقت من باب الشرك، وفوق كل ذي علم عليم.

باب بدء العالم:

ثم إنا نبتدئ بشيء من ذكر بدء العالم، وبيان رتبة القائم المهدي صلوات الله عليه وعلى كافة المؤمنين، حسب ما يقتضي سؤالك في هذا الفصل:

إن الله تبارك وتعالى لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يتعبدهم هزواً، ولم يترك شيئاً من أمورهم سدى[4]، ولم يكلهم إلى أنفسهم، فيُكَلَّفون ما لا يطيقون، ويطالبهم بما لا يجدون، جل ربنا وتعالى عن ذلك ﴿علواً كبيراً﴾[5]، وقال الحكيم: إن ما أوله الفكرة آخره الصنعة، ومثل ذلك مثل رجل أراد أن يتخذ باباً، فأخذ ثمرة من الثمار، فدفنها في الأرض، وسقاها الماء، فحالت عن لونها، وتغير طعمها، وانتبع منها ينبوع كلسان

---

(١) الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢.

(٢) طه: ٧١.

(٣) طه: ٧٢.

(٤) انظر سورة القيامة: ٣٦.

(٥) الإسراء: ٤٣.

العصفور، وانفلق ذلك الينبوع فرقتين كالورقتين، ثم إنه انتبع من الينبوع قضيباً متخشناً، له لب وقشر، ولم يزل صاحبه يتعاهده متفقداً له، إلى أن صار ذلك القضيب شجرة مورقة، فلولا أن لها صانعاً مع النمو الذي فيها لزهت بنفسها على نفسها، فلما بلغت الأجل، ذلك الذي أراد فيها، قَطَعَها ونثر أوراقها، واستخرج صانعها ما أراده منها ـ وضرب للناس فيها مثلاً ـ، فرمى بقشورها، وركب المنشار على اللب، فاستخرج منها ألواحاً، وصوَّر منها الباب الذي كان في فكرته.

وكذلك كان في فكرة الباري تبارك وتعالى، مع أنه ذاته لم تزل علاّمة بأزلية الأزل، لأنه كان قبل أن قيل كان، لا في مكان، قبل الدهور والأزمان، لم يخف عليه ما كان وهو ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾[1]، ﴿**وهو اللطيف الخبير**﴾[2].

فلما أراد تبارك وتعالى إبراز الأشياء من العدم إلى الوجود خلق العقل الفعّال، ولم يكن حينئذ مكان ولا زمان، ولا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا ليل داج، ولا نهار وهاج، فسمك السماء ﴿**فسواها ۝ واغطش ليلها واخرج ضحاها ۝ والأرض بعد ذلك دحاها ۝ اخرج منها ماءها ومرعاها ۝ والجبال ارساها**﴾،[3] ثم خلق في السماء ملائكة عظاماً جساماً، وخلق بإزائهم ملكاً، وجعل له حداً عظيماً، وهو مبتدأ الأرواح، وإليه منتهاها، فقال: ﴿**يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلاّ من اذن له الرحمن وقال صواباً**﴾[4]، وروي عن

---

(١) غافر: ١٩.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

(٣) النازعات: ٢٨ ـ ٣٢.

(٤) النبأ: ٣٨.

رسول الله ﷺ أنه قال: تقوم الملائكة صفاً، ويقوم ذلك الملك فيكون بإزائهم، فاعرف رحمك الله هذه الإشارة لتكون تحت ﴿سدرة المنتهى ۞ عندها جنة المأوى﴾[1].

ثم إنه خلق في الأرض أجناس الحيوان، جنساً من بعد جنس، فكان آخر المطبوعات صورة الإنسان، وهو حينئذ عالم مظلم لا بصيرة فيه، محترق محتقر لا نور فيه، ولأجل ذلك قال: عبدان نضر الله وجهه في كتابه الذي سماه كتاب الإبتداء: سماهم عالم الحريق، فلما ازدوج به هذا الجوهر اكتسب هذا النور، وكذا يروى في الحديث أن آدم صلى الله عليه لما هبط من الجنة مسخوطاً عليه كان أسود اللون، فلما تلقى من ربه الكلمات[2] التي تاب بها عليه إبيضّ ثلثه، في أول يوم، وفي اليوم الثاني، الثلثان، وفي اليوم الثالث، إبيضّ كله، وقد كان الله عز اسمه قادراً أن يبيضه كله في يوم واحد، أو في ساعة واحدة، أو أقل من طرفة عين لكنه تبارك وتعالى جعل لكل مثل ممثولاً، ولكل ظاهر باطناً، وكان ذلك العالم الذي وصفناه مثله مثل البهائم التي إن ملكت أنفسها كانت سائبة، وإن هي ملكت كانت مسخرة، وإن استعملت عملت، وإن أهملت هملت، فلما أراد الله عز وجل ما أراد من إحداث هذا العالم، أمر العالم العلوي الإطلاع إلى العالم السفلي، فكان كالعبد القائم بين يدي مولاه، المحرم في محرابه، وكان اطلاعه كالمنحني الراكع الناظر إلى موضع سجوده ثم عاد قائماً راجعاً إلى ربه، سائلاً مبتهلاً حامداً له أن يأمره بالمزاوجة للعالم السفلي، فأذن له، فخر هاوياً كإنجذاب الساجد في صلاته

---

(١) النجم: ١٤ ـ ١٥.

(٢) انظر سورة البقرة، الآية: ٣٧.

وكذلك قال رسول الله ﷺ: أقرب ما يكون العبد من ربه إذا كان ساجداً، وقد بينا هذا الخبر في صدر كتابنا هذا[1]، في باب الصلاة، في ذكر السجود والركوع، وأن السجود في ذاته حدان، والركوع حد واحد ـ فلم يطق الرجوع إلى عالمه، فأمر بالعمل، فمن عمل بما أمر به ألحق بعالمه، وهو غانم مسرور، ومن لم يعمل لم يلحق، ومكث في أسفل سافلين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنات نعيم ۞ وأما إن كان من أصحاب اليمين ۞ فسلام لك من أصحاب اليمين ۞ وأما إن كان من المكذبين الضالين ۞ فنُزُلٌ من حميم ۞ وتصلية جحيم ۞ إن هذا لهو حق اليقين ۞**﴾[2] وقال: ﴿**كلا إن كتاب الفجار لفي سجين**﴾[3] وقال: ﴿**ثم رددناه أسفل سافلين**﴾[4] ومثل هذا في كتاب الله كثير.

وكان بروز الولد من بطن أمه من بعد أن خلقه خلقاً من بعد خلق، في ظلمات ثلاث، وكان بدء خلقه من نطفة خرجت من بين صلب وترائب[5]، انتقلت إلى قرار مكين[6]، إلى قدر معلوم، وأجل محتوم، ثم إنه خلق ﴿**النطفة علقة**﴾، فخلق ﴿**العلقة مضغة**﴾، فخلق ﴿**المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك أحسن الخالقين**﴾[7]، وكان غذاؤه في بطن أمه فرث ودم، فلما بلغ القدر

---

(١) انظر ما تقدم ص: ٢١٣.

(٢) الواقعة: ٨٨ ـ ٩٥.

(٣) المطففين: ٧.

(٤) التين: ٥.

(٥) انظر سورة الطارق، آية: ٧.

(٦) انظر سور المؤمنون، آية: ١٢.

(٧) المؤمنون: ١٤.

المعلوم، والأجل المحتوم، وأن وقت بروزه خرج على أم رأسه كالهابط من السماء إلى الأرض جسداً لا روح فيه، وكان هبوطه وهبوط الروح العلوي في وقت واحد أسرع من البرق الخاطف، لا فرق بينهما إلاّ ما شاء الله، فازدوج الجسم والنفس فصار شيئاً واحداً، واتحد كل واحد منهما بصاحبه، فلا يفرق بينهما إلاّ من كان له سبب من الله[1].

وكان هبوط الولد من بطن أمه، وهو مخلوق من ستة أجناس كسائر الحيوان، فلما ازدوج به السابع نفس عن سائر الحيوان، وكان أنفسها وأعلاها وأجله وأكرمها عند الله، قال الله تبارك وتعالى: **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾**[2].

واعلم أن المولود إذا خرج من بطن أمه، ولم يعطس لم يورث مال أبويه، وإذا مات لم يصل عليه، وكذلك إذا عطس الإنسان وجب عليه أن يحمد الله تبارك وتعالى، ووجب على من سمعه أن يرحمه، وإن كان عليلاً قلّ عطاسه، وإن عطس قيل له: أفرقتنا عليك، وكذلك المولود إذا عطس بكى واضطرب كاضطراب الفرخ إذا خرج من وكره، فذهبت أوهام العامة أن بكاءه لمفارقة الجوف الذي كان فيه، وليس كما قالوا، لأنّا رأينا المولود وهو في بطن أمه ليس له نطق، وإنما اكتسب النطق وقت خروجه إلى هذا العالم، وأن البكاء للروح التي فارقت عالمها النفيس، فبكاؤها أسفاً منها عليه، لأنها اتصلت بعالم نحس، وكان اضطرابها طلب الرجوع إلى عالمها الذي بدأت منه، ولم يكن لها إلى ذلك سبيلاً، ألا ترى أن

---

(١) الاقتباس من الفكر المانوي بين هنا بشكل جلي.

(٢) الإسراء: ٧٠.

المولود إذا ولـد نبـا واضطـرب، وقمـط بالقمـاط، دل علـى أن المسـتجيب للمسترشد، إذا وصله بمعرفة ولي، شدّه بالعهود والمواثيق، وغذي بلطيف الأغذية، وقرأ العلوم السفلية إلى أن يرتقي إلى العالم العلوي، فما كان الله ليضيع سعياً لأن الله تعالى قـال: ﴿إلا لا نضيع اجر من احسن عملاً﴾[1]، فأمره بأمر، وافترض عليه فرائض إن هو قام بها لحق بعالمه الذي بدأ منه، وإن هو لم يعمل بما أمره به، ولـم يـؤد مـا افـترض عليـه، بقي في عالم البوار، قال الله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى﴾[2]، فذهبت أوهام العامة إلى هذه الأجسام الظاهرة المتلاشية، وإنما أراد بها الأرواح الباقية، التي ابتدأنا منها، وإليها نعود، مع أوليائه الطاهرين، الأئمة الراشدين، علينا سلامهم أجمعين.

واعلم أن من بقي في عالم البوار كان في العـذاب الأليـم، مثلـه مثـل آل فرعون، يعرضون على النار بكرة وعشـيا، ويـوم القيامـة ﴿ادخلوا آل فرعون اشد العذاب﴾[3]، فلا يذهب وهمك يرحمك الله إلى ما ذهب إليه أهل التناسخ، ولولا كراهة التطويل لتكلمنا على مراتبهـم، وبينـا عوارهـم، وقد سبق ذلك في كتاب المعاد ما فيه غناء عن ذكـره هـا هنـا، وهـذا مـن قول مولانا الإمام المعز لدين الله، أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، وهـو إمام عصرنا وزماننا، لأنه عليه السلام لعن رجلين، من قال عنا آلهة، ومـن قال عنا بالتناسخ، فحسبهم جرماً إذ لعنهم الإمام عليه السلام.

ثم إنا نعود إلى الكلام، ونروي بأن المولـود إذا خرج مـن بطـن أمـه

---

(١) الكهف: ٣٠.

(٢) طه: ٥٥.

(٣) غافر: ٤٦.

خرج بسبع حواس، وهي: العينان، والأذنان، والمنخران، والفم، فتلك سبعة، فإذا أبصر في العينين، قال بلسانه: أبصرت، وإذا سمع بأذنه، قال بلسانه: سمعت، وإذ شم بأنفه، قال بلسانه: شممت، فكان اللسان هو المترجم عن السبع حواس.

وكذلك ذكر المنجمون أن الكواكب سبع طوالع، وإثنا عشر برجاً، وقال الله عز وجل :﴿خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾(1) في اليوم السابع.

واعلم يا أخي أن الله تبارك وتعالى، لم يزل ولن يزول، ولا تغيره الدهور، خلق المكان، وأبدع العيان، وكون الزمان، وإنما أراد بهذا، الأيام الباطنة، ليس الأيام الظاهرة التي عدت بها الشهور والسنين كما قالت العامة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾(2)، فما رأينا ولا سمعنا للحاكة ولا للحجامين أيام ولا دولة، وإنما أراد بالأيام أناس الستة النطقاء، وسابعهم القائم عليه السلام، وهم الذين أنست بهم قلوب العالمين، واطمأنت إليهم قلوب العارفين.

فأول الأيام الأحد، وهو الآدم عليه السلام، وآخرها السبت، وهو القائم عليه السلام، وهكذا قال موسى لقومه: بخ بخ ليوم السبت، وإن يوم السبت يوم راحة، فعرفوا المثل وضيعوا الممثول، وله في وصاياه لبني إسرائيل مثل هذا، ومن ذلك قوله: ازرعوا الأرض ست سنين، وبوروها في السنة السابعة، واستخدموا العبيد ست سنين، وأعتقوهم في السنة السابعة، وكذلك قال المسيح صلى الله عليه: فانتقموا مني في أني

(1) الأعراف: ٥٤.

(2) آل عمران: ١٤٠.

أحل يوم السبت، وقال: والله ما جئت لأحله بل جئت لأشده، وأعلمك أن من جهة السابع خلق الله الست نطقاء، وجعل بين هؤلاء النطقاء أئمة مستورين، وقال: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ۞ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾[1]، فأعلمك كما ترى أن لكل وفد إماماً يقوده ودليلاً، وأن المجرمين لا هادي لهم، وأعلم أنهم يساقون إلى الجحيم كما تساق الغنم إلى شفير الماء الجاري، وقال الله تبارك وتعالى لموسى بن عمران صلى الله عليه: ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله﴾[2]، وما كان القوم جاهلين بالأحد والإثنين، والثلاثاء، وما كانوا كما زعمت اليهود لعنهم الله أن الرجل منهم من بني إسرائيل كان يأتي الرجل من آل فرعون فيقول له: ما بالكم توقدون السراج بالنهار؟ فيقول الذي من آل فرعون: وأين النهار، أما تراه ليلاً مظلماً، وهذا دفع العيان، وإنما أراد الله عز وجل إخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة والحكمة، وأراد بالأيام الأئمة الذين بهم نجا من نجا، وهلك من هلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن اوتي كتابه بيمينه فأولئك يقراون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً ۞ ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلاً﴾[3]، وما قد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما يحاسب الله من العباد واحداً، والواحد يحاسب الستة، والستة يحاسبون العباد كلهم».

واعلم يا أخي أن الناس في أمر ذلك الواحد مختلفون، مذ تفرقوا

---

(١) مريم: ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) إبراهيم: ٥.

(٣) الإسراء: ٧١ ـ ٧٢.

فيه فرقاً، وتحزبوا فيه أحزاباً ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[1] ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾[2] قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿إني أنا الله لا إله إلاّ إنا فاعبدني واقم الصلاة لذكري ۞ إن الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ۞ فلا يصدّنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾[3] وهو ﴿اليوم الآخر﴾[4]، و﴿وهو يوم الآزفة﴾[5]، وهو يوم ﴿الطامة الكبرى﴾[6]، وهو ﴿النبأ العظيم ۞ الذي هم فيه مختلفون﴾[7]، وعن دعوته غافلون، وعن صراطه ناكبون، ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾[8]، وله علينا وعلى كافة المؤمنين سلامه.

باب القائم علينا سلامه:

قد ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز له ثلاثمائة وستين اسماً، يعرفها العارفون، ويعمى عنها الجاحدون الجاهلون، حتى أن الصفوة الذين اقتفوا آثار الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين اختلفوا فيه، فزعمت طائفة منهم أنه جسماني غير مؤيد، واحتجوا على ذلك وقالوا: إنه مقتف آثار أبيه رسول الله ﷺ، مقتبس من علمه، لا يحكم إلاّ بما وصى به إليه جده

---

(١) الروم: ٣٢.

(٢) مريم: ٣٧.

(٣) طه: ١٤ ـ ١٦.

(٤) ورد ذكره كثيراً في القرآن.

(٥) غافر: ١٨.

(٦) النازعات: ٣٤.

(٧) النبأ: ٢ ـ ٣.

(٨) مريم: ٣٧.

عليه أفضل الصلاة والسلام، وكيف يكون ذلك وقد أعطاه الله تبارك وتعالى ما لم يعط لأحد غيره، لقوله عز وجل: ﴿**ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾[1]، ولا يكون أفضل من فاضل، وتحقيق ذلك أن سائر النطقاء والرسل والأنبياء والخلفاء من الأئمة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ كلهم مبشرون ومنذرون به، داعون إليه.

وقالت طائفة أخرى: إنه روحاني منتقل عن الجسماني، وهم الجم الغفير، واحتجوا على ذلك بحجج، وذلك أنهم ذكروا في كتبهم أنه منقلب روحاني كانقلاب الثاني.

وقالت طائفة أخرى أيضاً: إنه سابع سبعة من آدم، وثامن ثمانية من علي، واحتجوا على ذلك في باب الحساب، أنه على سبعة أوجه، فأولها آحاد، عشرات، ومئات، وألوف، وألوف الألوف؛ فالآحاد دليل على آدم، وهي حده، والعشرات على نوح، وهي حده، والمئات على إبراهيم، وهي حده، والألوف على موسى، وهي حده، وعشرات الألوف على عيسى، وهي حده، والمئات الألوف على محمد، وهي حده، وألوف الألوف على القائم، وهي حده، وإنما يقال باللسان، فكذلك قالوا: إنه منقلب عن الجسماني.

فأما قولهم: إنه سابع سبعة من آدم، وثامن ثمانية من علي عليه السلام، فقد أبطل أصحاب هذه المقالة ﴿**سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾[2] ﴿**ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾[3]، وسيرته في أوليائه، لأنهم احتجوا في كتاب الله، وفي كتبهم

---

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) الفتح: ٢٣.

(٣) فاطر: ٤٣.

أن يكونوا ستة أئمة ناطقاً ناطقاً، والله تبارك وتعالى مَنّ على نبيه محمد ﷺ، بجميع ما أعطاه من النبوة والرسالة، ورفع درجته على من قبله، كما منّ عليه، لقوله عز وجل: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾، وإن كان عليهم في ضربهم المثل، وقولهم منقلب روحاني لإنقلاب الثاني، أرادوا بالثاني علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه وعلى الأئمة من ولده، ولقد رأينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قبضه الله تبارك وتعالى كما قبض سائر الأنبياء والأوصياء، ثم إنهم يقولون بإمام مضى، وكذلك: إن الله عز وجل قبضه إليه، كما قبض من قد سلف من أمثاله، ليجزي الله عز وجل ما وعده لنبيه محمد ﷺ، أنه قبض في سنة عشرين ومائتين من سنين الهجرة، وإن كانوا زعموا أنه يجئ روحاني، فلا فرق إذاً بين وليه وعدوه، إذا كانا محجوبين عن النظر إليه، وإن كانوا أجمعوا عليه، واحتجوا به صلوات الله عليه، أنه قبض في دار الهَجَرة بني العباس، وهي بغداد، ودفن بالخيزرانية، وقبره بها لم يزل إلى اليوم، وقفنا على هذا.

وقولهم إنه يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وهذه سنة تجدها في الأولين فتطلبها، أو في الآخرين، وكيف يكون روحانياً يقيم الحدود على الجسمانيين، مع قطع السارق، وجلد الزاني، وحد المفتري، وقتل القاتل؟!

واعلم يا أخي أن الله خلق الدارين: الدنيا والآخرة، وجعل الدنيا ظاهرة، والآخرة باطنة، فدل بما ظهر على ما بطن، فالدنيا للجسمانيين لأنه عز وجل خلقها ﴿وبث فيها من كل دابة﴾[1] ﴿إن في ذلك لآيات

---

(١) البقرة: ١٦٤.

لقوم يتفكرون﴾[1] وجعل الآخرة للعالم الروحاني، باقين فيها مؤبدين.

وأما احتجاجهم وضربهم المثل بأمير المؤمنين علـي بـن أبـي طـالب صلوات الله عليه، لقد رأينـاه فـي عصـره وزمانـه قطـع السـارق، وجلـد الزاني، وحد المفتري، وأقام الحدود، وجاهد فـي اللـه حـق جهـاده، حتـى قبضه الله - صلوات الله عليه - وإن كان ولا بد من الرجوع روحانياً، فهـو أحق بذلك بإجماع الأمة، وكان هو قادراً عليها، لما أن كان في الجسماني، وله ما لم يكن لأحد غيره، حتى قالت الغلوية ما قالوا.

وأما احتجاجهم، وضربهم المثل بأمير المؤمنين علي بـن أبـي طـالب صلوات الله عليه، واحتجاجهم في باب الحساب، فلعمري إنهم عرفوا المثل وضيعوا الممثول، لأنهم قالوا: الحساب على سبعة وجوه، كما أن النطقـاء سبعة، أولهم آدم وآخرهم القائم صلوات الله عليهم أجمعين، فالآحاد لآدم، وألوف الألوف للقائم سلام الله عليه، وقد ذكرنا في صدر هذه الرسالة أن اللسان هو المترجم عن الحـواس الستة، فكذلـك صـار حـده صلـوات اللـه عليه يوجد باللسان مرتفعاً عن أن يوجـد بـالأيدي، وإذا كـان اللسـان هـو المترجم عن الأذنين، والعينين والمنخرين، فقد صحح لنا الحدود نضر اللـه وجوههم ورفع درجاتهم أنـه الـذي يبيـن للمجوسـي مجوسـيته، وللصـابئ صابئيته، ولليهودي يهوديتـه، وإلـى النصرانـي نصرانيتـه، وإلـى المسـلم حنيفيته، وقد أصابوا في قولهم: إن حده ألوف الألوف، إن كان هذا الحد لا يوجد إلاّ بهذه الحاجة، وإن كانت هي الدالة عليه، وقد ثبت ما غاب عـن القوم المقتفين لآثار المحمودين، وفوق كل ذي علم عليم.

---

(١) الرعد: ٣.

وقد رأينا أيضاً في عصر رسول الله ﷺ أنه كان يحضر مجلسه الموافق والمخالف، ويأتيه المؤيد له روحانياً، فلا يراه موافقاً ولا مخالفاً، غير أن الموافق محقق به، لعلمه بصدق رسول الله ﷺ، والمخالف يلعنه، والظلمة المعارضة فيه تقول: ﴿معلم مجنون﴾[1] أو ﴿ساحر كذاب﴾[2]، ومثل هذا كثير في كتاب الله، وإذا كان ذلك كذلك فيم يدفع الولي الضد؟

وأما المحتجون بأنه روحاني جسماني فقالوا: إن مثله مثل من سلف من النطقاء أصحاب الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، غير أنه أيده الله بما لم يؤيدهم به، وأعطاه ما لم يعطهم، وذكر الدعاة إليه، والمبشرون به، والمخبرون عنه، أن دوره صلوات الله عليه، آخر الأدوار، إذ كان يومه آخر الأيام، وأنه يجئ بالجسمانية فيحكم في الجسمانية، ويملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، وأن دوره دور القيامة، ومعنى القيامة الآخرة، لأن القيامة تنقسم على وجهين، بأنه إذا ظهر صلوات الله عليه وعلى آبائه كان رحمة للمؤمنين، وسخطة على الكافرين، وحينئذ ﴿ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾[3] ﴿عليها غبرة ۞ ترهقها قترة ۞ أولئك هم الكفرة الفجرة ۞﴾[4] والذين ﴿صدقوا ما عاهدوا الله﴾[5] فرحين مستبشرين[6] ﴿إخوانا على

---

(١) الدخان: ١٤.

(٢) ص: ٤.

(٣) الزمر: ٦٠.

(٤) عبس: ٤٠ ـ ٤٢.

(٥) الأحزاب: ٢٣.

(٦) انظر آل عمران: ١٧٠.

سرر متقابلين﴾[1] **﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾**[2] فلا تـزال دعوتـه قائمـة إلـى أن يـرث **﴿الأرض ومـن عليهـا﴾**[3]، فيجمـع اللـه الأوليـن والآخرين في صعيد واحد، وهـو قولـه: **﴿إنكـم لمجموعـون إلـى ميقات يوم معلوم﴾**[4].

فمعنى القيامة ينقسم على قسمين: **الوجه الأول**، قيامه بأمر اللـه، وظهوره صلوات الله عليه على أعداء اللـه، **والوجه الآخر**، إذا ورث اللـه **﴿الأرض ومن عليها﴾**[7] وهو **﴿خير الوارثين﴾**[5] يحكـم ذلـك الوقـت في الروحانيين، كما حكم في الجسـمانيين، لا علـى مـن كـان فـي عصـره وزمانه له في الروحـانيين، إنـه يحكـم فـي **﴿الأولين والآخريـن﴾**[6]، إذ كان هو صلوات الله عليه سبباً لبدء الإبتداء، وإليـه الانتهـاء، وهـذا بيـان بما سنح لنا في هذا الوقـت مـن هـذا الفصـل الأول فـي هـذه الرتبـة التـي سألت عنها، وقد ذكرت في مسائلك تكراراً لهـذا المعنـى، وقـد أطلـت فيـه الخطاب، وقد قسمنا مسائلك فـي هـذه الرسـالة على ثلاثـة فصـول، كـل فصل على حكم مما سألت، وقد اقتضى الجواب على حكم الفصـل الأول، فالآن نسأل الله الإبانة عما سألت عنه، بعـد شـرحه، فـي الفصـل الثـاني، وبالله التوفيق، بمنه ورحمته، إنه جواد كريم.

---

(١) الحجر: ٤٧.

(٢) النمل: ٨٩.

(٣) مريم: ٤٠.

(٤) الواقعة: ٥٠.

(٥) الأنبياء: ٨٩.

(٦) الواقعة: ٤٩.

الملحق العاشر

هذا الكتاب الموسوم بالمنتزع في الاخبار المختصر في الآثار
في ذكر الائمة الاطهار وسيرة الدعاة الابرار عليهم صلوات العزيز
الغفار ما اظلم الليل واضاء النهار بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي لا يبلغه غوص الفطن الغائصة ولا تحكم
بالخلوص الى معرفته حاكمات العقول الكاملة الناقصة وصلى
الله على موالينا محمد وآله الزبدة الطاهرة الخالصة الذين آتاهم
الله من شؤون الكمال ما يقصر عن كنههم فحص النفوس الفاحصة
وبعد فهذا منتزع في الاخبار ومختصر في الآثار انتزعته
من كتب متفرقة وبسطته على اخبار متسقة وذلك بعد ان
تفحصت كتبا في الاخبار ذات عدة وامعنت في استخراج النكت
الغريبة منها الى مدة فاتيت من الاخبار والآثار بما قد يحسن
ويليق وتركت ما عنه صدر هذا الكتاب يضيق وابتدأت
فيه اولا بذكر اخبار النبي المختار محمد رسول الملك الجبار على ما
بنيته عليه من ايثار الاختصار ثم بذكر اخبار وصيه علي امير
المؤمنين صاحب ذي الفقار ثم بذكر اخبار ولديه الامامين
الحسن والحسين ثم بذكر اخبار الائمة من ولد الحسين واحدا
بعد واحد الى الحادي والعشرين سابع الاشهاد الاطهار ثم
اوردت بعدهم اخبار دعاتهم الابرار ايرادا متسقا الى داعي عصرنا
ومالك امرنا الذي هو بحر نيل النجار ومتيح الفخار المسمى بعبد علي
الملقب بسيف الدين البتار خلد الله سلطانه ووفر حظه من فيوض
بركات امام زمانه وما طلبت في هذا كله الا وجه الله الكريم وهو عون

الصفحة الأولى من كتاب المنتزع من الأخبار

المعصوم الحادي عشر

يقول انما يستحب الفاضل البقاء في الدنيا ليظهر الله عج منه ما هو كامن
من الخير فيعظم ثوابه ويحل في الدار الاخرة قدره والامان الذي له
عند الله عج في الاخرة افضل مما في الدنيا قال لدين الله عج كانت معز م
فيما اوصاني المنصور بالله عم عند وفاته ان قال لي ودع عنك لا من
قبري والاختلاف اليه فان ذلك يبعث الحزن ولا يؤدي الى غاية
الجزم وانما يفعله الجهال من الرجال فان لم يكن لك بد من ذلك فالوقفة
بعد المدة للترحم ثم تنصرف سريعة ومن عرف مصير الارواح لم يلتفت
الى محل الابدان وكانت وفاة امير المؤمنين المنصور بالله عم يوم
الثامن والعشرين من شهر شوال من سنة احدى واربعين وثلثمائة
اسمه مولانا اسمعيل بن مولانا محمد ولقبه المنصور بالله وكنيته ابو الطاهر
وايام امامته سبع سنين وخمسة عشر يوما وتوفي في المهدية وهو
ابن اربعين سنة وشهر واحد واحدى عشرين يوما صلوات الله عليه
ولنذكر نبذا من الاخبار مما كان في ايام الامام المعز لدين الله امير
المؤمنين معد ابي تميم بن الامام اسمعيل المنصور بالله صلوات الله
عليهما وآلهما ولما كان ان افضت خلافة الله الى امير المؤمنين الامام
المعز لدين الله عم قام بالامر وكتم وفاة والده الامام المنصور بالله
من اخر شوال الى عاشر ذي الحجة يوم النحر فخرج لصلوة العيد وعليه
شعار السكينة وهيبة الامامة فصلى صلوة العيدين ثم ارتقى المنبر
وخطب خطبته التي اظهر فيها وفاة والده الامام المنصور بالله عم ثم خرج
عم بعد انقضاء عيد الاضحى وجمع جنده وعبيده فاجتمع الكل الذين من
الاضحى وسمعوا خطبته وفصل عم بتشريف نفسه الى جبل اوراس وذلك

صفحة بداية ترجمة المعز لدين الله من كتاب المنتزع من الأخبار

الملحق الثاني عشر

من أخبار المعز لدين الله الفاطمي من مخطوط كتاب «المنتزع من الأخبار المختص في الآثار في ذكر الأئمة الأطهار، وسيرة الدعاة الأبرار عليهم صلوات العزيز الغفار، ما أظلم الليل وأضاء النهار»

لمؤلف من إسماعيلية البهرة ـ من مكتبة الطائفة الإسماعيلية في السلمية ـ سورية

من الأخبار مما كان في أيام الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين معد أبي تميم بن الإمام إسماعيل المنصور بالله صلوات الله عليهما وآلهما، ولما كانت أفضت خلافة الله إلى أمير المؤمنين الإمام المعز لدين الله، قام بالأمر، وكتم وفاة والده الإمام المنصور بالله مدة آخر شوال إلى عاشر ذي الحجة يوم النحر، فخرج لصلاة العيد، وعليه شعار السكينة، وهيبة الإمامة، فصلى صلاة العيد، ومن ثم ارتقى المنبر، وخطب خطبته التي أظهر فيها وفاة والده الإمام المنصور بالله، ثم خرج بعد انقضاء عيد الأضحى وجمع جنده وعبيده فاجتمع الكل له يوم الأضحى وسمعوا خطبته، وقصد بشريف نفسه إلى جبل أوراس، وذلك في سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة والناس بعقب فتنة على سبيل المعصية، والسبل

خائفة، ولهب نـار الفتنـة لـم يخمـد ورؤسـاء القبـائل الذيـن هـاجوا الحـرب يمتنعـون فـي معـاقلهم فـي الجبـال والأطـراف، فنهـض إلـى المنصوريـة، فأنزلهم من صياصيهم، ودان له ع.م دانيهم وقاصيهم، وقذف الله الرعب في قلوبهم، وملك ع.م علـى جبـل أوراس عنـوه وأجـرى فيهـم مـن حسـن السياسة والعفو فاعترفوا له جميعهـم بـالفضل ودانـوا خـاضعين، وأقبلـوا إليه متواضعين، وكان له في ذلك الفتح والظفر العظيم، وقطـع بـه أسـباب الفساد، ولم يبق له معارض وأتاه محمد بن خزر أمير البربر، وألقى بيده إليه ودخل في دعوة الإمـام ع.م، وأخـذت عليـه البيعة، فشمله مـن كـرم الإمام ع.م وأنعامه ما صار به لـه كـأحد العبيـد المملوكيـن، ونقـل أولاده وعياله وأهل بيته إلى باب الإمـام ع.م وسـار معـه قـواد البربر ووجوههـم طـائعين خـاضعين غـير مكرهيـن، أحبـوا الكـون فـي جملـة الإمـام ع.م وعبيده، وانصرف أمير المؤمنين من سفره ظافراً، ووصل إلى دار مملكته بالمنصورية سالماً غانمـاً، ثـم وصـل ع.م إلـى المهديـة مدينـة جـده ع.م، فأقام بها أياماً، ثم خرج ع.م راجعاً إلى المنصورية، ثم أخـرج ع.م عبده قائد القواد جوهر في جيوش عظيمة فخرج إلـى المغـرب واسـتفتح البـلاد، ونفى أتباع بنـي أميـة والقـائلين بإمـامتهم عنهـا، وكـانت فـي ذلـك فتـوح عظيمة، وانتهى إلى البحر المتوسـط بـالمغرب، وجـاء بالهدايـا إلـى الإمـام المعز لدين الله ع.م، قد جل قدرهـا، ولمـا قفـل بـالجيوش المنصـورة مـن أرض المغرب بعد أن أظفر اللـه ع.م وليـه بـابن واسـول المدعـي الإمامـة، وابن بكر الثالث المتغلب بفاس وفتحها الله ع.ج على وليه ومـا والاهـا مـن أرض المغرب، أخذ ذلك القائد أبناء جميع وجوه أهـل المغـرب ورؤسـاءه هناك رهائن عنده، وقدم بهـم، وجـاء فيهـم بجماعـة مـن الحسـنيين الـذي كانوا يتناسلون هناك من ولد إدريس بن حسن ابن الإمام الحسن ع.م فلمـا وصلوا إلى الحضرة أمر الإمام ع.م بإنزالهم، وكساهم وأمرهم بالجلوس، ثم

قال ع.م للجميع: قد علمتم من أولى إلينا بالنسب منكم إن ذلك إنما يتوسل به من اعتصم بالطاعة وتمسك بها، فأما من عصى أولياء الله وخالفهم فقد انقطع نسبه منهم، كما قطع الله نسب ابن نوح منه لما عصى، ولولا أن الله ع.ج افترض من الطاعة لنا على كافة خلقه وقرنها بطاعته وطاعة رسوله وجعلها دينا تعبد العباد به، وأقامنا لإقامة دينه، داعياً بنا من أطاع منكم ولا من عصى، ولكن إنما نريد بذلك إقامة ما أمر الله ع.ج به من إقامة دينه.

ثم قال ع.م لابن واسول وابن عكرمة لعنة الله عليهما: وإنما أبقاءكما لما أردنا أن يديم الله تع به جسرتكما مدة كونكما في الأسر ونظركما إلى فضل الله ع.ج علينا، وأنه جعلنا أئمة خلقه الذين لا يقبل إلاّ من أقبل عليهم ولا يرتضي إلاّ من ارتضاهم.

قال القاضي النعمان بن محمد: لما أراد الإمام ع.م تطهير أولاده عبد الله ونزار العزيز بالله ع.م وعقيل، تقدم إلى خاصته وأوليائه وسائر جنده وعبيده وجميع رجاله وكافة من بالحضرة من سائر التجار والصناع، وعامة الرعية بالمنصورية والقيروان، وجميع أهل مدن إفريقية وكورها من حاضر وباد، وأمر ع.م بالكتب إلى العمال من لدن برقة وأعمالها إلى سجلماسة وحدودها، وما بين ذلك مما حوته مملكته إلى جزيرة صقلية، وإلى من بها من طبقات الناس من حضر وبدو، أن يتقدموا في طهور أبناءهم يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى انقضاء هذا الشهر، وأمر أن يحمل إلى كل بلد من هذه البلدان من الحضرة أموالاً وخلعاً تفرق على كل من طهر من أبناء المسلمين من خاص وعام، فكان الذي حمله إلى صقلية من المال خمسين حملاً سوى الخلع، ومثل ذلك إلى كل عامل ليفرقه على أهل عمله، فتقدم في طهور أولاده يوم الثلاثاء هذا المذكور، وجلس بنفسه الزكية لطهور

سائر أولاد أهل الحضرة ومن يليها من البوادي، واعتزم ع.م أن يصل الطهور أيام هذا الشهر كله، وذاع في الناس إنه من لم يطهر ولداً يكون عنده في هذا الطهور ثم يطهره بعد ذلك لمدة سبع سنين فقد أنف عن فضله وخالف أمره، فسارع الناس بأبنائهم وعبيدهم عن كافتهم، وكان ع.م يجلس من وقت الغداء فلا يزال جالساً، وهم يطهرون ويمرون بين يديه فيكسون ويصلون، لا يخل من ذلك شريف ولا مشروف، ولا حر ولا عبد، ولا قريب ولا بعيد ولا حاضر ولا باد، والختانون في السرادقات على الكراسي، وبين أيديهم المنابر لجلوس الصبيان، والقوم يمسكونهم في حجورهم، وكان الذي أعطاه الخاصة من الخلع والصلات على أقدارهم ما يتفاوت، وكان الذي أعطى العامة من الصلة غير الكسوة لكل صبي منهم مائتي درهم إلى مائة وخمسين، وأقل ما أعطاه المجهولون من أهل البوادي ونظرائهم وعبيدهم كل صبي منهم عشرة دراهم، وكان يطهر في كل يوم من أيام هذا الشهر منهم عشرة آلاف صبي إلى خمسة عشرة ألف صبي وأقل من ذلك، وأكثر الناس الخصوص في ذلك وتعاظموه، وأجمعوا في ابتداء الأمر أن ذلك لا يتم، وأن الأموال لا تنهض به، وذكروا لكثرة ما رأوه من الخلائق أن ذلك لو وصل حولاً لما انقطع الناس ولا أتى إلى آخرهم فيه، وكنت فيمن تعاظم ذلك وتداخله الاشفاق منه، وعرضت يوماً بذكر ذلك، فقال: يا نعمان طب نفساً فقد عزلنا لهذا مالاً نرى أن يأتي على نفقته فيه بأسره، والله ما هو من شيء كنا وجدنا لإخراجه نقصاً، وما هو مما كنا نلتفت إليه من ذخائرنا ولا من ذخائر الآباء ع.م، وهذا شيء أردنا به وجه الله عز وجل، وإقامة فرضه، وإحياء سنة جدنا محمد رسول الله ﷺ وملة خليله إبراهيم ع.م، والله ما أردنا بذلك إلاّ الله والقربة إليه، وكان من صنع الله له أنه لما كان يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الأول هذا انقضى جميع من كان بالحضرة، ومن حضر إليه من البوادي، واجتمع

ذلك اليوم من الصبيان زهاء اثني عشر ألفاً، وطهروا عن آخرهم، وتلاحق من الأولاد من بقايا من بقي مثله ثلاثة آلاف، فرآهم المعز لدين الله ع.م من منظر كان له، وقد اجتمعوا بباب القصر، فأمر بتطهيرهم فانقضى أمر جميع الناس عن آخرهم في الوقت الذي وقته لهم، وأخرج في ذلك من الخلع والأموال ما لا يحصيه إلاّ من وقف عليه، وكانت أيام أعياد في كل جهة من مملكة أمير المؤمنين ع.م من بدو وحاضر، وعمهم فضله، ودخلت المسرة على كل بيت منهم، وكان له أثر جميل لم يسبقه إليه أحد قبله ع.م، ولا أحد سبق له مثله.

قال النعمان بن محمد: أما من مصر فإنه كان ملكها للأخشيدية، والخطبة فيها والدعوة للخلفاء العباسية، صاحبوا بغداد، فلما مات الأخشيدية صار ملك مصر إلى عبده الأستاذ كافور، وعقد له المطيع العباسي على مصر، فهدى الله الكافور إلى ولاية الأئمة من آل الرسول صلعم وطاعة أمير المؤمنين المعز لدين الله ع.م....

الملحق الثالث عشر

اسمعيل بن محمد القايم بن عبيد الله المهدي ويعرفون الى الان باصحابهم انهم من اصحابه الى ان افتتح كونهم جوهر القايد
جوهر لهم وقتل كثير منهم ولبسوا البيض التي كانت لهم فلما سار المعز لدين الله الى القاهرة بعد ما تقدم من المغرب
وقد سبق اخبار القرامطة كتب الى الحسن بن احمد القرمطي كتابا نسخته من عبد الله ووليه وخيرته وصفيه
معد ابي تميم المعز لدين الله امير المومنين وسلالة خير النبيين ونجل علي افضل الوصيين الى الحسن بن احمد بسم الله الرحمن الرحيم
رسوم النطقا ومذاهب الائمة والانبيا ومسالك الرسل والاوصيا السالف والانف منا صلوات الله علينا وعلى ابائنا
اولي الايدي والابصار ومتقدم الدهور والاكوار وسالف الازمان والاعصار عند قيامهم باحكام الله وانتصابهم لامر الله
الابتدا بالاعذار والانتها بالانذار قبل انفاذ الاقدار في اهل الشقاق والاصرار لتكون الحجة على من خالف وعصى
والعقوبة على من باين وغوى حسب ما قال الله عز وجل وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وان من امة الا خلا فيها نذير
وقوله سبحانه قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين [illegible]
فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق اما بعد ايها الناس فانا نحمد الله بجميع محامده ونمجده باحسن مماجده
حمدا دايما ابدا ومجدا عاليا سرمدا على سبوغ نعمايه وحسن بلايه ونبتغي اليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة على طاعته
والتسديد في نصرته ونستكفيه ممايلة الهوى والزيغ عن قصد الهدى ونستزيده اتمام الصلوات وافاضات
البركات وطيب التحيات على اوليايه الماضين وخلفايه التالين منا ومن ابائنا الراشدين المهديين المهتدين الذين
قضوا بالحق وكانوا به يعدلون ايها الناس قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها ليذكر من تذكر
وينذر من ابصر واعتبر ايها الناس ان الله عز وجل اذا اراد امرا قضاه واذا قضاه امضاه وكان من
قضايه فينا قبل التكوين ان خلقنا اشباحا وابرزنا ارواحا بالقدرة مالكين وبالقوة قادرين حين لا سماء مبنية
ولا ارض مدحية ولا شمس تضي ولا قمر يسري ولا كوكب يجري ولا ليل يجن ولا افق يكن ولا لسان ينطق ولا
جناح يخفق ولا ليل ولا نهار ولا فلك دوار ولا كوكب سيار فنحن اول الفكرة واخر العمل بقدر مقدور وامر في
العلم مبرور فعند تكامل الامر وصحة العزم انشا الله عز وجل المنشات وابدا الامهات من الهيولات فطبعنا
انوارا وظلما وحركة وسكونا وكان من حكم السابق في علمه ما ترون من فلك دوار وكوكب سيار وليل ونهار وما في

الصفحة الحاوية لمطلع رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم من مخطوط

اتعاظ الحنفا للمقريزي ـ نسخة مكتبة أحمد الثالث استانبول.

الصفحة الرابع عشر

بالقرآن شاهداً بالحق والبرهان ومخبراً بما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم مبيناً عن كل متقدمة ومبين
قد تصرفت تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ونوراً وسراجاً منيراً وكل ذلك دلالات لنا ومقدمات بين أيدينا وأسباب
لإظهار أمرنا هدايات وبيانات وشهادات وسعادات قدسيات لا خفيات أزليات كاينات مثبتات
مبينات معبرات بما من ناطق نطق ولا نبي بعث ولا وصي ظهر إلا وقد أشار إلينا ولوح بنا ودل علينا في كتابه
وخطابه ومنار إعلامه ومرموز كلامه فيما هو موجود غير معدوم وظاهر وباطن يعلمه من سمع النداء وشاهد
ورأى من الملأ الأعلى فمن أغفل منكم أو نسي أو ضل أو غوى فلينظر في الكتب الأولى والصحف المنزلة وليسأل
أهل القرآن وما فيه من البيان وليسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم فقد أمر الله عز وجل بالسؤال فقال فاسألوا أهل
الذكر إن كنتم لا تعلمون وقال سبحانه فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا
إليهم لعلهم يحذرون الذي تشعرون قول الله حيث يقول وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون وقوله ذرية
بعضها من بعض والله سميع عليم وقوله عز من قائل شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا
إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ومثل
ذلك في كتاب الله تعالى جده كثير ولولا الإطالة لأتينا على أكثر منه ومما دل علينا وأنبأ عنا قوله عز وجل كمشكاة
فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية
يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم
وقوله في تفصيل الحد الفاصل والأب الكامل محمد صلى الله عليه وعلى آله السلام أعلاماً جليل قدرنا وعلو أمرنا ولعمر
إتيان بين أمرنا لمن في القرآن العظيم بعد أتم ما أشار ولوح وأبان وأوضح في السر والإعلان من كل مثل
مضروب وآية وخبر وإشارة ودلالة حيث يقول وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون وقال
سبحانه وتعالى إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب وقوله عز وجل سنريهم
آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق فإن اعتبر معتبر وقام وتدبر ما في الأرض وما في الأقطار
والآثار وما في النفس من الصور المختلفات والأعضاء المؤتلفات والآيات والعلامات والاتفاقات

صفحة أخرى من مخطوط اتعاظ الحنفا فيها رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم

الملحق الخامس عشر

رسالة المعز إلى الحسن الأعصم زعيم القرامطة
(من مخطوط اتعاظ الحنفا للمقريزي المحفوظ في مكتبة أحمد الثالث استانبول)

«من عبد اللّه ووليه، وخيرته وصفيه، معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، وسلالة خير النبيين، ونجل علي أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد»:

بسم الله الرحمن الرحيم

رسوم النطقاء، ومذاهب الأئمة والأنبياء، ومسالك الرسل والأوصياء السالف والآنف منا، صلوات الله علينا وعلى آبائنا، أولي الأيدي والأبصار في متقدم الدهور والأكوار، وسالف الأزمان والأعصار، عند قيامهم بأحكام اللّه، وانتصابهم لأمر الله.

الابتداء بالإعذار والانتهاء بالإنذار، قبل إنفاذ الأقدار، في أهل الشقاق والآصار، لتكون الحجة على من خالف وعصى، والعقوبة على من

باين وغوى، حسب ما قال الله جل وعز: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾[1] و﴿إن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[2]. وقوله سبحانه: ﴿قل هذي سبيلي أدعو إلى اللّه على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[3].

﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وأن تولوا فإنما هم في شقاق﴾[4].

أما بعد، أيها الناس فإنا نحمد الله بجميع محامده، ونمجده بأحسن مماجده؛ حمداً دائماً أبداً، ومجداً عالياً سرمداً، على سبوغ نعمائه، وحسن بلائه، ونبتغي إليه الوسيلة بالتوفيق، والمعونة على طاعته، والتسديد في نصرته، ونستكفيه ممايلة الهوى والزيغ عن قصد الهدى، ونستزيد منه إتمام الصلوات، وإفاضات البركات، وطيب التحيات، على أوليائه الماضين، وخلفائه التالين، منا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتجبين الذين قضوا ﴿بالحق وكانوا به يعدلون﴾[5].

أيها الناس: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾[6] ليذكر من يذكر، وينذر من أبصر واعتبر.

أيها الناس: إن اللّه جل وعز إذا أراد أمراً قضاه، وإذا قضاه أمضاه، وكان من قضائه، فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحا، وأبرزنا

---

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة فاطر: ٢٤.

(٣) سورة يوسف: ١٠٨.

(٤) سورة البقرة: ١٣٧.

(٥) سورة الأعراف: ١٨١.

(٦) سورة الأنعام: ١٠٤.

أرواحا، بالقدرة مالكين، وبالقدرة قادرين، حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية، ولا شمس تضيء، ولا قمر يسري، ولا كوكب يجري، ولا ليل يجن، ولا أفق يكن، ولا لسان ينطق، ولا جناح يخفق، ولا ليل ولا نهار ولا فلك دوار ولا كوكب سيار.

فنحن أول الفكرة، وآخر العمل، بقدر مقدور، وأمر في القدم مبرور، فعندما تكامل الأمر وصح العزم، أنشأ الله - جل وعز - المنشآت، وأبدأ الأمهات من الهيولات، طبعنا أنوارا وظلما، وحركة وسكونا.

وكان من حكمه السابق في علمه ما ترون من فلك دوار، وكوكب سيار، وليل ونهار، وما في الآفاق من آثار معجزات، وأقدار باهرات وما في الأقطار من الآثار، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع من كثيف ولطيف، وموجود ومعدوم وظاهر وباطن، ومحسوس وملموس ودان وشاسع، وهابط وطالع.

كل ذلك لنا ومن أجلنا، دلالة علينا، وإشارة إلينا، يهدي به الله من كان [له] لب سجيح، ورأي صحيح، قد سبقت له منا الحسنى[1] فدان بالمعنى.

ثم أنه - جل وعلا - أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم، آدم وحواء أبوين ذكراً وأنثى، سبباً لإنشاء البشرية، ودلالة لإظهار القدرة القوية، وزاوج بينهما فتوالد الأولاد، وتكاثرت الأعداد، ونحن ننتقل في الأصلاب الزكية، والأرحام الطاهرة المرضية، كلما ضمنا صلب ورحم أظهر منا قذرة وعلم، وهلم جرا إلى آخر الجد الأول، والأب الأفضل سيد المرسلين، وإمام النبيين، أحمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى آله في كل ناد ومشهد،

---

(١) انظر الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

فحسن آلاؤه، وبان غناؤه، وأباد المشركين، وقصم الظالمين، وأظهر الحق، واستعمل الصدق، وبان بالأحدية، ودان بالصمدية، فعندها سقطت الأصنام، وانعقد الإسلام، وانتشر الإيمان، وبطل السحر والقربان، وهدمت الأوثان، وأتي [٣٢ - و] بالقرآن، شاهدا بالحق والبرهان، فيه خبر ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم، منبئاً عن كتب تقدمت، في صحف قد تنزلت، تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة ونوراً ﴿وسراجاً منيراً﴾(١).

وكل ذلك دلالات لنا، ومقدمات بين أيدينا، وأسباب لإظهار أمرنا هدايات وآيات وشهادات، وسعادات قدسيات، الهيات أزليات، كائنات منشآت، مبدئات معيدات، فما من ناطق نطق، ولا نبي بعث، ولا وصي ظهر، إلا وقد أشار إلينا، ولوح بنا، ودل علينا في كتابه وخطابه ومنار أعلامه، ومرموز كلامه، فيما هو موجود غير معدوم، وظاهر وباطن، يعلمه من سمع النداء، وشاهد ورأى، من الملأ الأعلى، فمن أغفل منكم أو نسي، أو ضل أو غوى، فلينظر في الكتب الأولى، والصحف المنزلة، وليتأمل آي القرآن، وما فيه من البيان، وليسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، فقد أمر الله عز وجل بالسؤال، فقال: ﴿فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾(٣).

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٦.

(٢) سورة النحل: ٤٣.

(٣) سورة التوبة: ١٢٢.

ألا تسمعون قول الله حيث يقول: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبة لعلهم يرجعون﴾[1].

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾[2].

وقوله له العزة: ﴿شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾[3].

ومثل ذلك في كتاب الله تعالى جده كثير، ولولا الإطالة لأتينا على كثير منه. ومما دل به علينا، وأنبأنا به عنا، قوله عز وجل:

﴿كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾[4].

وقوله في تفضيل الجد الفاضل والأب الكامل محمد ﷺ إعلاماً بجليل قدرنا، وعلو أمرنا: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾[5].

هذا مع ما أشار ولوح، وأبان وأوضح، في السر والإعلان، من كل

---

(١) سورة الزخرف: ٢٨.

(٢) سورة آل عمران: ٣٤.

(٣) سورة الشورى: ١٣.

(٤) سورة النور: ٣٥.

(٥) سورة الحجر: ٨٧.

مثل مضروب، وآية وخبر وإشارة ودلالة، حيث يقول: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى:

﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾[2].

وقوله جل وعز: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق**﴾[3].

فإن اعتبر معتبر، وقام وتدبر ما في الأرض وما في الأقطار والآثار وما في النفس من الصور المختلفات، والأعضاء المؤتلفات والآيات والعلامات، والاتفاقات والاختراعات، والأجناس والأنواع، وما في كون الإبداع من الصور البشرية، والآثار العلوية، وما يشهد به حروف المعجم، والحساب المقوم، وما جمعته الفرائض والسنن، وما جمعته السنون من فصل وشهر ويوم، وتصنيف القرآن من تحزيبه وأسباعه، ومعانيه وأرباعه وموضع الشرائع المتقدمة، والسنن المحكمة، وما جمعته كلمة الإخلاص في تقاطيعها وحروفها وفصولها، وما في الأرض من إقليم وجزيرة وبر وبحر، وسهل وجبل، وطول وعرض وفوق وتحت، إلى ما اتفق عليه في جميع الحروف من أسماء المدبرات السبعة النطقا، والاوصيا والخلفا، وما صدرت به الشرائع من فرض وسنة وحد وبينة وما في الحساب من أحاد وأفراد، وأزواج وأعداد، تثاليثه، وترابيعه، واثني عشريته، وتسابيعه، وأبواب العشرات والمئين والألوف، وكيف تجتمع وتشتمل على ما اجتمع عليه ما تقدم من شاهد عدل وقول صدق، وحكمة حكيم وترتيب عليم.

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٣) سورة فصلت: ٥٣.

فـ ﴿لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾[1] والأمثال العلى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[2]. ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾[3] ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر [٣٢ . ط] يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾[4].

وليعلم من ﴿كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[5]، أنا كلمات الله الأزليات، وأسماؤه التامات، وأنـوارِه الشعشعانيات، وأعلامه النيرات، ومصابيحه البينات، وبدائعه المنشآت، وآياته الباهرات، وأقداره النافذات لا يخرج منا أمر، ولا يخلو منا عصر.

وأنا لكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾[6].

فاستشعروا النظر فقد نقر في الناقور، وفار التنور، وأتى النذير بين يدي عذاب شديد، فمن شاء فلينظر، ومن شاء فليتدبر، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[7].

---

(١) سورة طه: ٧.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٣) سورة يوسف: ٧٦.

(٤) سورة لقمان: ٢٧.

(٥) سورة ق: ٣٧.

(٦) سورة المجادلة: ٧.

(٧) سورة النور: ٥٤.

وكتابنا هذا من فسطاط مصر، وقد جئناها على قدر مقدور، ووقت مذكور، فلا نرفع قدماً ولا نضع قدماً إلا بعلم موضوع، وحكم مجموع وأجل معلوم، وأمر قد سبق، وقضاء قد تحقق.

فلما دخلنا وقد قدر المرجفون من أهلها أن الرجفة تنالهم، والصعقة تحل بهم، تبادروا وتعادوا شاردين، وجلوا عن الأهل والحريم والأولاد والرسوم، وإنا ﴿نار الله الموقدة ۝ التي تطلع على الأفئدة﴾[1]، فلم أكشف لهم خبراً، ولا قصصت لهم أثراً، ولكني أمرت بالنداء وأذنت بالأمان، لكل باد وحاضر، ومنافق ومشاقق، وعاص ومارق، ومعاند ومسابق، ومن أظهر صفحته وأبدى لي سوءته، فاجتمع الموافق والمخالف والمباين والمنافق، فقابلت الولي بالإحسان، والمسيء بالغفران، حتى رجع الباد والشارد، وتساوى الفريقان، واتفق الجمعان، وانبسط القطوب وزال الشحوب، جرياً على العادة بالإحسان، والصفح والامتنان، والرأفة والغفران، فتكاثرت الخيرات، وانتشرت البركات.

كل ذلك بقدرة ربانية، وإمرة برهانية، فأقمت الحدود، بالبينة والشهود، في العرب والعبيد، الخاص والعام، والبادي والحاضر بأحكام الله - عز وجل - وآدابه، وحقه وصوابه، فالولي آمن جذل، والعدو خائف وجل.

فأما أنت أيها الغادر الخائن، الناكث المباين عن هدى آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة فلم أغفل أمرك، ولا خفي عني خبرك، ولا استتر دوني أثرك، وإنك مني لمنظر ومسمع، كما قال الله جل وعز:

---

(١) سورة الهمزة: ٦ - ٧.

﴿إنني معكما اسمع وارى﴾[1]، ﴿وما كان أبوك امرا سوء وما كانت أمك بغيا﴾[2].

فعرفنا على أي رأي أصلت، وأي طريق سلكت: أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا ﴿عباداً لنا اولي باس شديد﴾[3]، وعزم سديد، وأمر رشيد، وفعل حميد، تفيض إليهم موادنا، تنشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الأعمال، ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة فسادوا منحة منا، واسماً من أسمائنا، فعلت أسماؤهم، واستعلت هممهم واشتد عزمهم فسارت إليهم وفود الآفاق، وامتدت نحوهم الأحداق، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم الفساد والعناد وأن يكونوا لبني العباس أضداد، فعبئت الجيوش وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتجبة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة، فلم يلقهم جيش إلا كبسوه ولا رئيس إلا أسروه ولا عسكر إلا كسروه، وألحاظنا ترمقهم ونصرنا يلحقهم كما قال الله جل وعز:

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾[4]، ﴿وان جندنا لهم الغالبون﴾[5]، وان حزبنا لهم المنصورون.

فلم يزل ذلك دأبهم، وعين الله ترمقهم، إلى أن اختار لهم ما اختار

---

(١) سورة طه: ٤٦.

(٢) سورة مريم: ٢٨.

(٣) سورة الإسراء: ٥.

(٤) سورة غافر: ٤٠.

(٥) سورة الصافات: ١٧٣.

من نقلهم من [٣٣ ـ و] دار الفناء، إلى دار البقاء، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول، فعاشوا محمودين، وانتقلوا مفقودين، إلى روح وريحان وجنات النعيم، فطوبى لهم وحسن مآب.

ومع هذا فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخذون بيعتنا، ويذكرون رجعتنا وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن، وفي كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون، وعنهم يأخذون، وهو قول الله عز وجل: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾[1] وأنت عارف بذلك، فيا أيها الناكث الحانث ما الذي أرداك وصدك؟ أشيء شككت فيه، أم أمر استربت به، أم كنت خلياً من الحكمة، وخارجاً عن الكلمة، فأزالك وصدك، وعن السبيل ردك؟ إن هي إلا ﴿فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾[2].

وأيم لله لقد كان الأعلى لجدك، والأرفع لقدرك، والأفضل لمجدك والأوسع لوفدك، والأنضر لعودك، والأحسن لعذرك، الكشف عن أحوال سلفك، وإن خفيت عليك، والقفوا لآثارهم، وإن عميت لديك، لتجري على سننهم، وتدخل في زمرهم، وتسلك في مذهبهم، أخذا بأمورهم في وقتهم، وزيهم في عصرهم، فتكون خلفا قفا سلفاً، بجد وعزم مؤتلف، وأمر غير مختلف.

لكن غلب الران على قلبك، والصدأ على لبك، فأزالك عن الهدى وأزاغك عن البصيرة والضيا، وأمالك عن مناهج الأوليا، وكنت من بعدهم

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.

(٢) سورة الأنبياء: ١١١.

كما قال الله عز وجل: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾[1].

ثم لم تقنع في انتكاسك، وترديتك في ارتكاسك، وارتباكك وانعكاسك من خلافك الأباء ومشيك القهقرى، والنكوص على الأعقاب والتسمي بالألقاب ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾[2]، وعصيانك مولاك، وجحدك ولاءك، حتى انقلبت على الأدبار، وتحملت عظيم الأوزار، لتقيم[3] دعوة قد درست، ودولة قد طمست، وإنك لمن الغاوين، وإنك في ضلال مبين.

أم تريد أن ترد القرون السالفة، والأشخاص الغابرة؟ أما قرأت كتاب السفر، وما فيه من نص وخبر؟ فأين تذهبون إن هي إلا حياتكم الدنيا، تموتون وتظنون أنكم لستم بمبعوثين، ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾[4].

أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس، وآخر المترايس في الناس؟ أما تراهم ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية ۝ فهل ترى لهم من باقية﴾[5]؟ ختم ـ والله ـ الحساب، وطوي الكتاب، وعاد الأمر إلى أهله، والزمان إلى أوله، ﴿وأزفت الآزفة﴾[6]، ﴿ووقعت الواقعة﴾[7] وقرعت

---

(١) سورة مريم: ٥٩.

(٢) سورة الحجرات: ١١.

(٣) في حاشية الأصل: «يعني أنه يريد إقامة دولة بني العباس بكونه أخذ منهم السلاح والمال من أبي تغلب بن حمدان، وقدم يقاتل المعز نصرة لهم».

(٤) سورة التغابن: ٧.

(٥) سورة النجم: ٥٧.

(٦) سورة الروم: ٤ ـ ٥.

(٧) سورة إبراهيم: ٨.

القارعة، وطلعت الشمس من مغربها، والآية من وطنها، وجيء بالملائكة والنبيين، وخسر هناك المبطلون، هناك الولاية لله الحق، والملك لله الواحد القهار، ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ۞ بنصر الله ينصر من يشاء﴾[1]، ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[2].

فقد ضل عملك، وخاب سعيك، وطلع نحسك، وغاب سعدك، حين آثرت الحياة الدنيا على الآخرة، ومال بك الهوى، فأزالك عن الهدى، فـ ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾[3] ﴿وإن الله لهو الغني الحميد﴾[4].

ثم لم يكفك ذلك - مع بلائك وطول شقائك - حتى جمعت أرجاسك وأنجاسك، وحشدت أوباشك وأفلاسك، وسرت قاصداً إلى دمشق وبها جعفر ابن فلاح في فئة قليلة من كتامة[5] وزويلة، فقتلته وقتلتهم، - جرأة على الله ورداً لأمره - واستبحت أموالهم، وسبيت نساءهم، وليس بينك وبينهم ترة ولا ثأر، ولا حقد ولا إضرار، فعل بني الأصفر[6] والترك والخزر، ثم سرت أمامك ولم ترجع، وأقمت على كفرك ولم تقلع، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان في زمرة قليلة وفرقة [٣٣ - ظ] يسيرة، فاعتزل عنك إلى يافا، مستكفياً شرك، وتاركاً حربك، فلم تزل ماكثاً على نكثك

---

(١) سورة الحاقة: ٧ - ٨.

(٢) سورة الواقعة: ١.

(٣) سورة الحج: ٢.

(٤) سورة الحج: ٦٤.

(٥) من قبائل البربر.

(٦) بنو الأصفر: الروم البيزنطيون.

باكراً وصابحاً، وغادياً ورائحـاً تقعد لهـم بكـل مقعـد، وتـأخذ عليهـم بكـل مرصد، وتقصدهم بكل مقصد كأنهم ترك وروم وخزر، لا ينهـاك عـن سـفك الدماء دين، ولا يردعك عهد ولا يقيـن، قـد استوعب مـن الـردى حـيزومك، وانقسم على الشقاء خرطومك.

أما كان لك مذكر، وفي بعـض أفعـالك مزدجـر، أو مـا كـان لـك فـي كتاب الله عز وجل معتبر حيث يقول:

﴿ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيماً﴾[1]؟

فحسبك بها فعلة تلقاك يوم ورودك وحشرك حيـن لا منـاص، ولا لـك من الله خلاص، ولم تستقيلها، وكيف تستقيلها وأنى لك مقيلها؟

هيهات، هيهـات، هلـك الضـالون، وخسـر المبطلـون، وقـل النصـير، وزال العشير، ومن بعد ذلك تماديك في غيك، ومقامك في بغيك، عداوة للـه ولأوليائه، وكفرا لهم وطغيانا، وعمى وبهتانا.

أتراك تحسب أنك مخلد، أم لأمر الله راد؟

أم ﴿يريـدون ان يطفئـوا نـور الله بـافواههم و[يـابى] اللـه [إلا ان] يتم نوره ولو كره الكافرون﴾[2].

هيهات لا خلود لمذكور، ولا مـرد لمقـدور، ولا طـافئ لنـور، ولا مقـر لمولود، ولا قرار لموعود، لقد خـاب منـك الأمـل، وحـان لـك الأجـل، فـإن شئت فاستعد للتوبة بابا، وللنقلة جلبابا، فقد بلغ الكتـاب أجلـه، والوالـي

---

(١) سورة النساء ٨٢.

(٢) سورة التوبة: ٢٢.

أمله، وقد رفع الله قبضته عن أفواه حكمته، ونطق من كان بالأمس صامتاً، ونهض من كان خائفاً، ونحن أشباح فوق الأمر والنفس، دون العقل وأرواح في القدس، نسبة ذاتية، وآيات لدنية نسمع ونرى، ﴿**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾[1]، ﴿**وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**﴾[2].

ونحن معرضون عليك ثلاث خصال ـ والرابعة أردى لك، وأشقى لبالك، وما أحسبك تحصل إلا عليها ـ فاختر:

إما قدت[3] نفسك لجعفر بن فلاح، وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير ـ وهي أسهل ما يرد عليك ـ.

وإما أن تردهم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ـ ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار ـ.

وأما سرت ومن معك بغير زمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجريك على إحدى ثلاث: إما قصاص، ﴿**فإما مناً وإما فداء**﴾[4] فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك، وإقالة لعثرتك.

وأن أبيت إلا فعل اللعين[5]: ﴿**فاخرج منها فإنك رجيم، وان عليك اللعنة إلى يوم الدين**﴾[6].

---

(١) سورة الشورى: ٥٢.
(٢) سورة الأعراف: ١٩٨.
(٣) أي جعلت من نفسك دية.
(٤) سورة محمد: ٤.
(٥) أي إبليس.
(٦) سورة الحجر: ٣٤ ـ ٣٥.

أخرج منها فما يكون لـك أن تمكـث فيهـا، وقيـل اخسئوا فيهـا ولا تكلمون، فما أنت إلا ﴿**كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار**﴾[1]، فلا سماء تظلك ولا أرض تقلك، ولا ليـل يجنـك، ولا نهـار يكنـك، ولا [علـم يسترك]، ولا فئـة تنصـرك، قـد تقطعت بكـم الأسـباب، وأعجزكم الذهاب، فأنتم كما قال الله عز وجـل: ﴿**مذبذبيـن بيـن ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**﴾[2].

فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ولا منجى منه، وجنـود اللـه فـي طلبـك قافية، لا تزالُ ذو أحقاد، وثوارِ أمجاد، ورجالِ أنجاد، فلا تجد فـي السـماء مصعدا، ولا في الأرض مقعدا، ولا في الـبر ولا فـي البحـر منهجـا، ولا فـي الجبال مسلكا، ولا إلى الهواء سلما، ولا إلى مخلوق ملتجا.

حينئذ يفـارقك أصحـابك، ويتخلـى عنـك أحبـابك، ويخذلـك أترابـك، فتبقى وحيداً فريداً، وخائفاً طريداً، وهائماً شريداً، قد ألجمك العرق وكظلـك القلـق، وأسـلمتك ذنوبـك، وازدراك حزبـك، ﴿**كـلا لا وزر ۞ إلـى ربـك يومئـذ المسـتقر**﴾[3]، ﴿**هـذا يـوم لا ينطقـون ۞ ولا يـؤذن لهـم فيعتـذرون**﴾[4]، ﴿**وجوه يومئـذ عليهـا غـبرة ۞ ترهقهـا قـترة ۞ أولئك هم الكفرة الفجرة**﴾[5].

واعلـم أنـا لسـنا بممهليـك ولا مهمليـك إلا ريثمـا يـرد [١٣٤] كتـابك، ونقف على فحوى خطابك فـانظر لنفسـك، مـا تبقـى ليومـك ومعـادك قبـل

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٦.

(٢) سورة النساء: ١٤٣.

(٣) سورة المراسلات: ٣٥ ـ ٣٦.

(٤) سورة المراسلات: ٣٥ ـ ٣٦.

(٥) سورة عبس: ٤٠ ـ ٤٢.

انغلاق باب التوبة، وحلول وقت النوبة، حينئـذ لا ينفـع نفساً إيمانهـا، لـم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

وإن كنت على ثقة من أمرك. ومهل في أمر عصرك وعمرك، فاستقر بمركزك، وأربع على ضلعك، فلينالنك ما نال من كان قبلك من عاد وثمود، ﴿**واصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد**﴾[1]، فلنأتيكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون، بأولي بأس شديد، وعزم سديد، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، بقلوب نقية، وأرواح تقية، ونفوس أبية، يقدمهم النصر، ويشملهم الظفر، تمدهم ﴿**ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾[2].

فما أنت وقومك إلا كمناخ نعم، أو كمراح غنم، ﴿**فإما نرينك بعض الذي نعدهم**﴾[3] ﴿**فإنا عليهم مقتدرون**﴾[4]، وأنت في القفص مصفوداً، ﴿**أو نتوفينك فإلينا مرجعهم**﴾[5]، فعندها تخسر الدنيا والآخرة، ﴿**ذلك هو الخسران المبين**﴾[6]، ﴿**فأنذرتكم نارا تلظى ۝ لا يصلاها إلا الأشقى ۝ الذي كذب وتولى**﴾[7]، ﴿**كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون**﴾[8].

---

(١) سورة ق: ١٤.
(٢) سورة التحريم: ٦.
(٣) سورة يونس: ٤٦.
(٤) سورة الزخرف: ٤٢.
(٥) سورة يونس: ٤٦.
(٦) سورة الحج: ١١.
(٧) سورة الليل: ١٤ ـ ١٦.
(٨) سورة الأحقاف: ٣٥.

فليتدبر من كان ذا تدبير، وليتفكر من كان ذا تفكر، وليحذر يوم القيامة من الحسرة الندامة، ﴿أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾[1]، ﴿ويا حسرتنا على ما فرطنا﴾[2]، ﴿ويا ليتنا نرد﴾[3] ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾[4]، هيهات غلبت عليكم شقاوتكم ﴿وكنتم قوما بورا﴾[5].

والسلام على من اتبع الهدى، وسلم من عواقب الردى، وانتمى إلى الملأ الأعلى، وحسبنا الله وكفى، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا النبي [الأمي] والطيبين من عترته، وسلم تسليما.

فأجابه الحسن الأعصم بما نصه: «من الحسن بن أحمد القرمطي الأعصم»:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله، وقل تحصيله، ونحن سائرون على أثره، والسلام، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) سورة الزمر: ٥٦.

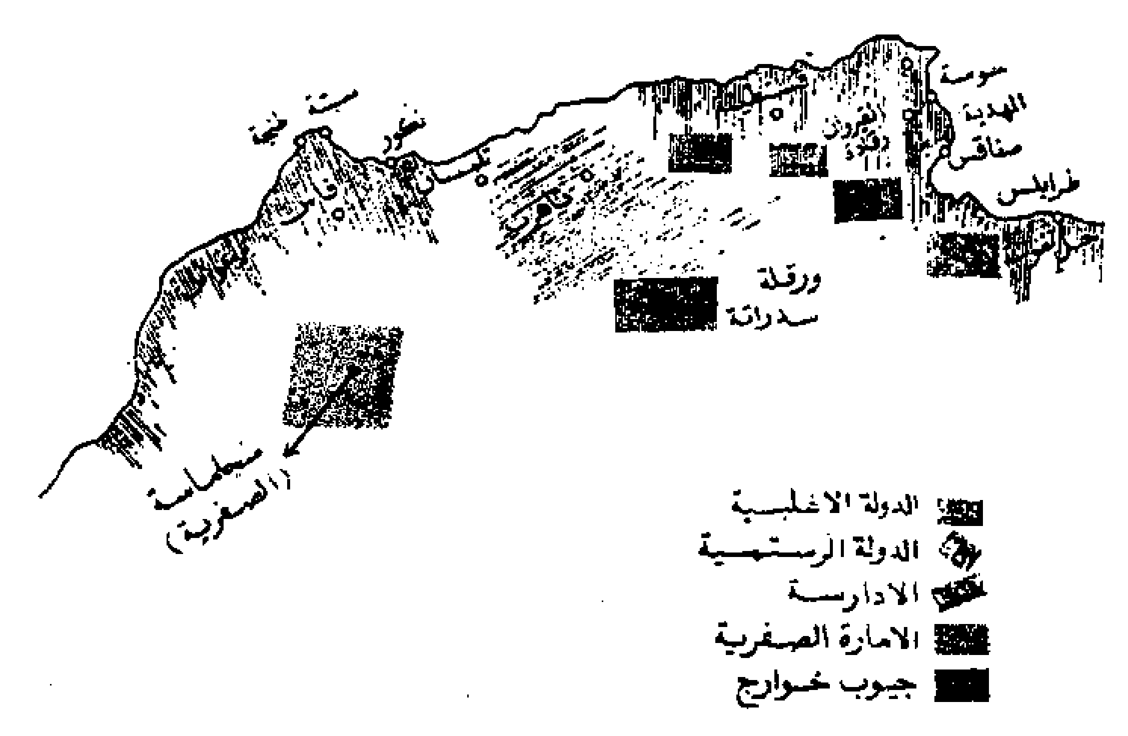
(٢) سورة الأنعام: ٣١.

(٣) سورة الأنعام: ٢٧.

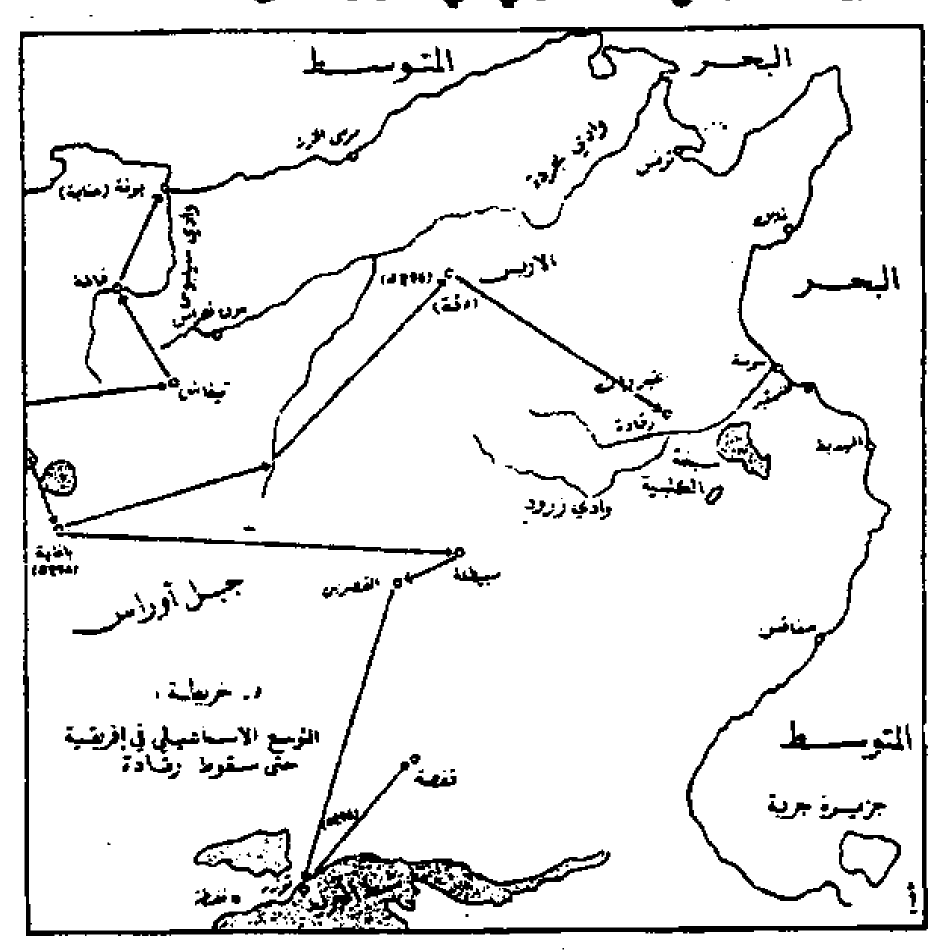
(٤) سورة الأعراف: ٥٣.

(٥) سورة الفتح: ١٢.

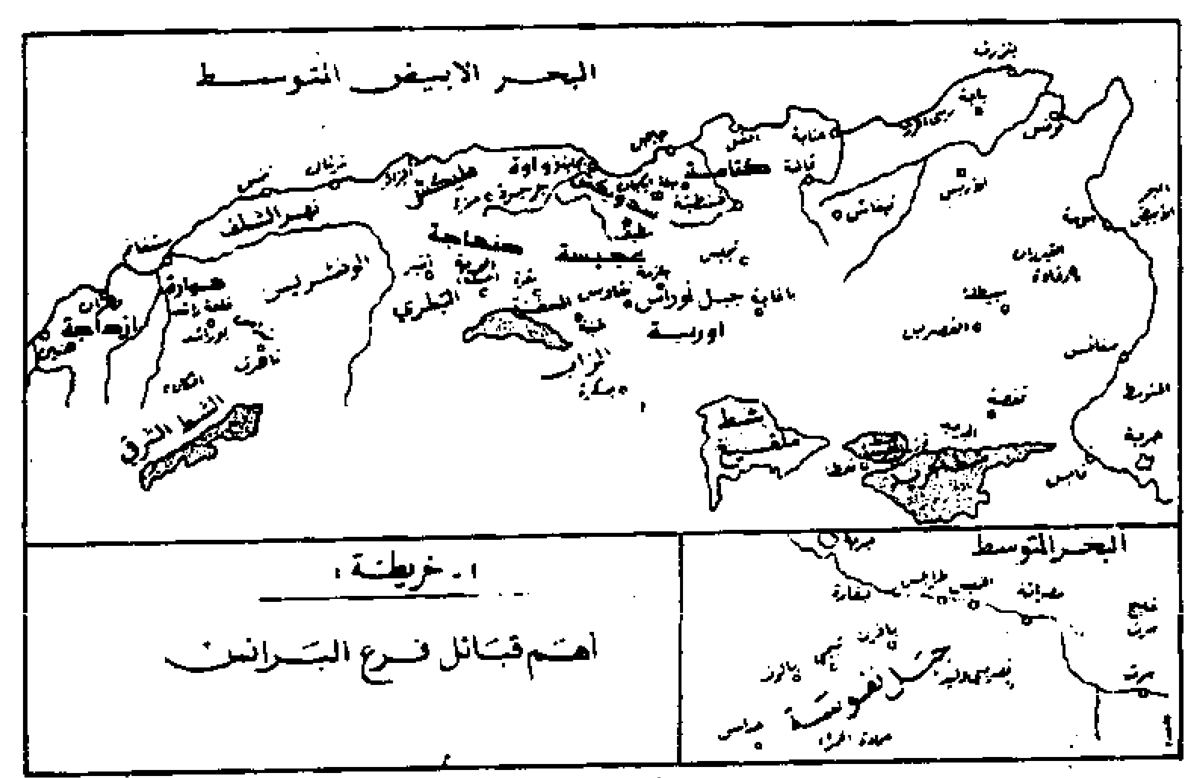
الخرائط



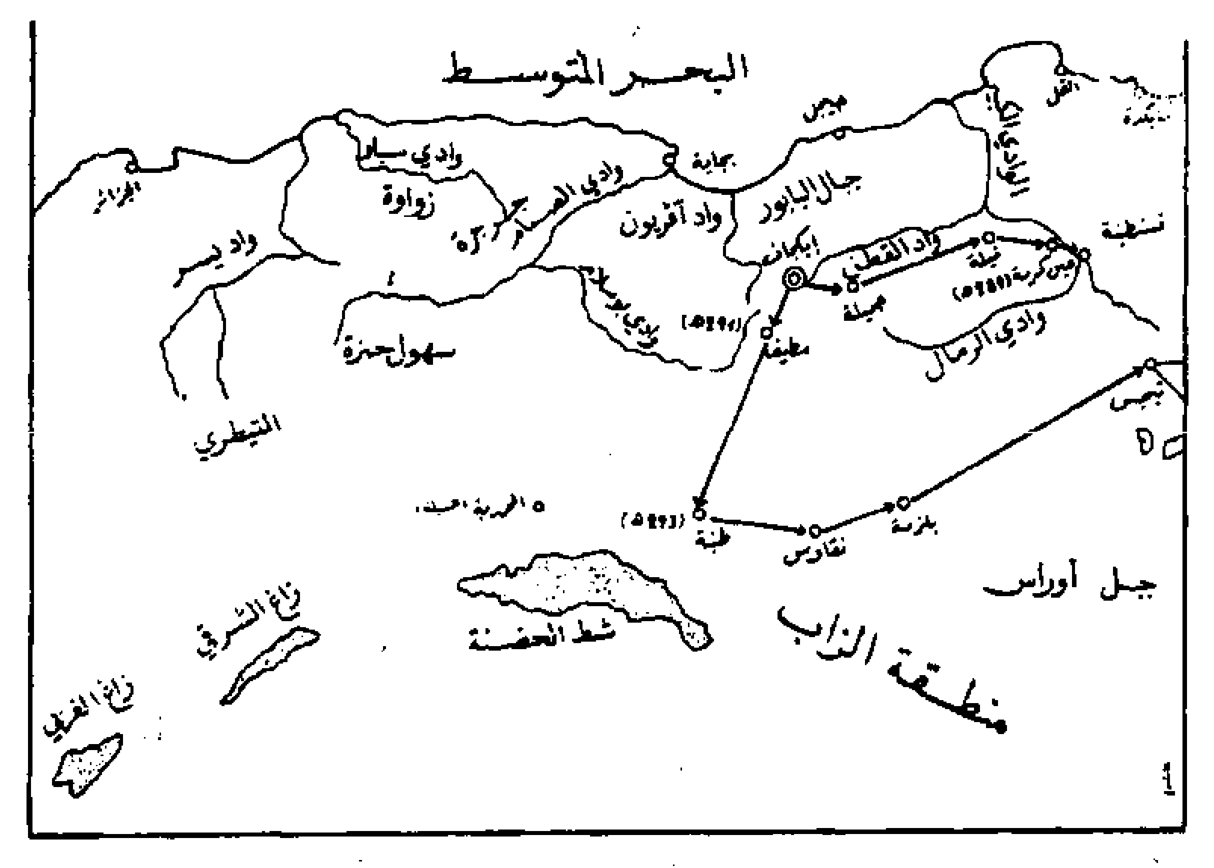
١ ـ خريطة: التوسع الاسماعيلي في افريقيا حتى سقوط رقادة.



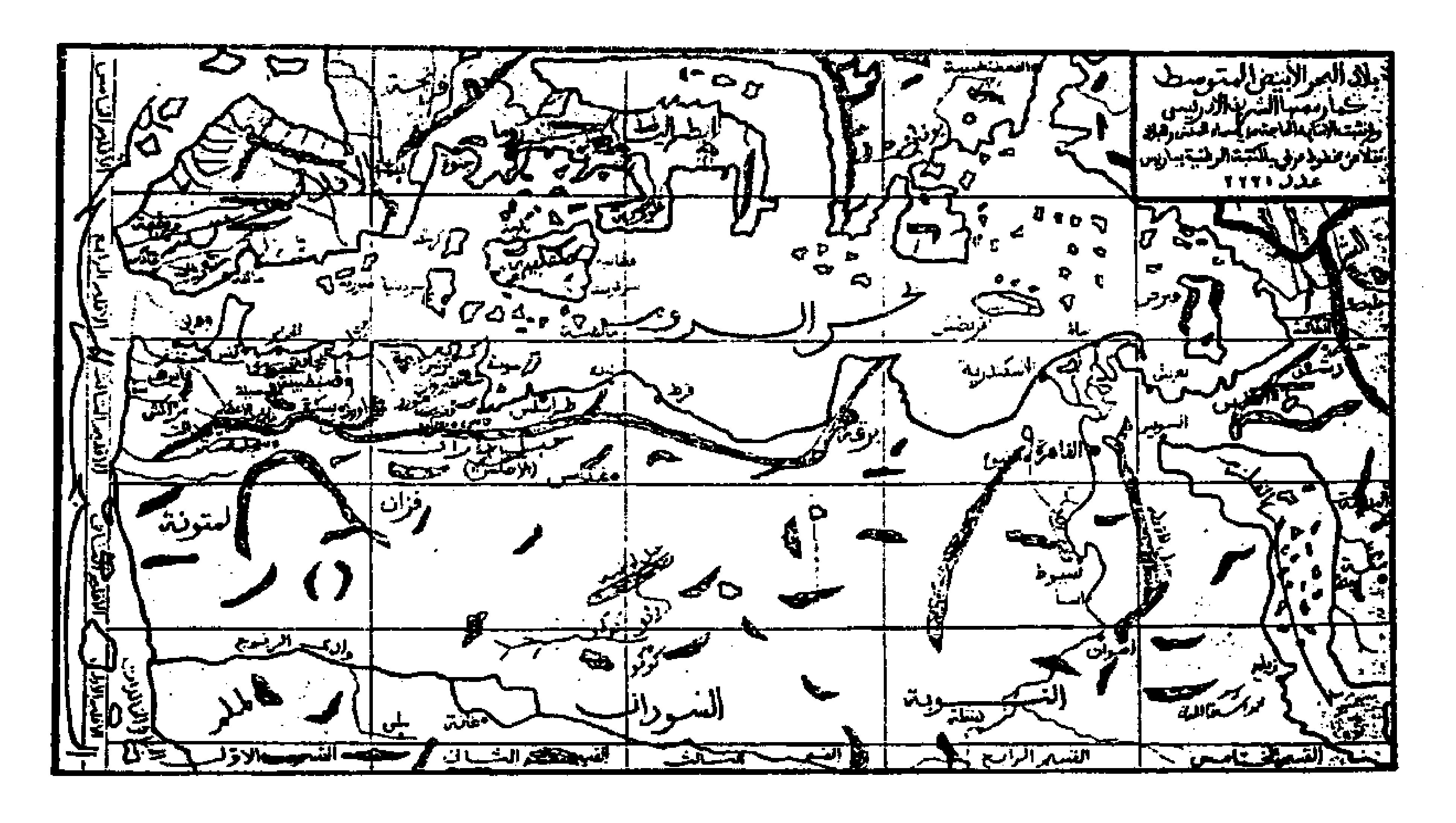
٢ـ حواضر المغرب الاسلامي في القرنين ٣ و٤ هـ.



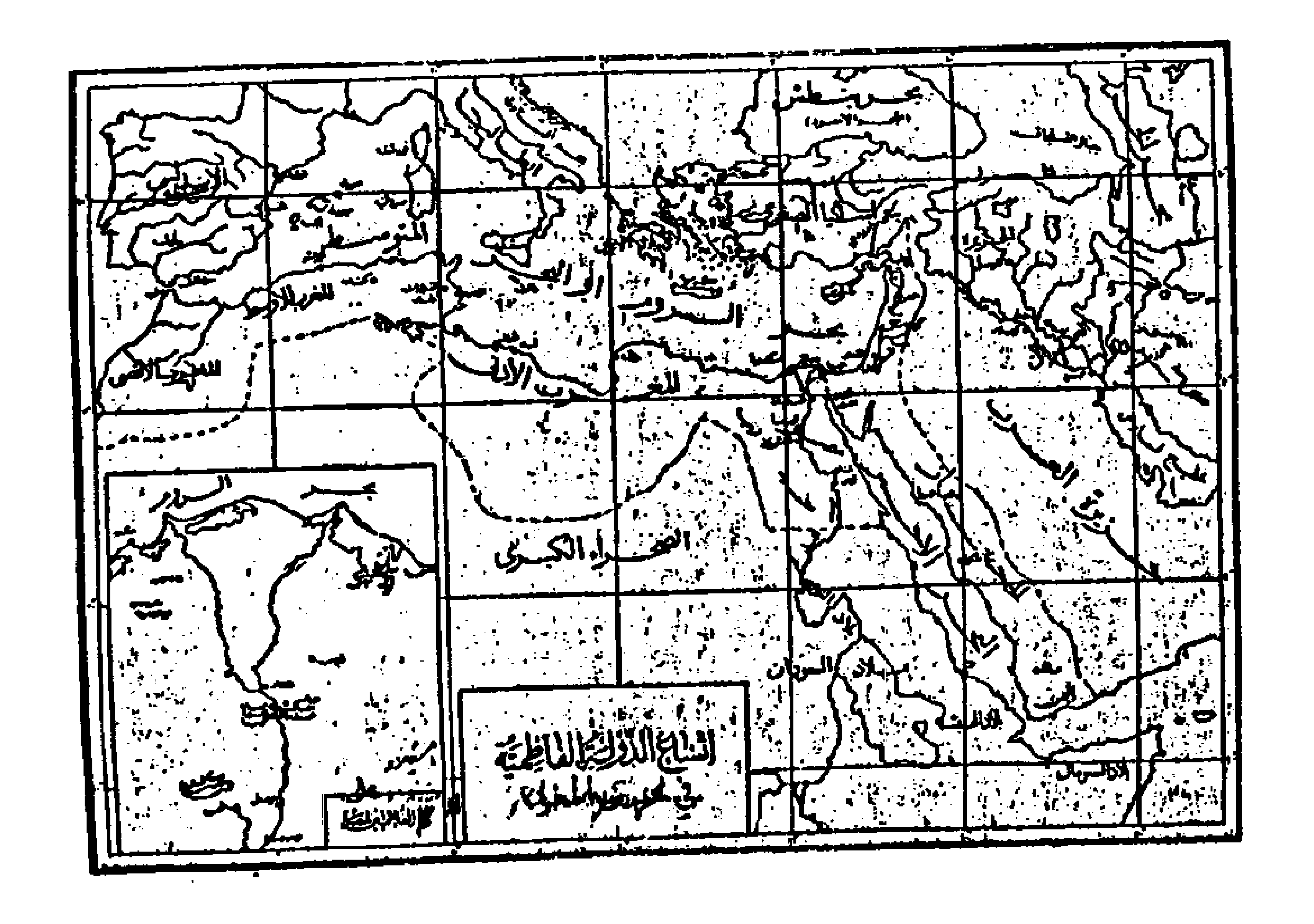
3 - خريطة أهم قبائل فرع البرانس



٩ - خريطة: التوسع الاسماعيلي من قاعدة إيكجان في اقليم الزاب.



٤ - بلاد البحر الأبيض المتوسط كما رسمها الشريف الإدريسي



٦- اتساع الدولة الفاطمية

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأبيض المتوسط

كتامة

صنهاجة

عجيسة

أوربة

الونشريس

هوارة

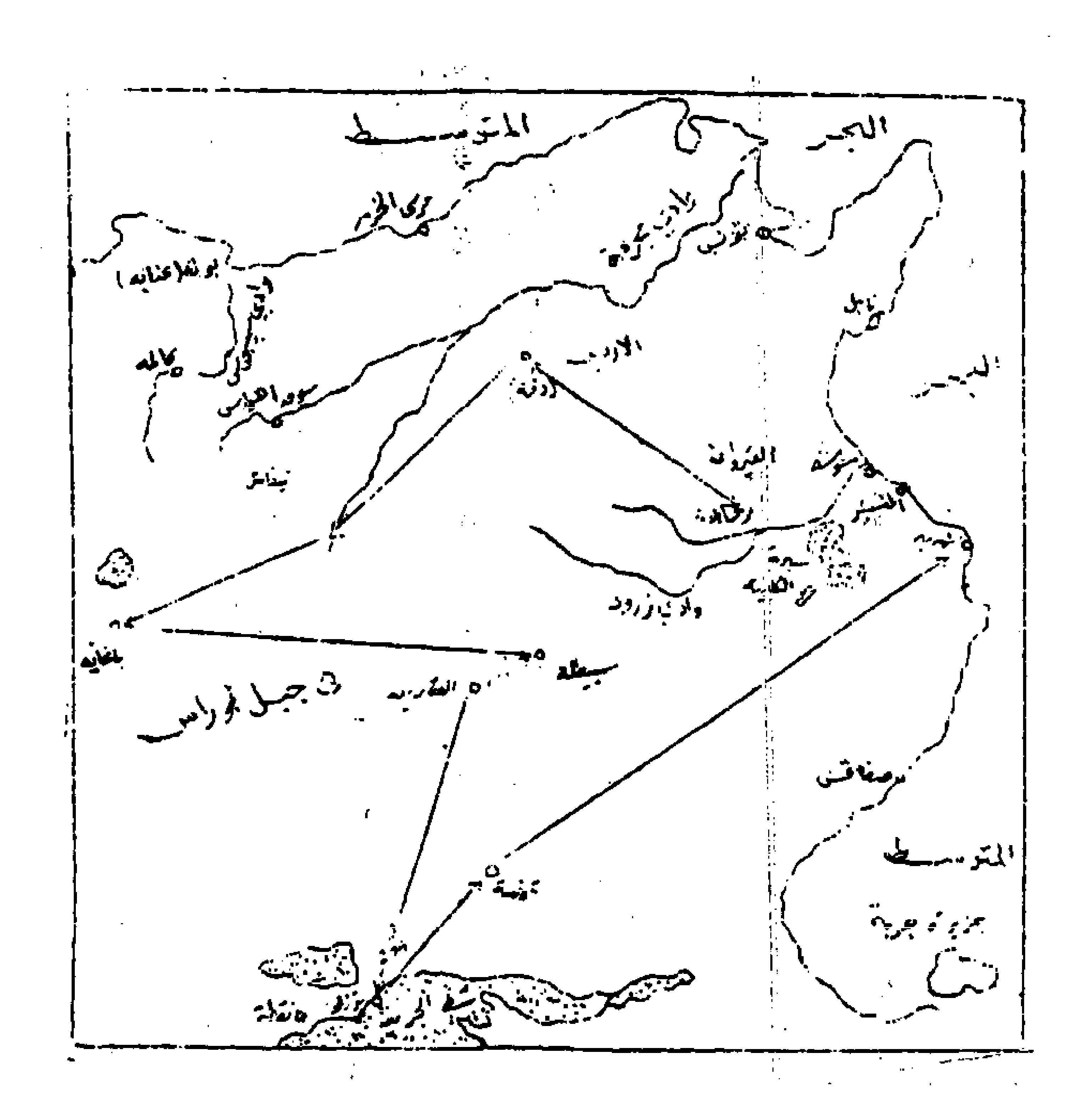
ازداجة

جبل أوراس

الزاب

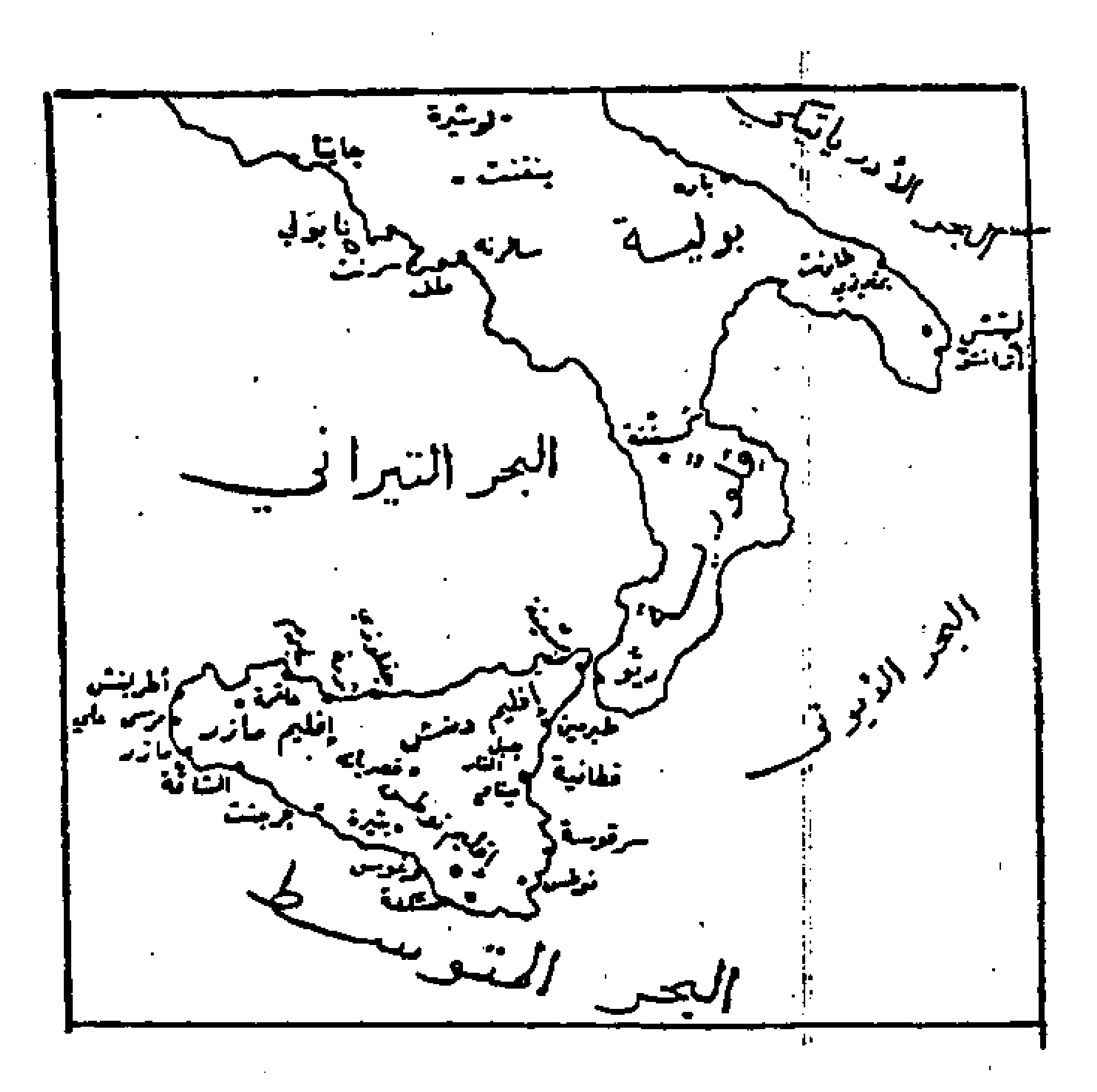
نفوسة

٧ ـ أهم قبائل البرانس



٨ـ التوسع الفاطمي في المغربين الأدنى والأقصى

أيام المعز لدين الله



٩ ، صقلية وجنوب إيطاليا في أيام المعزّ

١٥ - التوسع الفاطمي في أيام المعز في إقليمي الزاب والمغرب الأوسط

جريدة بأهم المصادر والمراجع

1- المصادر الاولية.

2- المراجع الثانوية.

3- بعض المراجع غير العربية .

جريدة بأهم المصادر والمراجع

المصادر

أ- المصادر الأولية

- ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م). كتاب التكملة. القاهرة ١٩٥٦م.
  - الحلة السيراء، جزءان، تحقيق د. حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٣م.
  - المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي. القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- الأباضي (أبو عمار عبد الكافي) الموجز. الجزائر ١٩٧٨.
- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٥هـ/ ١٢٣٣م).
  - الكامل في التاريخ. بيروت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- ابن الأحمر: (اسماعيل) بيوتات فاس الكبرى - الرباط ١٩٧٢.
- الإربلي (عبد الرحمن بن سنبط) خلاصة الذهب المسبوك. بغداد (مكتبة المثنى)
- الإربلي (علي بن عيسى) كشف الغمة في معرفة الأئمة. بيروت ١٩٨١.
- الأزدي (أبو زكريا) تاريخ الموصل. القاهرة ١٩٦٧

. الأزرقي (أبو الوليد محمد) أخبار مكة. بيروت (مكتبة خياط).
. ابن اسحق (محمد) السير والمغازي. بيروت ١٩٧٨.
. الأسدي (الكميت بن زيد) شرح القصائد الهاشميات. بيروت ١٩٧٢.
. الأشعري (علي) مقالات الاسلاميين. القاهرة ١٩٥٠.
. الاصطخري (أبواسحق ابراهيم) المسلك والممالك. ليدن ١٩٢٧.
. ابن أبي أصيبعة:
- عيون الأنباء في طبقات الاطباء ٢٠، ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م.
. الأصفهاني:
- خريدة القصر وجريدة العصر. قسم المغرب والأندلس. تحقيق محمد المرزوقي - محمد العمروسي المطوي - الجيلاني بن الحاج يحيى. تونس ١٩٧١.
. الأصفهاني (حمزة) تاريخ سني ملوك الأرض. بيروت ١٩٦١.
. الأصفهاني (أبو الفرج) الأغاني. القاهرة (دار الكتب). مقتل الطالبين. القاهرة ١٩٤٩.
. الأصفهاني (محمد بن محمد - العماد الكاتب) خريدة القصر وجريدة العصر. دمشق ١٩٥٥.
. الأصفهاني (أبو نعيم أحمد) دلائل النبوة. حيدر أباد ١٩٥٠. حلية الأولياء. القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٨.
. ابن الأعثم الكوفي (أحمد) كتاب الفتوح. بيروت ١٩٨٨.
. الآملي (حيدر بن علي) الكشكول فيما جرى على آل الرسول. قم - منشورات الرضي.
. ابن أنس (الامام مالك) الموطأ. بيروت ١٩٧١.
. الأنطاكي (يحيى بن سعيد) تاريخ بن سعيد. بيروت ١٩٠٩.
. ابن أيبك الدواداري (عبد الله) الدرة المضية في أخبار الدولة

الفاطمية. القاهرة ١٩٦١.
- الباقلاني (أبو بكر بن الطيب) الأنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. بيروت ١٩٨٠.
- البخاري (محمد بن اسماعيل) صحيح البخاري. بيروت (دار الفكر) التاريخ الكبير. حيدر أباد الدكن.
- ابن بسام: أبو الحسن الشنتريني (ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٧م).
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م).
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦م.
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) الرحلة - تحفة الأنظار في غرائب الأسفار. القاهرة ١٩٥٨.
- البغدادي (الخطيب - أحمد) تاريخ بغداد - بيروت (دار الكتاب العربي).
- البغدادي (اسماعيل) هدية العارفين. بيروت (دار الفكر).
- البغدادي (أبو منصور عبد القاهر) الفرق بين الفرق. القاهرة ١٩٤٨.
- البلخي (أبو القاسم) فضل الاعتزال. تونس ١٩٧٤.
- ابن بكار (الزبير) جمهرة نسب قريش. القاهرة (دار العروبة) الأخبار الموفقيات. بغداد ١٩٧٢.
- البكري (أبو عبيد) جغرافية الأندلس وأوربة. بيروت ١٩٦٨ كتاب المغرب. الجزائر ١٩١١. معجم ما استعجم. القاهرة ١٩٦٥.
- البلاذري (أحمد بن يحيى) فتوح البلدان. بيروت ١٩٩٣. أنساب الأشراف. بيروت ١٩٩٧.
- البلخي (أبو زيد أحمد) البدء والتاريخ. باريس ١٩١٦.

. البلوى (أبو محمد عبد الله) سيرة أحمد بن طولون. دمشق ١٣٥٨هـ.
. البيذق (أبو بكر الصنهاجي) أخبار المهدي بن تومرت وكتاب الأنساب. الرباط (المطبعة الملكية).
. البيروني (أبو الريحان محمد) الآثار الباقية من القرون الخالية. لا يبزغ ١٩٢٣. الجماهير في معرفة الجواهر. دمشق عالم الكتب. تحقيق ما للهند من مقولة. بغداد (مكتبة المثنى).
. البيهقي (ظهير الدين) تاريخ الحكماء. دمشق ـ مجمع اللغة العربية.
. التجاني (عبد الله). رحلة التجاني. تونس ١٩٥٨.
. التطيلي:
ـ ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٣م.
. ابن تغري بردي:
ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٥م.
. التميمي: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم. ت ٣٣٣هـ ـ ٩٤٤م: طبقات علماء إفريقية، نشرة ابن شنب الجزائر ١٩١٤م ونشر حديثاً بتونس ١٩٦٨ بعناية نعيم اليافي وعلي الشابي.
. التوحيدي (أبو حيان) رواية السقيفة في المقابسات. القاهرة ١٩٢٩.
. الثعالبي (عبد الملك) لطائف المعارف. بيروت ١٩٨٠، كتاب الوزراء. بغداد ١٩٧٢، يتيمة الدهر. القاهرة ١٩٥٦.
. الجاحظ (أبو عثمان عمرو) البيان والتبين. القاهرة ١٣١١، التاج في أخلاق الملوك. القاهرة ١٣٥٧، الحيوان. القاهرة ١٣٥٧، العثمانية. القاهرة ١٩٥٥، مجموعة من رسائل الجاحظ. القاهرة ١٣٦٥. رسائل الجاحظ. القاهرة ١٩٧٩، الرد على النصارى. القاهرة ١٩٨٤.
. ابن جبير: محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م).
ـ رحلة ابن جبير. القاهرة ١٩٥٥م.

. الجرهمي (عبيد بن شريه) أخبار عبيد. حيدر أباد ١٣٤٧.
. الجزنائي: أبو الحسن علي.
- زهرة الآس في بناء مدينة فاس. نشر الفريد بيل. الجزائر ١٩٢٣م.
. الجعفي (المفضل بن عمر) الهفت الشريف. بيروت ١٩٦٤.
. الجندي (علي ورفاقه) سجع الحمام في حكم الامام. القاهرة ١٩٦٧.
. الجهشياري (ابن عبدوس) الوزراء والكتاب. القاهرة ١٩٣٨. نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب. بيروت.
. الجواليقي (أبو منصور موهوب) المعرب. القاهرة ١٣٦١.
. الجَوذَري (أبو علي منصور العزيزي) المتوفي بعد سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م. «سيرة الأستاذ جوذر» تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٩٥٤.
. ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن) عمر بن الخطاب. القاهرة، مناقب عمر بن عبد العزيز. لايبزغ ١٨٨٩. المنتظم. بيروت ١٩٩٥.
. الجوزية (ابن القيم) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية. القاهرة مطبعة الامام.
. حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت (دار الفكر).
. الحامدي (ابراهيم بن الحسين) كنز الولد. بيروت ١٩٧١.
. الحائري (علي اليزدي) الزام الناصب في أثبات الحجة الغائب. بيروت ١٩٧١.
. ابن حبيب (محمد) كتاب المحبر. حيدر أباد ١٩٤٢، المنمق في أخبار قريش. بيروت ١٩٨٥، المؤتلف والمختلف. الرياض ١٩٨٠.
. ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) الاصابة في تمييز الصحابة. القاهرة ١٩٣٩.

. ابن حجر الهيتمي (احمد) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة. القاهرة ١٩٦٥.
. ابن الحداد الأندلسي:
- ديوان ابن الحداد الأندلسي. تحقيق يوسف علي طويل. بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. بيروت ١٩٦٧.
. الحراني (أبو محمد الحسن بن علي) تحف العقول عن آل الرسول . بيروت ١٩٦٩.
. ابن حزم الأندلسي (محمد بن علي) جمهرة أنساب العرب. القاهرة ١٩٦٢، المحلى. القاهرة، الفصل في الملل والنحل. القاهرة ١٣١٧، نقط العروس - مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول) ١٩٥١.
. الحسيني (أبو الحسن علي) زبدة التواريخ. لاهور ١٩٣٣.
. الحلي (الحسن بن يوسف) الألفين في أمامة أمير المؤمنين. النجف ١٩٥٣.
. ابن حماد: أبو عبد الله محمد بن علي القلعي ت بعد ٦٢٨هـ ١٢٣١ ـ ١٢٣٢ م.
. الحمادي (محمد بن مالك) كشف أسرار الباطنية. القاهرة ١٩٣٩.
. الحموي (محمد) التاريخ المنصوري. موسكو ١٩٦٠.
. الحموي (ياقوت الرومي) معجم البلدان. بيروت ١٩٦٨، معجم الأدباء. القاهرة ١٩٢٧.
. الحميدي: أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (ت ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م).
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.

. **الحميري**: (عبد المنعم السبتي) توفي أواخر القرن التاسع الهجري.
- الروض المعطار في أخبار الأقطار. تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥م.
- صفة جزيرة الأندلس، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٦٢م.
. **ابن حنبل** (الامام أحمد) الرد على الزنادقة والجهمية. حماه ١٩٦٧.
. **ابن حوقل النصيبي**: أبو القاسم محمد (ت بعد ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م).
كتاب صورة الأرض - ط. بيروت ١٩٦٢، المكتبة الجغرافية، بريل، ليدن ١٩٦٧.
. **ابن حيون القاضي**: النعمان بن محمد المتوفي سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م.
«دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام»، ١ - ٢، تحقيق آصف بن علي بن أصغر فيضي، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٥.
- اختلاف أصول المذاهب - بيروت ١٩٧٣.
- «رسالة افتتاح الدعوة» (رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية)، تحقيق وداد القاضي، بيروت - دار الثقافة ١٩٧٠.
- الأرجوزة المختارة - مونتريال ١٩٧٠.
- «المجالس والمسايرات»، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبّوح، محمد اليعلاوي، تونس - الجامعة التونسية ١٩٧٨.
- الاقتصاد - دمشق ١٩٥٧.
- الرسالة المذهبة - نسخ خطية من القدموس.
- الهمة في اتباع الأئمة - بيروت ١٩٩٦.
. **ابن خاقان**: أبو نصر الفتح محمد القيسي الاشبيلي (ت ٥٣٥ هـ/ ١١٣٤م).
- قلائد العقيان في محاسن الأعيان. في طبعتين، الطبعة الأولى صدرت

بالقاهرة. ١٣٢٠هـ. الطبعة الثانية تصحيح عبد سليمان الحرايري ١٢٧٧هـ.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. ط. الجوائب القسمطينية ١٣٠٢هـ.
. ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله قاسم بن عبد الله (ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م). المسالك والممالك - المكتبة الجغرافية - بريل - ليدن ١٩٦٧.
. الخزرجي (علي بن الحسن) العسجد المسبوك (مصورة عن مخطوطة الجامع الكبير في صنعاء مع قطعة من نسخة الحرم المكي).
. ابن خزيمة (محمد بن اسحق) كتاب التوحيد وأثبات صفات الرب عز وجل. القاهرة ١٤٠٠.
. خسرو (ناصر) سفر نامة. بيروت ١٩٧٢. جامع الحكمتين. القاهرة ١٩٧٧.
. الخشاب (يحيى) كتاب تنسر. القاهرة ١٩٥٤.
. الخشني: أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد ـ ٣٦١ هـ/٩٧١ ـ ٩٧٢م: قضاة قرطبة وعلماء أفريقية ـ نشر، عزت العطار. القاهرة ١٣٧٢هـ.
. ابن الخطيب: لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م).
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. نشر منه الجزء الخاص بتاريخ الأندلس في بيروت ١٩٥٦م، تحقيق ليفي بروفنسال، وبعنوان «تاريخ إسبانيا الإسلامية». ونشر الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية، في الدار البيضاء عام ١٩٦٤م، تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني، بعنوان «تاريخ المغرب في العصر الوسيط».
- الاحاطة في أخبار غرناطة. حققه محمد عبد الله عنان، القاهرة

١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- رقم الحلل في نظم الدول، تونس ١٣١٧ هـ.
. ابن خفاجة: تحقيق السيد مصطفى غازي، الاسكندرية ١٩٦٠م.
. ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م).
- العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بيروت ١٩٥٩م، ١٩٦١م.
. ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ/ ١٩٦١م).
- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٩٥٠م، طبعة أخرى تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٦٨م.
. الخوارزمي (أبو عبد الله محمد) مفاتيح العلوم. القاهرة.
. ابن خياط (خليفة) تاريخ خليفة بن خياط. دمشق ١٩٦٨. طبقات خليفة بن خياط. دمشق ١٩٦٧.
. الدارمي (عثمان بن سعيد) الرد على الجهمية. لندن ١٩٦٠.
. ابن دراج القسطلي:
- ديوان ابن دراج القسطلي. نشر محمود مكي. دمشق ١٩٦١.
. ابن أبي الدم (ابراهيم) تاريخ ابن أبي الدم ـ نسخة مصورة عن مخطوطة البودليان.
. الديلمي (محمد بن الحسن) بيان مذهب الباطنية وبطلانه. استانبول ١٩٣٨.
. ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (أواخر القرن الحادي عشر الهجري).
- المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام تونس ١٩٦٧م.
. الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود) الأخبار الطوال. القاهرة ١٩٦٠.
. الرازي (أحمد) تاريخ مدينة صنعاء. دمشق ١٩٧٤.

. الرازي (أحمد بن حمدان) كتاب الزينة. القاهرة ١٩٥٧.
. الرازي (محمد بن أبي بكر) الأمثال والحكم. دمشق ١٩٨٧.
. ابن رسته (أحمد بن عمر) الأعلاق النفيسة. ليدن ١٨٩١.
. ابن رشد:
- مسائل أبي الوليد بن رشد. تحقيق ودراسة محمد بن الحبيب التجكاني. لنيل درجة الماجستير. دار الحديث الحسنية. الرباط مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٩٧٧م.
. ابن رشد القرطبي:
- المقدمات الممهدات. جزان. تحقيق سعيد أعراب. بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
. الرضي (الشريف محمد بن الحسين) المجازات النبوية. دمشق ١٩٨٧.
. الرقيق القيرواني (ابراهيم) تاريخ افريقية والمغرب. تونس ١٩٦٨.
. ابن الزبير (القاضي الرشيد) الذخائر والتحف. الكويت ١٩٥٩.
. ابن أبي زرع الفاسي (أو ابن عبد الحليم).
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط ١٩٧٣م.
. الزجالي:
- أمثال العوام في الأندلس ، تحقيق محمد بن شريفة، فاس المغرب ١٩٧١.
. الزركشي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (القرن التاسع عشر).
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس ١٩٦٦م.
. ابن الزيات (شمس أبو عبد الله محمد الأنصاري) المتوفي سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م.

- «الكواكب السيَّارة في ترتيب الزيّارة» نشره أحمد تيمور باشا، بولاق ١٣٢٥هـ.
. ابن زيدان:
- العز والصولة في معالم نظام الدولة ـ نشر عبد الوهاب بن منصور. الرباط ١٩٦١م.
. الزيري: (الأمير عبد الله بن بلقين الزيري).
- مذكرات الأمير عبد الله، المسماة بكتاب التبيان. تحقيق ليفي برونفنسال. مصر ١٩٥٥م.
- رسائل أندلسية. تحقيق د. فوزي عيسى. كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٨٩م.
- رسائل ومقامات أندلسية. تحقيق فوزي سعد عيسى.
. السجستاني (أبو يعقوب) الافتخار. بيروت ١٩٨٠، كتاب أثبات النبوءات. بيروت ١٩٨٢.
. السراج: محمد بن محمد الأندلسي. ت: ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦ ـ ١٧٣٧م. الحلل السندسية في الأخبار التونسية ـ نشرة محمد الحبيب الهيله، تونس ١٩٧٠.
. ابن سعيد الأندلسي: علي بن موسى (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م) المغرب في حلى المغرب ـ نشرة شوقي ضيف بالاشتراك. القاهرة ١٩٥٣.
- بسط الأرض بالطول والعرض. تحقيق خوان قرنيط خينيس. تطوان ١٩٥٨م.
- المغرب في حلى المغرب. جزان، القاهرة ١٩٥٣م.
. السلاوي: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣٥١هـ/ ١٨٩٧م).
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤م.
. ابن سهل: أبو الأصبغ عيسى (ت ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م) الأعلام بنوازل

الأحكام وفقر من سير القضاة والحكام ـ قطعة منه استخرجت من مخطوط حسن حسني عبد الوهاب. نشر القطعة باذن منه فرحات الدشراوي، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم ١٣٣٢.

. ابن سوده: عبد السلام ـ دليل مؤرخ المغرب الأقصى ط٢ في جزئين ـ الدار البيضاء ١٩٦٠.

. السيوطي (جلال الدين) تاريخ الخلفاء. القاهرة ١٩٦٤، حسن المحاضرة. القاهرة ١٨٨١.

. ابن شاذان (الفضل) الإيضاح. بيروت ١٩٨٢.

. ابن ابي شبة (عمر) تاريخ المدينة. المدينة ١٢٩٣هـ.

. الشهرستاني (محمد) الملل والنحل. القاهرة ١٩٤٨.

. الصابئ (هلال بن المحسن) تحفة الأمراء. القاهرة ١٩٥٨.

. ابن صاحب الصلاة: عبد الملك (٥٩٤هـ/ ١١٠٢م).

ـ تاريخ المن بالامامة على المستضعفين، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي.

. الصولي (أبو بكر محمد) الأوراق. القاهرة ١٩٣٥.

. ابن الصَّيرفي: (تاج الرِّئاسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان) المتوفي سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٨م. «القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة»، حققهما وكتب مقدمتهما وحواشيهما ووضع فهارسهما أيمن فؤاد سيِّد، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠.

. الضَّبِّي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) المتوفي سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) «بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس»، مجريط ١٨٨٤.

. طالبي محمد: دكتور: تراجم أغلبية ـ مستخرجة من ترتيب المدارك لعياض، تونس ١٩٦٨. الدولة الأغلبية ـ تعريب المنجي الصيادي ـ ط. بيروت ١٩٨٥.

. ابن طباطبا: فخر الدين محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣١٠م. الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية.
. ابن طاووس (أحمد بن موسى) بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية. عمان ١٩٨٥.
. ابن طاووس (علي بن موس) الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر. بيروت ١٩٨٧.
. ابن طباطبا (ابن الطقطقي محمد بن علي) الفخري في الآداب السلطانية. بيروت ١٩٦٦.
. الطبرسي (أبو منصور أحمد بن علي) الاحتجاج. بيروت ١٩٨٣.
. الطبري (محب الدين أحمد بن عبد الله) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربي. بيروت ١٩٨١.
. الطبري (علي بن ربن) الدين والدولة. بيروت ١٩٧٩.
. الطبري (أبو الفضل علي) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار. النجف ١٩٦٥.
. الطبري (محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك. القاهرة (دار المعارف) تفسير الطبري. بيروت (دار الفكر).
. الطبري (محمد بن جرير بن رستم) دلائل الامامة. النجف ١٩٦٣.
. الطرطوشي: أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ/١١٣٥م) الحوادث والبدع. تحقيق محمد الطالبي. تونس ١٩٥٩م.
ـ سراج الملوك. تحقيقي جعفر البياتي. لندن (د.ت).
. الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن) الفهرست. بيروت ١٩٨٣. رجال الطوسي. النجف ١٩٦١. أمالي الطوسي. بيروت ١٩٨١.
. الطوفي (نجم الدين البغدادي) الانتصارات الاسلامية. القاهرة ١٩٨٣.

. ابن طولون (محمد) الأئمة الاثني عشر. بيروت ١٩٥٨.
. ابن الطُّوَيْر (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن الفِهْري القيسراني) المتوفى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م.
- نُزهة المقلتين في أخبار الدولتين، أعاد بناءه وحققه وقدّم له أيمن فؤاد سيد، النشرات الإسلامية ـ ٣٩، شتوتجارت ١٩٩٢.
. ابن ظافر (جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدي) المتوفى سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م. «أخبار الدّول المنقطعة»، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدّمة وتعقيب أندريه فرّيه، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٢.
. العاملي:
- الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة. تحقيق محمود علي مكي. ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، مصر الجديدة، نوفمبر ١٩٧٨م.
. ابن عباد (الصاحب اسماعيل) نصرة مذاهب الزيدية. بغداد ١٩٧٧.
. عباس (احسان) عهد أردشير. بيروت (دار صادر).
. العباس العلوي (علي بن محمد) سيرة الهادي الى الحق. بيروت ١٩٧٢.
. ابن عبد الحق (صفي الدين عبد المؤمن) مراصد الاطلاع. القاهرة ١٩٥٥.
. ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن) فتوح مصر وأخبارها. ليدن ١٩٢٠.
. ابن عبد ربه:
- العقد الفريد. تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٥٣م.
. ابن عبد الرفيع:
- معين الحكام على القضايا والأحكام. تحقيق محمد بن قاسم بن عياد، بيروت ١٩٨٨م.

. عبد الوهاب: حسن حسني ت ١٩٦٨. ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية. ٣أجزاء تونس ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦. مجمل تاريخ الأدب التونسي ط٣. تونس ١٩٦٨. خلاصة تاريخ تونس. ط ٣ تونس ١٩٥٣.

. ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي):

ـ ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب. تحقيق ليفي بروفنساك، المعهد العلمي للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥م.

. ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس) تاريخ مختصر الدول. بيروت ١٩٥٨.

. ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد) المتوفى سنة ٦٦٠هـ/١٢١٦م. «بُغيَة الطّلب في تاريخ حلب» ط. دمشق ١٩٨٨. «زُبْدَة الحَلب من تاريخ حلب» ١ ـ ٣، ط. دمشق ١٩٩٨.

ـ ط ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٧١٢هـ/١٣١٢م).

ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثي ميراندا في مجلة هسبيرس ١٩٦١م.

ـ البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب. القسم الثالث. عني بنشره امبروسي هويس مراندة، محمد بن تاويت، محمد إبراهيم الكتاني. تطوان ١٩٦٠م.

. ابن العربي: أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م). العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (ص) القاهرة ١٣٧١ الجزائر ١٩٧٢.

ـ الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض ٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ/ ١٠٨٣ ــ ١١٤٩م. تحقيق ماهر جرار، دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٨٢م.

. العروضي (النظامي) جهار مقاله. القاهرة ١٩٤٩.

. العزيزي الجوذري: أبو علي منصور ق ٤هـ ــ ١٠م. سيرة الأستاذ

جوذر ـ تحقيق ونشر محمد عبد الهادي شعيرة، وكامل حسين دار الفكر القاهرة ١٩٥٤.

ـ **ابن عساكر** (علي بن الحسن) تاريخ دمشق (المجلدة الأولى). دمشق ١٩٥١. تبين كذب المفتري. دمشق ١٣٩٩.

ـ **العسكري** (جعفر بن محمد) المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنة والامامية. بيروت ١٩٧٧.

ـ **العسكري** (أبو هلال الحسن بن عبد الله) الأوائل. دمشق ١٩٧٥.

ـ **العظيمي** (محمد بن علي) تاريخ العظيمي (نشر بعنوان تاريخ حلب). دمشق ١٩٨٥.

ـ **العلوي** (يحيى بن حمزة) الأفحام لأفئدة الباطنية الطغام. الإسكندرية (منشأة المعارف).

ـ **ابن علي** (القاسم بن محمد) كتاب الأساس لعقائد الأكياس. بيروت ١٩٨٠.

ـ **ابن علي** (يحيى بن الحسين) ت ١١٠٠ هـ/١٦٨٨ ـ ١٩٨٦م. غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ـ تحقيق ونشر سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٦٨م.

ـ **ابن العماد** (عبد الحي) شذرات الذهب. القاهرة ١٩٣٢.

ـ **ابن العماد الحنبلي** أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨ ـــ ١٦٧٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ القاهرة ١٩٥١م.

ـ **ابن العميد** (جرجس) تاريخ المسلمين. ليدن ١٦٢٥.

ـ **الغزالي** (أبو حامد) فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة. القاهرة ١٩٦١. فضائح الباطنية. القاهرة ١٩٦٤. قواصم الباطنية. استانبول ١٩٥٤. التبر المسبوك. القاهرة ١٩٦٨. احياء علوم الدين. بيروت (دار الفكر). مشكاة الأنوار. القاهرة. تهافت الفلاسفة. القاهرة.

- ابن غازي العثماني: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المكناسي ت ٩١٩ هـ/١٥١٣ ـ ١٥١٤م. الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ـ تحقيق ونشر عبد الوهاب ابن منصور ـ الرباط ١٩٦٤.
- الغبريني: أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله ت ٧١٤ هـ/ ١٣١٤ ـ ١٣١٥م. عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية. تحقيق ونشر ابن شنب الجزائر ١٩١٠ ط٢. بيروت ١٩٧١.
- ابن فاتك (المبشر) مختار الحكم ومحاسن الكلم. بيروت ١٩٨٠.
- الفارقي (ابن الأزرق) تاريخ الفارقي. القاهرة ١٩٥٩.
- أبو الفداء (اسماعيل بن محمد) تقويم البلدان. باريس ١٧٤٠. المختصر في أخبار البشر. استانبول ١٨٦٩.
- ابن فرحون اليعمري: أبو الوفاء ابراهيم بن علي بن محمد ـ ٧٩٩هـ ـ ١٣٦٩ ـ ١٣٩٧م. الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب. ط١، السعادة. القاهرة ١٣٢٩ هـ.
- الفردوسي (أبو القاسم) الشاهنامه. القاهرة ١٩٣٢.
- ابن الفقيه الهمداني: أبو بكر أحمد بن محمد ـ ت بعد ٢٩٠هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٣م. مختصر كتاب البلدان ـ المكتبة الجغرافي ط ابريل ـ ليدن ١٩٦٧.
- ابن قتيبة (أبو محمد بن عبد الله) المعارف. القاهرة ١٣٠٠. عيون الأخبار. القاهرة ١٩٦٣. الامامة والسياسة (ينسب له). القاهرة ١٩٦٣.
- القرشي (الداعي ادريس) عيون الأخبار وفنون الآثار. بيروت ١٩٧٣ ـ ١٩٨٤.
- القرشي (يحيى بن آدم) كتاب الخراج. القاهرة ١٣٤٧ هـ.
- القرشي:
- معالم القربة في أحكام الحسبة. تحقيق محمد محمود شعبان ـ صديق حمد ـ عيسى المطيعي. الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٦م.

. القرطبي: عريب بن سعد ـ كان موجودا سنة ٣٣١هـ ـ ٩٤٢ ـ ٩٤٣م. صلة تاريخ الطبري ـ وهو الجزء ١٢ من كتاب تاريخ الأمم للطبري ـ ط. دار القاموس ـ بيروت.
. القرمطي (الداعي عبدان) كتاب شجرة اليقين. بيروت ١٩٨٢.
. ابن قزمان: ديوان ابن قزمان. فكور نيطي، المعهد العربي للثقافة، مدريد ١٩٨٠م.
. القزويني (زكريا بن محمد) آثر البلاد وأخبار العباد. بيروت ١٩٦٠.
. القزويني (أبو جعفر عمر) مختصر شعب الايمان. القاهرة مطبة الامام.
. ابن القطان: أبو الحسن علي بن محمد الكناني القاسي (ت ٦٣٨هـ/١٢٣٠م). نظم الجمان في أخبار الزمان. تحقيق محمود مكي، الرباط ١٩٦٤م، بيروت ١٩٩٠م.
. القفطي:
ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦هـ.
. ابن القلانسي:
ـ تاريخ دمشق. تحقيق د. سهيل زكار. دمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
. القلقشندي (أحمد بن علي) صبح الأعشى. القاهرة ١٣٣٨. مآثر الأنافة. الكويت ١٩٦٤.
. القمي (سعد) المقالات والفرق. طهران ١٩٦٣.
. القمي (محمد بن علي بن بابويه) الخصال. قم ١٤٠٣هـ. من لا يحضر الفقيه. قم ١٤٠٤هـ. عيون أخبار الرضا. بيروت ١٩٨٤. كمال الين وتمام النعمة. قم ١٤٠٥. معاني الأخبار. قم ١٣٤١.
. القيرواني (أبو العرب محمد) طبقات علماء افريقية وتونس. تونس ١٩٦٨. المحن. بيروت (دار الغرب).
. ابن كثير (اسماعيل) البداية والنهاية. القاهرة ١٩٣٢.

. ابن الكردبوس:
- كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ـ القسم الخاص بالأندلس، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد ١٩٧١م.
. الكرماني (أحمد حميد الدين) راحة العقل. بيروت ١٩٦٧. مجموعة رسائل الكرماني. بيروت ١٩٨٣. الأقوال الذهبية. بيروت ١٩٧٧. المصابيح في إثبات الإمامة. بيروت ١٩٦٩.
. الكشي (محمد بن عمرو) رجال الكشي. كربلاء.
. الكليني (محمد بن يعقوب) الأصول من الكافي. بيروت ١٤٠١هـ.
. ليفي بروفنسال:
- مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية. الرباط ١٩٤١م.
. ابن ماكولا (أبو نصر علي) الاكمال. حيدر أباد ١٩٦٢.
. المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢١٥٣. الجزء الأول، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١. صدر الكتاب بأجزائه الثلاثة عن دار الغرب الإسلامي، تحقيق البشير البكوش ومراجعة محمد العروسي المطوي، بيروت ١٩٨٣.
. الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (٤٥٠هـ/ ١٩٥٧م). الأحكام السلطانية والولايات الدينية. تصحيح الغساني، القاهرة ١٩٠٩م.
- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت ١٩٨٧م.
. المبرد (أبو العباس) الكامل في الأدب. القاهرة ١٩٢٧.
. المتنبي (أبو الطيب أحمد) الديوان. القاهرة ١٩٤٤.

- **المجلسي** (محمد باقر) بحار الأنوار. بيروت ١٩٨٣. مرآة العقول. طهران ١٤٠٢هـ.
- **مجهول** . (دي غويه) العيون والحدائق. ليدن ١٨٦٩ ـ دمشق ١٩٧٤.
- مجهول، أخبار الدولة العباسية. بيروت ١٩٧١.
- مجهول (من القرن الحادي عشر) تاريخ الخلفاء. موسكو ١٩٦٦.
- **مجهول:**
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الجزائر ١٩٢٠م، مؤلف مجهول.
- كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس. تحقيق أمبروزيو أويثي ميراندا، مدريد ١٩٦٥م.
- **مجهول:** مقتطفات من مجموع تم وضعه سنة ١٣١٢/٧١٢ يحمل عنوان: كتاب مفاخر البربر، الرباط ١٩٣٤.
- **مجهول:** الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. حققه د. سهيل زكار. أ. عبد القادر زمامة. الدار البيضاء ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- **المجيلدي:**
- كتاب التيسير في أحكام التسعير. تحقيق موسى لقبال، الجزائر ١٩٨٢م.
- **ابن محمد الوليد** (علي) تاج العقائد ومعدن الفوائد. بيروت ١٩٦٧. الذخيرة في الحقيقة. بيروت ١٩٧١.
- **ابن المرتضى** (أحمد بن يحيى) المنية والأمل في شرح الملل والنحل. بيروت ١٩٧٩.
- **المراكشي**: ابن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٤م).
- النيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. السفرين الرابع والخامس. تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت ١٩٦٤م.

. المراكشي: عبد الواحد (كان حيا في الربع الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي).
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة ١٩٤٩م.
. ابن مرزوق (أبو عبد الله محمد) مقدمة المسند الصحيح الحسن. دمشق ١٩٨٠.
. ابن مسافر (عدي) اعتقاد أهل السنة والجماعة. بغداد ١٩٧٥.
. المسبحي (محمد بن عبيد الله) أخبار مصر (قطعة منه). القاهرة ١٩٨٠.
. المسعودي (أبو الحسن علي) مروج الذهب ومعادن الجوهر. القاهرة التنبيه والاشراف. القاهرة ١٩٣٨.
. مسكويه (أحمد بن محمد) تجارب الأمم وذيله. القاهرة ١٩١٤.
. المعري (أبو العلاء أحمد) رسالة الغفران. بيروت (دار صادر).
. ابن المعمار (أبو عبد الله محمد) كتاب الفتوة. بغداد ١٩٦٠.
. المقدسي (محمد بن أحمد) أحسن التقاسيم. ليدن ١٩٠٦.
. المقدسي (يوسف بن يحيى) عقد الدرر في أخبار المنتظر. القاهرة ١٩٧٩.
. مقديش:
- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار تحقيق علي الزواوي. محمد محفوظ، بيروت ١٩٨٨م.
. المقري: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م).
- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت.

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد اعراب. المحمدية ١٩٨٠م.
- **المقريزي**: تقي الدين أحمد بن علي - ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م. أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - ج١، تحقيق ونشر جمال الدين الشيال ١٩٦٧، وج٢، تحقيق ونشر محمد علي حلمي، تحت رعاية لجنة احياء التراث الاسلامي ــ القاهرة ١٩٧١. الخطوط. ط، حديثة في مجلدين ــ مصورة ثم ط، القاهرة ١٣٢٥هـ. البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب - تحقيق ونشر عبد المجيد عابدين - القاهرة ١٩٦١. شذوز العقود في ذكر النقود - نشر تشن. إغاثة الأمة بكشف الغمة - ط دار ابن الوليد حمص - سوريا ١٩٦٥.
- «المُقفّي الكبير»، مخطوطة برتف باشا بالسليمانية رقم ٤٩٦، مخطوطة باريس رقم ٢١٤٤، مخطوطة ليدن (١ ــ ٣) رقم ١٣٦٦. وتراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية من كتاب المقفي الكبير، اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧.
- **ابن المقفع** (ساويرس) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية - القاهرة ١٩٥٩.
- **المكناسي**:
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس. الرباط ١٩٧٣م.
- **الملزوزي** (عبد العزيز) نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك ــ الرباط ١٩٦٣.
- **الملطي** (محمد بن أحمد) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع. بغداد ١٩٦٨.
- **ابن منبه** (وهب) التيجان في ملوك حمير. حيدر أباد ١٣٤٧هـ.

- ابن منجب الصيرفي: أمين الدين تاج الرئاسة أبو القاسم علي (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م). الإشارة إلى من نال الوزارة - ١ - القاهرة ١٩٢٤.
- ابن منصور (جعفر) الكشف. بيروت ١٩٨٤. سرائر وأسرار النطقاء. بيروت ١٩٨٤.
- المنقري (نصر بن مزاحم) وقعة صفين. القاهرة ١٣٦٥.
- المؤيد في الدين (هبة الله بن موس) سيرة المؤيد في الدين. القاهرة ١٩٤٩، المجالس المؤيدية. القاهرة ١٩٧٦، ديوان المؤيد في الدين. القاهرة ١٩٤٩.
- ابن ميسر (محمد بن علي) أخبار مصر. القاهرة ١٩١٩.
- الناشئ الأكبر: مسائل الامامة. بيروت ١٩١٩.
- النباهي:
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. القاهرة.
- النجفي (محمد حسن) جواهر الكلام. بيروت ١٩٨١.
- النديم (أبو الفرج محمد) الفهرس. طهران ١٩٧١.
- ابن النعمان (الشيخ المفيد محمد بن محمد) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات. بيروت ١٩٨٣، الارشاد. بيروت ١٩٧٩.
- النوبختي (الحسن بن موسى) كتاب فرق الشيعة. استانبول ١٩٣١.
- النويري (شهاب الدين أحمد) نهاية الأرب في فنون الأدب. القاهرة ١٩٢٣.
- النيسابوري (أحمد بن إبراهيم) كتاب أثبات الامامة. بيروت ١٩٨٤.
- النيسابوري (أحمد بن إبراهيم) كان يعيش في أواخر القرن الرابع/ العاشر. «استتار الإمام عليه السلام وتفرّق الدعاة في الجزائر لطلبه»، نشره. ايفانوف في مقاله «مذاكرات في حركة المهدي الفاطمي»، مجلة كلية الأداب - الجامعة المصرية جـ ٤ (١٩٣٦) ص ٩٣ - ١٠٧.

. ابن هانيء الأندلسي (محمد) الديوان. بيروت ١٩٥٢.

. ابن هشام (عبد الملك) السيرة النبوية. القاهرة ١٩٥٥.

. الهمداني (القاضي عبد الجبار بن أحمد) تثبيت دلائل النبوة. بيروت ١٩٦٦، فرق وطبقات المعتزلة. الاسكندرية ١٩٧٢، المغني في أبواب التوحيد والعدل. القاهرة ـ المؤسسة العامة للتأليف والنشر.

. ابن واصل الحموي (محمد بن سالم) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. القاهرة ١٩٥٣.

. الواقدي (محمد بن محمد) كتاب المغازي. اكشفورد ١٩٦٧.

. ابن الوليد (علي) كتاب الذخيرة في الحقيقة. بيروت ١٩٧١.

. الونشريسي:

ـ المعيار المعرب والجماع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب. نشر وزارة الأوقاف. المملكة المغربية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

. اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليمني ـ ت ٧٦٨/ ١٣٣٦ ـ ١٣٦٧م.

. اليحصبي: عياض ـ القاضي أبو الفضل السبتي (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. ٤ أجزاء في مجلدين نشر وتحقيق أحمد باكير محمود ـ بيروت ١٩٦٧ ومنه استخرج محمد طالبي كتاب «تراجم أغلبية».

. ابن يحيى (أبو مخنف لوط) مقتل الحسين. بيروت ١٩٨٣.

. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) تاريخ اليعقوبي. بيروت ١٩٦٠، البلدان ط. النجف ١٩٥٧.

. اليماني (محمد بن محمد) كان موجوداً في أواخر القرن ٤هـ/ ١٠م. سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج بن علي وخروج المهدي من سلمية

ووصوله إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقادة ـ تحقيق ونشر أيفانوف مجلة كلية الأداب ـ القاهرة مجلد ٤، ج١ مارس ١٩٣٦.
ـ اليمني: نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م): النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ج١، تحقيق ونشر درنبورغ ـ باريس ١٨٩٧.
ـ **أبو يوسف القاضي** (يعقوب) كتاب الخراج. القاهرة ١٣٨٢.
ـ **اليوسي** (أبو الحسن علي) المحاضرات. الرباط ١٩٧٦، رسائل أبي علي اليوسي. الدار البيضاء ١٩٨١.

ب - المراجع الثانوية

- ارسلان (شكيب) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، جـزآن، القاهرة ١٩٣٦م. تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجـزر البحر المتوسط. القاهرة (عيسى البابي الحلبي وشركاه).
- أرنولد (توماس) الخلافة ـ دمشـق (دار اليقظـة). الدعـوة الـى الاسـلام. القاهرة ١٩٥٧. تراث الإسلام. بيروت (دار الطليعة).
- اسماعيل (محمود) مغربيات ـ فـاس ١٩٩٧. الحركـات السـرية فـي الاسلام. فاس ١٩٧٧.
- اشباخ (يوسف) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحديـن. جـزآن. ترجمة محمد عبد الله عنان. القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١م.
- اعراب (سعيد) مع القاضي أبي بكر بن العربي. بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الأفغاني (سعيد) أسـواق العـرب. دمشـق ١٩٣٧. عائشـة والسياسـة. بيروت ١٩٧١.

. الياد (ميرسيا) تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية. دمشق ١٩٨٧. رمزية الطقس والأسطورة. دمشق ١٩٨٧.
. اماري ميشيل:
ـ المكتبة العربية الصقلية، ليبزغ ١٨٧٥م.
. أمير (علي) مختصر تاريخ العرب. القاهرة ١٩٣٨.
. امين (أحمد) ظهر الاسلام ـ فجر الاسلام ـ ضحى الاسلام. بيروت (بدون تاريخ).
. امين (أحمد وزكي نجيب محمود) قصة الفلسفة اليونانية. القاهرة.
. امين (حسين) تاريخ العراق في العصر السلجوقي. بغداد ١٩٦٥.
. الأمين (محسن) أعيان الشيعة. بيروت ١٩٨٣.
. ايماني (مهدي الفقيه) الامام المهدي عند أهل السنة. أصبهان ١٤٠٢هـ.
. الباروني (سليمان الطرابلسي) مختصر تاريخ الاباضية. تونس ١٩٣٨.
. الباشا (حسن) الألقاب الإسلامية. القاهرة ١٩٥٧.
. البتنوني (محمد لبيب) رحلة الأندلس. ترجمة محمود عبد العزيز سالم، القاهرة.
. بحر العلوم (محمد المهدي) رجال السيد بحر العام. طهران ١٣٦٣هـ.
. البحراني (هاشم) المحجة فيما نزل في القائم الحجة. بيروت ١٩٨٣.
. بدج (ولس) الديانة الفرعونية. دمشق ١٩٨٧م.
. بدوي (عبد الرحمن) مذاهب الاسلاميين. بيروت. خريف الفكر اليوناني. القاهرة. ربيع الفكر اليوناني. القاهرة. أفلوطين عند العرب. بيروت. دور العرب في تكوين الفكر الأوربي. الكويت. التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية. القاهرة ١٩٤٦,
. برستد (جيمس هنري) انتصار الحضارة. القاهرة.

. بروكلمان (كارل) تاريخ الأدب العربي. القاهرة. تاريخ الشعوب الاسلامية. بيروت ١٩٤٨.

. بشور (وديع) الميثولوجيا السورية. دمشق ١٩٨١.

. البعلي (فؤاد) فلسفة اخوان الصفا الاجتماعية والأخلاقية. بغداد ١٩٥٨م.

. بوكاي (موريس) دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة. القاهرة.

. بيضون (ابراهيم) سليمان بن صرد الخزاعي. بيروت ١٩٧٤.

. تامر (عارف) ثلاث رسائل اسماعيلية. بيروت ١٩٨٣. أربع رسائل اسماعيلية. بيروت ١٩٨٧.

. الجارم (محمد) أديان العرب في الجاهلية. القاهرة ١٩٢٣.

. جب (هاملتون) دراسات في حضارة الاسلام. بيروت ١٩٦٤.

. جوزي (بندلي) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام. بيروت (دار الروائع).

. حتي (فيليب) تاريخ العرب. بيروت. تاريخ سورية ولبنان. بيروت.

. حسن (ابراهيم حسن) تاريخ الإسلام السياسي. القاهرة ١٩٥٩. النظم الاسلامية. القاهرة ١٩٦٢. المعز لدين الله. القاهرة ١٩٦٤.

. حسن (سعد محمد) المهدية في الاسلام. القاهرة ١٩٥٣.

. حسن (علي ابراهيم) تاريخ جوهر الصقلبي. القاهرة.

. الحسني (عبد الرزاق) الصابئون. بغداد ١٩٨٣، اليزيديون. صيدا ١٩٦٨.

. الحسني (هاشم معروف) سيرة الأئمة الاثني عشر. بيروت ١٩٨١.

. حسين (طه) باشرافه تعريف القدماء بأبي العلاء. القاهرة ١٩٦٥.

. حركات . ابراهيم:
ـ مادة المدراريون في الموسوعة الاسلامية. استانبول ١٩٨٨.
ـ برغواطه في المعلمة المغربية ص ١١٦٥ ـ ١١٧٠.
ـ المغرب عبر التاريخ ـ الدار البيضاء.
. حميد الله (محمد) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي. بيروت.
. الحوت (محمد سليم) الميثولوجيا عند العرب. بيروت ١٩٨٣.
. حيدر (أسعد) الامام الصادق والمذاهب الأربعة. بيروت ١٩٨٣.
. خالد (غسان) أفلوطين رائد الوحدانية. بيروت ١٩٨٣.
. خان (محمد عبد المعيد) الأساطير والخرافات عند العرب. بيروت ١٩٨١.
. الخربوطلي (علي حسني) المختار الثقفي. القاهرة ١٩٦٢.
. خرطبيل (سامي) أسورة الحلاج. بيروت ١٩٧٩.
. الخضري (محمد) محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية. القاهرة ١٩٦٦.
. الخليفة (عبد الله بن خالد) البحرين عبر التاريخ. بيروت ١٩٦٩.
. خليل (خليل) مضمون الأسطورة في الفكر العربي. بيروت ١٩٧٣.
. خليل (عماد الدين) معالم الانقلاب الاسلامي في حياة عمر بن عبدالعزيز. بيروت الدار العلمية.
. داود (جرجس داود) أديان العرب قبل الاسلام. بيروت ١٩٨١.
. داود (عبد الأحد) محمد في الكتاب المقدس. قطر ١٩٨٥.
. درولف (فلهلم) صلة القرآن باليهودية والمسيحية. بيروت ١٩٧٤.
. دراوود (الليدي) الصائبة المندائيون. بغداد ١٩٦٩. أساطير وحكايات شعبية صائبية. بغداد.
. الدشراوي (فرحات) الخلافة الفاطمية بالمغرب بيروت ١٩٩٤.
. الدوري (عبد العزيز) العصر العباسي الأول. بغداد. دراسات في العصور العباسية المتأخرة. بغداد. مقدمة في تاريخ صدر الإسلام. بيروت.

الجذور التاريخية للشعوبية. بيروت ١٩٦٢. مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي. بيروت ١٩٦٨.
. دي غويه (مايكل) القرامطة. بيروت ١٩٨٧.
. رايلي (كافين) الغرب والعالم. الكويت سلسلة عالم المعرفة (٩٠، ٩٧) ١٩٨٤.
. رينو (جوزيف) الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا. بيروت ١٩٨٤.
. الزركلي (خير الدين) الأعلام. بيروت ١٩٦٩.
. زكار (سهيل) تاريخ العرب والإسلام. بيروت ١٩٧٤. مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية. دمشق ١٩٧٢. تاريخ أخبار القرامطة. بيروت ١٩٧١. التأريخ عند العرب. دمشق ١٩٧٤. ماني والمانوية. دمشق ١٩٨٥. يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية للاسلام في العصور الوسطى. بيروت ١٩٨٨. يهود الخزر. بيروت ١٩٨٧. الجامع في أخبار القرامطة ـ دمشق ١٩٧٨..
. الزهيري (عبد الفتاح) تاريخ الصابئة المندائيين. بغداد ١٩٨٣.
. زيد (علي محمد) معتزلة اليمن (دولة الهادي وفكره). بيروت ١٩٨١.
. ابن أبي زينب (محمد بن ابراهيم) كتاب الغيبة. بيروت ١٩٨٣.
. سارتون (جورج) تاريخ العلم. القاهرة.
. سالم (سحر عبد العزيز سالم) مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٩٠.
. سالم (عبد العزيز السيد سالم) محمد أبو الفضل. تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية. الاسكندرية ١٩٨١م.
. شرارة (عبد اللطيف) أبو الوليد ابن زيدون. بيروت ١٩٨٨م.
. سبانو (أحمد غسان) هرمس الحكيم. دمشق ١٩٨٢.

. السبيتي (عبد الله) عمار بن ياسر. بيروت ١٩٤٨. سلمان الفارسي. بيروت ١٩٨٤.

. سلام (حوريه عبده) النظام المالي في مصر زمن الفاطميين. القاهرة ١٩٨٠

. ابن سيرين (حامد) مصار العقيدة الدرزية. لبنان ـ ديار عقل ١٩٨٥.

. شرف (محمد جلال) نشأة الفكر السياسي وتطوره في الاسلام. بيروت ١٩٨٢.

. الشكعة الأدب الأندلسي. بيروت ١٩٧٢م.

. شلبي (أحمد) مقارنة الأديان. القاهرة ١٩٦٤.

. شمس الدين (محمد مهدي) أنصار الحسين. بيروت ١٩٧٥.

. الشيبي (مصطفى) الصلة بين التصوف والتشيع. القاهرة (دار المعارف).

. الشيخ (محمد محمد مرسي) دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي. الاسكندرية ١٩٩٠.

. صالح (أحمد عباس) اليمين واليسار في الاسلام. بيروت ١٩٧٠.

. الصالح (مرمول محمد) السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي. الجزائر ١٩٨٣.

. صبحي (أحمد محمود) في علم الكلام (المعتزلة والاشاعرة). الاسكندرية ١٩٨٢ نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية. القاهرة (دار المعارف).

. طارو (جان وجيروم):

ـ أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب. ترجمة أحمد بلا فريج ومحمد الفاسي. الرباط ١٣٤٩هـ.

. الطباطبائي (محمد حسين) الشيعة في الإسلام. بيروت (دار المعارف).

- الطنجي (محمد بن تاويت) دولة بنـــي رستم، صحيفـة المعهـد المصـري للدراسات الإسلامية، مجلد ٥، العدوان ١ ، ٢ مدريد، ١٩٥٧.
- الطهراني (اغابزرك) طبقات أعلام الشـيعة. بـيروت ١٩٧٥. الذريعـة الـى تصانيف الشيعة. بيروت ١٩٨٣.
- العبـادي، أحمـد مختـار، سياسـة الفـاطميين نحـو المغــرب والأندلـس، صحيفة المعهد المصري للدراسـات الإسـلامية، المجلـد ٥، العـددان ١ و٢ مدريد، ١٩٥٧ (١٩٣ ـ ٢٢٦).
- دراسات في تاريخ المغـرب والأندلس. الإسـكندرية ١٩٦٨م. الصقالبـة فــي إسـبانيا، مدريـد ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م. صــور وبحــوث مــن التــاريخ الإسلامي، القاهرة ١٩٥٣م.
- عبد الحميد (سعد زغلول) تاريخ المغرب العربي. القاهرة ١٩٥٦.
- عبد الوهاب (حسن حسني) خلاصة تاريخ تونس ١٣٧٣.
- العـروى (عبـد اللـه) تـاريخ المغـرب، ترجمـة ذوقـان قرقــوط، بــيروت، ١٩٧٧.
- العزيز (حسين قاسم) البابكية. بيروت ١٩٦٦.
- عطوان (حسين) الفرق الإسلامية فــي بـلاد الشـام فــي العصـر الأمـوي. بيروت ١٩٨٦. الجغرافية التاريخية لبلاد الشام. بيروت ١٩٨٧.
- علي (جواد) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. بغداد ١٩٥٠.
- العلي (صالح) التنظيمات الاجتماعية في البصرة. بيروت (دار الطليعة). تنظيمات الرسول الادارية. بغداد ١٩٦٩.
- عمر (فاروق) طبيعة الدعوة العباسية. بيروت ١٩٧٠ العباسـيون الأوائـل. بيروت ـ دمشق.
- عنان (عبد الله) الحاكم بأمر الله. القاهرة ١٩٥٩.
- غالب (مصطفى) تاريخ الدعوة الإسماعيلية. دمشق (دار اليقظـة). أربـع

كتب حقانية. بيروت ١٩٨٣. الامامة وقائم القيامة. بيروت ١٩٨١. سنان راشد الدين. بيروت ١٩٦٧.
- **غنيم** (اسمت) الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ـ جدة ١٩٧٧.
- **فازلييف** (العرب والروم) القاهرة. دار الفكر العربي.
- **فلهوزن** (يوليوس). الدولة العربية. القاهرة ١٩٥٨. الخوارج والشيعة. القاهرة ١٩٥٣.
- **فلوتن** (فان) السيادة العربية والشيعة. القاهرة ١٩٦٥ ـ بيروت ١٩٧٩.
- **فيشل**: ولترج يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى ـ بيروت ١٩٨٨.
- **القاسمي** (ظافر) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ. بيروت ١٩٧٤.
- **القاضي** (وداد) الكيسانية في التاريخ والأدب. بيروت ١٩٧٤.
- القاضي النعمان ومؤلفاته، ملتقى القاضي النعمان، المهدية، ١٩٧٧.
- **قربه** (صالح بن) المسكوكات المغربية. الجزائر ١٩٨٦.
- **كاشف**: سيدة اسماعيل ـ دكتورة: مصر في عهد الأخشيديين، القاهرة ١٩٥٠.
- **آل كاشف الغطاء** (محمد الحسين) أصل الشيعة وأصولها. بيروت.
- **كحيلة**: عبادة عبد الرحمن البحريون الأندلسيون والوجود الإسلامي في إقليم بروفانس ـ رؤية جديدة المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد ١٩٥٥/٣٨.
- **كول** (ماك) الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة. الدار البيضاء (دار الثقافة).
- **كونل**: أرنست. الفن الإسلامي. ترجمة أحمد موسى، بيروت ١٩٦٦م.
- **لقبال** (موسى) الحسبة المذهبية في بلاد المغرب. نشأتها وتطورها. الجزائر ١٩٧١. دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية الجزائر ١٩٧٩.

. لويس: ارشيبالد. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. ترجمة محمد أحمد عيسى.

. لويس (برنارد) أصول الإسماعيلية. بغداد ١٩٤٧. الدعوة الإسماعيلية الجديدة. بيروت ١٩٧٢.

. ماجد (عبد المنعم) الحاكم بأمر الله. القاهرة ١٩٥٩. السجلات المستنصرية. القاهرة ١٩٥٤.

. مارسيه: جورج بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى ـ ترجمة محمود عبد الصمد هيكل الاسكندرية ١٩٧٧.

. محمود (إبراهيم المفيفي) بنوزيري وعلاقتهم السياسية بالقوى الإسلامية في حوض البحر المتوسط. القاهرة ١٩٨٩.

. محمود (حسن أحمد محود) قيام دولة المرابطين. القاهرة ١٩٥٧م.

. محمود (منى حسن) المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة. القاهرة ١٩٨٦.

. محمود (سلام شافعي) أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول القاهرة ١٩٩٥.

. مخلوف (محمد) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. القاهرة ١٣٥٠هـ.

. المدني (توفيق) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ط. الجزائر ١٩٣٤م ط ٢. صقلية ١٩٧٠.

. مرحبا (محمد عبد الرحمن) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية. بيروت.

. مصطفى (شاكر) دولة بني العباس. الكويت ١٩٧٤.

. معروف (نايف) الخوارج في العصر الأموي. بيروت ١٩٧٧.

. مكارم (سامي نسيب) أضواء على مسلك التوحيد. بيروت ١٩٦٦.

- **المناوي** (محمد حمدي) الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي القاهرة ـ دار المعارف.
- **ابن منصور** (عبد الوهاب) قبائل المغرب ج ١ ـ الرباط ١٩٦٨.
- **مورنكات** (أنطون) تموز عقيدة الخلود والتقمص في فن الشرق القديم. بيروت ١٩٨٥.
- **مؤنس** (حسين) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. القاهرة ١٩٨٦م.
- **ميديكو** (هـ.ا.ديل) التوراة الكنعانية. دمشق ١٩٨٨.
- **الناشيء** (غضبان رومي عكله) الصابئة. بغداد ١٩٨٣.
- **نعناعة** (رمزي) الإسرائيليات. بيروت ١٩٧٠.
- **هوبكنز** (ج ف. ب) النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى. ترجمة أمين توفيق الطيبي. ليبيا ١٩٨٠.
- **هوك** (س.هـ) ديانة بابل وآشور. دمشق ١٩٨٧.
- **ولفنسون** (إسرائيل) موسى بن ميمون. القاهرة ١٩٣٦.
- **ياسين** (أنور ورفاقه) بين العقل والنبي. باريس ١٩٨٤.

بعض المصادر غير العربية

ج - بعض المراجع غير العربية

-**Anonymous** Geographer Hudud Al-Alam, English Translation London 1937.

-**Atiya** (Aziz). The crusade, Historiography and Bibliography oxford 1962.

-**Belyaev** (E.A.). Arabs, Islam and the Arab Caliphate. Jerusalem 1969.

-**Bar Hebreaue** (Abu'L-Faraj son of Aron). Hisory of wold. English translation by ErnestA. WallisBudge oxford 1932.

-**Bosworth** (clifford Edmend)

A- The Ghaznavid. Edinburgh 1963.

B- The Islamic Dynasties Edinburgh 1967.

-**Cahen** (Claude)

A- Mouvements populaise it Atuonomisme urbains dans L'Asie Muslmane du Moyen Age 1,Arabica vol. v. Paris 1958.

B - Pre ottoman Turkey (Eng. trans.) London 1969.

-**Cohn** (Norman). The pursuit of the Millenium London

1970.
- The cambridge History of Iran vol. v. Cambridge 1963.
- Cambridge History of Islam. Cambridge 1970.
- Cambridge Medieval History, vol. IV, Ed. Joan M. Hussey Cambridge 1966-67.
-**Dunlop** (D.M.). The History of the Jewish Khazars. New York 1967.
-**Elissef** (Nikitce) Nur-Ad- Din. Damas 1967.
-Encyclopedia of Islam. New Eden. London 1960.
-**Gabrieli** (Francesco).
A- Muhammad and the conquests of Islam London 1968.
B- Ashort History of the Arab. London 1965.
-**Gibb** Mohemmedanism Oxford 1969.
-**Goitein** .s.d. Anediterranean solioty, vol I. Los Angelos 1967.
-**El-Hajji** (Abdul-Ralhaman) Andalusian Diplomatic Relations with western Europe, during the umayyad period. Beirut 1960.
-**KABIR** (Mafizullah). The Buwayhid Dynasty of Baghdad Calcuta 1964.
-**Lambton** (A.K.S.) Land-lord and peasant in persia. Oxford 1969.
-**Lewis** (Bernard).
A- The Arab in History London 1968.
B- Race an color in Islam London 1971.
-**Mcweill** (w) and scdlar (J) The classical Mediterranean world. Lodon 1969.
-**Nibam** Al-Mulk. The Book of Government English translation by Herbert Drabe London 1960.
-**Omar** (F). The Abbasid caliphate Baghdad 1969. Ostrayosky (D.). History of the Byzantine state, Ingl. trans. J. Hussey Oxford 1968.

-**Partington** (J.R). A History of Greek Fire and Gunpouder Cambridge, 1960.
-**Pearson** (J.D). Index Islamicus Cambridge 1961, 1962, 1967.
-**Psellus** (Michael). Fourteen Bybantine Rulers (Eng. trans. Penguin Ed. London 1966).
-**Rice** (Tamara Tabot). The Sljuks. London 1968.
-**Rosenthal** (E.I.J.) Political Thought in Medieval Islam Cambridge 1962.
-**Rosenthal** (F.). A History of the Muslim Histography Leiden 1968.
-**Segal** (J.B.)Edessa, the blessed city Oxford 1970.
-**Shaban** (M.A.) The Abbasid Revolution Cambridge 1970.
-**SEVIM** (Ali) Suriye selcuklulari Ankara 1956.
-**Le Strange** (Guy).
1- The land of the Eastern Calipthae. London 1966.
2- Palestine Under the Muslim. Beirut 1965.
-**Vasiliev** (A.) History of the Byzantine Empire. Wisconsin 1964.
-**Watt** (M.).
1- Muhammad Prophet and Statesman Oxford 1961.
-**ZAKKAR** (suhayl). The Emirate of Aleppo, 1004-1094. Beirut 1971.
-**Zaehneav** (R.C.) The Dawn and twilight of Zoroastrianism London 1961.